وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الجسد بين اللذة والألم



حنا مينة

دراسات أدبية ٨



الجسـد

بين اللذة والألم



تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

حنا مينـة



الجســـد
بين اللـذة والألـم

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م



الجسد بين اللذة والألم / حنا مينة . - دمشق : الهيئة العامـة الـسورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٤٧٢ ص ؛ ٢٤ سم.

(دراسات أدبية؛ ٨)

٨١٤ م ي ن ج ٢- العنوان ٣- مينة

٥- السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات أدبيـة

«٨»



القسم الأول

في السياسة وأشياء أخرى


الهيئة العامة
السورية للكتاب

لماذا سورية بالذات؟!

هذا بريد الهــوى وافــى بــلا ورقِ ... **يروي ويــسرد عــن أيامنــا العُتُــقِ**

كأنّ وردتــك الحمــراء قــد قطفــت ... **من موسم الورد أومن جنّــة العُتُــقِ**

يا حسنها وهي تروي عــن منازلهــا ... **وطيب ما كان بين الــدور والطــرقِ**

يا وردة في ربيــع الوصــل ناميــة ... **هل أنت كل الذي بعد الحنين بقــي!؟**

كنت في اللاذقية وكان البحر، وقد هاجت بي الذكريات عن اللاذقية وبحرها، يوم كنت، في العواصف الهوج، ألقي بنفسي الى اللجة الزرقاء، وأخرج، كل مرة، كل ليلة، سليماً معافى.. ورغم البرد الشديد، في رأس إحدى السنين الماضيات، نزلت البحر في مسبح جول جمال، في رغبة مبهمة، واسعة القوس، في طرفه الاول الانتحار، وطرفه الثاني الثأر لمركب الطروسي[1]، الذي أخذه البحر غدراً!

وفي «جامعة تشرين» رائعة التصميم، رائعة البنيان، غص المدرج الكبير، وغصت أطرافه، ولم يستطع الكثيرون الدخول، فبقي عدد كبير في الخارج، وقد جاؤوا جميعاً، ليصغوا الى هذا الذي كان حلاقاً، في حي القلعة، ثم غاب وغاب، بين السجون والمنافي، ليعود إليهم، بعد انتظار خمسين عاماً، محاضراً حول تجربته الروائية، وحول الورقة البيضاء، التي هي أفعى بيضاء على مكتبه، إلاّ أنها أقل سماً زعافاً، من أفعى الارهاب المجدولة على أصابع بوش وطغمته، والتي بها يسعى، لإرهاب العالم كله!..

---

(١) الطروسي: بطل روايتي "الشراع والعاصفة".

نعم! كنت جسداً في اللاذقية، وكنت روحاً في دمشق، هذه التي تتقاطع التهديدات، اميركية واسرائيلية، فوقها، ولئن كنت ملتاشاً هناك، فقد كنت واثقاً هنا، بأنّ دمشق تعرف، ماضياً وحاضراً، كيف تقص أجنحة هذه التهديدات، جناحاً بعد جناح، وكيف تحسن التسديد، بالكلمة والرصاصة، الى صدور الأعداء، رغم انها وحدها، من بين كل الدول العربية، مقصودة بذاتها، ولذاتها، لأنّ مشروع الشرق الأوسط الكبير، إذا عبر منها، ولو تهديداً بالسلاح، اجتاح الوطن العربي كله، إلاّ أنّ سورية تقاوم، وبأعنف ما تكون المقاومة، لكونها في المقدمة، وفي الطليعة، نزالاً مع الذين يعرفون تاريخها الكفاحي جيداً، ويعرفون دورها الريادي، ويصرون على استباحة هذا الدور، او اختراقه، لأنه، في الكفاح، كان متراساً، ومتراساً يبقى، ومهما تقلبت الظروف، فإن هذا الدور، في الثورة الكبرى على الاحتلال الفرنسي، قد أثبت أنه على كفاء في الوغى، وعلى صراط مستقيم في المفاداة، وفي تقديم الأضاحي، قرباناً على مذبح الحرية المقدسة، وصولاً الى سدرة المنتهى، وفي شموخها كان لسورية شموخ الدولة العربية الاولى، التي أجلت قوات الاحتلال، ونالت استقلالها في العام ١٩٤٦، فجن الإباء، وجنت الزغاريد، ولم نعد نرى للمحتلين «غدواً أو رواحاً» على أرضها الطهور كلها.

واليوم، كما الأمس وقبله، تدرك سورية أنَّ مشوارها مع الكفاح الطويل، وأنَّ عليها أنْ تصد أعداءها، وأعداء أمتها العربية، عن بلوغ غاياتهم الشريرة، صداً محكما، وهي تفعل ذلك مبادرة، راضية، مرضية، دون خيلاء، دون تشوف، وعملاً بالآية الكريمة: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، فنجعلهم أإمة، ونجعلهم الوارثين» وطوبى للمفادين البواسل، في فلسطين العربية، وفي العراق الشقيق، الذين يشقون صدورهم، يخرجون قلوبهم، ليرفعوها مشاعل تنير الطريق، في الظلمة الحالكة، التي يسعى شارون وبوش، لإسدالها عليهم وعلينا، ظناً منهما أنّ ذلك هو الطريق الأقصر، كيلا نرى، أو نسمع، أو نتحد، أو نناضل، وفي هذا الظن إثم كبير، كشفت لهم الأيام زيفه، وبطلانه، وضلاله، لأننا، في قاموس مقاومة الاحتلالات، لنا سجل مشرق الصفحات، باهر الرؤى، وفي

الديمقراطية لنا سابقة بأننا نعرفها أكثر منهم، ونمارسها فعلاً، بينما يمارسونه هم ختلاً، وما زَعْمُ مكافحة الإرهاب إلا تعلّةٌ سمجة، مكروهة، ممجوجة، مكشوفة، غير قادرة على ستر عورات إرهابهم، الذي يمشي في ركب الغزاة، لا في ركب الذين يقاومونهم بلا هوادة، والعالم كله شاهد على صدقنا وكذبهم!

لقد أردت هذا المقال للغزل، ومن يزعم أنّ النضال ليس هو الغزل الاكبر؟ ومن يجادل أنّ بريد الهوى، في الوردة الحمراء، ليس بريد الذين يزهر الهوى، في راحاتهم، أرجواناً من عَنْدَم؟ ومن لا يعتب على ربيع الوصل الذي انقضى، وكانت فيه للقطوف «من موسم الورد أو جنة العنق»؟ وأيّ حنين أبلغ من حنيني، أنا ابن الثمانين، وهو يسأل الوردة «هل أنت كل الذي بعد الحنين بقي؟!».

قال أبو حيان التوحيدي: «إنني انتعلْتُ الدم!» وهذا مفهوم من سيد النثر في عصره، الذي ظلمه عصره، حتى بلغ به الضيق، حدِّ إحراق بعض كتبه، وإضمار النقمة على الدنيا كلها، مندفعاً، في رحلة العوز والشكوى، بين بلد وبلد، رجوة أنْ ينال حظوة عند هذا أو ذاك، من الذين قصدهم، فصدوه بغير إشفاق، وترحل عنهم بغير ندم، لأنهم لم يقدروا موهبته في الترسل، فأنف أنْ يذلّ في سبيل مأوى، يقيه الحر والقر، أو رغيف يسكت به جوعه المؤلم!

أما أنا، فقد سرت في حقل من المسامير، تاركاً نقطة من دمي في موقع كل قدم، دون شكوى، دون تذمر، وبغير أن أتخلى، عن جزء من أنفتي، أو أخاف أحداً سوى ربي، أو أقتصد في النضال، إشفاقاً على صحتي العليلة، أو نحول جسمي، في انتقالي من سجن إلى سجن، ومن منفى إلى منفى، والشموع، في يد والدتي، تحترق قرباناً وابتهالاً، إلا تموت قبل أن أعود إليها، وعندما عدت، قبل أن تنتقل إلى رحمة المولى، وفت نذرها بالزحف في الطين، وتحت المطر، لتقبيل عجلات السيارة التي أقلّتني إليها!

ولئن كنت في السياسة مخضرماً، وفي الرواية سباقاً، فإنَّ بي جنفاً عن الكتابة التي ليس لها قول، وجنفاً عن القول الذي لا يحمل رأياً جديداً، فيما يدور من أحداث حولنا وعلينا، ومع مودتي، وتقديري للمبتدئين، الذين يكتبون رغبة في

النشر، عن الفراشات زاهية الألوان، أو الحب العذري، أو التهاويل في انعكاساتها البراقة على الماء، فان لي طريقاً آخر، ومسلكاً آخر، في الكتابة بصدق، حول الشؤون الداخلية والخارجية، بما فيها، في حدود رأيي، من نقد بناء، ومصارحة كاملة، لتقويم الاعوجاج ان كان، وهو كائن، ولمكافحة الفساد الذي استشرى، والهدر الذي يذهب مع الريح، بغير محاسبة رادعة، وللجهر برأيي، فيما نأمله من المؤتمر القطري، من حلول جذرية، في كل قضايانا، داخلية وخارجية، دون طفرة، ودون تسويف، وفي رأس هذه القضايا الاقتصاد والتنمية، والانفراج الذي عنوانه الحرية المسؤولة، أي الديمقراطية بأرحب مداها!

يقول سقراط: «صديقك من صَدَقك، لا من صدّقك»، وفي هذه الحكمة تتجلى النوايا، بين مخلص يقول الحق ولو كان جارحاً، وبين مخاتل يقول غير ما يضمر، جاعلاً من الأوهام تغليفاً معسولاً للنفاق الذي يمارسه، وفي الظروف الأصعب في الصعوبة، والتي، في الأذى المبيت، نعرف مأتاها ومغداها، علينا أنْ نتحد، أن نتراص، أن نرتفع على الشدائد، باعتماد الصراحة، خالصة مخلصة، لوجهه الكريم، وأن تكون لنا، في الباصرة والبصيرة، رؤية نافذة الى أعماق الأحداث، وأن يكون لنا سلم أولويات، نتصدى، في معالجتها، بالأهم قبل المهم، بكل الجدية الممكنة. فالسياسة، الآن، ليست فن الممكن، بل فن فهم الاقتصاد، والسياسة، راهناً، ألاّ نضع أوراقنا كلها على الطاولة، وفي هذا قدر من الدهاء، وسياسة بغير دهاء، مهما يكن مجزوءاً، تبقى سياسة مبسطة، مكشوفة.

إنّ السياسة أنْ نعرف أعداءنا، ونميز، من خلال هذه المعرفة، بين الأخطر والأقل خطراً، بين المباشر، الداهم، وبين غير المباشر، وغير الداهم، وأن نحاول، بتفكير دؤوب، صبور، فهم ما يدور في رأس هذا العدو أو ذاك، ومن هم بدائل هذا العدو أو ذاك، وبأي قناع يتقنعون، وكيف نتوصل إلى كشف هذه الأقنعة، الواحد بعد الآخر، بسرية تامة، ومراقبة دقيقة، من غير أن يفطن اصحابها إلى أننّا نراقبهم، أو أننا نجدّ في كشف أقنعتهم، أو أنهم

يخدعوننا، لأنّ علينا، أحياناً، كما قال أحد الدهاة، أن نتظاهر بأننا خدعنا، وأننا، من حين إلى حين، نحب أن نخدع، ولو مؤقتاً!

في الحديث الشريف: «كن عالماً، أو متعلماً، ولا تكن الثالثة فتجهل» أي لا تكن، معلماً لغيرك، فقد يكون هذا الغير أعلم منك، ولا تصدق، بسرعة، كل ما تسمع، لأنك، عندئذ، ستجد الكذابين في كل مكان، ولأنّ سورية، في وضع صعب، داخلياً وخارجياً، فإنَّ عليها، أمام هذا الوضع، أن تعرف أعداءها، وأن تميز الأخطر من المخطر بينهم، وأن تستغل مواردها، وهي كثيرة، بأقصى طاقة ممكنة، وبهذا تتوفر لها امكانات اقتصادية مريحة، ولو نسبياً، وعاماً بعد عام، يتحسن الوضع المعيش للمواطنين، ويتاح لها ما يكفي من الوقت، لمعالجة القضايا الخارجية.

ومرة أخرى أذكِّر بحكمة سقراط، ودهاء المغيرة بن شعبة، وبعدم الدخول مدخلاً ندفع ثمن الخروج منه، أو ننجر إلى موقف فيه منزلق مستتر الأذى، وأن نتبين ما قد يأتي به فاسق من نبأ، وأن نستعيد ما قاله البير كامو «عرفت ما كنت أعرفه مرة أخرى» وهذا ينطبق علي، فقد يكون كل ما قلته معروفاً مرة ومرة، وفي هذه الحال أعتذر من قرائي الأعزاء.

كلمة حق.. ورسالة حق!

مالي أرى القلب في عينيــك يلتهــبُ … أليس للنار، يا أخــت الــشقا، ســببُ

بعض القلوب ثمارٌ مــا يــزال بهــا … عرف الجنان، ولكن بعــضها حطــبُ

أخاف في الليل من طيف يسيل علــى … موجات عينيك حينــاً، ثــم يغتــربُ

فرب أنثى، يخــون البــؤس هيبتهــا … والبؤس أعمى، فتعيــا ثــم تنقلــبُ

فلا تخافي عــذولاً فالعــذول مــضى … والعصر سكران، يا أخت الشقا، تعبُ

أما أنا، ولو استسلمت أمــسِ إلــى … خمر الليالي، فقلبــي لــيس ينــشعبُ

لقد قلت، وأكرر، إن المهم، في هذه الحياة، ألا ينشعب القلب، ألاَّ ينكسر المرء، من الداخل، ألاّ يخاف العدو أو العذول، ألا يسقط في الوهم، أن يعرف عصره جيداً، ففي هذه المعرفة وحدها، يخرج من فحمة الليل، إلى لألاء النهار، ويثبت قدميه في الأرض، أمّنا، التي عنها، ولأجلها، تكون المفاداة!

وإذا كان عصرنا سكران، فنحن في الصحاة، وإذا كان بعض القلوب حطباً، قد فقدت مشاعر الألم إزاء ما يجري من كوارث في فلسطين والعراق، فإنَّ قلوبنا لايزال بها عرف الجنان، إشفاقاً على الأحباء الذين يتساقطون قتلى في البلدين العربيين، وحقداً مقدساً على الطغاة، وما يمارسون من تدمير وإرهاب وقتل، ثم يزعمون، فجوراً أنهم يكافحون الإرهاب، وباسم هذه الذريعة الوقحة تساقط صواريخهم وقنابلهم، من أثقل الأوزان، على البيوت التي تدكها دكاً على رؤوس ساكنيها، في كل المدن الفلسطينية والعراقية بغير رحمة أو اشفاق، لأنهم كعنصريين اسرائيليين ونازيين أميركيين جدد، قد صُمَّت آذانهم عن كل رحمة أو

إشفاق، وكلما غرزت أقدامهم في مستنقع الموت، أخذهم سعارُ الإدماء، تعطشاً إلى العض والنهش في جسوم ضحاياهم من العزل، وبينهم الأطفال والنساء، والعجّز من الشيوخ، الذين يموتون تحت أنقاض بيوتهم أو تتشظى لحومهم نتفاً، وتتناثر أشلاؤهم مزقاً، على صحصاح أديم فلسطين والعراق الذي طالما مسده أبناؤه بالأكف الحانية، استنباتاً للخضرة، وما فيها من زهر وعطر.

إن سكرة العصر، لابد أن يعقبها خمار العصر، وفي هذا الخمار صداع موجع، بدأنا نرى طيوفه السوداء، في ثنايا وجوه المعتدين ونلمحه في طوايا الأكفان، تنقل بمن فيها، في حلك الدجنة، عائدة على متون الطائرات التي جاءت بها، وعند وصول الجثامين إلى الولايات المتحدة الأميركية، يكون البكاء وصرير الأسنان، وعبثاً كان يحاول رامسفيلد، بوجهه المكرمش من لؤم، أن يشد عزائم جنوده، أن ينفخ في قُرب مثقوبة تشجيعاً لهم، أو رفعاً لمعنوياتهم وعبثاً، كذلك، يطلق العنان للمرتزقة الذين جاء الغزو الأميركي بهم، كي يقوموا بتفجير السيارات الملغمة في الأحياء والتجمعات السكنية، واتهام المقاومة العراقية بأنها هي الفاعلة تشويهاً لسمعتها.

وما كان يفعله بوش في العراق، يفعله باراك في فلسطين المحتلة، والحصيلة في الحالتين، واحدة، وخمار سكرة العصر واحد، وإذا كان للدم الملحوس عن مبرد القهر الذاتي فيه لذاذة فإن فيه أيضاً مرارة، تتجلى قسماتها في وجوه الأميركيين والاسرائيليين على السواء، وكل محاولة لإخفائها باطلة الأباطيل، فالذي يزرع الريح يحصد العاصفة، ونحن هنا، لا نتحدث عن عواصف الطبيعة، فهذه مدعاة للأسى والأسف، لكننا نشير إلى عواصف العدوان البربري، وما فيها من سفح للدم، واغتيال للضمائر، وبذر للكره، الذي يعقبه تساؤل من الشعبين الأميركي والاسرائيلي، وبصوت جهوري «لماذا نحن مكروهون إلى هذا الحد؟» والجواب معروف لكنه مموّه في إعلام واشنطن وتل أبيب، هذا الإعلام الضخم المعجون بصلصال الأكاذيب! وستمر الأعوام ويبقى الثأر المعتق في الدنان، ثأراً مطلوباً من الشعب العربي، إلى أن يوفى، وسيوفى عندما يصبح مصير هذا

الشعب في يديه القويتين.. ولقد وجهت، في نهاية العام ألفين من القرن الماضي، رسالة إلى القرن الواحد والعشرين المقبل، هذا نصها:

عزيزي القرن المقبل:

يكتب إليك رجل بسيط لكنه معروف، فإذا كنت لا تعرفه فاسأل عنه سلفك القرن الماضي لأنه كان على كفاء معه، ناضل فيه، ولأجله، وحقق بعض آمال من ناضل لأجلهم، وخاب في تحقيق البعض الآخر من هذه الآمال، لكنه لم ييأس أبداً ولن ييأس أبداً، وهو يعذر من ينسون، بسبب من الانهيارات التي حدثت في نهاية القرن العشرين « القرن المجيد والسافل» الذي كانت بدايته مجيدة، ونهايته سافلة، والكفاح فيه استمر، ولن يتوقف قانون الحياة هذا.

إنني أعلم! نعم إنني أعلم أنك تهل وعلى منكبيك تلال من المشكلات والهموم، وفي أفقك المنظور كثافة من غيوم سود، إنما وهنا ما هو مهم، في ستارة هذه الغيوم انقشاعة بيضاء، هي إلى اتساع، وما عداها إلى ضيق، فكل فكرة كانت حلماً وكل حلم كان توقاً، والتوق الإنساني يكون قابلاً للتحقق، بقدر ما هو صادر عن دائرة الممكن، فالمعجزات أزرى بها الدهر، وستنبذها أنت، بعد أن تتندر عليها، والأمر واضح فلا إشكالية: ووضوحه يفيد أن المعجزات حتى في يقين السذج صارت لا يقيناً كونها لا تعبر عن طموح انساني، جال يوماً في خاطر رجل أو امرأة، في خاطر شعب أو أمة، في خاطر واقع هزم ما هو فوقه، لا السوريالية بما هي ابداع، بل السوريالية بما هي ميتافيزيقا مآلها إلى غروب ولو تدريجياً.

ناظم حكمت قال عن القرن العشرين: «أن ننام الآن، لنستيقظ بعد مئة عام، لا يا حبيبي، عصري لا يخيفني، ولست هارباً » ونحن بالنسبة إليك، لسنا بالخائفين ولسنا بالهاربين، ولن ننام بل سنعمل ومع العمل تكون الأخطاء، أحياناً وتكون معه، أيضاً النجاحات ولسوف نخطئ لكننا سننجح، وهذا لا شك فيه فالجسم الغريب، المزروع في الأرض العربية، والذي اسمه اسرائيل، مطوق بالعرب، وتعايشه معهم ممكن، في حال واحدة إعادة الأراضي العربية المحتلة إلى أصحابها

وإعادة الحقوق العربية المغتصبة إليهم أيضاً، وفي هذا حد الحد ولا خيار إلا الخيار الذي يدرأ الفناء، وهو خيار لصالحنا، مهما يطول الزمن، ونحن نعرف ذلك والأعداء قبلنا يعرفونه أيضاً وجيداً!

فإذا خرجنا من الشرق الأوسط، في ضيقه والحدود، إلى رحابة العالم، ونظرنا إلى القرية الكونية في جغرافيتها لا مصطلحها، وجدنا ألف قضية لألف سبب، ووجدنا ألف حلٍّ لهذه الألف قضية، له اسم واحد: الاشتراكية، ونعني هاهنا الاشتراكية التي أمامنا لا تلك التي صارت وراءنا فالتجربة الأولى فشلت، قتلتها أخطاؤها، ومنها نتعلم ألا نخطئ في التجربة الثانية، أو الثالثة أو الرابعة أو ما شئت أيها القرن المقبل، من تجارب ذلك أن في الاشتراكية وحدها سنجد الحل للعدالة الاجتماعية حلم البشرية أزلاً أبداً لا في الرأسمالية هذه التي أثبت التاريخ ان الحل ليس فيها ولو كان.. ولو أن الرأسمالية حلت مشاكل البشرية لما كان الفكر الاشتراكي وتالياً النظام الاشتراكي، النظام كنظام وليس كتجربة، ومثالنا الثورة الفرنسية وما تعاورها من تجارب.. أما ما قيل أو يقال عن نهاية التاريخ وما يومئ إليه من تأبيد التاريخ الرأسمالي فإن كل ذلك سفسطة أكدت بطلانها هذه الانبعاثات والانتصارات التي تتحقق لقوى الاشتراكية وفكرها في أربع جهات الأرض.

نأتي، بعدُ، الى الايديولوجيا والحديث عن موتها أو موت نسق منها ونفض الأكف عن غبار دفنها وإهالة التراب عليها لنبتسم بإشفاق على هذا النقيق الضفدعي فالايديولوجيا وجدت مع الانسان الأول وستبقى مع الانسان الأخير لأنه، وهذا من البينات، ليس من كائن بشري بغير تفكير وكل نسق تفكيري في رأس أي كائن بشري هو الايدلوجيا وتبقى المسألة متعلقة بأية ايدلوجيا: الماضوية أم المستقبلية، الرجعية أم التقدمية!؟ نحن مع الايديولوجيا التقدمية وسنظل نتعاطى معها في ثقافتنا وإبداعنا وبدلالة الحدث أدبياً وفنياً فخذوا علماً بذلك.

نصل الى الثقافة العربية في وحدتها مشرقاً ومغرباً وفي ازدهارها من خلال نتاجاتهما والكلام في مداه الأقصى والأدنى يمكن إيجازه بأن هذه الثقافة الى بقاء برهنت عليه الأيام في قرونها والعقود وثمرة هذه الثقافة الإبداع وإبداعنا العربي

نبت ثقافتنا العربية ولا خوف عليهما من التحديات التي يواجهونها من الجوار والعالم ودليلنا أنهما يقرعان في نهاية هذا القرن أبواب العالم بقبضة قوية والأبواب تفتح لهما أكثر فأكثر، وعن جدارة وإلى مزيد دائم وتدريجي ليس بعد نوبل محفوظ فقط وإنما قبلها أيضاً.

وماذا بشأني يا قرننا المقبل؟ إني كما سبق وقلت إنسان بسيط وكاتب متواضع يؤمن بالحقيقة النسبية وهذه النسبية تشرح على كامل رسالتي إليك، ويعتقد اعتقاداً جازماً بما قاله الطروسي: «الحياة كفاح في البحر وفي البر» وقد كافحت طويلاً بجسدي وأكافح فيما تبقى من العمر بقلمي وهو أضعف الايمان فتقبل كلماتي بما أردت لكنني أنا استقبلك بما أريد وهذا الذي أريده يسير: أن أكون مع عصري وأن أقبض على نبضه وأنْ يكون سيرى متساوقاً ومجرى التاريخ، وسيكون كذلك بغير شك.. وأهلاً ومرحباً بك، والسلام العادل لجميع الشعوب.

دمشق وموسكو.. صداقة قديمة،

جديدة، متجددة على الدوام!

قبل ما يزيد عن عشرة أعوام، وكان الرئيس حافظ الأسد، طيب الله ثراه، حياً يرزق، كتبت، أو الأصح أجريت، مقابلة مع إحدى الصحف الأردنية، خلال وجودي في الأردن لإلقاء محاضرة، وقد نشرت الصحيفة الأردنية المعروفة والمشهورة، نص هذه المقابلة بشكل بارز، وما كنت، يومها، أحسب أنَّ لدى الرئيس الأسد الوقت لقراءة المقابلات الصحفية، غير أنني فوجئت، بعد عودتي من الأردن الشقيق، أنه قرأ المقابلة وأولاها ما تستحق من اهتمام، رغم مشاغله التي جعلته «صاحب النهارين» وهو في كامل صحته، وتوقّد ذهنه، والتمعّن المتأني المأثور عنه، بما يكتب، في سورية وخارجها، عربياً ودولياً!

في هذه المقابلة الصحفية العادية، كان ثمة شيء غير عادي لفته إليها، فقد انهار الاتحاد السوفيتي، السند القوي لحركة التحرر الوطني العربية، والتقدم الاجتماعي العربي أيضاً، وكان غوربا تشوف الذي أطلق البيروستورويكا أي إعادة البناء، قد فشل في مبتغاه، وتبع ذلك عدد من الأحداث، منها، على ما أذكر، وصول يلتسين إلى الحكم، وأخذت الصحافة العربية والعالمية، تحلل الأحداث المتتابعة، المتلاحقة، في روسيا الاتحادية، وأصرت بعض الأحزاب الشيوعية العربية، قصيرة النظر، على أنَّ الاتحاد السوفياتي عائد لامحالة، وفي المقابل طلع علينا فوكوياما، الياباني الأصل، الأميركي الجنسية، بمقولته الشهيرة عن نهاية

التاريخ، أي التاريخ الاشتراكي، وتأبيد التاريخ الرأسمالي، وما كان من سجال طويل حول هذه المقولة.

في ذلك الوقت، لم أكن من الذين شاركوا في هذا السجال، ولم يكن زوغانوف قد اثبت حضوره بعد، غير أنني، أنا الروائي، كنت سياسياً أيضاً، ومنذ بداية الحرب العالمية الثانية، لذلك قلت، في المقابلة الصحفية إياها، أن التجربة الاشتراكية السوفيتية قد صارت وراءنا، وأن الاتحاد السوفيتي، بشكله السابق لن يعود، ومن الخير ألا يعود، فتجربته قد صارت وراءنا، وعلينا أن نتطلع إلى التجربة التي أمامنا، ويحسن بنا، من الآن فصاعداً، أن نتعامل مع روسيا الاتحادية، راصدين ومحللين ما يجري فيها من تطورات، لاستخلاص ما هو أساس في هذه التطورات، ونبذ النوافل جانباً، وهي كثيرة جداً، كيلا نضيع في متاهاتها، أو نضطر إلى التذكير ببيت من شعر عمر أبو ريشة: «أوقفي الركب يا رمال البيد/ فقد تاه في مداك البعيد»!

لماذا كان علينا أن نفعل ذلك؟ ولأي سبب يترتب علينا أن نهتم بروسيا الاتحادية، وهي غارقة في فوضى لا مثيل لها؟ وهي في وسع يلتسين، وهو الانتهازي الكبير، أن يخلصها من هذه الفوضى؟ الجواب، طبعاً: لا! غير أن الحركة قانون الحياة، والسكون عدو هذه الحركة، وفي نظرية «نفي النفي» الماركسية، البقاء دائماً للأصلح، وأن دور الفرد في التاريخ دور حقيقي، إذا ما اتسق ومجرى التسيار إلى أمام، فليس ثمة تراكم في الأحداث، بل ترابط بين حلقاتها، وكل حركة، في هذه الحلقات، ذات تأثير في الحركة التي تليها، ومن الكم يخرج النوع، الذي هو، فلسفياً، الأفضل دائماً.

إن مجيء بوتين، حتى ولو كان على شكل صفقة ظاهرية مع يلتسين، ليس هو، في الجوهر، صفقة، بل تغيير اقتضته سنّة التغيير، ولن يكون لسنّة التبديل تبديلاً، ومع التبديل يذهب القديم ويأتي الجديد، وفعلاً أتى الجديد مع بوتين، لا لأنه

من الاستخبارات الروسية، ويعرف أميركا والغرب جيداً، بل لأنه يسعى، وهذا طبيعي، أن يسترد كرامة روسيا الاتحادية، وهو أحد أبنائها، أي أن يسترد كرامته هو، وأن يعمل، بذكاء ودأب، على إنهاء الفوضى القائمة، وهي المهمة الأولى التي كانت هدفاً له، تحقق تدريجياً، عملاً بالشعار القائل: «من يستعجل الانتصار يقتله!» فلم يتعجل، ولم يفته أنَّ التحرر من التأثير، أو السيطرة الأميركية، هما السبيل لاستعادة السيادة الروسية، فأقدم، في الوقت المناسب، على تخليص روسيا من الثري الروسي اليهودي، الذي كان يهيمن على كل شيء، وحتى على النفط، الذي كانت روسيا، ولا تزال، أحد أهم مصادره، ثم جرّده من كل نفوذ له، وسجنه، والمرجح أنّه باق في سجنه، رغم الحملة الأميركية والغربية المسعورة التي ثارت ضد هذا الصنيع، ثم خمدت شيئاً فشيئاً، راضخة للأمر الذي صار واقعاً.

بعد ذلك واجه بوتين الحملة الضارية، الممولة مادياً ومعنوياً، وبالرجال والسلاح، من قبل أميركا في الشيشان، وسواء كان على صواب أو خطأ، في تعاطيه مع هذه المسألة الشائكة، فإنه أراد منها توجيه رسالة إلى واشنطن والعواصم الغربية، بأن روسيا الاتحادية تأبى التدخل الخارجي في شؤونها الداخلية، وقد وصلت هذه الرسالة إلى من يعنيهم الأمر، وبشكل جيد، وهذا ما كان يقصده بوتين.

تلا ذلك، موقف قوي في مجال التسلح، حين أعلن أن روسيا قد أنجزت صنع صواريخ عابرة للقارات، ومن النوع غير المعروف وغير المألوف، وأن هذه الصواريخ قادرة على اختراق منظومة الصواريخ المضادة في أي مكان، ومهما تكن هذه المنظومة حديثة ومحكمة، في أي بلد من بلدان العالم، وفوراً ثارت زوبعة عالمية، لم تلبث أن همدت.

وفي شهر كانون الثاني، عام ٢٠٠٥ أعلن بوتين أنه سيقيم تمثالاً لستالين، الذي أبلى، في الحرب العالمية الثانية، بلاءً حسناً، وأنه انتصر على الجحافل الهتلرية، ولاحق هتلر حتى برلين، وأرغمه على تناول السم، وأقام مع الحلفاء

محكمة نورنبورغ، لإصدار أحكام الإعدام والسجن بحق المجرمين الهتلربين، وفي يالطا وموتسدام خطط، مع روزفلت وتشرشل، لإنشاء هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدوليين.

إن الحدث التاريخي البارز، في القرن الواحد والعشرين، هو أن روسيا الاتحادية استعادت سيادتها، وهذا هو المطلوب، وهذا ما تمنيته في تلك المقابلة الصحفية مع إحدى كبريات الصحف الأردنية، وهذا ما لفت نظر الرئيس الراحل حافظ الأسد، فتمعن فيه بأناته المعتادة، وارتاح له كما بلغني، ومهما يمكر التاريخ، فإن مكره لن يكون به جنف أمام الوقائع الثابتة، ومن هذه الوقائع أن روسيا الاتحادية دولة أوروبية، وأن انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، بكل ثقلها المادي والمعنوي، سينهي أسطورة التفرد الأميركي، في المستقبل غير البعيد، وقد زار الرئيس حسني مبارك روسيا الاتحادية، وزارها سواه، فلم تكن لهذه الزيارات ضجة كالتي كانت للرئيس بشار الأسد، الذي أحسن التوقيت، وأجاد المناسبة، فاستقبل من قبل بوتين الاستقبال اللائق، الجدير حقّاً وصدقاً بمكانة سورية عربياً ودولياً، وبرع الرئيس بشار في عرض القضايا السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية، وآسيا الوسطى، وما استجد منها بعد الغزو الأميركي للعراق وأفغانستان، وما يُثار من محاولات أميركية لفرض «الديمقراطية» بالقوة، على الدول العربية والشرق الأوسط كله، وما يتهدد سورية، ذات التقاليد الكفاحية المعروفة، من أخطار جسيمة، تحت ذرائع واهية، حول تسرّب «الإرهابيين» من حدودها الطويلة جداً مع العراق، رغم أن لجنة مشتركة قد تألفت لمنع هذا التسرب، وأبدت سورية استعدادها الكامل للتعاون في هذا المجال، واثبات حسن نواياها بالأفعال لا الأقوال وحدها.

وأصغى بوتين، كما أشارت الصحف الروسية والعالمية، وكما بثّت الفضائيات العديدة، إلى شروح الرئيس بشار الأسد بإهتمام بالغ، ودقة غير محدودة، وتفهم جيداً الأوضاع المستجدة، بذكائه المعهود، وخبرته الواسعة، لذلك لم

تكن هناك، في المفاوضات، نقاشات من النوع المعتاد في مثل هذه المفاوضات، بل أسئلة في جو من الصداقة الحميمة، التي تربط ما بين دمشق وموسكو، منذ عقود طويلة من الزمن، وبادَرَ بوتين وفريقه المفاوض، إلى إلغاء ثمانية مليارات من ديون سورية، وجدْوَلة الأربعة مليارات المتبقية، وبذلك انتهى إشكال ظل قائماً منذ أمد طويل، على الصعيد الاقتصادي، أما الصعيد السياسي، فلم يكن عليه خلاف، وكل ما لفّقته أميركا وإسرائيل، حول الصواريخ التي كانت هي النقطة الأساس، والغاية الأولى من الزيارة، فإنها تهافتت، وذهبت بدداً مع الريح!

أما الحصيلة المتوخاة من هذه الزيارة، فإنها تُعد فتحاً تاريخياً بامتياز، ذكّرت العالم كله، أن روسيا الاتحادية معنية إلى درجة قصوى بما يجري في المنطقة العربية، وأنّها، بعد غياب أو تغييب، ذات حضور قوي فيه الآن، وأن هذا الحضور سوف يتنامى أكثر فأكثر، وأن سورية بخاصة، والبلاد العربية بعامة، قد صار لهما سند من قوة لا بد للأعداء أن يأخذوه في اعتبارهم، وبشكل جدّي، لا وهْم فيه، ما دام القرن الواحد والعشرين، لم يدع مجالاً للأوهام!

أقول إنّ زيارة الرئيس بشار الأسد إلى موسكو كانت ناجحة؟ إذن لم أقل شيئاً، أما البراعة في توقيتها، وغايتها، وحصيلتها، فإنها تحتاج إلى دراسة، وتحليل، وسيمضي زمن ليس باليسير، وهي شاغلة المحللين السياسيين من كل الطيوف، والألوان، والنزعات الفكرية المتباينة.

البحر يبكي ... وقلبي يبكي

«سلامٌ كله قُبَلْ، إني راحلُ عَجِلُ»، وتقولين، يا لاذقيتي، تعال، وها قد أتيت، وسأتي، ولكن من يدري، فربما خان العمرُ، من يدري، يا عروس البحر، من يدري، أنت، أنا، أو «مدنيا»، فرحة هذه المدينة، حين «الأورغ» تحت أناملها الموسيقية، يعزف لحناً للفرح، أيام الفرح، ويعزف لحناً للحزن، أيام الحزن، وهل من حزن أكبر، أوجع، وغزة تحترق!؟

آخ يا وطننا العربي الكبير، إننا نكبر فيك، لتكْبَرَ فينا، وهذا ما كان، يوم كنا، في مزدلف الشوط، لنا السبق، ولنا الهبوات الحمر، في قراع المستعمرين، والطامعين، والضاغطين، من كل صوب، وكل حدب، وكل مأتى ومندى، والنصر في ركابنا وثوباً على الأذى، حتى ينبحر الأذى، وتكون الزغاريد «فقد جُنَّ الإباء، من نعميات الله هذي الكبرياء».

التاريخ لا يعيد نفسه، إنما الأطماع بنا، ومن حولنا، تعتادنا، بعد أن بدّلت أثوابها، وغيّرت ألوانها، وزركشت غاياتها، والقصد واحد، هو دحرنا، وسرقة أرضنا، ومياهنا، وأرزاقنا، وتمزيق وحدتنا، حتى نُصبحَ فرادى، ونُؤخذ فرادى، ونُؤكل فرادى، وهذا، في الفرقة التي نحن فيها، ما أغرى الأعداء بنا، من نازية إسرائيل، إلى عدوانية أمريكا، إلى ثعلبية بريطانيا، صاحبة وعد بلفور الشهير، إلى حرباويّة الصهيونية، ومن معها سراً تارة، وجهراً أخرى، إلى الذين، في بلدان الشمال، يخفون أظافرهم المسنونة، في قفازاتهم المخملية الملونة أبد الدهر.

آخ يا وطننا، آخ يا بلدنا، آخ أيتها السلاّطة، فشاعرك الكبير، الذي كان يغنّي أمانينا، رحل مع أمانينا، في عربة الصمت، وبعده تاه «السامر الحلو» وتفرق

الصحب «سماراً وندمانا» وغزة تحترق، وقلوبنا، معها، تحترق، إلا أن الحديد لا يفلُّ إلا بالحديد، وسيأتي زمن حديدنا، عندما تتوحد، حوله، قوانا، «ونظارِ تطلع على الدنيا سرايانا».

أيها البحر، يا بحرنا، إياك وغواية اللجة الزرقاء، فمع السَيْلِ الأتّي، يأتي الطوفان، ومن سكونك تتبثق العاصفة، والنوارس البيض، تعرف، وتحسن، المروق من زرد العاصفة، لترتفع عليها، ولن نكون صغاراً، مع الذي قال «ونحن الكبار بآمالهم/صغار بخيبات آمالنا» فقد عرفنا خيبة الآمال، مرة، ومرة، ومرات، دون أن نصغر، وقد تعلمنا، في مدرسة النسيان، مكر التاريخ وآفة النسيان، وعرفنا مَن الذي ساقته الريح أمامها، ومن الذي لقي السيوف بصدره، ومَن الذي ساقته الريح أمامها، ومن الذي أشعل «الثورة الكبرى» ومن الذي سعى لإطفائها، فتأبّت واشرأبّت، وتناسلت ثورة بعد ثورة من الغوطة إلى الجهات الأربع، في هذا البلد الحبيب، وقد ذُبحنا مع الأخوة الذين ذبحوا في فلسطين، ومازالوا في الصامدين، وبالعروة الوثقى متمسكين، وهذا، في قانون الكفاح، هو الكفاح، والجراحات فمٌ، والفم يعرف الصمت، كما يعرف الكلام، والجرحى، من الأطفال والنساء والشيوخ، تصمت أفواههم، وتتكلم النِزافاتُ في جسومهم، وتتطبق، في غلاب القتلة، جفونهم، إلا أن أبصارهم ترى، تسمع تلعن، وبالأمل، والجلال، تتكفن، لو أن مِزَقَ الضحايا، يتاح لها أن تتكفن!

الحديد لا يفلّه إلا الحديد قلت، وأكرر، لكن ماذا أفعل وليس لدي، أو لدى الأدباء المبدعين أمثالي، سوى الحروف المقدسة، ومنها الكلمات المضمّخة بالطيب والغالية، وهذه للغزل تكون، وللرومانسية تكون، ونحن لسنا في وقت الغزل أو الرومانسية، نحن في الأوقات العصبية، «تعالوا وانظرو الدماء تسيل في شوارعنا» قال نيرودا، وما شوارعنا إلا غزة، والدماء قانية، أرجوانية، عندمية اللون، تسيل في بيوتها، مدارسها، مساجدها، كنائسها، وتتجمد تحت أنقاضها، وبين أنامل الممزقين من أطفالها، وعلى صدور، وفي أحضان، وسواعد، ووجوه الحرائر من نسائها!

إنَّ شأن الكلمة صياغة الوجدان، وهل بقي وجدان بغير صياغة، وهل ثمة بين المناضلين، المفادين، الخائضين في أنهار الدماء، من لم يخض في مستنقعات الموت، حتى تصوغ الكلمات وجدانه، دفعاً به إلى التضحية، والأضاحي، ممزقة الأشلاء، تملأ غزة، من الجهات الأربع؟

إنني في اللاذقية، ومن اللاذقية أكتب هذه السطور المفجّعة، فمن يوصلها، بعد أن مات «ساعي بريد نيرودا» مع نيرودا، في محنة تشيلي وجلادها بينوشي، وليس لي مع ثورة المعلوماتية نسب، وكل أدواتي، حتى في هذا الزمن، أوراق وقلم!

فيا أمّتي، هل لك بين الأمم «منبر للسيف أو للقلم؟» وفي الجواب تأتي نعم، ففي سورية الأبية منابر للسيوف وللأقلام، لكن الظروف لها أحكام وأزمان، وليس من فائدة، لغزة أو لنا، وليس من السياسة، و«السياسة في القيادة» حتى لو جازفنا، وألقينا بأنفسنا إلى التهلكة، دون أن تتضفر العزائم، وتتوحد، في الأمة العربية، المواقف والكلمات، وهذا ما هو المطلوب، وهذا ما سوف يصير، بغير «متى»؟ ودون آن أو أوان!

فيا دمشقي العزيزة! أنا «طروسي» هذا الزمان، فإذا قيل البحر، أدرك السامعون مَن المعني، إلا أن البحر، في اللاذقية، ليس هو ذاته، فقد غاضت زرقته، وطغت حمرته، فصار لونه قرمزياً، وراح يبكي، وقلبي، من ألم، معه يبكي! والأرغن، تحت أنامل «مدينا» بدوره يبكي، دون فائدة، أو أجر، أو جزاء، فلسنا، في النائبات، ممن يبكون، بل يفادون، إلا أن الفداء يتطلب عدته، وهذا هو الدرس الذي علينا أن نتعلمه، ومن جراح غزة، وقبلها، وبعدها، تعلمناه، وسبحان مَن في منزل تحكيمه قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل».

ماذا بشأن القمح.... رغيفنا وثروتنا؟

إذا كنت، كما أقول دائماً، على موعد مع المغامرة، فإن مغامراتي خائبة أكثر الأحيان، وهذا إكمال للمعادلة، وليس انتقاصاً منها، فالثنائيات شريعة حياة، ومقولة نفي النفي الفلسفية، قد تحتاج، في الشرح المطول، الى مجلدٍ كامل، لكنني أكتب للشعب، والشعب وجود للوطن، ومن خلال هذين الأقنومين، كرست قلمي لنصرة القضية العربية في كفاحها ضد أعدائها ولمَّا أزل!.

إنني عصامي كما يعرف القراء، لكنني ضد العصامية التي فرضت علي، بسبب الفقر الأسود، كما يعرف القراء أيضاً، لذلك أنصح ــ وآه من لعنة النصائح ــ الطلاب أن يأخذوا بالدراسة النظامية، الأكاديمية، في كافة مراحلها، وألا يتبعوني على طريق جهنم، مادام التعليم في سورية متاحاً للجميع، لأنه مجاني، وحتى شبه مجاني في الجامعات، والدراسات العليا، وقد سرني، وأبرأ بعض سقمي، أن وزارة التربية عندنا انتبهت، في وقت مبكر نسبياً، الى ثورة المعلوماتية وأثرها الخطير في عالمنا، فبادرت الى إدخال دراسة الكمبيوتر من التعليم الاعدادي فما فوق، وهذا ما ذكرته، وشكرته في محاضراتي، وفي كل حفل كان لي فيه حظ الكلام، أو مجال للكتابة الأدبية التي كرست نفسي لها، بعد الأربعين من عمري، وبعد أن صرت في فقر أبيض، كما هي حالي اليوم.

أعرف تماماً، كيف بدأت خربشة الكلمات، لكنني، صدقاً، لا أعرف كيف صرت كاتباً شهيراً، ولن أغش أحداً فأزعم أنه الحظ، لا! هناك سهر الليالي أيضاً، والسير في حقل من المسامير، تاركاً نقطة دمع في موطئ كل

قدم، بعد أن طلبت العلم حتى في الصين، دع عنك الجهات الأربع، مدفوعاً بالبحث عن الرغيف، لا في المغامرة وحدها فقط، وأذكّر و«الذكرى تنفع المؤمنين» أني في حيٍّ المستنقع في اسكندرونة، بحثت في المزبلة، بين الخنازير، عما يفيد في شراء الرغيف.

لقد كنت أجيراً وبحاراً، وحلاقاً، وعتالاً في المرفأ، لكنني، بعد الشهادة الابتدائية، التي هي كل رأسمالي، أقبلت، نهماً على القراءة، التي صرت مدمناً فيها، وفي السيكارة معها، هذه التي أحذر غيري منها، اشفاقاً على الصحة العامة، بعد أن يئست من إشفاق «النفاثات» في عقد شاحناتنا، من اندفاعات «موشحات» دخانهم التي« تعطر» الجو بالمسك والغالية!

إن مقولة نفي النفي التي أشرت إليها، يمكن إيجازها بأن «الحياة تنفي الموت، والموت ينفي الحياة، فتعود الحياة وتنفي الموت» لأن الحياة أبقى، غير أن المعادلة تبقى ناقصة، دون حياة وموت، والمعادلات كلها مردّها إلى هذه الثنائيات، صعوداً إلى جدنا آدم، التي معادلته لم تتم إلا بجدتنا حواء، وأعتذر «إذا جاوزت حدي» في مقاربة شميم عرار نجد من الناحية الفلسفية.

قلت إنني مع المغامرة على موعد، وقد دعيت، ذات عام غير بعيد، إلى احتفالية في القامشلي، بمناسبة صدور روايتي «الفم الكرزي» التي تتحدث عن الأرمن في كسب، وصبوة إلى اكتشاف الطريق إليها براً، سافرت مع سائق ومرافق أرمنيين، إلى مقربة من حلب، سالكاً مفرق الرقة، حيث الطريق طويل كليل امرئ القيس، وموسم الأقماح المباركة غزير غزارة غير عادية، فما في الوسع التقدم إلاّ ببطء شديد، بين الحصادات والدرّاسات والشاحنات التي تتابع دون انقطاع، و«الليل الأليل» أرخى سدوله علينا، و «خطوة إلى وراء في سبيل خطوتين الى أمام» وبيني وبين أيوب وصبره عداوة ذكرتني بقول الشاعر «هو الثأر لا تعجل علينا بنيله، فإن لنا من عهد آدمهم ثأرا»، والمقصود بذلك الفرنسيين واستعمارهم البغيض..

كنت أسأل السائق كلما لاحت لنا أضواء: هل وصلنا؟ فيجيبني: ليس بعد، وتكرر السؤال، وتكرر معه الجواب، و«يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري/ فدرهم الصبر يسوى ألف دينار!» والرحمة «شآبيب» على قبر معلمنا بطرس البستاني!

أخيراً وصلنا، وبعد التهاني بالسلامة، وأنا ألعن نفسي مرة، وألعن هذه السلامة ثلاثاً، نقلني المضيفون إلى الفندق الذي سأبيت فيه، فإذا بي بين جوقتي «طرب أصيل» الجوقة الأولى مغنية تجعر من تحت، وجوقة أخرى من فوق، تعزف لحناً جنائزياً، من شاحنات، أغلبها قاطرة ومقطورة، تسير على طريق ملأى بالحفر، والحفرة تتسع لدبابة، أو لمصفحة عتيقة من الإرث الذي خلّفه لنا الاستعمار الفرنسي.

وكي أكون أمينا في إيراد الحقائق، فإن بيني وبين النوم عداوة منذ الطفولة، وفي هذه الليلة التي لبست فيها القامشلي قميص النوم، وحتى بعد أن تعبت المطربة أو بح صوتها فانكتمت، بقيت الشاحنات ترج الأرض، وقعقعة محركاتها أو إطاراتها تعزف السمفونية التاسعة لبيتهوفن، فلم يرقد لي جفن، ومع أنني حوالي الضحى شربت سطلاً من اللبن، فإن الجفن لم ينطبق على جفنٍ، «وكتمت السهم في كبدي» لأن جرح الأحبة من الأرمن الذين أرادوا تكريمي «غير ذي ألم» والله أعلم.

مضت على هذه الحادثة سنوات الآن، وقد تكون بلدية القامشلي خرجت من سباتها فأصلحت الطرقات، وربما انتبهت السلطات المختصة في دمشق، فقامت بما يلزم نيابة عنها، ومن المأمول أن يكون فندق ما، ولو على قياس البلدة، قد رأى النور، لذلك أوردت كل هذه الوقائع ويدي على قلبي، من هتفة تقول: «نعيماً» عد إلى القامشلي، أهراء سورية، وبعد ذلك أتحفنا بهذه الدرر الغاليات!

مهمة الكاتب، كما أرغب أن تكون، هي الاستئناف ضد ما هو كائن، في سبيل ما سوف يكون، وما يكون هو الأفضل دائماً، فإذا كان نقدي بناءً، وهذا ما أسعى إليه، فإن المزيد من الإصلاح، وباستمرار، فيه الفلاح لقوم

يعقلون، مع ملاحظة بسيطة هي أنني لست على وئام مع العقل والعقلاء، دون تحفظ، لأن بعض الجنون، لبعض الحكام العرب، مفيد في حدود رأيي ورأي غيري ربما!

إن التمرس في السياسة، يعطي مقولة «السياسة في القيادة» صدقيتها، وهذا التمرس في اتساقه مع هذه المقولة، قد أعطى برهانه، في شتى مراحل نضالنا، على أن قوتنا الخارجية تستمد مقوماتها الفاعلة، من قوتنا الداخلية، ومن هذا المنطلق فإنَّ اجتثاث شرور الهدر والغش والفساد، في كل تموضعاتها العلنية والسرية، وفي كل تدرجاتها، ينبغي أن يقترن أو حتى يسبق، نضالنا ضد الضغوطات علينا، من أي جهة أتت، وكل تمهل في الاصلاحات الداخلية، بانتظار الانتصار على هذه الضغوطات الخارجية، أو صدها ودرء خطرها، يضعف مواقفنا السياسية الخارجية بدل أن يقويها، وهذا ما خبرناه في الوطن العربي كله، وهذا ما صار ضرورة لازمة وملحة، لا يمكن أن نكتشف حقيقتها وأبعادها، إلا في جوٍّ من الديمقراطية، أمّ الحريات، وفي ممارستها فعلاً لا قولاً، وهذا الجو من الانفتاح يزيد في منعة الحكم الذي يفيء علينا بظلاله في كلِّ أنحاء هذا الوطن العزيز سورية.

التوعية لا الحب ... والقلق لا الطمأنينة!

كثيراً ما يتساءل، رجال ونساء، وفي حالات التأزم النفسي خصوصاً، عن ظاهرة يحسبونها في النادرات من الظواهر، تدور حول مسألة بسيطة غاية البساطة، معقدة غاية التعقيد، تتعلق بحالة الحب، الذي كان شبوباً قبل الزواج، بين فتى وفتاة، ثم فقد حرارته، وفتر أداءه، وانتهى بعد الزواج، إلى ما يشبه الموت البطيء، رغم محاولات الزوجين، بعث الحرارة فيه من جديد، أو الصعود به بعد الهبوط، أو إحيائه بعد موت، وتذهب جهودهما مذروّة مع الريح، متناثرة كقِصَل حبات الشعير، عندما تشيل بها المدراة في الفضاء، دافعة القش مع التيار، ليبقى الحب وحده على بيدر يتنامى شيئاً فشيئاً، غير مدركين، أي الزوج والزوجة، أن كل ما يولد ينشأ، وبعد النشوء يكون الكبر، ومع الكبر تأتي الشيخوخة، وفي طواياها الموت الذي لا راد له، كونه من سنن الحياة في مجراها أزلاً وأبداً!

إنّ حكاية الحب، ككائن نفسي وفيزيولوجي معاً، هي حكاية هذا النشوء، فالارتقاء، فالاندثار التدريجي، أو التحوّل من حال إلى حال، وفق شرعة التطور، فالتبدل، فالانتقال، من حب بين قلبين، إلى حب للأسرة بعد الإنجاب، وإلى بناء هذه الأسرة بالتفاهم المشترك، نزولاً عند إرادة الطبيعة، التي لايبقى فيها شيء، أو كائن، أو موجود، على الحال التي خلق على أساسها، لكنه في الظن، خلّبياً، إنه ثابت، والثبوت، هنا، مخالف للحركة، والحركة في الطبيعة والأشياء هي القانون، هي الناموس، هي جوهر الوحدة التي تحمل في ذاتها تناقضها، وهذا التناقض يولّد، قسرياً، التبدّل، ولن يجد الانسان لسنّة التبديل تبديلاً!

ذلك أن الحب مرض، وهو مرض لذيذ، سعيد من ابتلي به، وأقل سعادة من شفي منه بسرعة، وشقي من لم يعرفه، فعاش محروماً من لذاته. ولأن الحب مرض، فإنه إلى شفاء ثم إلى موت، ولا خيرة في الأمر، وعبث كل تحايل، كل وهم، كل انخداع في إبقائه على ما كان عليه، يوم الإصابة به، ولابد من التسليم بما هو واقع، بما هو موضوعي، وعلى اتساق مع مجرى الأحداث، في سيرورتها، وصيرورتها معاً. والحب، هذا المرض اللذيذ، حدثٌ من الأحداث، وخاضع بدوره لمنطق الأحداث التي تعطي للأشياء تاريخها الاجتماعي، وكل إنسان في هذه الدنيا ابن تاريخه الاجتماعي في المحصلة.

لماذا الأمر كذلك وليس غير ذلك؟ وكيف علينا أن نتصرف حيال واقع موضوعي كهذا؟ وأي فهم لهذا الواقع ينبغي أن نتحلى به؟ وبأية خشبة نتمسك حتى لا نصدم فنقع ضحية جهلنا؟ وأي شفاه هي البخيلات بين الشفاه؟

في الجواب على هذه الأسئلة، أو بعضها على الأقل، لابدَّ أن ندرك، وبوعي، أن قانون التحوّل يستحيل نقضه، والتصرّف العاقل حياله هو في فهمه، والتصرف من منطلق هذا الفهم في تقبل نتائجه، وكل شفة، حسب تساؤل الشاعر بدوي الجبل، هي شفة بخيلة، إلاّ شفاه الزوجة، لأنها مبذولة في كل وقت، وكل مبذول مآله الملل، وسبب هذا الملل دخوله مرحلة الطمأنينة، والطمأنينة تقتل الرغبة، ودون رغبة تصبح آلية الاشتهاء منعدمة، وعندئذ لا فائدة من بعثها، ولابد من تقبل اللقاء بين الزوجين على أنه واجب فقط، واجب لا أكثر، وهذه حال أغلب المتزوجين، الذين يعون أن ضرام الحب مضى، انطفأ، قام مقامه حب من نوع آخر، هو حب بناء الأسرة السعيدة على نحو ما، في عالمنا هذا الذي باتت السعادة فيه طائر فينيق، أو هو العنقاء الخرافية.

أما بالنسبة إلي، فإن الطمأنينة لم تعرف سبيلها إلى قلبي، فأنا أعيش القلق زاداً يومياً، وهذا من حظي الأبيض، فالطمأنينة تقتل الحب والابداع، ودونهما لا أدب ولافن، ودون الأدب والفن، يجد أكثر الناس كل ما حولهم فراغاً، لافتقارهم إلى البهجة التي تمدهم بالأمل، وبالرجاء في مستقبل أفضل، حتى لا تقتلهم الحسرة!

لذلك أبارك القلق، الذي قال عنه بودلير «يا للوحش المفترس!» وأبارك القلق لأنه الدافع إلى اكتشاف المجهول، وهذا الاكتشاف هو غاية الإبداع، كما أبارك القلق الذي باركه الفريد دي موسيه، ونفذ إلى سره شاعرنا المتنبي، الذي قال: «على قلق كان الريح تحتي (أوجّهها يميناً أو شمالاً» وأبارك القلق ثلاثاً، في العيش والكتابة، رغم أنه، القلق، جعلني أضطرب مثل نورس في ريح العاصفة المجنونة، فوق اللجة الزرقاء، التي منها أخذت شفاهي وكلماتي، وأباركه، أيضاً، لأنه عمّدني في النار الملتهبة، لافي مياه نهر الأردن الطهور، وقد وسمت هذه النار جبيني، وظلت جذوتها متقدة في دمي، وفي هذا الدم غمست يراعتي، ولا أزال استسقيها الأرجوان في شراييني.

إنّ الهاجرة، في يتم السراب، وومضة البرق، في نيزكة الانخطاف، والمجرة في شعشاع توهجها، قد أغرتني جميعها، في اقتباس الحجر الكريم في لألائه، ومنه صفت قلادة، للتي كانت، وماكانت، فظلّت، في المبتغى، رجوة حلم، يراود ومراودته سرابُ هاجرةٍ في تيه بيداء.

إنّ هذا الحلم هو كل دنياي، وما نفع دنيانا بغير أحلام؟ بل مانفعها إذا تكسّرت أحلامنا ولم نصلها بأيدينا؟ إنما الحلم سيف، والسيوف بالأيدي توصل، حين القدم، في غمار المعارك، يكون من تحت أخمصها الموت أو الحياة، والحياة تُوهب دائماً للمقادين، لا للقعدة الذين يهابون المنية، وهم إليها، عاجلاً أو آجلاً، صائرون! ثم لماذا علينا أن نحلم، أو نخترع الأحلام، أنّ نعيشها هبوة عزم، في الدفاع عن أنفسنا ووطننا وشعبنا؟

الجواب بسيط: حتى لا نسقط في العدم! حتى تبقى لنا قضية، وكي يكون لنا هدف، وتزهر في جوارحنا غاية، فإذا انتفت هذه الأقانيم كنا أحياء أمواتاً، وصح فينا قول جبران خليل جبران: «دعوا الموتى يدفنوا موتاهم» وحاشا أن نصير إلى هذا البؤس، إلى هذا القنوط، إلى هذا الدرك الذي نصبح معه موتى، «وشر ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب».

خلّصونا من لعنة الحب الأُسَري! - ١

الأُسرة في سورية متماسكة، متحابة غالباً، لا يشوبها التعصب العائلي إلا نادراً، وهذا النادر نفسه، إلى ندرة تدريجية، يتطلبها، وقد يفرضها، الزمن في كتلته السائلة إلى أمام، كقانون موضوعي، لا يراعي، ولا يلتزم، بالرغبة البشرية، لأنه في جنف معها، وفي اتساق مع حركة التغيير، النافية للسكونية من جهة، والمدفوعة بقوة هذا التغيير الذي يقود إلى الاستقلالية الشخصية من جهة أخرى.

لقد ولّى، إلى غير رجعة، زمن التجمع العائلي في دار واحدة، على رأسها رجل واحد، يدعى رب العائلة، وتحت جناحيه الأُسرة كلها، بصرف النظر عن كونه عادلاً أو جائراً، مادام الزمن في سيرورته إلى أمام، قد أصبح محكوماً باستقلال الشخصية، فرداً وعائلة كحالة موضوعية، لا مناص من مراعاتها، ولا بديل من الخضوع لها.

إنّ الأسرة، حتى في تجزّئها، ما بين كبيرة لها رب واحد، وصغيرة لها أب واحد، تمتاز في هذا الشرق بعامة، وفي الوطن العربي بخاصة بما يمكن أن نسميها «الاشتراكية العائلية» لأن فيها من لا يعمل ويأكل، ومن لا دخل له بسبب البطالة أو المرض أو الإعاقة البدنية، وتؤمن له «الاشتراكية العائلية» هذا الدخل، ضئيلاً كان أم وفيراً إلا أن ذلك لا يتعارض مع الوضع الجديد للعائلة، في استقلاليتها التي انتهى معها الوضع القديم، في الدار الواحدة، ورب الأسرة الواحد.

هذا من زاوية الإيجاب، إلا أن الإيجاب معه السلب، وبذلك تتم المعادلة الأُسروية، مهما يكن حظ الإيجاب أو السلب فيها كبيراً أو صغيراً، وهذا كله في جانب، والعصبية العائلية المقيتة، وحتى البغيضة في جانب آخر، وكمثل على ذلك،

فإن التحرر من هذه العصبية، لا بدّ له من جهد، ومن تعلّم، ومثابرة، ومن ارتفاع عن قضية الهُلبيّة، أي إن هذا الولد، من صلب هذا الإنسان، فلابد لهذا الإنسان أن يكون مع ولده الذي هو من صلبه، في الحق والباطل معاً، وغالباً في الباطل، سواء في آفة الثأر، أو آفة القبلية، أو الغيرية الشرفية الكاذبة، التي تكون الأنثى ضحيتها، فيسفك دمها، دون مراعاة للواقع الفعلي أو الشبهة، امتثالاً لمقولة الرجعي في شعر من زعم «لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى/ حتى يراق على جوانبه الدم» وفي مطاوي هذه المقولة، الكثير من المآسي، لأن مرتكب الجرم، كثيراً ما يكون شريراً، متستراً، يزعم الانتقام للشرف نجدة من جرم كيدي بعيد عن كل الشرف، متناسياً عمداً مقولة «ادرؤوا الحدود بالشبهات» أو الآية الكريمة [وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت] عائداً بنا إلى الجاهلية التي فضح زيفها، وكفّ ضلالتها، وقضى على ظلمها رسولية الإسلام «دين الله الحنيف».

وأنا لا أدري أين قرأت هذه الواقعة: كاتب قيل له أنت أب، وأنت كاتب، فلابد لك من محبة كل أولادك، وكل كتبك، فأجابهم: «اسمحوا لي أن أكون صريحاً معكم، فأنا لا أحب أولادي ولا كتبي، بل أتعلم، وهذا صعب جداً، أن أحب أولاد الآخرين، وكتب الآخرين، إذا كان هؤلاء الأولاد أفضل من أولادي، وهذه الكتب أفضل من كتبي».

في قصيدة الأطلال للمرحوم إبراهيم ناجي، هذا البيت الشعري: «فتعلّم كيف تنسى، وتعلم كيف تمحو» وأشهد أنني، قبل سماع هذا البيت من الشعر، أو بعده، لا فرق، كنت تلميذاً في مدرسة «تعلم كيف تنسى» ولا أزال حتى الآن في الصف الأول من هذه المدرسة، رجوة أن أترفَّع، في هذه السنة أو التي تليها، إلى الصف الثاني، ومن أمنياتي، أو الأفضل في هذه الأمنيات، أن أحصل على الشهادة الابتدائية، في مدرسة تعلّم النسيان، قبل أن أستلقي على ظهري في مركبة الموت التي تشيل بي، على هون، إلى حيث التراب الذي جئت منه، وإليه أعود!

خلّصونا من لعنة الحب الأُسَري - ٢

اعترف بالخطأ الذي وقعت فيه، أو الذي أوقعتني أُسرتي فيه، وهو الدلال، فأنا وحيد لأسرة فيها، قبلي، ثلاث بنات، وبعدي جاء أربعة أطفال ماتوا، في الربع الأول من القرن العشرين، الذي كان هذا الموت قدراً بالنسبة إليهم، بسبب من الفقر والجهل وانعدام الطبابة اللازمة.

ونتيجة لهذا الدلال الذي وقعت فيه، بسبب من الرعاية الزائدة، ولعنة الحب الأسري الزائد، فقد وقعت في أخطاء جرت معها مشاكل، كادت تغير مجرى حياتي، لولا انتباهي المبكر لخطر هذا الدلال على مستقبلي، ونضالي الدؤوب في سبيل المعذبين في الأرض، وأنا منهم وأشدهم بؤساً وفقراً، وعدم اكتفائي برؤية الأشياء الظاهرة، وسعِيي الغريب لاكتشاف ما وراء هذا الظاهر، بعد أن علمتني الحياة أن أبحث في الخبر، عما هو وراء الخبر!

كذلك علمتني الحياة، ألاّ اكتفي برؤية الحجر، حتى لو كان رخاماً أبيض، بل أُياسر، في جهد مستطاع، أن أقلبه لأرى ما تحته، وغالباً أجد ما تحته غير الذي فوقه، فالبياض الظاهر، يغاير السواد المستتر، وليس في هذا أيّ عجب، أو أية غرابة، لذلك علينا أن نبحث، في الشيء عما وراء الشيء، وفي الخبر عما وراء الخبر، وفي اللوحة على واجهة بيت، أو متجر، ما تخفي هذه اللوحة، فقد نجد الأمور متطابقة أو متخالفة، ونظفر، في الحالين، بمعلومة ما، وهذا شأن الباحث، وهذا دأبه، إذا ما أراد أن يكون صادقاً مع نفسه أولاً، ومع قرائه ثانياً، ومع مجتمعه ثالثاً، ذلك أن «العيش جميل يا صديقي» كما قال ناظم حكمت، ويكون هذا العيش أجمل، أفضل، أنفع، إذا ما

كان مع الناس وبينهم، ففي الأمثال أن البيوت أسرار، وقد تغيرت، في زمننا الرديء هذا، البيوت وأسرارها، وكم من عانس اليوم، قد كانت صبية بالأمس، لكنها حرمت من نعمة الزواج ومتعته، بسبب أثره الأهل، الذين كانوا، وربما لا يزالون، حريصين على المال، أو الثروة، أنْ تنتقل، ولو في جزءٍ منها، إلى الغير، مع انتقال هذه الأنثى، من أسرة أهلها، إلى أسرة زوجها، وفي هذا تخصيص قابل للتعميم، أو افتراض لا يجانب الواقع، ومنه، وفيه، لعنة الحب الأسري، التي لامست بعض جوانبها، مادية ومثالية، وبعض ما فيها، العصبية المقيتة، فهذه، فعلاً، أسرة تعرف أنَّ أحد أفرادها يكذب، أو إنه كذوب، ومع ذلك تصدقه وتنفي، في محاولة بائسة، صدق الآخرين الذي قد يكون دافعاً!

إن الأمثال، وكذلك الشواهد، كثيرة في الموضوع الذي تتناوله هذه المقالة، وكلها تدور حول «لعنة الحب الأسري» وأحسب أنَّ ما قالته السيدة فيروز «كلما أطلت له في الحديث يختصر» يصح هنا، فغاية الكاتب الإيجاز الذي يُغني عن الإفاضة، والاختصار ضروري في المقالة، كيلا تنقلب إلى دراسة، الصحيفة ليست مجالها، وربما كان الإيماء أبلغ من القول، وهذا ما يعرفه العشاق «الخليون اومأوا بيديهم، ويطرق اللواحظ العشاق» ومع أنّ زمن العذل والعذال مضى، فقد لاحظ الدارسون أنَّ رواسبه لا تبرح قائمة «وإذا غامر الهوى قلبَ صبّ / فعليه من كل عين دليل» إنما الشباب، وهم عدة المستقبل، أحسنوا في الأخذ بما يجانف ذلك «ولا تخافي عذولاً، فالعذول مضى، والعصر سكران، يا أخت الشقاء تعب» والحق أننا إذا لم تكن في السكارى، فإنّنا في التعب، سعياً وراء الرغيف، سواسيةٌ!

كلفني، في العصبية الأُسروية، التي نبهت إلى مضارها آنفاً، ما كنت في التكرار، حتى لو وقع تثبيتاً وتأكيداً لما أريد، ممن يرغبون في التزّيد غير إنه، وهذا مهم جداً، من المفيد لنا ولغيرنا، ألا ننجرف مع العاطفة الأبوية، أو الحماسة الزوجية، وأن نذكُر، ونذكِّر، بالآية الكريمة، «يا أيها الذين آمنوا، إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم، وإن تصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم».

وكما حذرت، والحذر من علم النفس على صلة متينة، من الانجراف في حب الأسرة إلى ما لا نريد، فإنني أحذِّر من خطر آخر، هو الغفلة عن الأعداء المتربصين بنا، ذلك إنه لا خيار من اليقظة تجاههم، ففي مواجهة هؤلاء الأعداء على كلماتنا أنْ تكون من جذوة جمر حارق، وبذلك تؤدي أسلحة الإبداع مهمتها، ودونها تكون، ونكون، في القَعدِة، وفي هذه الحال علينا أن نتساءل: ما نفع الأقلام التي بين أناملنا؟ وما نفع هذه الأنامل في معترك من «تحت أخمصها الحشر» وفاقاً لما قاله المتنبي العظيم؟ وفي أي ساح، غير هذه الساح، نصل بأيدينا الأسنة والرماح؟». لنفكّر قليلاً وهذا واجبنا تماماً.



خيبة الطغاة.. في فلسطين والعراق!

ليـــالّي بعْـــدَ الظـــاعنين شـــكوكُ
طِـــوالٌ وليـــلُ العاشـــقين طويـــلُ
يُـــبِنّ لـــي البـــدر الـــذي لا أريـــده
ويخفـــين بـــدراً مـــا إِليـــه ســـبيلُ
ومـــا عـــشت مـــن بعـــد الأحبـــة
سَـــلوةً، لكننـــي للنائبـــات حمـــولُ

وقد واجهت النائبات طويلاً، في البحر والبر، وكان بيننا صراع طويل طويل، انتصرتُ فيه بشجاعة القلب، وشجاعة الأنامل، وشجاعة القلم الذي بين الأنامل، فالشجاعة، في تعريفي، هي الصمود للخوف، وليست عدم الخوف، لأن الخوف هو الأساس، في نفس كل كائن حي، ولا سبيل إلى التغلب عليه، إلا بالصمود له، وقد صمدت لهذا الخوف، وحققت النصر الذي أبتغي، فتدلّت عناقيد الضياء من المجرّة، تنير طريقي، وصاح صوت في البريّة: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» وهذا الابن الحبيب هو ابن اللاذقية الخضراء، التي أكرمته، وأفاءت، وزادت، ومنها، وبها، «خرجتُ أجر الذيل تيهاً» قولة أخطلنا الكبير، وبها، وفيها، كان الكتاب، وكان الأنس، والأنيس، وكان المبتغى، وكانت الراحة التي أنشد، أنا ابن الثمانين، الذي أثقلت السنون منكبيه، لكنه، في الرغبة الشهّاء إلى الغلبة، وفي المغامرة التي لها عليه حق، وله معها موعد، انتفض، لا كما طائر

الفينيق المحترق، والذي ينبعث من بين الرماد، بل كالشمس المباركة، التي يتغشّاها الغيم، طويلاً أو يطول، ثم ينقشع مع الريح، وتشرق هي ساطعة، بهيّةً، منوّرة، منضرَّة، ساكبة الضوء في أقداح من لألاء التجلّي!

اللاذقية!؟ نعم اللاذقية، والاسم يصدح بفخر، ينداح في الجهات الأربع من كوننا، وعلى هامه بدل إكليل الغار، إكليل الخضرة، فما كان، ولن يكون، هناك، افتراق بين اللاذقية الخضراء، والخضرة في ذاتها، في ذات هذه المدينة البهّية، يداً للسخاء، ويداً للعطاء، ويداً للإبداع، ويداً للروعة في بحرها، وبرها، وناسها، ثم النسق المدهش من غاباتها صفوفاً، زينة للرائين، يسبّحون الله فيما يطالعون من جمال، صنعته، باركته، مجدّته، كفُّ الإنسان منشورة الندى أبداً.

أما بالنسبة لي، وما قيل، أو يقال، عن دنى ألمّ بي، بعد هذا العمر الطويل، وبعد هذا الإنتاج الغزير، فإنني ابتسم من إشفاق على الذين يئسوا، أو هم في طريقهم إلى اليأس، ويرغبون، في أمنية خلّبية، أنْ يروني في اليائسين، لا لشيء، بل لأن الأوضاع، عربية، فلسطينية، عراقية، تدعو إلى اليأس، وأنالا أيأس أبداً، والوهن بعيد عن شرفي، والموت الذي رأيته، ولم آبه له، يخافني بدل أن أخافه، لاعتقادي أن من لا يخاف روعَ الحياة، يجعل الحياة تخاف منه، ويذهب تعبها بدداً، ما دام الإنسان قادراً أن يسوق الريح أمامه، وإن ينتفض كلما راوده السكون، مدركاً أنّ الحركة هي الناموس، وأنّ السكون هو عدو هذا الناموس، وأنّ العيش جميل، حتى في شقاء الشقاء نفسه، وأنّ الشائعة لا تغتال العافية، وأنّ باطل الأباطيل باطل، وردع المفكرة ممكن، وأنّ على المرء ألا يبالي، وأنْ يتذكر دائماً قولة المتنبي العظيم:

كم قد قُتلت وكــم قــد مــتُّ عنــدهَمُ

ثم انتفضت فــزالَ القبــرُ والكفــن

وما القبر والكفن!؟ وما المهد دون اللحد!؟ ولماذا، في مواجهة النهاية، ننسى البداية؟ وهل من فصحٍ دون ميلاد؟ والخشبة، ما كان طهرها والمجد،

لولا أنَّ السيد المسيح قد صلب عليها!؟ ألم يقل جان جوريس، ذلك المفكر الاشتراكي المستنير، المفادي: «إذا لم يخف الإنسان ظلمة القبر، في وسعه أنْ يفعل ما يشاء من مكرمات؟» وشكسبير، في مسرحيته عطيل، ألم يقل: «الموت نوم ثم لا شيء»؟

عندما كنت، وأنا في مقتبل الشباب، في سجون فرنسا والإقطاع، لم أكن أعرف كل هذه الأقوال، حتى في شكلها والمضمون، لكنني تسرّيت الجحيم، تحملت سياط الجلادين، وفق هذه الأقوال، وفي الزنزانة أو القاووش، أدركت أن الصراط المستقيم، لمن يريد عبوره، سهل وصعب معاً، فالمؤمن ممتحن، والرب يجرب خائفيه، وفي سهولة العبور وصعوبتها، هناك الامتحان وما بعده، هناك التجربة وما بعدها، والمسألة كلها تتوقف على حقيقة ما بعد العبور، ما بعد السجن، فالمفترق كبير هنا، في حدّه الحد، بين أن نذهب إلى النار، أو نصمد بعد التجربة!

هل كنت احتاج إلى كل هذه السفسطة، كي أبرهن أنني لم أتعب؟ لم أيأس؟ وأنَّ اليأس، كالموت، لا يتَلَطّف فيمنحني شرف زيارته؟ وأنّ المدينة التي بحرها دمي، هي لاذقيتي التي يقال إنني ولدت فيها، ومنها، مع العائلة، كان المتسرب إلى الضياع في بر أرسوز، ثلاث سنوات متتاليات، لأن الوالد رحّاله من طراز خاص، وقاص من طراز خاص، لا يجارى في التغامر، وعنه، ومنه، كانت المغامرة حيث أكون، فقد ورثتها شغوفاً بها، والفارق الوحيد أنّ هذا الوالد كان خائباً، وكنت، في الأربعين من عمري، ناجحاً إلى حد ما، وإنه لم يعرفُ البحر، بينما تعمّدت أنا في لجته الزرقاء، وألقيت بنفسي إلى التهلكة، في العواصف والأنواء، ملبياً نداء المجهول، وفي هذه التلبية كنت صنْوَه، يغريني، كما أغراه، السفر إلى ما وراء الأفق، حيث رمال البيد، أو مغطس الشمس، في ندهة الغروب، إلى الإمعان في الغروب، غير مبالٍ بالليل الذي هو مدركي «وإن خِلتُ أنّ المنتأى عنه واسع!».

وماذا، بعد هذا كله؟ القراء يعرفون أنّ اللاذقية مدينتي، وأنّني مهاجر من لواء اسكندرونة إليها، وقد أقمت فيها ثماني سنوات، وكتبت عن بحرها ثماني

روايات، وفارقتها موجع القلب إلى دمشق، على أمل العودة إليها، دون أن أعود إليها، فدمشق، مدينة الطريق المستقيم، استهوتني، قل استعبدتني، حتى صار ظهري ملتصقاً بقاسيون، وقدميّ مغلولتين بالغوطة، وروحي هائمة في أزقة القنوات، ومجلسي المحبب في مقهى النافورة، وأمنيتي الخلبيّة أن ينتقل البحر إلى دمشق، أو تنتقل دمشق إلى البحر، وأنْ أبقى حالماً بذلك، حتى لا اسقط في العدم، فصناعة الأحلام إحدى هواياتي، وهي الصناعة الأبهى، والأغلى، في زمن تُذْبح فيه الفلوجة في العراق، والفالج الملعون إلى يوم القيامة، قد أطبق على خناق المسؤولين العرب، فحال بينهم وبين رفع الصوت، ولو من باب المجاملة، أنْ أوقفوا، أيها الغزاة البوشيّون، حملة الإبادة التي تشنونها، بكل أنواع أسلحتكم المدمرة، على بيوت، وأعناق، وجثامين، وأطفال، ونساء هذه المدينة الباسلة!

قال بابلو نيردوا، زمن بينوشه «كيف أكتب عن الزهر، والدم يسيل في شوارع بلدي تشيلي!؟» ونحن، برغم الدوائر الحُمر للقمع في الوطن العربي الكبير، كيف نكتب عن كارثة الفلوجة، أو مجزرة دير حانون في فلسطين، وأيدينا مغلولة إلى رقابنا، وأقلامنا ينز منها الصدأ، لأنها ممنوعة أنْ تكتب عن «الباب العالي» ومع ذلك تكتب، تورية، عن هذا الباب الذي به هبوط في القلب، ووقر في الأذنين!؟

أقول، كرة أخرى، إنّ اللاذقية مدينتي، وعنها أكتب؟ وما نفع الكتابة إذا كانت الكريات الحمر، تلتهم نفسها، فتصير كرياتٍ بيضاً، متسرطنة في شرايين مدينتي، كما هي الحال في العواصم والمدن العربية كلها!؟ لقد كانت اللاذقية، بعد الهجرة من اللواء، المحطة الأهم، الأغنى، الأنفد، بتأثيرها الحاسم، في تكويني، إنساناً وكاتباً.

اعترف. أجمل ما في الحب هو الإمساك عن الكلام عليه، وترك التعبير عنه لومضة العين، أو رفه الهدب، أو حرارة اليد، أو تمسيدة الشعر، أو الذهاب مع القبلة، في هنيهة، من تخوم البداية إلى حافة النهاية، القبلة التي تكتب ذاتها، على الشفتين، الوجنتين، العنق، حبّة القلب، ثم يكون الصمت أبلغ، فنصمت، لأننا، في

الزمن الرديء هذا، قد فرضوا علينا الصمت، ومع الأيام والأعوام، أَلِفْناه، اعتدناه، صار خبزنا اليومي، وزاده سفرنا إلى الخجل، حتى من أنفسنا!

قال بدوي الجبل:

إذا المرء لم يملك وثوباً علـــى الأذى

فمن بعضِ أسماء الردى الحقُّ والصبرُ

وإن حجبوا عن عينه الكون ضـــاحكاً

أضاء له كـــون بعيـــد هـــو الفكـــرُ

ويـــا خيبـــة الطـــاغي يـــدلّ بنـــصره

ومن سيفه، لا روحه، انبثق النـــصرُ

ويا خيبة بوش، الطاغي على العراق بسيفه، وخيبة شارون، السفاح في فلسطين بكل أسلحته.

أميركا .. ومرتزقتها في العراق!

إن لعبة الوهم في الوهم، وحصادها الذي هو وهم أكبر، لخطيئة هي أم الخطايا، أو أم الكبريات لا بد أن يتبددا، فلسنا نحن، والسياسة بعض لُعَبنا، على مدى القرن العشرين ونيّف، من يقوى على «بلفنا» كما في لعبة البوكر، مهما يكن ظِفْرٌ بنصر بوش طويلاً، ومهما يحاول، بهذا الظفر، على الطريقة البرازيلية، أن يخدش ورق اللعب ليكسب، وقد جرّب كاترو، صاحب الوعد بالاستقلال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كما جرب الجنرال سبيرس، الذي دخلت قواته مع القوات الفرنسية الحرة، أن يخدشا ورق اللعب، كلٌّ على طريقته، فباءا بالفشل، لأننا، في سورية، ولدتْ السياسة معنا، بل نزلت، حسب قيلة الزكرتية، من أمهاتنا قبلنا، وعبثاً إطالة الأظفار، وعبثاً محاولات أخذنا من يمين أو شمال، أو من خلف أو أمام!

أميركا، قبل أن تغزو العراق، أطالت أظافر جنودها ومرتزقتها، وكشرت عن ناب أفعى، حين استحال عليها استصدار قرار من مجلس الأمن، فشنت حربها على العراق، دون إذن منه، اعتقاداً أشوح منها، أنّ القوة هي المعتمدة، وفي اعتمادها على هذه القوة، يصبح قرار مجلس الأمن شلواً في فلاة بالنسبة إليها، وهذا كله معروف، ومعروف أيضاً، أنّ القوة العسكرية فائقة التصور التي حشدتها، كانت الرجوة منها أن تضرب ضربتها القاضية في يوم وليلة، وهذا ماحدث، إلا أن أميركا وبريطانيا، في ضربتهما القاضية، استطاعتا اسقاط بغداد، دون أن تبلغا، ولن تبلغا، اسقاط الشعب العراقي البطل، وبدل الزهور التي حسبتا أنه بانتظارهما، واجهتا مقاومة ضارية، لاتزال طعناتها في خاصرات الجنود

الأميركيين والبريطانيين، سديدة، موجعة، دامية، ولم ينفع واشنطن ولندن رفع الشعار الكاذب، بإطلاق اسم القوات المتحالفة، على قوات الدول التي أجبرتها على إرسال جنودها للمشاركة في هذه الحرب القذرة معها، ولم ينفع واشنطن ولندن إشراك اسرائيل في حربهما، عن طريق الموساد الذي شارك في الغزو معها، وتغلغل في العرق بستر منهما.

ولأنّ أميركا قضمت كعكة المنافع المادية وحدها، دون أن تبقى لبريطانيا، شريكتها، إلا الفتات، فإن بلير، الولد الإنكليزي الطائش، يجبه الآن بجملة من المحاسبة والعداء في أوساط حزبه، ومؤتمر هذا الحزب، والغالبيّة من الشعب البريطاني التي أدانت هذه الحرب، وكشفت ورقة التوت عن عورتها.

وبرغم هذا كله، ورغم الخسائر البشرية والمادية، فإن أميركا دخلت العراق لتبقى فيه، وكل قول آخر، المصرور جيداً بورق السولافان، فإنه باطل باطل، والدمى من المتعاونين معها، مكشوفة ومعروفة، وعبثاً كل الوعود المعسولة الأخرى، التي مآلها الافتضاح، أكثر فأكثر، ويوماً بعد يوم، لأن أميركا، حسب الصحف الأميركية نفسها، باقية في العراق، لأن بقاءها يبسط نفوذها على آسيا الوسطى كلها، ويجعلها على حدود الصين وروسيا، وعلى شواطئ بحر قزوين، الواقع الآن في قبضتها، بكل ما يزخر به من احتياطيات البترول، والمعادن والثروات الأخرى.

لقد قلت، في مقال عنوانه: «المقاومة قدرنا وشرفنا» عند سقوط بغداد، أنّ أميركا لن ترتاح في العراق وافغانستان، مهما يطل الزمن، وهذا ما تحقق على أرض الواقع، إلا أن المقاومة العراقية الشريفة، الباسلة، شيء، وما يفعله مرتزقة أميركا من تفجيرات تطال المدنيين شيء آخر، فالمعروف أن أميركا أدخلت معها إلى العراق وأفغانستان، مرتزقة مدربين على مثل هذه الارتكابات الإجرامية، وهم ينفذون المخطط الموضوع لهم سلفاً، والغاية تشويه صورة المقاومة العراقية من جهة، وتنفيذ المآرب الأميركية من جهة ثانية، وهذا مايجب الانتباه إليه جيداً، فالسيارات المفخخة التي تقتل المدنيين العراقيين من كل الأعمار ليست، في

معظمها، من صنع المقاومين العراقيين، وقصف المدن، في أحيائها السكنية، بذريعة قصف مخابئ الزرقاوي، ذريعة كاذبة، ومن المؤكد أنّ اطلاق النار، في هذه المدينة العراقية أو تلك، ذريعة أخرى، لتبرير القصف الذي يليها، بكل أنواع الصواريخ والقنابل من الجو والبر معاً، وربما كان الزرقاوي غير موجود أصلاً، وأنّ استخدام اسمه خدعة لا أكثر، ستكشفها الأيام! إلا أن أميركا لديها الكثير من أشكال التلاعب، عندما تنتهي حاجتها إلى استخدام مصعب الزرقاوي، فقد تزعم أنه هرب من العراق، أو أنه قتل وتفحمت جثته، أو أنه كان يعمل لحساب هذه الدولة الأجنبية أو تلك، وأنها كشفته وصفت حسابها معه!

إنَّ مصعب الزرقاوي هو، الآن، الورقة الرابحة، في التضليل وتصعيد التضليل، وهو المبرر المستور والمكشوف معاً، في ضرب الفلوجة أو غيرها من المدن العراقية المقاومة للاحتلال الأميركي، وفي الخبث المبيت، المخطط له جيداً، فإن أبواق الدعاية المعادية، المسمومة، قد جعلت لمصعب الزرقاوي، قوة في العدة والعدد، تكاد تقارب قوة الجيش الكامل، وهذا الجيش المنتشر في كل المدن العراقية، هو الذي يحارب القوات المتحالفة، وأن الرد عليه، بالصواريخ والقذائف من الجو والبر، فعل اضطراري، وأن قتل المدنيين ليس ذنب الذي يردون على أنصار الزرقاوي، بل ذنب هؤلاء الأنصار الذين يتمترسون وراء المدنيين، ويتغلغلون بينهم، ويعرضونهم للموت، وبيوتهم للتدمير!

لقد أكدت، كبريات الصحف، حتى في أميركا وبريطانيا، ومحطات التلفزة في العالم، أنّ أميركا اصطحبت معها، في غزوها للعراق، أعداداً كبيرة من المرتزقة، وأن دور هؤلاء المرتزقة واسع الطيف، لأنهم مدرّبون جيداً، على تفخيخ السيارات وتفجيرها عن بعد، وفي الأماكن المنتقاة، المزدحمة بالسكان، ثم يأتي اتهام «الارهابيين» من العراقيين المقاومين، بأنهم هم الذين يفجرون هذه السيارات المفخخة، وهم الذين يقتلون المدنيين العراقيين، وأن أميركا تكافحهم دون هوادة، وتقصف المدن بصواريخها الجوية، وقنابلها الأرضية، للقضاء عليهم، كي ينعم الشعب العراقي بالحرية والديمقراطية الموعودتين، السرابيتين، اللتين لن

يتحققا أبداً، وسيظلان سراباً في سراب، لأن الغزو الأميركي، وهذا ما قاله المحللون السياسيون من عرب وأجانب، كان لأجل الأرض والنفط والتوسع الذي تسعى إليه، ليشمل الشرق الأوسط والأدنى كليهما.

إنّ رامسفيلد، وزير الدفاع الأميركي، وكذلك ديكتشيني نائب الرئيس بوش، وبوش نفسه وإدارته، كل هؤلاء يريدون الاستقرار في العراق إلا أن هناك استقراراً واستقرار، والاستقرار الذي يطالب به الشعب العراقي، بعد خروج أميركا من العراق، هو المطلب الرئيس، الذي يسفك لأجله دم المقاومين العراقيين الحقيقيين نهاراً وليلاً، وهناك استقرار آخر، تسعى إليه القوات المتحالفة بقيادة أميركا، كي يستتب لها الأمر في العراق، وتتعم بالراحة التي لم تعرفها، ولن تعرفها أبداً، مادام احتلالها قائماً.

لكنّ بوش يكابر، استناداً إلى ما يزعمه من مكافحة الإرهاب، هذه البدعة الرعناء، الكاذبة المعكوسة كلياً في مضمونها والتطبيق؛ فالغزو هو الإرهاب، والاحتلال في العراق وفلسطين، وهو الإرهاب، وما يقوم به مرتزقة بوش هو الإرهاب، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى هو الإرهاب، وقرار مجلس الأمن ١٥٥٩ هو الإرهاب، وزعم أميركا أنها تريد الإصلاح وتعميم الديمقراطية في البلاد العربية إرهاب أفظع، لأنه تدخل سافر في الشؤون الداخلية لبلاد ذات سيادة، والعلاقة بين سورية ولبنان، المرتكزة إلى الشرعية، ثم إلى اتفاق الطائف، وتجاهل واشنطن لهذه الشرعية، ولما جاء في اتفاق الطائف، هو إرهاب أميركي بالغ الوقاحة، وتعديل الدستور اللبناني، مهما يكن الخلاف حوله، حق من حقوق السيادة اللبنانية، مارسته الدولة اللبنانية من خلال مجلس النواب اللبناني، الذي هو المرجع الدستوري التشريعي، ولايجوز الاعتراض، بأي شكل، وتحت أية ذريعة، من قبل أميركا على مثل هذا التعديل، واعتراضها هنا إرهاب دولة، على دولة أخرى، يتعارض وميثاق الأمم المتحدة، كون هذه الدولة، التي يراد إرهابها، عضوة في هذا الميثاق.

قال بدوي الجبل في قصيدته الشهيد

إذا المرء لم يملــك وثوبــاً علــى الأذى

فمن بعض أسماء الردى، الحقُّ والــصبرُ

ونفسي لـــو أنَّ الجمـــر مـــسّ اباءهـــا

على بـــشرها الريـــان لاحتـــرق الجمـــرُ

وياخيبــــة الطَّــــاغي يـــدلُّ بنـــصره

ومن ســيفه لا روحــه انبثــق النــصرُ

رأيـــت بزُهـــدي مـــا رأى بغـــروره

فأجيالـــــه بـــــاغٌ وآمـــــاده فتـــــرُ

إنّ الأمة العربية الإسلامية، تملك، أو ستملك، اليومَ أو غداً، الوثوب على أذى الآلة العسكرية الأميركية، وتلوي شكيمتها عنوة، وعندئذٍ لن ينفع أميركا جندها أو مرتزقتها، وثعلبية بوش، أو ذئبية رامسفيلد، سيذهب بهما السيل.

مكافحة السرطان مهمة وطنية وإنسانية!

كان السلُّ، في القرن التاسع عشر، هو المرض الأخطر بين أمراض تلك الأيام، وكان القصصي العظيم تشيكوف طبيباً ناجحاً، لكنه مصابٌ بالسلّ، وقد نصحه الأطباء الروس بالذهاب إلى بادن بادن للمعالجة، على يد اختصاصي كبير بمرض الرئة، فذهب ومعه زوجته الممثلة الشهيرة، التي كانت تقدر موهبته الفذّة وترعاها، وبعد أن فحصه الطبيب المختص بأمراض الرئة فحصاً دقيقاً، قال له: «تستطيع يا عزيزي أن تتناول من الشمبانيا القدر الذي تريد!» فابتسم تشيكوف الذي فهم أنَّ كل شيء قد انتهى، ونظر إلى زوجته وقال ضاحكاً: «منذ زمن لم أشرب الشمبانيا، لكنني، الآن، وبإرشاد الطبيب، صار في وسعي أن أعبّ منها الكمّية الكافية للإِرتواء!».

كان تشيكوف الساخر من الدنيا، يدرك، بعمق، أنّ الأوان قد آن لتسخر الدنيا منه، وكان يستشعر الظلم بالناس، في الأرياف خصوصاً، فيتألم لأجلهم، وشعاره أبداً: الإنسان السعيد في مجتمع عبوديٍّ هو إنسان دنيء» وقد كافح بالطبابة والقلم، ضد المجتمع العبودي هذا، دون أن يتخلى عن ابتسامته الودود الساخرة.

مرض السل صار في الدرجة التاسعة اليوم، بين الأمراض الخطرة القاتلة، وتحوّل المستشفى الخاص بمعالجته، وهو مستشفى ابن النفيس، إلى مستشفى لمعالجة الأمراض الأخرى، مع أن الإحصاءات تؤكد أن مرض السل، عاد إلى الانتشار والتفشّي في الأحياء الفقيرة، وبين المعذبين في الأرض!

إننا، في الوقت الحاضر، نواجه خطر مرض أفظع، هو مرض السرطان، الذي يغتال المصابين به، اِغتيالاً لا رحمة فيها، وينتشر بين الكبار والصغار، وحتى بين الأطفال الرضّع، ولأجل معالجته، ونشر الوعي حول الوقاية منه، وإنشاء المؤسسات الخاصة به، نهض رجل كبير، قدير، من بيننا، هو اللواء المتقاعد عبد الرحمن الخليفاوي، ليتولى مهمات جساماً في هذا المضمار، منذ عقود من الزمن، مرتفعاً على الشدائد، نابذاً دناءة اللامبالاة، مدركاً أنَّ رد الفعل الإنساني، في التخفيف من آلام البشر، هو أرقى المثل الإنسانية، وأنّ ظاهرة الرحمة بالغير، وثيقة الصلة بالحياة الكريمة، وأنّ الإنسان، بكفاحه، وأفكاره، ومشاعره، كان دائماً، وسيبقى، الموضوع الرئيس، والأرقى للجهد المبذول في سبيل التخفيف من أوجاع المتوجعين، هؤلاء الذين لا يعرفهم، لكنه يستشعر معاناتهم، وهم يبحثون عن اليد الحنون التي تمسح بالعزاء على جراحاتهم، فكان هو، ومن معه، هذه اليد النبيلة السمحاء!

لقد تأسست الجمعية السورية لمكافحة السرطان في العام ١٩٤٦، وساهم اللواء عبد الرحمن الخليفاوي، رئيس الوزراء الأسبق، في إدارة أعمالها منذ العام ١٩٧٣، وهو يتابع، بجهد متواصل، أنشطتها المتميزة، ويرعى مراكزها في مجمّع الشام الطبي، مطوراً خدماتها للمرضى بتسهيلات كبيرة، وتجهيز أقسام هذا المجمّع، لتوسيع المعالجات الضرورية، حتى غدا هذا المجمّع، لتشخيص ومعالجة الأورام السرطانية هو الأول، والأهم في سورية وخارجها، من حيث خدماته المدعومة من الدولة، دعماً فعلياً، لا مجال لتعداده، إلا أن هذا المجمّع كان، ولا يزال، يحتاج إلى دعم القادرين، لإكمال طوابقه، وتجهيزها بالمعدات الأحدث فالأحدث كل عام، وإنشاء غرف الانتظار والمناوبة والإشراف، وبناء مركز المعالجة الشعاعية وتجهيزه، وتقدر كلفة كل هذه الإحداثات بما يقارب ٧٢ مليون ليرة سورية، من المأمول، إنسانياً، أن يبادر القادرون، الراغبون في الثواب، وهم كثر، إلى مد يد العون لتوفير هذا المبلغ، أو ما يزيد عنه، وبذلك يصبح بإمكان الجمعية السورية لمكافحة السرطان أن تطور خدماتها، وأن تسهم في زيادة طوابق

المجمّع، وتجهيزها بما يلزم، وما ينفع، حقاً وصدقاً، في درء الخطر، وشفاء المرضى الذين إصاباتهم في بدئها، وهذا الشفاء ممكن، في حالات كثيرة، إذا تمّت معالجته قبل استفحاله، وانتشاره في بقية أعضاء الجسم! يُقال، عادة، أنَّ اليد الواحدة لا تصفق، وأشهد أن يد السيد الخليفاوي، رئيس الجمعية السورية لمكافحة السرطان، قد صفقّت وحدها، واستنفرت، بعد ذلك، الكثير من الأيدي التي تصفق معها، فالعمل الصالح يُجزى صلاحاً، والعِرْفُ الطيب «لا يضيع بين الله والناس» والآية الكريمة تقول: «أما الزبد فيذهب جُفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» وهل من نفع للناس أثمن من نفع المصابين بمرض السرطان، وبذل الجهد لشفائهم، أو التخفيف من ويلات بلواهم!؟

إنّ لدي، في أرشيفي المتواضع، ما هو خليق بدراسة مطولة، حول هذا الموضع، سواء ما كان من قرارات الدولة، في البذل لمكافحة هذا المرض، أو ما كان من عمل دؤوب من السيد الخليفاوي ومن معه، للاستفادة من هذه القرارات، في تطوير وتحديث عملهم الجليل، وأرغب، حتى في هذه العجالة، أن أروي حادثة ذات دلالة، فقد حدثني صديق أنّ ابنته أصيبت بمرض السرطان في النخاع الشوكي، وقرر الأطباء أنها تحتاج إلى جراحة في مستشفى الأمراض السرطانية في لندن، وكان السيد الخليفاوي رئيساً للوزراء، والعلاقات الدبيلوماسية مقطوعة بين سورية وبريطانيا، فأرسل مندوباً، على جناح السرعة، إلى بيروت للحصول على فيزا للأب وابنته، وحجز هذا المندوب مقعدين في أول طائرة، وخلال أربع وعشرين ساعة كان الأب والبنت في المستشفى المختص في العاصمة البريطانية، مزودين بالنفقات اللازمة، مع الإيعاز إلى الأستاذ الصديق فاروق الشرع، وزير الخارجية الآن، ورئيس مكتب الطيران السوري في ذلك الوقت، بالاهتمام شخصياً بالأمر، وأشهد إنه اهتم، والسيدة قرينته، بالبنت المريضة، طوال الأيام التي مكثت خلالها في لندن، وأفاء! وزاد، ولن أقول ما هو أكثر، من أنه واجب، حتى لا أتهم بالمغالاة في المديح الذي بي جنف عنه.

ثم تأملوا، بالله، مشاغل رئيس الوزراء، الأستاذ الخليفاوي، وكيف وجد الوقت للاهتمام بالصبية المصابة بالسرطان، تدركوا أن رئاسته لجمعية مكافحة السرطان في سورية وخارجها، قد كانت، وستبقى، رئاسة للعمل النبيل، النابض، يداً وقلباً، بالسخاء، والمروءة، وشهامة الرجال النادرين، هؤلاء الذين يبادرون، تلقائياً، إلى المكرمات، واثقين، بإيمان لا يتزعزع، أنهم القادرون عليها، المتفانون في سبيلها، دون منّة، دون تشوّف، دون طِلاب ثناء من أحد، ودون وَهَنٍ في العزيمة، ما دام العزم من أصلابهم، في كل مهمة أوكلت إليهم، أو كل مأثرة ندبوا أنفسهم لها، فكانوا في الأكفاء، وكانوا الأوفياء.



خذوني إلى السجن.. أرجوكم!

نحن أدرى من هـمُ ولمـن هـمُ ولمـن تمثـل هـذه الأدوارُ

والسجن لو علمتْ مـن الثـاوي به، لتـساقطت ببناتهـا الأحجـارُ

والله زمان يا سجن، يا حبيبي، يا شوقي، وكلما رأيت السجناء، في فيلم سينمائي أو مسلسل عربي، اعتادني الشوق إليك، وتذكرت قول عمر بن أبي ربيعة: «وذو القلب المصاب وإن تعزّى مشوق حين يلقى العاشقين!» وأنا مشوق للسجن صاحبي القديم، الأليف، الذي عشته وكتبته على قلبي، ونقشته على جلدي، وسرت به، بين الناس مختالاً، لأنني، أيام الاحتلال الفرنسي، نعمت بضيافته الكريمة، مرة ومرة ومرات، وفيه تعلمت الحقد المقدس على الاحتلال، فرنسياً كان، أم انكليزيا، أم ايطاليا، ولم أخدع يوما بقفازات الحرير التي تحتها «بونات» مسننة، حادة، موجعة، تلبس في اليد اليمنى، في كفوف البريفوته المدربين جيدا، هؤلاء الاشاوس الأنذال الذين يوجهون اللكمات بقوة، وإحكام، إلى المنطقة التي تحت الخصر!

كل هذا عرفته، تذوقته، كما الهريسة بلذة مبهمة، ولم أكن وحيداً في هذا أو فيما تبعه، ففي سورية رجال وكذلك نساء فادوا بأرواحهم وأفاؤوا وزادوا وعنهم قال الشاعر الشعبي سلامة الأغواني: «والشام لا ترتجع لو مالت عليها جبال، ورصاص زخ المطر، ما هابه رجال الشام» لكنني لست في وارد الحديث عن شجاعة رجالنا والنساء ولا عن سلامة الأغواني الذي قال: «شو جايي تعمل يا جراد، ما حدا منا حبك، بيكفينا جراد البلاد، اذهب لا تتعب قلبك» وقد كان ذلك أيام الشيخ تاج الدين الحسيني صنيعة الفرنسيين،

وأيام الاضراب الخمسيني، الذي فشلت فرنسا المحتلة بكسره، وقد عاش سلامة الأغواني إلى أيام الحركة التصحيحية. وكانت لفتة رائعة من الرئيس حافظ الأسد، المعتد برجولته، وإبائه وشمائله حتى بلغت به العزة النفسية، درجة إجبار رئيس أميركا كلينتون إلى ملاقاته في منتصف الطريق، أي في بلد أوروبي. نعم إنّها لفتة ذكية، كريمة من الرئيس الأسد أن عين الأغواني عضوا في أول مجلس شعب بعد الحركة التصحيحية.

قال عمر فاخوري في كتابه «الحقيقة اللبنانية» إنَّ كتابة تاريخ لبنان في مقبل الأيام، ستستمد من أشعار عمر الزعني أكثر مما تستمد من الشعر الفصيح. وهذا ينطبق على سلامة الأغواني أيضا.

ولأنني إنسان شعبي مثل الشاعرين الشعبيين سلامة الأغواني وعمر الزعني، ولأنّ المتنبي العظيم قال: «خلقت ألوفا فلو رجعت إلى الصبا، لفارقت شيبي موجع القلب داميا!» فإنني قد ألفت السجن واشتقت إليه وأرغب في العودة إلى أحد أقبيته، حيث آكل وأشرب وأنام على حساب الحكومة وأنقش كغيري من معاناته تجربة جديدة على ظهري.

الفيلسوف والمناضل الفرنسي جان جوريس قال: «من لا يخاف ظلمة القبر، يفعل ما يريد فعلا حميدا» وشاعرنا جرير الذي تغزل بعيون النساء غزلاً باقياً على الدهر بكى زوجته التي ماتت، ما دمنا من قوم بكوا واستبكوا بغير فسولة أو هوان، وقد كان جرير رائعاً صادقاً أصيلاً في بكائه على زوجته لكنه لم يزر قبرها خشية قيلة السوء بحقه، ولما اشتدت به الحسرة على فراقها قال: «لولا الحياء لهاجني استعبار/ ولزرت قبرك والحبيب يزار».

من هذا كله، أجد أنّ رغبتي في العودة إلى السجن مبررة تماماً وأنّ فعلتي لو تحققت لن يكون فيها حياء أو استحياء، وبعد الثمانين، «التي بُلّغتها» لم أرث من العبقرية إلاّ جنونها. فمبارك الجنون ثلاثاً وملعون العقل ثلاثاً لأن كل حكامنا، في الوطن العربي الكبير، عقلاء جداً ولشد ما أساء التعقل هذا إلى قضايانا المصيرية،

وكنا نتعزى بأنّ بينهم مجنوناً واحداً ونحن الآن نلطم على صدورنا لأنّ هذا المجنون انقلب الى عاقل من النوع السيّئ والرديء!

لا بأس! والدي قال لي يوما: «يا حنا! الدهر دولاب، لا عمك ولا خالك!» وامرأة القبو، في روايتي «الشمس في يوم غائم» قالت لي، حين جئت أودعها لأغوص في بحر الظلمات: «اسمع يا صديقي، الرجل لا تذله الا شهوته، فلا تدع شهوتك تذلك!» وقبل مغادرتي اللاذقية مدينتي العزيزة كنت في السجن زمن حكومة جميل مردم بك، وهناك حفّظني رجل منتور، هذين البيتين من الشعر:

أتى الزمـــانَ بنـــوه فـــي شـــبيبته	**فـــسرّهم وأتينـــاه علـــى الهـــرم**
تقلّـــدتني الليـــالي وهـــي مـــدبرةٌ	**كأنني صارمٌ فـــي كـــفِّ منهـــزم**

ومنذ ذلك الوقت نصبح على هزيمة، ونمسي على هزيمة أكبر، ونتذكر القرن العشرين، الذي كانت بدايته مجيدة، ونهايته سافلة، ونعجب وقد تجاوزت خطانا عتبة القرن الواحد والعشرين، أنّ السفالة ازدادت وأن الهزائم تتالت وهي لمن يقرأ ما بين السطور المكتوبة بالحبر السري، إلى ازدياد أكبر، وأنّ الشفافية الدارجة لفظتها هذه الايام، لا ضرورة لها ولا لزوم ما دامت المذابح في فلسطين وبعدها في العراق، صارت مكشوفة معروفة تأخذ بنا، كل يوم جديد، خطوة جديدة، في الطريق إلى جهنم دون أنْ يرف لبعض حكامنا العرب جفن، لأنّ العين، في حكمتهم المبتذلة، لا تعلو على الحاجب ولأنّ السرّة ليست فماً، كي تصرخ: كفى! ولأنّ الشعب العربيّ، المخاطة شفاهه بأسلاك صدئة من الحديد، ممنوع عليه أنْ يصرخ من الألم ومع هذا تصرخ أنامله المدماة وأظافره المقتلعة ورموش عينيه المنتوفة، والمعتصم غائب وا أسفاه!

هكذا صار الوطن العربي الكبير، محجراً كبيراً لأبنائه الميامين الذين في سرائرهم يمضغون الحقد عظما حتى تهرأت أسنانهم من مضغه، والسفينة الراسية في مثلث الرعب، لم تهيئ لها الأقدار ربّانا، ولا فائدة من إضمار: «نظار تطلع على الدنيا سرايانا» فهذه السرايا في أيدي الذين ينامون نومة أهل الكهف، وبحورنا

في جزر والمد المنتظر بعيد بعيد، والرهان، بين حكامنا والمحكومين منا، منضفر على الصبر، ولسوف نصبر على البلوى وغمرتها، إنما بكبرياء يشرئب به الإباء المر محلقاً!

إنّني وربما غيري أيضاً في شوق إلى السجن الصغير، بعد أن ضاق بنا السجن الكبير، وآخر مرة ارتوى فيها هذا الشوق، بعد ظمأ الهاجرة كان في العام ١٩٦٧ بعد عودتي من المنفى القهري، الذي دام ثمانية أعوام ونيفاً وبسبب من كوني مواطناً صالحاً، فقد اعترفت تلقائياً أنّ الصين التي كنت فيها، غير مسجلة في جواز سفري، وأنّ المعاملة، لتصحيح هذا الخطأ، موجودة لدى دائرة الهجرة والجوازات في دمشق، وقد ذهبت مع المرحوم فؤاد قدري، النائب الذي كان له عزوة آنذاك، إلى دائرة الهجرة حيث أوصى بي خيراً وانصرف. وفوراً طلبوا مني أن اكتب تقريراً عن حياتي، من الألف إلى الياء، وكتبت، باختصار، ما طلبوا مني، فقالوا لي بجفاء: «انتظر ولا تتحرك!» وعندما سألتهم: «لماذا؟» صاح بي أحدهم «سد بوزك!» ولم أسدّ بوزي وصحت: «يوم كنت في سجون فرنسا، كانت امهاتكم لم تحبل بكم بعد، وأنا صاحب رواية المصابيح الزرق ورواية الشراع والعاصفة ومن مؤسسي رابطة الكتاب العرب» وقد جئت إليكم بنفسي، فماذا تريدون أكثر؟ شتموني، فرددت الشتيمة بمثلها، وعندئذ انهالوا علي بضرب مبرح، وجاء شرطي ووضع طرف الكلبشة بيدي، وطرفها الآخر في يده، وقام مشكوراً بجرّي وراءه في نزهة جميلة وممتعة، حتى طوف بي، كل أسواق المرجة وما جاورها. وقبل المغيب رماني في نظارة قصر العدل، بشارع النصر، ومنها ، في الصباح إلى سجن القلعة، وأهلي لا يعرفون أين أنا، ولا ما هو مصيري. وبعد أن «أدّبوني» جيداً، جرت محاكمتي وضحك القاضي الفرد، الذي كان يعرفني صحفياً وكاتباً، وقال للمحامي المسخر الذي عينوه لي:

لا تتعب نفسك يا أستاذ، شكراً لهذه المصادفة السعيدة!

قلت:

أية مصادفة وأية سعادة، يا جناب القاضي!؟

ضحك القاضي وقال:

أليست مصادفة سعيدة، أن نتعارف وأن يلتقي الكاتب والقارئ؟

وبعد وقفة:

أمسِ أنجزت قراءة «الشراع والعاصفة» وآمل أن أقرأ قريبا قصة أو رواية عما جرى معك.. أما الحكم فهو كذا وكذا، في النص القانوني: الذي وضع أيام الوحدة المصرية - السورية المباركة، ولأنك كذا وكذا فقد حكمنا عليك بغرامة ٥٠٠ ليرة سورية. وللأسباب التخفيفية خفضنا الغرامة الى ١٢,٥ ليرة ونصف تدفعها غداً أو متى شئت..

ثم تنهد وقال:

آه من بلاد الواق واق هذه.. ومن المحيط إلى الخليج أيضا!.



سورية ليست معزولة!

فأن تسأليني كيف أنت فإنني صبورٌ على ريب الزمان صليبُ
يعزُّ عليَّ أن تُرى بي كآبة فيشمت باغٍ أو يُساءُ صديقُ

«الجميل هو الحقيقي، الحقيقي ولا شيء آخر» ونحن في سورية، حقيقيون بامتياز، وننشد الحقيقة بامتياز أيضاً، وقد أثبتت الأيام صدقنا، وأظهرت كذب الآخرين، الذين روّجوا، طويلاً جداً، أن سورية معزولة، لغاية رعناء في نفوسهم، والسياسة التي نحن، كما غيرنا، من أربابها، لا تنفع معها الرعونة، وكذلك التدليس والتمليس، وقد قال زعيم الصين الشعبية، وقائد مسيرتها الطويلة: «إن الغرض من عملنا كله، هو دحر العدوان، منازلته حتى النصر، وبعد النصر يكون الإنتاج، اقتصادياً أولاً، وثقافياً تالياً، فبلد بغير ثقافة، هو بلد راكدُ الذهن، لا يستطيع هزم العدو بالشكل الذي يتمناه!».

وقال كارل ماركس: «إن الفلسفة الماركسية ترى أن جوهر الإنسان هو نشاطه الواعي، أي العمل المثمر، فإذا فقد الإنسان السيطرة على منتجات عمله، وأصبحت في أيدي الغير، فقد السيطرة على الأشياء، وأصبح يخشى هذه الأشياء، يكرهها، وفي الوقت نفسه، يكره الناس والمجتمع من حوله، بغير طائل!».

وقال ماياكوفسكي: «إنني أمجد الوطن الموجود، ولكنني أمجد ثلاثاً الوطن الذي سيكون».

وقالت فرجينيا وولف، في روايتها «المنار»: «أيها البحارة الذين هزمتم العواصف، حرّكوا أجنحتكم».

وقد حركنا، نحن، في سورية الحبيبة، أجنحتنا في الوقت المناسب تماماً، وعملنا بقول الفيلسوف الإيطالي غرامشي: «العمل الموصوف في الظرف الموصوف» ويوم قصدنا موسكو، والتقى الرئيس بشار الأسد بالرئيس بوتين، كانت زيارته في وقتها المناسب، وظرفها المناسب، لأننا، في هذه الزيارة، حققنا الكثير، سواء في إسقاط جزء من المديونية، أو بتقسيط الكمية الباقية على مدى عشرة أعوام، نسددها بتصدير منتجاتنا، وهي متعددة متنوعة، ثم كانت الزيارة إلى السعودية، ذات نتائج مثمرة أيضاً، ومثلها زيارة القاهرة ولقاء الرئيس مبارك، واستقبال الوفود، من كل البلدان العربية والأوروبية، أو أكثرها على الأقل، وهذا ما انعكست نتائجه، ذات الأهمية البالغة، في وقوف موسكو وبكين والجزائر وبنين، إلى جانبنا في مجلس الأمن، بصرف النظر عن هذه أو تلك من ملاحظاتنا على البيان الذي صدر عن هذا المجلس.

لقد قلنا، وكررنا: إننا مع لجنة التحقيق الدولية، وقد تعاونا مع لجنة ميليس بإخلاص، وسنتعاون معه، في الآتي، بإخلاص أيضاً، إلا أن موضوعنا في هذه المقالة، هو إثبات ما هو مثبوت فعلاً لا قولاً، من أن سورية ليست في عزلة، ولن تكون في عزلة، مهما اصطخبت العواصف والأمواج من حولها، فمن كانت له هذه الصلات، وهذه التوجهات السياسية الفرعية، مكانه قلب الأحداث لا أطرافها، ودمشقنا التي كانت ولاتزال، هي المقصودة لذاتها، وبذاتها، تبقى عصية على الأخذ، من يمين أو شمال، وعصية على العزلة التي يتوهمها أعداؤها، كيداً يُكاد، أو وهماً باطلاً من العسير جداً أن ينقلب إلى حقيقة، وقد كتبنا حول هذا، وباركنا المبادرات السياسية التي قمنا بها، وما أثمرت من صلات نعتز بها، مع محيطنا العربي، ومحيطنا الدولي، وفيه القول الفصل، دون غمغمة أو جمجمة، على أن سورية حاضرة في الوجدان الجمعي، للشرق كما للغرب، ومن كان هذا واقعه وهذا شأنه، فإنه على جنف كبير من العزلة التي يتقوّلها أي عدو لها، فالزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض!.

إن دمشق، كما يعرف أكثر المؤرخين، وكما قال مؤخراً محمد حسنين هيكل، قد كانت، وستبقى، ظئر العروبة، وملتقى الأحداث، تتقاطع فيها، وعليها، بسبب موقعها الجغرافي من جهة، وارتداد كل الغزاة مدحورين عنها من جهة أخرى، فرؤوس جيش تيمورلنك على أسوارها تحطمت، وعنها، بالسواعد القوية المناضلة، جاء الفرنسيون والإنكليز معاً، في التاريخ الحديث، ومعركة البرلمان المشهورة، بقيادة الطيّب شربك وجنوده البواسل من الدرك، شاهد لا يدحض، وقد طبقت دمشق قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ بحذافيره، وهي على استعداد تام، لاستقبال لجنة ميليس للتحقيق مع من تريده من أبنائها، حول جريمة المرحوم الحريري الذي كان صديقاً لسورية، وتلقى منها الدعم والتأييد، زمن رئاسته لوزراء لبنان كلها.

وسورية، لمن لا يعرف من الأجيال اللاحقة، كانت البلد العربي الأول في إجلاء المستعمرين عن أراضيها، وصدق بدوي الجبل في قوله، بهذه المناسبة:

جلونـــا الفـــاتحين فـــلا غـــدواً نـــرى للفـــاتحين ولا رواحـــا

إذا تكـــسرت رماحنـــا وصـــلنا بأيـــدينا الأســـنّة والرماحـــا

ثم يضيف:

الزغاريـــد فقـــد جُـــنّ الابـــاء من نعميـــات الله هـــذي الكبريـــاء

نعم جلونا الفاتحين عنوة واقتداراً، وصارت دمشق حزمة الضوء، في بؤرة الأحداث، ولهذا فإن أميركا تضغط وتضغط عليها، كي يتسنى لها، بعد ذلك، تحقيق مشروعها الخطير، المعروف بالشرق الأوسط الكبير، وبذلك تحتوي الوطن العربي الكبير، وتخضعه لمآربها الاستعمارية، ولكن هيهات!

يا أبا عمر.. أحقاً أزمعت الرحيل!؟

قد كنت أُوثرُ أن تقــول رثــائي   يا منصفَ الموتى من الأحيــاء!

زرتك وأنت في غيبوبتك، مرة ومرة، رجوة أن تحدث المعجزة وتقول لي: وداعاً! لكنك لم تفعل، لأنك، يا رفيق دربي الطويل، تريدني، كما عهدي بك، أن أبقى، كي أواصل صمودي وحيداً إلى الجلجلة، لأننا، أنت وأنا، من الباقين في ذاكرة الزمن الجميل، يوم كنا على موعد مع عرس قانا، في غير قانا الجليل، نرفل بالشباب وَقْدَ حماسةٍ، ونحن في المؤتمر الأول العلني للحزب الشيوعي السوري، الذي انعقد في بيروت، في مكان لاتسعف الذاكرة الخؤون، في تحديد مكانه، ألا أنّه في الغربية من العروس لبنان، وفي طلعة مار الياس تحديداً، وفي حضور كثيف من الشيوعيين، وغير الشيوعيين، من سورية ولبنان، يتقدمهم رئيس مجلس النواب اللبناني آنذاك حبيب أبو شلا، وبعض المسؤولين من البلدين، والكثرة من المبدعين فيهما أيضاً، يصغون، ربما لأول مرة، إلى الخطيب الذي لامثيل له في الخطابة، في الجهات الأربع من دنيانا في جاذبية الزعامة: خالد بكداش.

هناك، يا نبيه، رأى أحدنا الآخر، قدمت أنت من دمشق حيث تدرس الطب البشري، وجئت، أنا الحلاق، من اللاذقية، وما كان يخطر في بال أي منا، أن صداقة رفاقية، هي العروة الوثقى، ستجمع بيننا، مدى سبعين عاماً، أكثر أو أقل، لا فرق!

كنت يومها، لو شئت، رئيساً للوزراء في الأردن الشقيق، فوالدك عبد الرحمن رشيدات وصّي على العرش، وقد استدعاك الملك عبد الله فترددت في تلبية دعوته، إلا أن والدك أصر على الذهاب فذهبت، وتلقاك الملك عبد الله بعمامته السوداء المشهورة، قائلاً: «ما شاء الله، ماشاء الله، أنت شاب أسمر جميل مثل

والدك، فلماذا لا تكون مثله في خدمة هذه المملكة الواسعة؟ فأطرقت ولم تجب يا نبيه، لأنك كنت تفضّل أبا غنيمة، المعارض الشهير للملك الأردني، والمقيم في دمشق، ملجأ الأحرار، وملاذ المتنورين، قديماً وحديثاً، وبعد أن تأملك الملك عبد الله، الذي يجيد اللغة التركية، إجادته اللغة العربية، قال لك بلكنته الأقرب إلى التركية: «بلغنا يا نبيه، أنك تميل إلى الكومونستو»، فهل صحيح ما بلغنا، أم إنها إشاعة من جماعة هذا الكافر أبو غنيمة «البازاونك»!؟ فلم تجب أيضاً، لأن والدك أوصاك ألا تتحدى الملك عبد الله، ولا تستفزه، وعندما خرجت، أوهمت بذلك، اكتفيت بالإنحناء لجلالته، فتقبّل ذلك منك، ولم يمد يده لتقبلّها كما يفعل الآخرون، من الوزراء والوجهاء، لأنه كان يأمل أن تعود إليه، وأن تكون في المنصب الرفيع الذي ألمح إليه، فوق أنه، من الذين لا ينقصهم الذكاء، فمن ذا الذي يزعم أن الملوك وقادة الدول، حتى في ذلك الزمن، ينقصهم الذكاء!؟ إنني أبتسم إشفاقاً من الكتَّاب الذين يصورون الإقطاعيين أو التجار أو الوجهاء تصويراً كاريكاتورياً، لمجرد أنهم ضد «الكومنستو» أو «البولشفيك» أوما شئت من صفات غريبة مثل «الكفار» أو «الدين سر» أو البالق الغريب، أي السمك الاجنبي الذي أتى به الأرمن إلى بلادنا!

نبيه رشيدات، الكاتب، والشاعر أحياناً، فوق كونه طبيباً إنسانياً لا مثيل له، أكمل دراسة الطب في جامعة دمشق، ثم قصد لندن للدراسة الاختصاصية، فتخرّج إختصاصياً بالأمراض الصدرية، وراح يداوي الناس في دمشق، ومحيطها دون مقابل غالباً، سواء في عيادته، أو بيوت المرضى الفقراء الذين يعجزهم الداء عن المجيء إلى هذه العيادة في ركن الدين، وعندما ضرب المستعمرون الفرنسيون مجلس النواب، سبقهم في ارتداء ثوب رجال الدرك، وبهذه الصفة كان يحمل حقيبة الطبابة، وينتقل، من بيت مصاب، إلى بيت مصاب آخر، دون خشية أو وجل، فسلك الدرك كان بقيادة الأرمني «هرانت بك» وقد ناضل الأخوة الأرمن إلى جانب العرب، نضالاً بطولياً مشهوداً.

إنني أكتب عن نبيه رشيدات الرفيق، والقائد الشيوعي البارز، والإنسان المحب، الدمث، الأريحي، الذي لا تفارق الضحكة محياه، والذي يشيعُ البهجة حيثما كان، وله حضور خاص، مميز، فاتن، بشبابه، وسمرة طلعته، ونشاطه الذي لايحد، والخطيب البارع، بصوته الجهوري، المدوّي، الفصيح لغة، دون خطأ في النحو، أو ونى في الصبوة إلى الجلّى، على تواضع، وحب للناس، جميع الناس، وقدرة فذّة في صدق المودات، قلباً ويداً.

وتعجب وليدتي من بكائي وأنا أكتب هذه الكلمات، وتهرع إلى المناديل الورقية مسحاً لدموعي، غير مدركة أن القلب المصاب وإنْ تعزى، مشوق حين يلقى الراحلين، الحاضرين جسداً، الصامتين فماً، وإنني أنادي، وأنادي، دون كلمة وداع رداً على النداء، بل النداءات، من الرفاق، من الصحب، وهم في الكثرة من محبيه.

نبيه، يا نبيه! الدموع تقول ولا تقول، لكنها تسيل حارقة بين الضلوع، على رجاء لارجاء فيه، أن تسمعنا، وأن ترد علينا!

ثم لا أدري، أكان ذلك وهماً أم حقيقة، والأرجح كان وهماً، إنني سمعته أي الدكتور نبيه، في الزيارة الأخيرة له، في الجناح الخاص من البناء الذي سهر الكبير المرحوم عبد الرحمن الخليفاوي على إنشائه لمعالجة مرض السرطان، وفيه يرقد أحب الناس إلى قلبي، أبو عمر، وهو يتمتم، أو يغمغم، بهذه الكلمات:

ســــلامٌ كلّـــه قبَـــلُ   إنّــــي راحـــلٌ عَجِـــلُ

فصحت، من بين دموعي: لا ترحل! لاترحل! لا تسبقنا فنبقى في اليتامى من بعدك، فقد كنت في الأوفياء دائماً، فلماذا، يا الله، تسمح له في الانتقال إلى الملأ الأعلى، حيث سدرة المنتهى، بينما لانزال نحن على الطرف الآخر من الصراط المستقيم؟ لقد كان عنواناً في الوفاء، فلتحدث المعجزة، مرة واحدة، كي يبقى كما كان، وكما نريده أن يكون دائماً، وفياً، لذلك نسألك منحة كرم من لدنك، أيها العزيز القدير، شفاعةً وصلاةً نرفعها سجّداً، ونحن في البياض لبوساً وقلوباً.

مقالة عن خالد بكداش

يا أبا عمار، أيها المعلم الذي رحل عنا:

لاتــــسلْها فلـــن تُجيـــبَ الطلـــولَ
المغـــــاوير مـــــثْخنٌ أو قتيـــــلُ

موحشاتٌ يطوف في صـمتِها الـدهرُ
فللــــــدهر وحـــــشةٌ وذهــــولُ

نـــام عنـــد الثـــرى أحبـــاء قلبـــي
فـــالثرى وحْـدَهُ الحبيـــبُ الخليـــلُ

يـــا رفـــاقي بكيـــتُ فـــيكم شـــبابي
كـــلُّ عـــيش بعـــد الـــشبابِ فـــضولُ

أيها الكبير الراحل!

في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت فعلاً، والفعلُ كان، في جسارة حواء، جنساً، معه كان التاريخ تاريخاً، كان ايقاظاً للنوّم أن استفيقوا، كافحوا في الأرض، التي هي، في معنى المعنى، السماء الحقيقية لمكافحين، لأنها ميدان صراع، عبر الحركة التي تنفي السكون، في وحدة هي الأصل، والمرجع، للتناقضات، وفي قلب هذه الوحدة يدفع التناقض الأمور إلى الأمام، ودونه ما كانت الأنظمة الخمسة، من المشاعية إلى الرأسمالية، ومن الرأسمالية إلى الإشتراكية التي سقطت تجربة واحدة

منها، بسبب من أن حرق المراحل، بها جَنَفٌ عن الاستمرار، أو تتكيف مع الواقع، كما هي الحال في الصين الشعبية اليوم مثلاً!

إنني، وأنتم، أو بعضكم، معي في أنَّ تجربة الاشتراكية السوفياتية صارت وراءنا، وإنّنا نتطلع، بثقة يقينية، إلى التجربة الاشتراكية التي أمامنا، ولينتحر ألف فاكوياما الذي بشَّر بنهاية التاريخ، ترميزاً إلى تأبيد التاريخ الرأسمالي، الذي هو أحد مؤدلجيه المأجورين.

إن نفي النفي قانون لايخطئ، فقد نفت التجربة الاشتراكية النظام الرأسمالي، وعاد النظام الرأسمالي لينفي التجربة الاشتراكية، وستعود التجربة الاشتراكية التي أمامنا، لتنفي النظام الرأسمالي، شريطة ألا يكون ثمة حرقٌ للمراحل، فنقع ثانيةً في الخطأ.

هذه، وبغير ربط محكم مني، بعض البدهيات الماركسية التي تعلمناها منك، على مدى السنوات الستين ونيفٍ، من رفقة النضال الطويل الذي خضناه بقيادتك، وقد كان لي حظ لقياك الأول، وأنا طفل يحاول أن يسمع، وأن يفهم، وأن يسأل المناضلين الأوائل، من أمثال فايز الشعلة، وعفيف الطويل، وعبدو حسني، أي خليل في رواية الثلج يأتي من النافذة، نعم كان لي حظ لقياك عندما زرت، في العام ١٩٣٦ اسكندرونة وخطبت في سينما روكسي، مع ابن عبدو ينّي، زمن الجبهة الشعبية في فرنسا، وكان المستشار الفرنسي في اسكندرونة من هذه الجبهة، أو من الشيوعيين أوالاشتراكيين تحديداً فسمح، خلافاً لتعليمات الانتداب الفرنسي في سورية، بفتح مكتب للحزب الشيوعي السوري فيها، هو الأول في سورية، وهو الأول بالنسبة لخطابك العلني، الذي أثار حماسة الحاضرين، وكاد يدمي أيدي الحاضرين من شدة التصفيق!

المرة الثانية التي التقيتك فيها، وأنا شاب يافع، كانت في المؤتمر العلني الأول للحزب الشيوعي في بيروت، في اليوم الأخير من عام ١٩٤٢، واليومين الأولين من عام ١٩٤٣، وبرهبة، ودهشة، وسعادة استمعت إلى تقريرك الطويل في المؤتمر، وفيه حللت الموقف سياسياً واجتماعياً في سورية ولبنان، وأكدت أن

الوحش النازي، الذي ارتد جريحاً مدحوراً عن ستالين غراد، سيرتد عن كل الأراضي السوفياتية، وأن الجيش الأحمر، بقيادة المارشال جوكوف، وتوجيهات ستالين العظيم، سيحرر ألمانيا وأوروبا كلها من النازيين والفاشيين، وقد صدقت نبوءتك، وتحققت رؤاك كلها.

قال بدوي الجبل:

شـــادٍ علـــى الأيـــك غنانـــا فاشـــجانا

تبـــارك الـــشعرُ الحانـــاً وأوزانـــا

تـــرنّم البـــان واخـــضلّت شـــمائله

فهل سقى الشعر من صـــهبائه البانـــا

في الجواب أقول: نعم! فنحن، بقيادتك، كنا ولانزال، وسنبقى، نغزل بالكلمة، النثر شعراً، ونغزله أيكا. وباناً، تيها بالجمال، والتيه بالجمال يكون، مرحباً بالحياة يكون، وإنّي لأستشعر، اليوم، فتوناً بالنشوة، وأنتم معي، وأبو عمار معنا، على متن سحابة، نسوق الريح رهوةً، وهي، في زهوِ مسراها، جلوة ذكرى، وأسى، ورحمة، لرحيلك العاشر عنّا، نحن الذين لايزال بين ضلوعهم، حضورُ عزمٍ كالذي كان، ونحن في ميعة الصبا، هبوةَ عزمٍ، تشيل بنا إلى مطلع الشمس، حيث الأكواب ملأى من عرس قانا، عتاق راحٍ، في عتاقِ مودات، باقيةٍ ما بقينا.

يا أبا عمار، أيها السياسي المفوّه، والمناضل العنيد، والخطيب المفرد، بين خطباء الدنيا كلها، تحضرني، بمناسبة: الذكرى العاشرة لرحيلك، الآية الكريمة «ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا» صدق الله العظيم، وتحيةٌ من القلب، إلى الرئيس بشار الأسد، الذي رعى الثقافة والمثقفين، بمنحهم الأوسمة من الدرجة الممتازة، في دورات ثلاث حتى الآن، وهي باقية، مستمرة، نضرة، منضرة، موفورةُ القدرِ والشكرِ معاً!

البحر لا بحرا!

ولمـــا صـــار ودّ النـــاس خِبّـــا   جزيـــت علـــى ابتـــسامٍ بابتـــسامِ

وصرت أشكّ في مَـن اصـطفيه   لعلمـــي أنـــه بعـــض الأنـــامِ

من دمشق، مدينة الطريق المستقيم، والتاريخ العصيّ على التأريخ، طارت بي السيارة الى اللاذقية، حيث البحر الذي لا بحر، كما كنت اعرفه، فقد ردموه بالرمل، من رابية البَطَرْنة، حيث مجلس ريّس الريّاس، محمد بن زهدي الطروسي، الى ما بعد السجن الذي عرفته، وألفته، لكثرة ما تداولتني قواويشه، زمن الانتداب الفرنسي، وجميل مَرْدم والإقطاع، وزمن الإقليم الشمالي الذي اغتاله الإقليم الجنوبي، بإنشوطة المشير، وعصاه، وزبانية مخابراته، الذين اذابوا جسد المناضل الكبير فرج الله الحلو، بالأسيد والمحاليل، بعد ان نفخوا بطنه بشكل مرعب، وداسوا عليه بغير رحمة، وبذلك، مثالاً، أضاعوا أول وحدة عربية في تاريخنا الحديث.

إنَّ اللاذقية التي هي مدينتي، وبحرها شراييني، وناسها أحبابي، والسلاّطة التي يرقد فيها شاعري الأكبر بدوي الجبل، صائغ الأبيات الشعرية صياغة الذهب، قد أنكرتني في زيارتي الأخيرة لها، وهكذا ترجّل فارس البحر، ومن بيت أبيه ضُرب، وهكذا أدرك أن الأحقاد، حتى في موقف اللهو، تنبت عوسجاً من تحت الأظافر، وأنّ عليه، هو الذي يعلم، أنْ يكتم، شهامةً، ما يعلم، لأن حارس زرقة البحر، الحقود وجهاً وقلباً لم ينم، ولأن الكلب غودو، المنتظر عاماً بعد عام، لم يأت، ولن يأتي ابداً!

إنّ الحارس سيبقى حارساً، وكلب غودو المنتظر، سيبقى كلباً معقوف الذيل، والمقنع الكندي لا حضور له، والبحر الذي بلّطوه يرفع شكواه، في الأصباح والأماسي، إلى الأفق الكامد، بعد غياب الشمس، المشعشعة أرجواناً، في مطاوي المدى اللامنظور.

وضحك الفارس من جوقة النفاق، ومن الذين شربوا اللوثر بأقداح من فخار، ثم حطموها على أقفيتهم المكتنزة، ومن الذين تناولوا خبزهم اليومي من يده ثم عضوّها، ومن صدق كلامه وفشار تبجّحهم، ومن البحر الذي خسر مرتين، في يوم واحد، أعز الناس لديه، إرضاءً لشهوة حب الظهور، واستجلاب الأسى في غير إقناع، وأنين اللجة التي وجدت، حتى في زرقتها، الوقت لعتاب الزرقة، عتاباً كاذباً، ذهب جفاء مع الزبد الذي له رغاء، لا ينفع الناس في شيء.

وغادرهم الفارس إلى غير رجعة، اشفاقاً، وحدباً، وترداداً لقول القائل «سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم/ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر» وكم كانت لياليهم مظلمة، فبدد ظلامها دون منّة، دون صخب، دون تشوف، بل بالكلمة الحاسمة، المرضية، الباترة لكل وزر برضى الله والوالدين معاً!

وكان بينهم رجل له في القلب معزّة، ولأجله، هو القريب البعيد، تحمّل، وانزوى، في ركن بعيد، حتى انتهاء مهزلة تقاسم الغنائم، ولم يعتب، فالعتاب يليق بمن يجر الذيل تيهاً، والمؤمن الصابر غير تياه، غير وجل، غير شقشاق السان، له وجه واحد، وقول واحد، ونظرٌ واحد ثاقب، به يرى، وبه، عدلاً، يُجزي، وبه يحاسب، وحسابه عسير على الذين يستهينون بالضعفاء، والمعذبين في الارض، والذين لأجلهم تنزلت الآية الكريمة «ونريد أن نّمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين».

ترجل فارس البحر، فالبحر لا بحر، بالصورة التي هو عليها الآن، وتذكر اليوناني الثائر، الذي أنزل العلم النازي عن الاوكربول في أثينا، فلما فشلت الثورة اليونانية بعد الحرب العالمية الثانية، سجن، وقدم إلى المحكمة، بتهمة الخيانة، ولم

يجب على الأسئلة السخيفة من قضاته، بل «كان يضحك، والقرنفلة في يده تضحك، من هذه المهزلة، ونذالة هذه الايام».

فارس البحر الذي ضاعت فروسيته، وانزوى في ركن من بناء الكازينو، لم تكن لديه قرنفلة لكنه، مثل صاحب القرنفلة، كان يضحك من هذه المهزلة، ونذالة هذه الأيام!

ولما اشتد حنينه إلى دمشق، إلى «الشام التي لا ترتجع» كما قال المرحوم الزجّال سلامة الأغواني، «لو مالت عليها جبال» ولا تهبُ «الرصاص زخ المطر» أو تنسى معركة البرلمان، واستبسال المدافعين عنه، غادر اللاذقية.. إلى أنْ تبترد الأمواج، فيعود ثانية إليها.



يوسف فيصل.. قائد شيوعي عالي الكفاءة!

القيادة فن تشغيل الناس، هذه هي المقولة العلمية، الموضوعية، التي أثبتت الأيام والأعوام صحتها، في سِفر النضال والمناضلين جميعاً، وفي مجد القتال العسكري وتضحياته في سبيل الوطن والشعب، في جميع الأمم، ويسبق القتال الإعداد له، وهذا الإعداد، سلماً وحرباً، يرتكز على التنظيم، فكرياً ومادياً، والتنظيم، في الإستراتيجية والتكتيك، لا بد له من التعمق في المعرفة، وهذه المعرفة تتحصّل، عادة، من الكتب والناس، مع ملاحظة هامة جداً، هي أنّ التعلم من الناس هو الأصعب والأرسخ، وفي عصر المعلوماتية وثورتها، تصبح مقولة الأخذ من كل شيء بطرف شبه لاغبة، أو عديمة الجدوة، وكل الدراسات الراهنة تأخذ الجِدوة في حسابها أولاً، وثانياً، وثالثاً أيضاً.

وموضوعة «القيادة فن تشغيل الناس» مدنيا وعسكرياً، قد لا أكون أنا صاحبها، وإنما صارت من مكونات ذهني، نهلاً من الكتب وما فيها من دراسات، واستقرّت في عمق هذا الذهن منذ بدأت العمل في السياسة وأنا في غرة شبابي، يوم كنت حلاقاً في حارة القلعة في اللاذقية، وما تبع ذلك من أعمال، أغلبها إجير في مهن كثيرة.

أتساءل: هل كانت هذه التوطئة من الضرورات أم النوافل؟ وبماذا تفيد القراء الكرام؟ أحسب أنَّ الكلام على المناضل الشيوعي البارز يوسف فيصل، الذي أجاد في القيادة، وضحى في النضال، وعرف السجون، ووقف شامخاً، مرفوع الرأس في المحاكم، كانت تتطلب ذلك، لأن التدرج في النضال الحزبي، على كل مستوياته وأشكاله، وكل مصاعبه وأخطاره، وكل منعطفاته وتعرجاته، أكسبه لا الخبرة وحدها، ولا الفراسة معها، أو فن القيادة بذاتها، بل أكسبه، فوق

كل ذلك قدرة الإلمام بالموضوع الذي يتحدث عنه، وفيه، ويعرضه عرضاً واضحاً، منساباً، بدءاً وختاماً.

طبعاً ثمة أخطاء، كلُّنا خطاؤون، لكننا نحسن صنعاً إذا تعلمنا من أخطائنا، والحديث النبوي الشريف **«المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين»** صار مع الاجتهاد، في زمن يتطلب الاجتهاد، قابلاً للتكرار، أي إنَّ المؤمن، مع كل العمق والاتساع في إيمانه، يلدغ من جحر الأفعى مرة ومرة، وربما أكثر، فالإنسان ابن تاريخه الاجتماعي، وفي هذا التاريخ الذي صار معقداً، ويزداد تعقيداً مع الأزمة الشاملة التي يمر بها العالم، لا بد من الحذر، الانتباه، السبر، معرفة موطئ القدم قبل وضع القدم، رؤية الحضرة، عن قرب وعن بعد، قبل الوقوع فيها، الإدراك الواعي للخطأ قبل حدوثه، فإذا حدث، التقليل، قدر الإمكان، من خسائره، وهذه الصفات، مجتمعة ومنفردة، لا تعصمهم من أذى، فإذا وقع الأذى علينا أن نثب عليه، وأنْ ندرأه، وأنْ نكون على يقين، إنّ الحياة، في كل مراحلها، لا تؤخذ إلا غلاباً!

وقد أخذ الرفيق يوسف فيصل الحياة غلابا، ومنذ رأيته، للمرة الأولى، مقرفصاً على الرصيف في طرابلس، صامتا، مفكراً، وفي عينيه بريق عزم، يأتلق بالغضب والإصرار، تذكرت بيت شعر للمرحوم عبد المعين الملّوحي:

هــو الثــأر لا تعجــل علينــا بنيلــه

فإنّ لنا مــن عهــد آدمهــم ثــأرا!

وسبب هذه القضية التي استشعرناها جميعاً، أنّ الرفيق القائد في الحزب الشيوعي الموحد، في سورية ولبنان، نقولا شاوي، كان في سفر لا أذكر لأي بلد أوروبي، موفداً من قبل الحزب للدفاع عن القضية العربية، طلباً لجلاء الاستعمار الفرنسي، وقد ناضل نقولا شاوي في المؤتمر الذي دُعي إليه، وفي كل المحافل التي حضرها، نضالاً واعياً، عنيداً، ثورياً، عن القضية العربية، والقضية الفلسطينية، مطالباً بإصرار عنيد، إنجاز وعد الجنرال كاترو، عند دخوله إلى سورية، بالجلاء عنها وعن لبنان الشقيق، وفضح خطة الجنرال سبيرز الرامية إلى بقاء القوات الانكليزية بعد خروج الفرنسيين.

كان الرفيق نقولا شاوي من شمال لبنان، وقد نظم الحزب الشيوعي احتفالاً جماهيرياً حاشداً في طرابلس، احتفاء بنضاله وعودته سالماً مظفراً، إلا أنّ إحدى العائلتين المتزعمتين في طرابلس، ولديها مليشيا مسلحة، مدّربة، كانت تبيت الغدر، بدفع منها، أو من أية دولة أجنبية وراءها، فما إن وصل الموكب إلى الباحة الرئيسية في طرابلس، حتى انهمر الرصاص غزيراً من كل الجهات، فمات وجرح بعض الرفاق، وصدر الأمر من قيادة الحزب الشيوعي بالتفرق سريعاً، لأن الاحتفال كان سلمياً، وقد وافق عليه، ورحب به، أبرز زعماء طرابلس، من آل كرامي وزعماء طرابلس الآخرين.

يوسف فيصل خرج من المعركة سليماً، إلا إنه قرفص على الرصيف، ومن موقعه يوجه الرفاق إلى ما يجب لتأمين سلامتهم، وتسهيل سفرهم.

ودارت الأيام، وصدق والدي في قوله لي: «الدهر دولاب، لا عمك ولا خالك» وبعد أعوام ليس قليلاً عديدها، انتقلت من اللاذقية إلى دمشق، وفيها التقيت الرفيق يوسف فيصل، الساعد الأيمن لقائد الحزب المرحوم خالد بكداش، ثم كان للأقدار دورها، وبعد انتقال القائد الكبير خالد بكداش إلى الملأ الأعلى، وحتى قبل رحيله، وقع الانشقاق في الحزب، وتولى يوسف فيصل قيادة الحزب الشيوعي المعروف، كما تولت الرفيقة وصال فرحة بكداش قيادة الحزب الشيوعي المعروف أيضاً، وصار هناك حزبان، ثم حزب ثالث أصدر جريدة «قاسيون»، والمساعي جارية لتوحيد الأحزاب الثلاثة الآن.

إلا أن الحادث الأهم في حياة يوسف فيصل، وحياة الشيوعيين السوريين وقع في العام ١٩٤٩، فقد وافق الاتحاد السوفياتي على قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين بين العرب وإسرائيل، واتخذ الحزب الشيوعي قراراً بالموافقة على قرار مجلس الأمن، وكان جميل مردم بك، المعروف بثعلبيته رئيس الوزراء آنذاك، فاغتنم موافقة الحزب الشيوعي على قرار التقسيم، حتى ينتقم منه، وبخبث شديد، وما لوطواط الذي يتحرك في الظلمة، بعث برجاله لإثارة الرعاع من كل صنف،

وتوجيههم لمحاصرة مكتب الحزب الشيوعي وإحراقه بمن فيه، وتم له ما أراد، فقام هؤلاء الرعاع بإثارة الناس، وبينهم الكثير من البسطاء، وطوق هذا الحشد مكتب الحزب في دمشق، منذ الصباح، وتزايد تضخم هذا الحشد الغوغائي مع تقدم ساعات النهار، حتى لم يبق منفذ للرفاق الشيوعيين المحاصرين من الخروج، وبدأ إطلاق الرصاص على المكتب، وارتفعت الشتائم من كل نوع، وهاج الغوغائيون من أزلام جميل مردم، وهيجوا الجمعَ الذي راح يزداد كثافة بين كل ساعة وأُخرى، وقام شاب أرعن، أعماه الهياج، معروف بعدائه الشديد للشيوعيين، اسمه ابن (ج) بإحضار عصاً طويلة، على رأسها لفافة كبيرة من الخرق والألبسة الممزقة، مغموسة جيداً بالمازوت أو البترول، مشتعلة بلهيب جهنم من شدة الريح، وتسلق جدران بناية المكتب الذي هو في الطابق الثاني أو الثالث، بمساعدة الرعاع أمثاله، لإلقائها، عبر النوافذ مكسرة الزجاج، داخل المكتب، وحرق من فيه من أساتذة ومحامين وصحفيين ومتنورين، وقتلهم وهم أحياء عند ربهم يرزقون، فتصدى له يوسف فيصل، وما أن بلغ في صعوده النافذة، حتى ضربه ضربة قاضية، هوى على إثرها ميتاً على حضيض الشارع، وبادر الرفيق الشجاع حسين عاقو إلى سد الطريق الخلفية للمكتب، حاملاً عصا وسكيناً، طالباً من جميع الرفاق أن ينزلوا وينجوا بأنفسهم، وهذا ما صار فعلاً، وقد أصيب الرفيق الجميل الدمث جورج عويشق برصاصة في كاحل رجله، مازال أثرها واضحاً، وبعد نجاة الرفاق، لم يستطع حسين عاقو المقاومة أكثر، فهجم الغوغائيون عليه وقطعوا جسده بالسكاكين وهو حي، إلى أن فارق الروح.

إن هذه الحادثة المروعة، دخلت تاريخ نضال الشيوعيين البواسل الآن، إلا أن رجال الشرطة، والتحرّي، المعروفين آنذاك تلقوا الأوامر المشددة من رئيس الوزراء جميل مردم، بالقبض على يوسف فيصل ومعه بديع بكداش، وأوقفوا مع آخرين في سجن القلعة شهوراً إلى أن مثلوا أمام المحكمة، إلى جانب فندق الشام في المرجة، وقام المحامي الكبير المرحوم يوسف الحكيم، بالدفاع عن يوسف

فيصل وبديع بكداش، وكاتب الأدلة، وشهادات الشهود واقعة، ثابتة، لا يأيتها الشك من يمين أو يسار، في أن يوسف وبديع كانا في حال دفاع عن النفس، فصدر الحكم ببراءتهما، وبراءة الآخرين أيضاً.

إنَّ هول هذه الحادثة هزت الضمائر في دمشق وسورية والبلاد العربية، وفي قصيدة لعمر أبو ريشة، الشاعر الكبير المعروف والمرحوم، ورد هذا البيت الذي تناقله الناس، وفيه يقول:

إن أرحـــام الـــسبايا لـــم تلـــدْ

مجرمـــاً فـــي شـــكل هـــذا المجـــرم

وعرف الجميع أنّ هذا المجرم، هو الذي، في ثعلبيته، من وضع ونفذ خطة حرق الحزب الشيوعي، وسمعت في ذلك الحين، وأنا أبحث عن عمل كأجير حلاق في دمشق من يردد للتندّر:

إن أرحـــام الـــسبايا لـــم تلـــدِ

مجرمـــاً فـــي شـــكل ابـــن المـــردم

هذا ما كان، وناقل الكفر ليس بكافر، وأنا مؤمن، ومعجب بالقاعدة الذهبية في الإسلام، ونصها «الدين هو المعاملة» لكنني، بدلاً من العمل كأجير حلاق في دمشق، عملت، بمساعدة الأخ العزيز نديم عدي، أبو بشار، صحفياً في جريدة الإنشاء، لصاحبها المرحوم وجيه الحفار، وبرعاية الكبير الراحل، أحمد علوش، الذي أصدر جريدة «الصرخة» بعد أن ترك جريدة الإنشاء، وصرت سكرتير التحرير فيها، بتوصية ومديح منه.

لقد كنت، في شبابي، خريج سجون، بسبب نضالي ضد المستعمرين الفرنسيين والإقطاعيين وجناب المشير عامر، حاكم الإقليم الشمالي، فصرت في أرذل العمر، خريج مشافي، أستطيع الكتابة بوضع الورقة البيضاء تحت أنفي، أما القراءة فإنها عسيرة علي، حتى مع أعلى درجة للرؤية في النظارات الحديثة، لذلك أعتذر للصديق يوسف فيصل، عن تقصيري في قراءة كتابه الذي أحدث ضجة

وطبع أكثر من مرة، كما أعتذر لكل الأصدقاء الذين يبعثون لي بكتبهم، مع إهداءات جميلة، صادقة، صادرة عن قلوب محبة.

وكما وقف يوسف فيصل في المحكمة التي ذكرتها آنفاً، شجاعاً، شامخاً، فإنه يتخذ نفس الموقف في الملمات، وقد جمعتنا الليالي، بعد ذلك، كثيراً، في بيته وبيت فقيدنا الغالي المرحوم نبيه رشيدات، بحضور نخبة من المناضلين، أذكر منهم الكبيرين الراحلين خالد بكداش وعبد الغني قنوت وغيرهما.

إنّ للأحزاب طرائقها في الإستراتيجية والتكتيك، ومع أنّي شيوعي عنيد، وسأبقى كذلك حتى أرحل عن هذه الدنيا، وهذا يتجلى في مواقفي وكلماتي وسريرتي، فإنني لست منتمياً في الوقت الحاضر، بعد أن فصلت من الحزب وأنا في الصين، فإن الكاتب يختلف، في نضاله، عن الحزبي، وهذا ما يعرفه، ويقدره رفاقي حيثما وجدوا!

إنني، وقدر المستطاع، كاتب عربي سوري، وأعتز بذلك، ولي طريقتي في التعبير عن حبي لوطني وشعبي، أناضل بالقلم، بعد أن ناضلت طويلاً بالجسد، وأنشر في جريدتي المفضلة «تشرين» منذ زمن طويل، وترحب «تشرين» بما أكتب، وتتسامح أحياناً مع قسوتي في النقد، بتشجيع من الرئيس القائد بشار الأسد، الذي يسير على نهج والده العظيم المرحوم حافظ الأسد، في تقدير وتكريم الإبداع والمبدعين.

ترى قلت ما يجب أن يقال، في تكريم الصديق والرفيق يوسف فيصل، وفي مقاربة بعض صفاته ومواقفه ونضاله الطويل الذي يواصله رغم بعض الوهن في صحته، حفظه الله ورعاه؟

إنه يستحق الأكثر، وأنا قاربت القليل، لكنه يعرف أنّني اجتهد في مواقفي وكتاباتي، فإذا أصبت لي أجران، وإذا لم أُصب فإن لي أجر واحد، وهذا حسبي.

الزمن الأعور.. والناس العور!

إحدى بناتي لها كلمة لا تحيد عنها، فكلما سألتها عن الوضع المالي، أجابتني: «مستورة!» والسترة، هنا، هي حال الكتّاب في الوطن العربي الكبير، ومنذ قلت في العام ١٩٨٢، كما هو مدوّن في كتابي «حوارات وأحاديث» أن الرواية ستكون ديوان العرب في القرن الواحد والعشرين» فقد أقبل تسعون بالمئة على الأقل، من الكتاب العرب، على كتابة الرواية، وحسب بعضهم أنني وأنا في أرذل العمر، «اخرّف» لكن النبوءة، وأنا أتابع ما ينشر في الشرق والغرب، تحققت في أواخر القرن العشرين، وحسب «دار الآداب» في بيروت، فإن الكتّاب الأكثر انتشاراً هما المرحوم نزار قباني وحنا مينه، إلى أن تفضلت إحدى المجلات المصرية قائلة: «هذه النبوءة قالها أحد الكتاب المصريين في القرن الثامن عشر!».

ولكن فتأملوا! من فضول الكلام أن نتحدث، في هذا الزمن الأعور، عن أناس عورٍ، يريدون صياغة أسئلتهم العوراء، بشكل اتّهام، هم فيه القضاة، والمثقفون العرب في قفص الاتهام، فلماذا؟ وهل يحسبون أن ما نملك أصابع من خشب، بينما أصابعهم من حرير القز!؟.

مهزلة! محققون عور، نصبّوا أنفسهم، للتحقيق مع متهمين مفترضين، عورٍ كالمحققين أنفسهم، الذين يحسبون أن الادانة جاهزة، وما عليهم، في شبهة الوهم، سوى النطق بالحكم: المثقفون العرب، بين الوريد والوريد من الدم النازف، في فلسطين الجريحة، والعراق المحتل، يتلهّون بالكلام على الورد الذي تزيّن ألواناً ليفتننا، ولكن «أيحلف الورد أنّا ما فتناه؟».

لا أيها السادة المبجلون، المثقفون العرب ليسوا بالمتهمين العور، الذين، مع الأسف، يُحقق معهم أناس عور، وفي الغزل الجميل، الأنِق، بالورد الذي يفتننا،

يبسطون راحاتهم للنعميات التي، في جلوة الأسى، تفك، ولو قليلاً، من خناق الأسى الذي يكاد يقضي علينا، ونحن نشهد هذا العجز العربي وهذا اللف والدوران العربيين، وهذه الاتهامات المتهافتة، التي صار لها، في المنطق الأميركي، قانون محاسبة يحتاج، هو نفسه، إلى قانون محاسبة، وإلى تسويغ مفتقد، كي ينهض على أقدام من لحم ودم، وليس على أقدام من كرتون أو فخار، لأن الارهاب، وهو اللبان الذي علكته أميركا حتى التلف، لاينام على وسائدنا، بل على وسائد من يهدمون البيوت على رؤوس أصحابها في فلسطين، ويقتلون الأطفال، ويحسرون الستر عن النساء، وينتهكون حرمة العتبات المقدسة في العراق.

عمر فاخوري، في كتابه «الحقيقة اللبنانية» يقول: سأل تلميذ معه: «ماهي أمنيتك يا معلمي!؟» فيفتح المعلم عينيه الناعستين، وهو يفيء إلى ظل شجرة وارفة، ويرد قائلاً: «أن آكل وأنام!» ثم يضيف «ولكن هذا سؤال لايُسأل يا معلمي!».

المثقفون العرب، أيها المتذاكون الأفاضل، لايضيقون بأسئلة مثل معلم عمر فاخوري، ولا يرون، حتى في الأحلام، ما هو عصي على الكلام عليه في اليقظة، ولايبصرون الأشياء، في حقيقتها، من بين الأصابع، ولا تفوتهم، حتى والسهام في أكبادهم، أن ثمة، في الحياة، جراح أَحبّةٍ عليهم أن يبلسموها، ويدركون أنهم إذا لم يرقوا، إلى ما لا يرقى، على قدم، تقطعت بهم السبل، وعجزوا عن قطف النجوم بأيديهم السحرية، من المجرات التي تضيء دروب الأفلاك في دورانها، وأنهم إذا ارتكنوا، كالعقدة، في زوايا السكون. أساءوا إلى قانون الحركة، واذا كفوا عن صياغة الأحلام سقطوا في العدم، وإذا لم يستأنفوا ضد ما هو كائن، في سبيل ما سوف يكون، انحطمت أقلامهم، وتبدل حبرها الذي من ذهب، إلى حبر من ماء آسن، واذا تغذوا بأوراق التوت، على موائد كان مصيرهم التشرنق كدود القز، وإذا فقدوا شجاعة القلب، تحولت الثريات التي في الجانب الأيسر من الجسم، إلى شحم منه الورم الذي عابه المتنبي.

ويسألون، في خبث مراوغ، ماذا يفعل المثقفون، والنار تكوي سلاميات المناضلين، في لفح الهاجرة؟ ونجيبهم: مَن أبقى القضية الفلسطينية حية، طوال سبعين عاماً تقريباً، في مواجهة القوتين العاتيتين: الصهيونية والامبريالية؟ ومن بالكلمة، أشعل فتيل البركان، تتلظى بحممه الأرض تحت أقدام المعتدين في جنين ورفح وبلاد الرافدين؟ ومن صاغ وجدان صانع الرصاصة، ومطلقها، في صدور الذين استباحوا، بكل أنواع أسلحتهم، الأرض العربية، في الماضي والحاضر؟ إنَّ دور المثقف أن يطرح القضايا طرحاً صحيحاً، كما قال تشيكوف، لا أن يغيّر، فالتغيير من وثبات الجماهير، تقودها الأحزاب والمنظمات، على الأذى اللاحقِ بالأوطان والشعوب.



المدينة التي بحرها شراييني!

ما صرت مرة على مشارف اللاذقية، إلا وسبقني قلبي إليها، ماذا هناك؟ لست أدري! الشفاه البخيلات ليست فيها، ولا في مكان آخر غيرها، طوينا كتاب الحب «وبطلنا البكي» وحتى في الشباب، «يوم كانت الدنيا الدنيا!» لم أتناول «قربان» هذه النعمة، كي أبكي عليها الآن، والقراء الأعزاء يتغامزون بطرف اللواحظ غير مصدقين، والناس، بارك الله في ألسنتهم وعواطفهم، لا يستريحون ولا يريحون، وفي مدّعى أشواقهم الى المعرفة، يفتحون حتى الدفاتر العتيقة، منقبين فيها عن الحقيقة، المستترة لا المعلنة، وعلى منصّة التشريح، يشرِّحون قلبي، ليروا ما في داخله من نبض خفي، هو السبب الذي يجعل روحي تسبق جسدي، كلما اقتربت من اللاذقية، أو صرت على مشارفها، وهكذا «كلَّما التأم جرحٌ جدَّ بالتنكار جرحُ» وكلما تقادم الزمن، تعتق السلاف «أدام الله سكرته» حسب شاعرنا البدوي الجميل، الذي وعدنا بأن نكون الندامى، على مقربة من جنة الخلد، يوم نعبر، بإذنه تعالى، الصراط المستقيم، وحين التضحية إحتفال بالأضاحي، والفرحة عبق نديّ، شذاه قلادة في عنق اللُّجة الزرقاء، وملكة البحر ترتعش شوقاً وخوفاً من إنسان الأرض، القادم اليها على بساط الماء، وملكها الجالس معها على عرش ذروة من رغاء الزبد، يقول لها، في اطمئنان خلّبي: «لا تخافي!» بينما الملكة، الأذكى حاسة، الأنبه جارحة، تدرك، واعية بعمق، أن إنسان الأرض، هو الغالب والمغلوب معاً، عندما يكون الحسن أفعى «كم سمعنا فحيحها في سرير».

وتعوّد هذا الحسن، الانسان البصير البصري، كالضرير الضرير، مثله في ذلك مثل شاعرنا الأعشى ميمون، إذا لم تخن الذاكرة، الذي قال متخنثاً «ويلي عليك، وويلي منك يا رجل!»

إنما الويل، في التخنيث أو التثليث، لا علاقة له بقلبي الذي يسبقني كلما «رحّب بنا روض» على مشارف المدينة التي أحب، وكلما لاحت مدينتي هذه، التي بعضها لحمي، وبعضها دمي، وبعضها الثالث مالح كدموع نساء البحارة، والعاصفة هوجاء، كالريح الآتي، والنوارس البيض، تدور مع الإعصار، صائحة: «الداخل مفقود والخارج موجود» وبانتظار نيازك البرق أن تنطفئ، تتسمّر الأبصار على الشاطئ المهجور، أملاً «يخادع النوم إشفاقاً على حلم» ورجوةٌ هي وطفلة الروح سواءٌ، والخيبة، أحياناً، نشيد الأناشيد، والملكة بلقيس حلمٌ حانٍ «على الشفة اللمياء مقهور» وعبثاً ياسيدي سليمان الحكيم، أن ترفع ملكة سبأ ذيلها، خوف البلل من سراب بلاطه اللامع، الذي يتراءى ماءً ولا ماء !

اللاذقية مدينتي، حبّي، غير أني «لو توجّع الشام، تغدو حبي الشام» وقد مضى وانقضى ذلك الحلم الذي راودني، على مدى خمسين من عمري، أن ينتقل البحر الى دمشق، أو تنتقل دمشق الى البحر، فصرت في القانعين على مضض، أن أرى البحر من البر، لأن فارسه القديم ترجّل، ولم تبق في راحته إلا حفنة من رمادها.

إذاً قلبي يطير، واللاذقية أضواؤها في مقلتي، لسبب معروف مجهول، هو والحباحب قبض الريح، وعندما أكتب عنها، لا أضع عنواناً بريدياً، فالرسالة ليست لهذا أو ذاك، ولا إلى هذه أو تلك، إنها للتي ضاعت في فضاء الله، دون أن تترك لي كلمة عزاء، أو تحية وداع، فعل الذي لا يدري لماذا هو هنا، وليس هناك، والذي يسافر دون حقيبة، من بلد إلى آخر، وقد حثّ الخطا ليلحق بمن سبقوه، لكن السفينة كانت ترفع مراسيها، فاكتفى برشقة

عطر على جوانبها، صائحاً بغير صوت «شُقّي العواصف والظلماء سائرةً، باسم الله مجرانا ومرسانا».

لقد عرفت في دنياي أشياء كثيرة، جميلة وقبيحة، حسنة وسيئة، ومنذ أضعت طفولتي بالشقاء، وشبابي في السياسة، وضعت دمي في كفي، وسرت في الناس مبعثراً بالعدالة، وأنا أسعى الى الخلاص بالموت، وهذا الجبان يهرب مني، كأنما له ثأر معي، أو كان الشقاء المنذور له، يستزيدني ليربحني، وبذلك تتم المعادلة بين كسب وخسارة وابن الخطيب في نفح الطيب يكرر مقولته «لكل شيء إذا ما تم نقصان» مع أنني لم أبلغ التمام، وإن كنت أعرف النقصان، من خلال التجارب المنقوشة في راحة كفي، ظاهراً وباطناً!

ودائماً أقسم، يا لاذقيتي الحبيبة، ألاّ أعود إليك، ودائماً أعود إليك، وفي السريرة، حين تبلِى السرائر، تبقى لك سريرة عشق، رغم أنني لم أعشق أحداً، حتى ولا نفسي، لأنني محروم من هذه النعمة، ولم تكافئني السماء، انتقاماً من نعمة الحب، ونعمة السكر، وهكذا أسمع أغنية «تمرّس باللذات وهو فتىً» فأتحسّر حيناً، وأسرُّ أحياناً، وبذلك تتم المعادلة، وتنغلق الدائرة!

ماذا، الله، ياالله، في اللاذقية، سوى البحر، الذي فيه ولدت وفيه أرغب أن أموت... وتقولين تعال، وآتي، وسآتي، ولكن ماذا، في يوم قريب أوبعيد، إذا خان العمر، ولم يكن في الأوفياء؟

ماذا أفعل وأنا أطرح الأسئلة دون أجوبة؟ لا تقولي، يا مدينتي، إنَّ وظيفة الأدب أن يطرح الأسئلة وهذا دأبه، هذا شأنه، هذه غايته، وإلاّ كانَ في الرغائين، الذين ضاقوا ذرعاً بالصمت، فانطلقوا في الشوارع يهتفون، تنفيساً عمّا بهم من كبت، طال أوانه، وهذه الهتافات، في كلّ أشكالها وألوانها، لا تجدي نفعاً، لأن التغيير المنشود، في سفر طويل، هيهات أن يرجع يوماً، لأن عدته لم تكتمل، أو لأن الجماهير، في كل تنظيماتها، هانئة بالحال التي هي

عليها، وباقية فيها، ومصرّة على هذا البقاء، وهذا الهناء شاكرة ثلاثاً لأنه بالشكر تدوم النعم!

وبسبب هذه الهناءة، تبقى أسئلة الأدباء والشرفاء بغير جواب، وتبقى التسلية في لعبة «الطرنيب»« هي الملاذ الذي دفع الشباب إليه، بانتظار أن تحيا «العظام وهي رميم» وقد تحيا هذه العظام، وتبقى حالنا على ما هي عليه، لأن ذلك مكتوب «في لوح سيناء» وعبثاً يخبرنا المتنبي أنَّ طريقنا طويل، أو هو يطول من شدة إعيائنا، «وكثير من السؤال اشتياق، وكثير من ردّه تعليل» فلنتعلل بالصبر، على طريقة أيوب، أو نشرب السم قدوة بسقراط، ويالها من قدوة لا تخطئ دربها إلى جهنم، في ناره والسعير.

يبقى سؤال لا جواب له عندي: لماذا يسبقك قلبك إلى اللاذقية أيها البحار القديم، وليس لك فيها حبيب، لأنك لا تعرف الحب كما تزعم؟

الأرجح، لأن في اللاذقية البحر، وفي البحر أسعى إلى غسل أخطائي، عسى «أن يتوب الله علي» وهو على كل شيء قدير.

ثم ماذا؟ الرغبة في زيارة فندق على رأس جبل، يقال له حمّام القراحلة، وسماع موسيقا «مدنيا» التي هي فرحة مد ينة، حين أناملها على «الأورغ» تعزف لحن الغروب، وأنا أردد: «اسجدي لله يانفسي فقد وافى المغيب، واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب» لكنني، حقيقة، لا أريح ولا أستريح، ولا ادري لماذا؟

يقال إنّ اللاذقية عروس الساحل، وقد كانت كذلك في الزمن الجميل، يوم غزة بعيدة عن النار، وأطفالها لا تقطع أوصالهم وتبعثرها في الجهات الأربع، طائرات اسرائيل، في إجرامها الذي فاق حدّ التصور، وفي نازيتها التي ازرت بنازية هتلر ومن معه من حثالة الإجرام والمجرمين، لكننا، في الوطن العربي الكبير، لم نسمع بمقولة «الحديد لا يفله الا الحديد» أو سمعناها فرادى، والفرادة، في مثل هذه المجزرة، قد تجر إلى مجزرة أكبر، لذلك

أغضينا، بانتظار أن نتوحد، ووحدتنا، كعرب لها ميعاد وأمل، وهذا الأمل مسحوب على المستقبل، دون أن ندري متى.. لكننا على ثقة أنّ «متى» هذه لابد أن يكون لها أوان، وموعد، تاريخ، وكل ما تبقى ألا نسكر من زبيبة، أو نرقص بأكثر مما ينفخ الزمار!

لقد رغب، هذا البلد العربي أو ذاك، أو هذه الدولة العربية أو تلك، أن تنسى سورية ولو قليلاً، ضلاعتها في السياسة، وثوابتها في الوطنية، وأمجادها في حرب تشرين وما قبله وبعده، وأن تغامر، وتقامر، مندفعة بتحريض خبيث، إلى موقف غير مدروس بتأن، أو غير محسوب بدقة، كي تحرق أصابعها وهي تلتقط الكستان من النار، إرضاء لمن يريدون دفعنا الى التهلكة، وقد نهانا عنها ديننا والصراط المستقيم.

لا! لم نخدع، لكننا مع غزة كنا في الجراح تماماً، وقمنا لأجلها بما نستطيع، وبأكثر مما نستطيع، فقوافل المساعدات كانت عربات قطار، تتابع بغير انقطاع، وفي كل عربة رغيف من لقمة شعبنا، ودواء من فلذة أكبادنا، وهذا ما استطعناه، وهذا حسبنا ونعم الوكيل.

لماذا الغَمْغَمة والجَمْجمة؟

أكذّب نفسي عنك في كلِّ ما أرى وأُسمع أذني منك ما ليس تسمعُ

فلا كبدي تَبْلى ولا لك رحمةٌ ولا عنك إقصارٌ ولا فيك مطمعُ

لقيت فيك أموراً لم ألقَ مثلها وأعظمُ منها فيك ما أتوقعُ

فلا تسأليني في هواكِ زيادةً فأيسرهُ يجزي وأدناهُ يقنعُ

لنكن صريحين، فكاتب هذه الأسطر يحب الصراحة، ويفتديها أيضاً، و«ما عاش من بعد الأحبة سلوةً، لكنني للنائبات صبورُ» وصبري قد طال، على أناس لايعملون، أو يعملون خفيةً، وبخبث غير قليل، في مكافحة الفساد، وهم الفاسدون ثم يلقون، سرّاً أو علناً، والعلن من النادر، بكل أخطائهم، على رئيس تحمّل، وتحمّل، ويتحمّل، نتائج أخطائهم، ثم ينظر حواليه، فلا يرى إلا النتائج السيئة لهذه الأخطاء.

إنّ الرئيس بشار الأسد طبيب في المهنة، كان يأمل، زمن الدراسة، أن يداوي الذين بحاجة إلى الدواء، لكنه، في مثل هذه الأيام، فقد الوالد العظيم، الذي أرغم الرئيس كلنتون، أن يلتقيه في منتصف الطريق، والذي كان يعلم، علم اليقين، «أن الروم وراء ظهره روم، فعلى أي جانبيه يميل؟» والذي، كما يُقال، كان البأس قفازاً في يديه الاثنتين، لكنه، في هذا البأس، أو معه، جعل من بلده الحبيب سورية، هبوة عزم، في هبوة مضاء، فجابه الإرهاب، وفي محنة من نتائج هذا الإرهاب، ولم نكن مثل مصر الشقيقة، في زفرة أسى،

حين الإرهاب ابتغى، أن يعطل موسم السياحة فيها، وفي أحد الأيام، وضع المفكر الكبير، الذي يعيش خارج مصر، ويكتب بالفرنسية، الدكتور سمير أمين، يده في يدي، وقال لي، بالحرف الواحد: «يا صديقي العزيز، اخطأوا في الجزائر، كان عليهم أن يدعو جبهة الإنقاذ» التي فازت بأكثرية الأصوات في الانتخابات تحكم، وفي حكمها كانت ستسقط، لأننا في زمن المعلوماتية، بل في ثورتها، نحتاج إلى برنامج اقتصادي، وبرنامج اجتماعي، وبرنامج سياسي، وجبهة الإنقاذ لاتملك هذه المقومات، والحكم على أساس الشريعة وحدها، يحتاج إلى ترجمة الشريعة إلى عمل، إلى واقع اقتصادي وسياسي، إلى معرفة «أن السياسة ليست، كما الماضي، فنّ الممكن، بل هي فنّ فهم الاقتصاد. وهذه هي إيران، تخصّب الاورانيوم، وباتت تمتلك سلاحه الجبار، إنها، ياصديقي، اهتدت، بفضل رجالها المتنورين، إلى طريق العصر، ومضت فيه، ولم يبق من الخمينية إلا الايمان، والايرانيون كلهم مؤمنون، لكنهم، في الوقت نفسه، من علماء الذرة ومتفرعاتها».

سمير أمين، هذا العالم المصري، صديقي، وصداقته نفعتني في أشياء كثيرة، وعندما زار الرئيس بشار الأسد روسيا الاتحادية، وأجرى مباحثات مع هذا الداهية الذي اسمه «بوتين» كتبت، في صحيفة «تشرين» نفسها، مباركاً هذه الزيارة، لأنها في الاتجاه الصحيح، كما يقال اليوم، في مفردات السياسة، وعندما زار الرئيس بشار الأسد، المملكة العربية السعودية، كتبت مثمناً هذه الزيارة، فأنا، وليعذرني القراء الكرام، رجل سياسة قبل أن أكون رجل رواية، وأفهم في الاقتصاد، وتالياً في السياسة، وأشفق، حقاً وصدقاً، على هؤلاء الذين يعلقون غباءهم السياسي، في مجال مكافحة الفساد، على كتف رجل جاء من الطب إلى السياسة، وشاءت الأقدار أن تجبهه، بحملة من الصعاب السياسية، التي لم تكن زمن والده العظيم الراحل حافظ الأسد.

إنني لا أتملق، لا أداجي، لا أحابي، أقول الحقيقة لوجه الحقيقة وحدها، والرئيس بشار الأسد، رغم قسوة ما أكتب، رحّب بما أكتب، أدرك أنني، في السياسة والدهاء تخرجت من مدرسة أبيه العظيم: حافظ الأسد.

كنت عازفاً عن الكتابة، برماً فيها وفي عواقبها، فأنا، برغم الشانئين، كاتبٌ عالمي، لكنه، في عالميته، نبت هذه الأرض، ابن هذا الوطن، وقد حاولوا ثلاث مرات، اغتيالي، دون علم السيد الرئيس، فجُحتها وكتمت السهم في كبدي!» لأن بلدي أغلى علي من روحي، أنا ابن الثانية والثمانين من عمري!.

لابأس! الزينونة شجرة لاشرقية، ولاغربية، وأنا هذه الشجرة، وأنا، أردد كل يوم «سلامٌ كلُّه قُبل/ إني راحل عجل» ولسوف أرحل، ولي،رجاء واحد، أن يتسع لي صدر الرئيس، أن يفرج، لصالح هذا الوطن، عن الانسان الذي لم أره منذ ثلاثين عاماً، والذي اسمه ميشيل كيلو ورفاقه، وأنا على يقين أن السيد الرئيس لن يخيب رجاء كاتب عالمي، لكنه من نبت هذه الأرض، المباركة التي اسمها سورية، وما في ماضيها، وحاضرها، من آيات الكفاح!.

سيدي الرئيس بشار الأسد، الذي يخاطبك كان يداً إلى جانب يد أبيك العظيم حافظ الأسد، إنه يهوى السجون، وبات يشتاق إليها، ولك، أولاً وأخيراً، أنْ تأمر بسجني، أو تصدر عفوك الكريم عن زملائي، وفي هذا قول كريم ومنزل: «نريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض، فنجعلهم، أئمة في الأرض، ونجعلهم الوارثين» وأنت خير نجل، لخير عظيم رحل، كنت يده اليمنى طوال عشرين عاماً!.

دمشق الطريق المستقيم!

لا تسلها فلــن تجيــبَ الطلــولُ   المغـــاوير مـــثخنٌ أو قتيـــلُ

ليست دمشق مدينة الطريق المستقيم فقط، وليست، أيضاً، المدينة التي غزلت التاريخ على أناملها، بل هي التي، في ثوب عرسها الأبيض، خبأت ألف تفاحة، لألف آدم وحواء، والأفعى المباركة، والوديعة، تدلت بين غصن وغصن، من شجرة الخير والشر، وفي عينيها توق إلى الخنى، يستعلن في نظراتها الباردة، المدركة أن التاريخ يبدأ مع الجنس، قاهر الموت هذا، الذي دونه، لم يكن نسل، ولم ينشطر النسل إلى ذراري، انشطار الجزء إلى جزيئات لاتُرى إلا بالمجهر، وعنها أخذنا علم انشطار الذرة، إلى ما لايحصى من الذرات، التي تعود، بدورها، لتنشطر كل ذرة منها إلى مالا يُعد من الذرات، في متواليات هندسية لا نهاية بها.

ما أريد قوله، خارج هذه البدهيات، هو أن دمشق يتيمة الأبوين، تشمخ، في يتمها، على التاريخ نفسه، لأنها كانت قبله، وتتيه على الدنيا بأنها، وحدها، المدينة التي استعصت على التأريخ، والمؤرخين، وعلماء الآثار، في الشرق والغرب،وأربع رياح الأرض!.

وشموخ دمشق له سند من حق، وله ارتكاز على واقع، يتجليان في المعطى الابداعي، الذي، في القديم، كان منبراً للاشعاع، ولايزال، في الراهن، منبراً لهذا الاشعاع، فمن داريا كان البحتري، ومن المعرة كان أبو العلاء، ومن حمص كان ديك الجن، وغيرهم وغيرهم، وفي الراهن كان بدوي الجبل من السلاطة وعمر أبو ريشة من حلب، ووصفي قرنفلي من الميماس، وغيرهم وغيرهم، والعطاء

الإبداعي، برعاية الرئيس بشار الأسد، يتواصل، فقد منح، في الدورة الأولى، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة لنخبة من المبدعين العرب السوريين، وتابع، في الدورة الثانية، منح هذا الوسام لنخبة أخرى، من المبدعين الآخرين، حتى أصبحت هذه الرعاية الكريمة، للثقافة والمثقفين، سُنّة غير مسبوقة، وربما غير ملحوقة أيضاً، وإنني كمثقف من هذا الوطن، أرغب، صادقاً، أن أجزيه الشكر جزيلاً، جميلاً، أصيلاً، وأن أثمن فعل يده البيضاء، ذا النقش على لوح سيناء، وجدار عاصمة الأمويين.

قلت إنّ دمشق مدينة الطريق المستقيم، وأن التاريخ بدأ مع التفاحة، باغراء من الأفعى الحكيمة، وأن آدم وحواء اقتسما هذه الثمرة، وهبطا إلى الأرض حيث الكفاح قانون الحياة، في البر والبحر معاً. وأزيد بأن دمشق العريقة بالنسب، المرجوة في الحسب، ستبقى كما العهد بها، ثابتة في مبدئيتها، راسخة في ثوابتها، حانية حنو الأم على الانسان، في وطنه العربي الكبير، وفي ما هو أبعد مدى، وأنأى أنقاً، وأوسع في رمال البيد مجالاً.

سورية غير معزولة، ولن تعزل!

عندما كتبت مقالي«دمشق وموسكو .. صداقة قديمة – جديدة، متجددة على الدوام» لم أكن أحلم كما كتب السيد تركي، ولعله اسم مستعار، رداً عليّ في جريدة «الحياة» قائلاً أنني أحلم، وأتوهم، وأزيّن مالا يزين، وأن عليّ أن أكف عن البناء على رمال متحرّكة، أو النقش على ماء البحر أو النهر، والاصغاء جيداً إلى مزمور الحقيقة، وأن ألتزم الموضوعية، والدقة، والحقيقة، وأرى إلى ماحولي بعيون مفتحة، تاركاً التهويم في فضاء الخيال والتخييل، لأن ذلك الأجدى بي.

هذه الكلمات، أو ماهو بمعناها، كانت رد السيد تركي علي، وقد أفدت من نصائحه، وحفظت مواعظه، وسمحت لنفسي، من باب الواجب، بإضفاء بعض الأنق على عباراته، أما الجوهر فقد حافظت عليه جيداً، أخذاً بالأمانة في الكتابة، وبالجدّية اللازمة، غير مبالٍ بالسخرية، وخفَّة الدم، واللعب، على الحبال، بالألفاظ، لأنني لم أكن بهلواناً في يومٍ من الأيام، ومهنة المهرّج في السيرك لم تكن مهنتي، مع أن التهريج هو السائد هذه الأيام، وقد بُشمت منه، «ولم تفن العناقيد»!

لا بأس! ولاعتب أيضاً، فأنا، كما يعرف الجميع، روائي، إلا أن السياسة إحدى تجلياتي المفضّلة، ومن حقي التحرش بالسياسة من آن لآخر، ومن الواجب التصريح بأنني لست ناطقاً باسم الحكومة العربية السورية، ولست، كذلك، مكلفاً بالكتابة نيابة عنها، أو عن أي مخلوق في هذا الوجود، إلا أنني مواطن عربي سوري، من نبت هذا الشعب، ومن ضلع هذا الوطن، وقد أثبتت الوقائع، وستثبت أكثر، أن الصداقة العربيّة الروسية، راسخة رسوخ السنديان، وأنها كانت كذلك على الدوام، وهي في نماء مطّرد، وقد قال بوتين: «إننا في الشرق الأوسط، قبل

أن تكون أميركا، وقبل مشروعها لسد الفراغ عقب العدوان الثلاثي على مصر، عام ١٩٥٦، وقبل غزوها للعراق وأفغانستان، ونحن مثلها نكافح الإرهاب، ونعرف دور الآخرين في هذا المجال، ونؤيده»

إذاً كانت زيارة الرئيس بشار إلى موسكو ناجحة، وفي مكانها وزمانها، تماماً، وكانت في نجاحها الباهر، اتقاناً للديبلوماسية التي يجيدها، كما كانت زيارته الأخيرة للسعودية، وما لقي من ترحيب، استمراراً لهذه الديبلوماسية، وقد توّج الزيارتين، بخطابه في مجلس الشعب قبل أيام، وفيه إعلان مبين، مفاده أننا دخلنا لبنان بطلب من الحكومة اللبنانية، وقدمنا تضحيات غوالٍ مادياً ومعنوياً، وانسحابنا من لبنان إلى البقاع، كان مقرراً، من قبلنا، قبل أن تطلب هذه الحكومة ذلك منا، وقبل صدور القرار ١٩٥٩ من مجلس الأمن، وفعلاً باشرنا الانسحاب، لا رهبة ولا رجوة، فالتضحيات المتبادلة، بين دمشق وبيروت، واللحمة التاريخية بينهما، لاترتجي بدلاً، مادام الشعب، في البلدين شعباً واحداً، تشده ألف آصرة، وألف قربى، وألف لحمة، وألف عروة وثقى!

إنّ سورية التاريخ، والجغرافيا، والأرض، والعرض، وصلات الرحم، والنفع المتبادل، والأمن المشترك، والدفاع المشترك، والنعميات المشتركة، ستبقى مابقينا، ومابقي الأرجوان في شرايينا، وما نريده من خير لسورية، نريده مضاعفاً للبنان، وهذا يعني أننا في رباط إلى يوم الدين، وفي مودات إلى يوم الدين، وفي أخوّة متينة، مفتداة، مؤزرة، منضرة، إلى يوم الدين أيضاً.

الرئيس بوش يزعم، في نبرة تهديد، أن سورية في عزلة، وأن عزلتها ستزداد، ومن كل ماتقدم، ومن متانة صلاتنا مع دول الجوار العربية، في الأدنى والأبعد، وصلاتنا الدولية، الواسعة والمتسعة، والعلاقة القديمة، الجديدة، المتجددة على الدوام، مع روسيا الاتحادية، تدلل، بالبرهان القاطع، أننا لسنا في عزلة، ولن نكون، وأن بوش في وهم كبير، غير لائق برئيس دولة عظمى، أن يتوهمه، وأنّ بوتين، في لقائه مؤخراً معه، لم يكن على اتفاق مع طروحاته، التي لم يعد لها من سند في الواقع، لأن روسيا استعادت سيادتها، وسيكون انضمامها، هي الدولة

الكبرى، إلى الاتحاد الأوربي، انهاءً بيّنا للقطب الواحد، وتفرّد هذا القطب في العالم، وأن تهديداته من هذا المنطلق، إلى زوال قريب! أو كلمة أخيرة: هل فهم السيد تركي، أو هل سيفهم، أو يتعلم، قراءة الواقع قراءة صحيحة!؟ إنني أنصحه بكلّ ذلك، وعندئذ سيدرك أنني لا أحلم، مع أن الحلم هو الذي يقينا من السقوط في العدم، ولا «أنام في العسل» قولة إخوتنا المصريين، وأعرف أن من البيان لسحرا، وأن تهويماته، إذا عاد إليها، ستكون صفراً صفراً صفراً صفراً! وإنّ الدهر «ما راع سورية بالبلوى وغمرتها، لكنها بالإباء المرِّ راعته».



لا حقد لا هشاشة.. بل عزم وإرادة!

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني أمي لمختلف جدا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإنْ هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس كبير القوم من يحمل الحقدا

يكثر الكلام، هذه الأيام، على الإصلاحات المأمولة، المطلوبة والمنشودة، في بلدي العزيز سورية، وهي إصلاحات ضرورية وملحّة جداً، يشارك في نشدانها الجميع، من قمة الهرم إلى قاعدته، وبين هؤلاء النشدة المخلص وغير المخلص، الصادق والكاذب الجاد في نقده البنَّاء، والمراوغ في هذا النقد، غير البنَّاء، حتى وإن استعار عباءة مسيلمة لإظهاره بنّاءً، غير أننا في مزدلف السبق، ندرك أن الطريق يتسع للجميع، ولا بأس أن يسير فيه الجميع، حتى لا نصادر حق أحد في أن يقول ما يريد، في الشأن الذي يريد، وعندما - في فجر الإصلاح - يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، يكون الفرز سيّد الموقف، وعندئذ تسّاقط أوراق التوت، عن عورات الذين يضعون أوراقهم السيئة تحت الطاولة، خلّب أمنية في الاستتار، والستر، لو يعلمون، إلى انكشاف، غداً أو بعده، لأن المشكاة لا توضع تحت المكيال، والرمل، في العجن، لا ينقلب إلى طحين، والنيّات الخبيثة حين السير على الصراط المستقيم لها مفترق بين جنة وجحيم وصدق الله العظيم الذي في منزل تحكيمه قال: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» لأن المكر، في هذه الحال، مآله سوء المصير، ولا شافع للمكر والمكّارين عند رب العالمين.

من أجل ذلك يكون الكف افتضاحاً، والكف، في علم النفس، لا يتمظهر إلا بالتجربة والتجارب خلل الطريق الطويل، إلى غربلة فلا يبقى في الغربال سوى حبة الحنطة التي لا تموت، فإذا طمرت وماتت، أتت بثمر وفير، لأنها في الأرض، أمنا جميعاً تنبت كزنبقة الحقل، آن الربيع اخضراراً في الأماليد، وآن الاخضرار بشارة موسم واعد، فيه الحصاد بيادر، والمذراة، في يد الزارع البارع تذري القشور مع الريح، وتبقي على الحبوب غلالاً للطاعمين، العاملين بجد وبقلب نقي، وطوبى لأنقياء القلوب لأن لهم ملكوت السماوات.

من هذا المنطلق، وتعبيراً عن الديمقراطية في سَعة رحابها، أدعو إلى السماحة السمحاء في تقبل النقد، بنّاءً وغير بنّاء، وإلى حق الاختلاف في الرأي، والاصغاء إلى الرأي والرأي الآخر، بغير ضيق أو حرج مادامت سورية في ممارساتها، هرماً وقاعدة على ثبات في المبادئ وقوة في الشكيمة ويقظة كفيلة بإفشال كلِّ ما يحاك حولها، أو يبيت ضدها، أو يوسوس الوسواس الخناس في صدور الذين يعادونها، سراً أو علناً، كونها ليست في الهشاشة التي يتصورون، أو في الغفلة التي يتوهمون، أو الخدعة في التمييز بين ما هو سراب وما هو ماء زلال!

إننا على يقين بأن الإصلاحات التي لا بد منها آتية لا ريب فيها، أما متى؟ وكيف؟ وإلى أي حد؟ وبأية وسائل؟ فإن الأجوبة على كل هذه الأسئلة ستأتي في حينها، وهذا الحين، في طوله، ليس على مدى الظن، وليس كذلك أقرب من السواد إلى البياض في العين، ونحن في التقدير لا نستخف بقوة الأعداء، ولا نبخس الكيل، في الموازنة بينهم وبين الأصدقاء، ولئن كانت السياسة في القيادة، فإن هذه المقولة مأخوذة في الحسبان، ومن أجل ذلك نعلن جهاراً نهاراً أن الإصلاحات المأمولة باتت ضرورية وقد باشرناها بغير لهوجة، وبغير هون، وما كان في الأخطاء لم نهبه تهويلاً، ولم نتداركه تسهيلاً فمن يعمل يخطئ ونحن لسنا في العاطلين عن العمل حتى لا نخطئ، والأخطاء، مقرونة بالجسام من التضحيات صارت كاملة أو ناجزة، وراءنا.

إن التحديث والتطوير كشعار رفعه السيد الرئيس بشار الأسد في حفل القسم أمام مجلس الشعب، ليس شعاراً للحلية، أو شعاراً للزينة، كما في بريق الذهب، من أي عيار كان، بل هو شعار قابل للتطبيق، وعلينا أن نطبقه مهما تعترضنا المصاعب، وهذه المصاعب ليست بالهينة، أو القابلة للتجاهل، لا في فلسطين الجريح، أو في العراق المدمى، وقد أدركنا مخاطرها وحسبنا حسابها، ليس لأنها لم تكن قبلاً فحسب بل لأنها توالت مفاجئة، ونبتت كالفطر الشيطاني على غير توقع في سرعة تواليها وجسامة مخاطرها، وكان علينا، نتيجة لذلك أن نعمل بأقصى طاقتنا على كل هذه الجبهات معاً وفي زمن شديد التعقيد إقليمياً ودولياً، كما كان علينا أن نتحرك داخلياً لتثبيت سعر الصرف، واجتذاب الاستثمارات، وتنمية الموارد، وإقامة التوازن بين النمو السكاني، والنمو الإيرادي، ونجحنا، إلى حد غير قليل، في هذا المجال كما نجحنا في كسر الطوق من حولنا خارجياً، وقد سمح لنا هذا كله بأن نلتفت للتغييرات الضرورية التي باشرناها أو نكاد وسننجزها بالإرادة والعزم القويين، عندما نتفرغ لها، وعندما أجراس التهديدات تخرس من حولنا. هناك نواقص؟ نعم هناك أخطاء؟ نعم هناك رؤية جديدة للأمور الجديدة نعم هناك إدراك لأهمية الكوادر الاستشارية؟ نعم أيضاً، لكننا في التغييرات الراهنة، التي شرعنا بها، لا نسبح بين الرقاق من السحب البيض في الفضاء، وإنما نمشي بوثوق على أرض صلبة، هي أرضنا ذات التاريخ المجيد في الكفاح الوطني والتقدم الاجتماعي.

المقنّع الكندي قال: «ولا أحمل الحقد القديم عليهم/ وليس كبير القوم من يحمل الحقدا» ولم نكن في أيّما يوم من حملة الأحقاد، سجية في النفس، وفي الخلق، وفي اليد، وفي الذود عن الأشقاء في لبنان خصوصاً عندما- في العام ١٩٨٢ - اجتاحته قوات مجرم الحرب شارون ووصلت إلى بيروت في اجتياحها، فحاربت قواتنا ببسالة، القوات الإسرائيلية وأرغمتها على الخروج دافعة الثمن غالياً في الأرواح والعتاد، ثم حاربت كرَّةً أخرى في محاولة اجتياح آخر، تراجعت عنه إسرائيل قبل أن يتم لأن قواتنا كانت لها بالمرصاد ولأنني

لست بالمؤرخ فإنني أنقل عن لسان كبير المعارضين اللبنانيين، هذه الاعترافات بأمانة مذكراً في سياق الكلام على تضحياتنا في لبنان، بما قدمته سورية، للمقاومة اللبنانية الباسلة في الجنوب، من مساعدة ومساندة حتى تحرر الجنوب اللبناني، وانسحب الإسرائيليون منه انسحاباً مخزياً.

وإذا كانت موحشات أيامنا هذه، يطوف في صمتها الدهر، خجلاً من العجز العربي، فإن سورية المقصودة من الأعداء، العلني منها والمستتر، تدرك جيداً أنها مقصودة، فتحاول بكل ما لديها من امكانات ومن رباط أن تصمد لهذا القصد، وأن ترتفع على الشدة، وأن ترمم العجز الذي لا تستطيع وحدها أن تسد ثغرته، وأن توازن بين هذا الدهم التهديدي من الخارج، والإصلاح الداخلي الذي لم يعد قابلاً للتمهل في أمره، والمؤتمر القطري المنتظر، لا بد له أن يكون مؤتمراً مغايراً، فاعلاً، حاسماً، لا يكتفي، فلسفياً بالتحليل الموصوف للحالة الداخلية الموصوفة بل يغيرها تغييراً جذرياً، فيه صعوبة لا شك فيها وفيه عزم وإرادة في التغيير لاشك فيهما أيضاً!

لقد مل الناس ومللنا نحن المثقفين من الكلام على الديمقراطية التي هي غودو الذي يأتي ولا يأتي. ونقطة البداية، في تحقق الديمقراطية المنشودة، هي الانفراج ووضع اليد على الأجهزة التي يعمل كل منها على هواه، والجامع بينها هو تخويف المواطنين، في محاولة بائسة حقاً لتمديد غمامة الخوف السوداء، التي أذاقونا مرارتها طويلاً، وآن لها أن تتقشع رويداً رويداً، دون مماطلة في الجوهر، مادام زبد الشكل يذهب جفاء ونريده ونصر على ذهابه جفاء، ليبقى ما ينفع الناس في الأرض.

الصمت موت، والقول موت، قلها ومت. وقد قلناها مراراً وتكراراً ولم نمت، لأن بعضهم يريد قتلنا صبراً وهو أفظع أنواع القتل، ولا يدرأ أذاه إلا الفعل، وأشهد اللهم، إني بلغت.

ما راعنا الدهر بالبلوى وغمرتها

أمـــا أنـــا فلـــي يـــراعٌ مـــدمّى سـينقّى نكـري وتنقــى دمــائي

ســـتقول الأجيـــال كـــان شـــقياً فليقـــدّس فـــي جملـــة الأشـــقياء

وماذا يرجو المبدع في هذه الحياة، أو في هذا الوطن العربي خصوصاً؟! وما الجديد ونسبة الأميّة كبيرة، والقوة الشرائية إلى ضعف متزايد، والبطالة تتضخم يوماً بعد يوم!.

إنَّ المؤمن ممتحن، والربُّ يجرب خائفيه ونحن في المؤمنين وفي الذين جربهم الرب الكريم، وأيوب في صبره، كان من أسلافنا الأنقياء، والمتنبي العظيم كان أيضاً من شعرائنا، لكنه قال: (عيدٌ، بأيّ حالٍ عدت يا عيد... بما مضى، أم لأمر فيك تجديد) ولما لم يكن ثمة تجديد، أنشد: (كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً.... وحسب المنايا أنْ يكنَّ أمانيا) فرد عليه الأخطل الصغير، بعد ألف عام ونيف: (طلبت بالشعر دون الشعر منزلةً... فشاء ربك ألاَّ يحقق الأربا!) ونحن الذين في الصبر كنا على نسب من أيوب، وفي طلب الولاية كان بنا جنف عنها، ولم نأبه للشدائد بل ارتفعنا عليها، ولم ننتحر يأساً من الدنيا على يد فاتك الأسدي، كما فعل المتنبي، إلا أننا لا نستطيع أن نمنع نهر الأسى، من التدفاق في صدورنا، إشفاقاً على الأحبة من إخواننا وهم يتساقطون صرعى برصاص وصواريخ وقنابل نتنياهو في فلسطين المحتلة، وبمثلها أو أشد منها يموت الأعزاء في العراق، الذي غزاه بوش بكل أسلحته الفتاكة.

وقد جاء ليبقى ومعه مرتزقة وهو يتطَّلع إلى أبعد من العراق إلى الشرق الأوسط كله.

إنّ المبدعين العرب الصادقين يقاومون بالكلمة، جنباً إلى جنب مع أشقائهم العرب الذين يقاومون بالرصاص وما ملكت أيديهم من سلاح، مدركين أي المبدعون أن هذه الكلمة نافذة كالرصاصة، وإن هي الكلمة، من يصوغ وجدانات أولئك الواضعين أقدامهم في أرض الموت قائلين: (من تحت أخمصك الحشر) ثم ينهضون من وقدة الألم جراء كساد بضاعتهم إلى وثبة العلا غلب الواثب أم لم يغلب.

تأسيساً على هذا وباليراع المدمى، أو الفرشاة والإزميل والنغم الثائر، وكذلك بامتحان المؤمن وتجربة الرب لخائفيه، نتفهم صبر أيوب، نباركه، لكننا نرفضه ولن نقول للدودة التي تنغر في جراحنا «ارعي يا مباركة» مع كل معرفتنا بالحكمة القائلة: (لا تستعجل الانتصار فتقتله) شريطة ألا تنساه وأن تذكره في الأصباح والأماسي وما بينهما من رنين دقات الساعة التي تهيب بنا (انهض وقاتل عدو الله وعدوك).

لقد قلت وأكرر: إنّ المهم في هذه الحياة ألا ينشعب القلب، ألا ينكسر المرء من الداخل، ألا يخاف العدو أو العذول، ألا يسقط في الوهم، أن يعرف عصره جيداً ففي هذه المعرفة وحدها يخرج من الظلمة إلى النور، ويثبت قدميه في الأرض، التي من رحمها خرجنا وفي هذا الإثبات كما تقول الأسطورة استعصاء على الانقلاع وقد قال الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت: (أن ننام الآن، لنستيقظ بعد مئة عام، لا يا حبيبي، عصري لا يخيفني، ولست هارباً)، وعلينا نحن الذين في الطلقاء، بينما كان ناظم حكمت في المقيدين وراء القضبان، ألا نخاف عصرنا ألا نخاف القرن الحادي والعشرين كما لم نخف القرن العشرين، الماجد في بدايته، السافل في نهايته وألا نخدع أنفسنا فنظنّ أنّ النصر قريب، وقد قال المتنبي:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد

أطويل طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق

وكثير من رده تعليل

وقبل الأسئلة، وبعدها نعرف ما كنا نعرفه مرة أخرى وهو طول الطريق إلى الظفر وطول النفس في سير الركب عبر هذا الطريق، إلى الظفر لأنه مكتوب أن تحقيق الأماني ليس بالتمني وإنما (تؤخذ الدنيا غلاباً).

قال بدوي الجبل:

ما راعنا الدهر بالبلوى وغمرتها

لكننا بالإباء المرّ رُعناه

إن نحمل الحزن لا شكوى ولا مللٌ

غدر الأحبة حزنٌ ما احتملناه

وما راعنا على عصف الخطوب بنا

هوى حبيبٍ رعيناه ونرعاه

ليت الذين وهبناهم سرائرنا

في زحمة الخطب أغلوا ما وهبناه

وماذا، لو أغلوا أم أفاءوا، يفيدنا الاغلاء أو الفيء نحن الذين في النضال دؤوباً، عنيداً، طويلاً كان نضالنا شرعة حق، في طلاب حق، على اسم المعذبين في الأرض، ولأجلهم؟ وأي ثمن يطلبه المناضل إذا كان نضاله لأجل حرية الوطن وسعادة الشعب، ثم لا خوف ولا وجل، وما قيمة الحياة بغير كفاح في البحر والبر كما قال الطروسي؟ وأي معنى لها إذا ما كان بها جنف عن الحديث الشريف: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

وأي شيء يبقى للإنسان إذا ما خسر نفسه وربح العالم، كما قال السيد المسيح. ولمن كان اللوح في قدر الأقدار وفيه حض على العمل في سبيل الحق، والخير، وما ينفع الناس، وأية دخلة في النفس لمن كان والانتداب رصاص على صدورنا «يمتص أثداء الدخيل ويرضع» وإيثار العافية على التضحية والسلامة على المفاداة، أليست خسة وجبناً ونذالة، والقعدة الذين يزينون التحكيم، أين هم من رباط الخيل؟ والعجز في الحاكم، عن نصرة المحكوم وارتهان (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدو الله وعدوكم)، كما في منزل التحكيم هل هذه الآية الكريمة لأجل حماية الزعامات أم لأجل الدفاع عن الحدود، أو نصرة الأشقاء؟ ونسأل لأن غاية الأدب طرح الأسئلة رغم أن الأجوبة معروفة سلفاً.



ترتيب البيت أولاً وراهناً

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلاً بعينك لا يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي:
ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟
وأقول، في نفسي لنفسي: ماذا لقيت من السياسة وبلواها؟

ولماذا أيها المسافر على جنح غمامة، أضعت شبابك في السياسة وهولتها؟ وأي نفع لك، ماضياً وحاضراً في أن تقول مالا يقال، وأغلال الحديد قد أكلت من معصميك لحماً نيئاً؟ وهل تحترق أنت، بالكتابة في الشأن الداخلي، بينما سواك يهرب من هذا الأتون إلى جبل الثلج؟ وكيف نسيت أن سيدة مسؤولة قالت لك، وأنت تسألها: ولماذا لا تكتبين عن القضايا الداخلية؟ «هل تريدني أن أحترق!؟»

نعم! يكتبون، أكثرهم، عن الأبراج، موضة العصر، وعن الجوى الذي لم يلامس قلوبهم، وعن عطارد والشعرى والمريخ، وهم يستريحون في مقاعدهم الوثيرة، نكاية بالقائل: «صديقك من صدقك، لا من صدقك» لان قيلة الصدق، عندهم، حارقة، وهم لا يريدون الاحتراق، حتى ولو كان في احتراقهم النور الذي يخرج العرب، أو بلدانهم، من ظلمة الغابة، إلى وضاءة السهوب! حسناً! إنني سأكتب في الشأن الداخلي، ولن يكون هناك حرق أو احتراق، فترتيب البيت، من الداخل، قد بدأ، وفي الوقت المناسب والراهن

تماماً، وهذا انجاز تجلى في أنني اكتب هذه المقالة، في الشأن الداخلي، لأشهد أن كل مقالاتي المماثلة قد نشرت، من دون أن أحترق، ومن دون اعتراض من أي مسؤول، حتى على القسوة التي في بعضها، مادامت الغاية، في المآل هي تقويم الاعوجاج، والتنبيه إلى الخطأ، حيثما وقع، وحيثما يمكن تداركه، في السياسة والاقتصاد، وفي تحويل السلب إلى إيجاب، مع جزء من الدهاء، الذي دونه تصبح هذه السياسة مسطحة، لا نفع فيها لبلد مستهدف من كل الجهات، ولا خير فيها، إذا ما كانت الميكيافيلية، وحدها، هي السبيل لتحقيق ما نصبو إليه، ومن دون حرق للمراحل، في القفز من العصر الزراعي إلى العصر الاشتراكي، مغيبين، دفعة واحدة، العصر الصناعي، الذي لا يزال، بالنسبة إلينا، أمنية مسحوبة على المستقبل البعيد جداً.

لقد كان لينين على دراية، بأن ثمة خطراً على النظام السوفييتي، في الانتقال من عصر الإقطاع إلى عصر الاشتراكية، وكان يوصي بالإفادة من انجازات العصر الرأسمالي، واحتفى جيداً بوصول بعض الخبراء الرأسماليين لمعاونة النظام السوفييتي على النهوض والاستمرار، وكتب المفكر اللبناني كريم مروّة، في جريدة النور، وتحت عنوان الحرية طريق السعادة، مثنياً على بعض الجوانب الايجابية في النظام الرأسمالي الشرس، لافتاً الأنظار إلى أهمية الاستفادة منها، في طموحنا إلى تحقيق الاشتراكية التي أمامنا، لكن من دون أن يعير الانتباه الكافي لمقولة نفي النفي التي هي أساس في الفلسفة المادية، وهو يعرفها طبعاً، مكتفياً بالقول إن «في أدبيات ماركس تأكيد قاطع على أن الإنسان الحر هو الإنسان الذي يمتلك الوعي الحقيقي بذاته، ويمتلك التفكير الحر بمستقبله» وهنا، كان عليه أن يفترق عن فوكوياما، صاحب نظرية نهاية التاريخ، أي تأبيد الرأسمالية، بأن يؤكد أن النظام الرأسمالي زائل، وأنّ الاشتراكية عائدة، لأن الرأسمالية نفت الإقطاع، فجاءت التجربة الاشتراكية ونفت الرأسمالية، ثم عادت الرأسمالية ونفت التجربة الاشتراكية،

وستعود الاشتراكية وتنفي الرأسمالية مرة أخرى، وبهذا يكون المستقبل الاشتراكي هو الأفضل، لأنه، في النفي، يُجِبُّ ما قبله.

ما أريد قوله إنّ تأليف الوزارة الجديدة، خطوة إلى الأمام، في اتجاه ترتيب البيت الداخلي، وإنّ الكتابة عن الشؤون الداخلية لا تحرق أحداً، كما يتوهم البعض، لأنّ أفق الكتابة إلى انديباح، وما تبقى هو طريقة هذه الكتابة، واجتناب كل استفزاز فيها، واعتماد النقد البناء، دون خوف أو وجل، مع مراعاة الآية الكريمة: «إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» أي إنّ ثمة غفراناً سابغاً، لانتقاد عمل هذا الوزير أو ذاك، من غير تطاول لا فائدة منه على الرئاسات بالنسبة للناقد والمنقود معاً، ولنتذكر، أخيرا، هذه المقولة الرائعة لماياكوفسكي: الشاعر الكبير

«إنني أمجد الوطن الموجود، ولكنني أمجد ثلاثاً الوطن الذي سيكون» والوطن الذي سيكون، حسب ماياكوفسكي، هو الوطن الذي فيه «الكلمة الحرة قائدة للقوى البشرية» ولا مندوحة عن الكلمة الحرة، أو حرية الكلمة، ودون هذه الحرية نفقد كل مقومات الديمقراطية المنشودة بإلحاح.

السياسة.. واللعب على الحبال!..

ولمـــا صـــار ود النـــاس خبـــا   جزيـــت علـــى ابتـــسام بابتـــسامِ

وصرت أشكّ في مـــن اصـــطفيه   لعلمـــي أنـــه بعـــض الأنـــامِ

قال لي صديق أثق بفراسته:

- أنت سياسي من الطراز الأول!

- قلت: أنا كاتب حكايات، وبعض الخربشات في النقد، حتى لانترك الناقد الفذ، الذي يقعقع بغير سلاح، أن ينفرد بنا، فيلوي عنق الحقيقة على هواه!

ولما أصر الصديق على أنني كاتب سياسي بامتياز، أجبته:

- نعم! أنا كاتب سياسي بامتياز، وقد تعلمت أبجدية السياسة من السجون والمنافي، ثم تدرجت فيها، دفاعاً عن وطني سورية، وعن شعبي العربي السوري، ذي التقاليد الكفاحية المجيدة، والكفاح، كما هو معروف جيداً، نقطة التقاء السهام من الغير، دون أن تتكسر «النصال على النصال» كما قال المتنبي العظيم، غير أن السياسة شيء، واللعب على حبال السياسة شيء آخر، وهناك دائماً وقت للكلام، ووقت للصمت، ونحن نجيد البلاغة، كما نجيد الإصغاء إلى «بلاغة» الغير، وفن الإصغاء، عندما يرتكز على قاعدة فهم الاقتصاد، غير فن الإصغاء عندما لا يرتكز على هذه القاعدة!

تابعت:

- وأنت على دراية كافية، يا صديقي، أن «المؤمن ممتحن» وأن «الرب يجرب خائفيه» لذلك لا نخشى التجارب، ولا تلوي شكيمة سهام الغير، المصوبة إلينا، فنحن نعمل، والخطأ يكون مع العمل لا مع العطالة إذاً أين هو الإبهام في

قولنا، لا شقائنا في العراق، أو في غير العراق: أننا معهم، وأننا نحرص عليهم!؟ وأين هي الفصاحة، أو الصراحة، في قول ما، إذا لم يكن في قولنا هذا، النابض بالحقيقة، وفي اثباتها بالفعل لا بالقول وحده!؟

معاذ الله أن نشك في فهم الآخرين، من إخوتنا في العراق أو غيره لما نقوله لهم، ونكرره صادقين كل يوم، فالحدود السورية- العراقية طويلة إلى حد الخروج عن القياس، والذين، افتراضاً، يتسربون إلى العراق لمقاومة الاحتلال فيه، ليس من المنطق في شيء، أن يكون تسربهم من حدودنا وحدها، متناسين دول الجوار الأخرى، والتسرب منها أسهل، وأوفر حظاً في النجاح.

ثم إن بدعة محاربة الإرهاب، ما كانت لتكون، لو أن الأميركيين والانكليز، وجدوا في العراق أسلحة الدمار الشامل التي يبحثون عنها، ومع أننا نتعامل مع مكافحة الإرهاب ليس كبدعة، بل كحقيقة، في أي مكان من العالم، ونقرن القول بالفعل دائماً، فإن سهام الاتهامات المسمومة لاتزال توجه إلينا، لا من المحتلين وحدهم، بل من بعض الأشقاء العراقيين أنفسهم، وهذا ما يدعو إلى الغرابة، إذا لم نقل الأسف، لهذا الموقف العدائي غير المبرر، وغير المفهوم، أو المقبول، إلا أن يكون المحتلون هم الذين يوحون به، ويدفعون إليه، ويتشددون في أمره، لإثبات ما هو باطل، وهذا الباطل لا يعوَّل عليه، فالقاعدة الفقهية تقول: «ما بني على باطل فهو باطل!»

إن موداتنا للأخوة العراقيين بخاصة، والعرب كلهم بعامة، ليست خباً، أو روغاً، إلاّ أنّ الطغمة الأميركية الانكليزية، الغازية للعراق، وقبله، أو بعده، لأفغانستان، تتخذ من محاربة الإرهاب ذريعة، تتحول، يوماً بعد يوم، إلى تجارة رابحة، وما مشروع الشرق الأوسط الكبير إلا محاولة لاحتواء البلاد العربية كلها، ورغماً عنها وإسقاطها في جعبة الهيمنة، حيث نيران جهنم تتضرى، في قاع هذه الجعبة الملعونة!

إننا، في سورية لا نعادي، لكننا لا نعادى أيضاً، ونقدر، بشكل تام، مشكلات الأشقاء من حولنا، في هذا البلد العربي أو ذاك، ولسنا في وارد الخوف، من أي

تحقيق، مع أي من السوريين، سواء من قبل لجنة ميليس أو غيرها، لأننا في مجرى العدالة، على إتساق مع العدل، إذا لم يكن في هذا المجرى شائب يشوبه، والذين هم مع الحقيقة وحدها، ومع الحرص على تمتين العلاقات الأخوية معنا، فإننا نمدُّ أيدينا إليهم، ونشد عليها، آملين، من الجميع، صرف النظر عن اعتبارنا «البقرة البيضاء» التي تؤكل لغفلتها، فالإغفال، في السياسة، له وقت، وله حدود، وله قواعد وسلوك، وهذه من البدهيات المعروفة، لذلك نؤكد أننا لا نستغفل أحداً، وفي المقابل لا نريد أن يستغفلنا أحد!

وكما قال بدوي الجبل:

ويل الشعوب التي لم تسق من دمهـا ... ثاراتهـا الحمـر أحقـاداً وأضـغانا

تفضي على الـذلّ غفرانـاً لظالمـا، ... تأنّق الـذل حتـى صـار غفرانـا!

والذلّ، لمن يرغب في المعرفة، لم يكن، في تاريخنا الحديث كله، من شيمنا، أو من المسكوت عنه، في نضالاتنا وثوراتنا، والعتاب، عندنا، لايكون بالدمع، بل بالقناة وحدها.





القسم الثاني

مرافئ السيرة وأشياء أخرى



الجسد بين اللذة والألم

-١-

في الزمن غير المسطور في كتاب التاريخ، وترجيحه «تؤلف ولا تؤلفان» ومكانه ما بين الشعرى والمريخ، وُجدت عاهرة لا انتمائية، لها فخذان بالغا الروعة، إحدهما في القارة العجوز، ذات الأصالة والحضارة، وثانيهما في بلد ضخم الصناعة فقير الحضارة، ولهذة العاهرة نهدان كاعبان، لهما حلمتان كمنقار الحجل، موزعتان ما بين غرب وشرق، وسرّة ممعّجة فيها «البابلي المعتّق» خيل الصبا، سقى الله أيامه، يعربد من سكر وخمرته، في الشبه، تذكر بالماء المتجول خمراً أدار رؤوس المتكئين في عرس قانا الجليل.

كانت لورانس شعلول متقفة ثقافة «جورج صاند» ولها، في الغلمة، نداء الأفعى إلى وليمة السم، ومنه الرمز لدى الصيادلة، بعد أن تباركت بالقول «كونوا ودعاء كالحمام، حكماء كالحيات» ثم لها، أي لورانس شعلول، السبق في سبر غور التفاحة المباركة، والإدراك المبكر لفوائدها في الارتواء بعد الظمأ، وتوالي الذراري في الإنجاب، والرَفَث مخيماً في سرير اللذة، وانتصار الحياة على الموت في نفي النفي».

وفي اللقاء عشقاً، كان بين فايز غضنفر ولورانس شعلول صراع خفي، لا يستعلن سوى في النظرات، صراع بين قبيلتين، أزلاً أبداً، الغالب فيه من يحب أكثر ومن يحب أقل، ولم تكن هذه المعادلة الطفلية في النشوء، إلا نتاج ماسمعه، ما عاشه، ما رآه، كل منهما من قلق، من سهد، من كره للأبوين اللذين كان يمارسان

الجنس في الغرفة الواحدة، الفقيرة، التي لا تتسع إلا سرير خشبي، تنام فيها البنت لورانس إلى جانب والدتها، وينام فتى مراهق وفتاتان تقتربان من سن الرشد، على فراش فوق بساط، ممدود بشكل ملاصق للسرير، وكلهم إخوة أشقاء، منهم من إدراكه النعاس، فغالبه هنيهات قبل الاستسلام له، وقبل أن تبدأ لعبة الجنس، ومنهم من استيقظ، مدفوعاً بطفليته، لسماع ما تلتقطه الأذن المرهفة، من كلمات لابد منها بين الرجل والمرأة، وهما في بدء الجماع، أو وسطه، أو منتهاه، دون أخذ الحيطة اللازمة، لتجنيب الأولاد بلوى المعاناة القاسية، جراء الإصغاء المفروض، بين جدران الغرفة الواحدة الضيقة نسبياً!

حظ الطفلة لورانس كان الأسوأ، الأبغض، الأشد إيلاماً وتأثيراً، لأنها تنام، كعادتها كل ليلة إلى جانب أمها مردوش، والأب الجاهل فطيم، لم يكن ينام إلى جانب زوجته عادةً، بل على فراش قرب عتبة الغرفة، وفي الأسبوع مرة أو مرتين، يعلن أمام الجميع أنه سينام في السرير مع زوجته، وبذلك يثير الغرائز الجنسية في أولاده، كأنما يبث في سرائرهم، الرغبة الشهاء في الإصغاء إلى أمتع اللحظات في هذا الوجود!

الساعة العاشرة ليلاً، الضوء في قميص الظلمة، الغرفة البائسة، ذات الجدران العارية، يسودها الصمت، إلا من نحّةٍ، أو تقلُّبٍ في فراش، أو إزاحة الغطاء في جو الصيف اللاهب، مع كتم شديد للأنفاس، بانتظار حركة الأب والأم، والوشوشات التي تلي، والكلمات التي ستقال، عند الولوج، أو قبله، في هذا الجو المكهرب، الضاغط على الصدور، مع ارتفاع فتيل الأنا، في الترقب الحاد للذين فاتهم زائر النوم، وسيطر عليهم القلق، كأنما هم على بساط ريح رهواء، يتأرجحون في متهة فضاء شاسع، فيه لذاذات معجوقة بكل المشاعر الخسيسة، الدنيئة، المعذبة، المتشوقة لسماع حفيف الثياب عند الأم، وهي تخلعها على كره أو رضى، لكنها تخلعها ليلة الخميس، وفيها الإنجاز الأكبر، عندما تتداح بقعة الدم على الشرشف الأبيض، و «الزغاريد فقد جنّ الإباء!» وارتاح الأهل الذين يسعدهم أن البكارة قد فُضَّت أخيراً!

هنا الأمر يختلف، لكن اللعبة ذاتها: الإيلاج! متى أيتها التي تنام على ظهرها، تتقادين إلى ماهو مطلوب منك؟ ومتى أيّها الذي من فوق، تنهي الأمر وتسعل كعادتك بعد القذف؟ وإلام نرتهم للسمع المشرّع، وفيه الأحاسيس متضاربة، بين هناءة ونكد، بين رغبات مسعورة، وأخرى شديدة الإرهاق، تتشوّف بدورها لدوران الماء في الأصلاب الملتهبة، ثم الراحة بعد الاغتلام، مرة ومرة.. أو مرات عديدة، حسب اليسر والعسر؟

قالت الأم بصوت فيه بحة الكُره:

- نمتم يا بنات؟
- ...
- ردوا الغطاء إذاً
- قال الأب فطيّم:
- ناموا وشبعوا
- لا! لا تستعجل.. اللعنة..

قاطعها:

- ياعاهرة.. قلت لك لا حس ولا حسيس.. صرنا في نصف الليل.. خائفة من أي شي؟ من..
- سوّد الله وجهك.. الحمار معه مثلك!
- والحمارة معها مثلك يا عايبة.. طلعت روحي.. خلصيني.. خلصيني..
- انتظر.. سامع أم أطرش!؟ اتركني أبعد البنت الصغيرة عني..
- البنت في سابع نوم..
- وأنت في سابع جهنم.. تمهّل.. العمى! انقطع صبرك!؟
- انقطع من زمان.. انقطع يا بنت الكلب!
- لا تكمّل وإلا رفستك برجلي.. فاهم؟ أنت، في هذه الشغلة على نار... نار تحرقك إن شاء الله.. لا ترفع صوتك.. الأولاد..

- قلت لك الأولاد ناموا.. والبنت الصغيرة لا تفهم في هذه الأمور بعد.. اعطني شفتيك..

- لكن لا تعضّ.. لا تعض وإلا فضحتك.. تركت السرير وهربت خارج الغرفة.. رائحة العرق قتلتني.. قلت لك ألف مرة: لا تشرب عندما تريد الاقتراب مني.. هذا الزقوم يجعل رائحتك مثل الجيفة.. سمعت!؟ أين الشقفة؟

- تحتك!

- هذه بعرض الإصبعين..

- ما وجدت غيرها.. على أي شيء تخافين؟ هذه، على كل حال، من شغل المرة لا الرجل.. افتحي.. افتحي أكثر..

- لمن أفتح؟ لهذا الشرطوط.. تفو على شرف كل الرجال أمثالك..

- يا قحبة.. نسيت كم..

- لم أنس.. أتعذب معك حتى الموت..

- من اللذّة..

- من القرف..

- لأنك صرت لغيري يا عايبة!

- إخجل يا سافل.. أنا امرأة شريفة.. لا خائنة مثلك.. خلصني.. قلت لك خلصني بسرعة.. الله لا يوفقك.. البنت.. البنت.. انتبه! البنت.

وكانت البنت، لورانس، تسمع ما يجري.. كانت في الثانية من عمرها، تسمع، تعي، بشكل مبهم، بعض الكلمات المعروفة بأسمائها، تحبس أنفاسها قدر المستطاع، تتعذب، تحب أمها، تكره والدها، تريده أن يموت، أن يكف عن النوم مع أمها، لا تعرف سبب هذه الشتائم البذيئة، المتبادلة، لا تعيد اهتماماً لضيق الغرفة، لنوم أخيها أو أختيها، تفضل النوم في السرير، إلى جانب أمها، وعندما تنتهي المعركة بين والديها، تضع يدها في أسفل بطنها، تحس، على نحوٍ ما، أن هذه النقطة، في أسفل البطن، هي التي كان يجري فيها أمر غريب، وأن والدها يقصده بالذات، وأن اللغة لا تساعدها على قول ما تريد لأمها، سائلة أو مستفسرة،

بهذا الخصوص، وإن دافعاً عدوانياً يتكرر، كلما قال والدها «الليلة سأنام على السرير» وإن هذا الدافع العدواني فيه رغبة، لذة، لا تريدها الأم، ويصر عليها الأب، فلماذا؟ وما الفائدة منها؟ وكيف إن المعركة بينهما تصبح، في النهاية، مريحة، بدليل أنهما في الصباح، لا يشتم أحدهما الآخر، وأنهما يشربان القهوة ويدخنان، ولا ينكر أي منهما في النهار، ما كان يقوله للآخر في الليل!؟

إن الطفلة التي كانت تتألم مما يجري بين والديها، ستحمل ذكرى هذا الذي كان يجري في مراهقتها، وصباها، ونضج أنوثتها، وتجد أن العدوانية، مدفوعة بالنشوة الجنسية، تكفّ عن أن تكون عدوانية، وأنها هي، لورانس شعلول، من حقها، وباندفاع آني، أن توغل في طلب اللذاذات، مع رجل وآخر وآخر، بالزواج وغيره وأن فجورها مبرر تماماً، لأنه حق مكتسب، مثلما كان لوالدتها في صباها، ولكل امرأة في هذا الصبا، وإن الاختراق، بين الذكر والأنثى، اختراق فيه متعة الجسد، وفيه التناسل، كقانون طبيعي، ما دامت المرأة انتسلت من ضلع الرجل، بإرادة الباري سبحانه تعالى، لتكون لعبة هذا الرجل، وشريكته في الكفاح على الأرض، بعد هبوط آدم وحواء من السماء، إثر تذوق التفاحة الأولى.

ولكن الحق على من؟ على الرجل؟ لا! على المرأة؟ لا على الأولاد؟ لا أيضاً! مشكلة فعلاً، فإذا قلنا الحق على الفقر، فكأننا لم نقل شيئاً، في الأمثال إن البرد سبب كل علة، هذا صحيح إلى حد ما، إلا أن الأصح هو الفقر، فالأغنياء لا يرتجفون من البرد شتاءً، ولا يكتوون بالحر صيفاً، إنهم يملكون المال، وما دام المال موجوداً، فالانتصار على القرِّ والحرِّ من البديهيات. إننا في الزمن الرديء، والبشر أردياء لسبب بسيط، كونهم نتاج تاريخهم الاجتماعي، ومن النافل المكروه، الممجوج إن نعظهم، فقد بشموا من الوعظ، وما ننفك ننهال عليهم بالمواعظ، وسئموا من دعوتهم إلى التحلي بالصبر، حتى صاروا يلعنون أيوب، الصابر الأكبر، واقعاً أو مجازاً، والذين فبركوا الأمثال، ودسوا بينها أمثالهم الخبيثة، فبركوا، أيضاً، الأساطير ودسوا بينها أساطيرهم ذات المحتوى الضار، المغلف بالكذب المتقن، أو حتى الكذب الفاضح، وقدوتهم في ذلك غوبلز!

لكن البنت الصغيرة، التي لا تعرف الخير والشر بعد، على شيء من الحيرة، لماذا يتعارك والداها على هذا النحو؟ الأم التي تنام هذه الطفلة إلى جانبها، وأحياناً في حضنها، لمَ تفعل ذلك هذه الليلة؟ لكنها أيقظتها عندما أرادت إبعادها، قال الأب «إبعدي البنت حتى أستطيع...» وقالت الأم: «إذا لم أبعدها برفق استيقظت.. ابتعد أنت عني.. آخ يا سافل، يا كافر، أنا شبه عارية، وبدل أن تمسّد فخذي تقرصه، كيف أفعل إذا رأت البنات جسمي والبقع الزرق عليه؟ بماذا أفسّر الأمر بأنك كنت تركبني؟ بأنك كنت تقضي حاجتك معي؟ اللعنة يا عرص!» وقال الأب: «أنا عرص يا قحبة!؟ خذي إذاً مني بعد اليوم!» «تهددني!؟ «أنا لا أهددك، العمل! أنت زوجتي أم لا!؟» وإذا كنت زوجتك؟» «وأفعل فيها ما أريد.. لا عيب في الحلال، سمعتِ؟ سمعتِ وإلا أجعلك تسمعين بالقوة؟ على المرأة أن تطيع زوجها، أن تتعرى تماماً، بالشكل الذي يريد، وفي الوقت الذي يريد.. وإلا لماذا هي زوجته!؟ لماذا خلق هذا لهذا؟ وكيف كنت، في أول زواجنا، تفحّين كالحية وأنتِ تحتي؟ كنت تموتين من اللذة، تطلبينها بنفسك، تتشهين من النهار، وتصرين على فعلها حتى في النهار أحياناً، وكنت لا أبخل عليك، ارفع رجليك وأعطيك حتى ترضي، حتى ترفعي يديك وتقولي يكفي، دون أن تهتمي إذا تبلّل الشرشف، أو تبقع الفراش، أو سمع أهل الله كلهم، إننا نفعل ما سمح الله به، ما أجازه الشرع، ما فعلته حواء وآدم قبلنا، ما لذة التفاحة إذاً حين وحين وحين.. فكيف تغير كل شيء الآن!؟» أجابت الأم «كان وكان وكان.. لكننا الآن كبرنا.. صار لنا أولاد، صار الأولاد يسمعون، ألا تتقي الله في الأولاد؟» قال الأب: «أنا أتقي الله أكثر منك، أخافه جداً، ولكن ماذا أفعل بنفسي؟ الفقر، يا حرمة، الفقر، لو كان لنا أكثر من غرفة، كنت أنام معك كل ليلة، ننام في فراش واحد، على سرير واحد، لا نخاف أن يسمع الأولاد، لأنهم في غرفتهم ونحن في غرفتنا، وكان كل شيء على أحسن ما يكون، نتكلم بحرية، بصوت عالٍ، بغير وشوشة، من الأذن للأذن، بغير همس، بغير خوف.. تصدقين؟ صرت أشتهي رؤيتك وأنت عارية.. عارية كما يوم زواجنا، عارية بجسمك

الأبيض، الفتي، النقي، وصدرك، وعنقك، وكل مفاتنك.. لكن ماذا نفعل؟ قولي: ماذا نفعل؟» نجدف على الفقر!؟ الغنى من الله، والفقر من الله، والله بكل شيء عليم.. نحن طوع ما يأمرنا به، وما كتبه لنا» قالت الأم «لولا الأولاد يا فظيّم لولا الأولاد!» أجاب بحدة: «دين الأولاد يا مردوش.. لماذا خلّفنا الأولاد ونحن فقراء؟ على الفقير ألا ينجب، أن يبقى بلا عقب.. أبعدتِ البنت؟ تزحزحي عنها قليلاً.. هي ساعة وتتقضي!» ردت الأم: «ساعة!؟ خمس دقائق! قل عشر دقائق.. قل ربع ساعة.. ألا يكفيك ربع ساعة؟» «بعد كل هذا الصبر!؟ بعد كل هذا الصبر نسلقها مثل بيضة، وبسرعة البرق!؟ «الحق عليك.. أذني وجعتني من قدر ما وشّيت فيها، هي ديباجة؟» «الديباجة كانت مقصودة، حتى ينام الأولاد!» «لا تجعلني أكفر الأولاد ما ناموا، خذها مني، الأولاد، والبنت الكبيرة خاصة، سمعوا كل شيء.. ديباجتك السخيفة طالت وطالت، أعرف أكثر منك في هذه المسألة.. السمع لذة.. كنت صغيرة وأعرف. لذة الإنصات ما بعدها لذة.. كنتُ.. قرّب أذنك، أقذف مرة ومرة، قبل الوالدين، أنا والجارات نتصارح، يقول بعضنا لبعض بصراحة، قالت واحدة: كنت أضع طرف اللحاف في فمي وأنا أخلص، حتى لا أشهق من اللذة.. هذا الذي يصير، وما يصير يصير، وأنت من أول الليل ترغي وترغي.. أنت لا تفكر بالبنت، أنت لا تفكر إلا بنفسك، بلذاتك الحيوانية، حرام عليك، اشفق يا عديم الشفقة، فكر بالبنت الكبيرة، وحتى بأولادك الصغار، كان الأفضل أن تنام في السرير، معي، كل يوم حتى تضيع المسألة، هل تفهم كلامي ومعناه، أم أذن من طين وأذن من عجين!؟» «لا! لا! أفهم. ولكن الحق على من؟ عليكِ، ترفضين أن أنام معك كل ليلة» «حتى لا تفعلها كل ليلة!» «المربح معك لو نمت» «لا أريد هذا المربح، لا أريده، قلت لك، مئة مرة، اتركني بحالي، كف بلاك عني.. كف عن تعذيبي وتعذيب أولادي، إنهم، وحق كل ملك، يسمعوننا، اترك بزي.. لا تضغط عليه بقوة.. ماذا تفعل؟ «أفعل الذي يفعله الذكر مع الأنثى.. هذا حقي!» «حقك في غير هذه الظروف، عندما نكون أغنياء، وفي غرفة مستقلة، ماذا بك؟

قال الأب:

- لا أريد والسلام!
- كيف لا تريد!؟ وأنا؟
- إلى جهنم أنت وأولادك وذريتك كلها!
- والسبب!؟
- القرف!
- بعد كل الذي قلت، وبعد كل الذي حدث!؟
- نعم! بعد كل الذي جرى!
- وماذا جرى؟
- لا شيء!

ونزل الأب عن السرير وهو يكظم غيظه!

-٢-

أنا لورانس شعلول التي، في زمن أسنان الحليب، كانت تنام لصق أمها، فتهنأ لهناءتها، وتأسف لأسفها، وتلعن الفقر مثلها، بغير إدراك تام له، وغير وعي بنتائجه كلها. قرأت في الكتب عن حال العشّاقين كما تغني فيروز، واستوقفني ما قاله أبو ذر الغفّاري، عن الجوع والخروج بالسيف دفعاً لأذاه، واستوعبتُ، حين الشراب صرفاً أو ممزوجاً، قول عمر أبو ريشة «كومض الشوق في أحداق سكران» وتوقفت طويلاً مفكّرةً، متأملةً بيته الشعري المشهور «لا يُلام الذئب في عدوانه / إن يكُ الراعي عدوّ الغنم» كل هذا، أو بعضه على الأقل، صار لدي، أو على حد فهمي، واضحاً، أو قريباً من الوضوح، لكن علاقة الجنس بالفقر، في الغرفة الواحدة، بقي مستغلقاً على فهمي وأنا في الفطام بعد، إلى أن سمعت من والديّ أن الفقر يغتال لذة الجماع، فيجعلها نقمة بدل النعمة! طبعاً هما لم يقولا هذا تماماً، توقفا عنده فقط، لكنهما لم يسبرا غوره، ولم يدركا أن جوع البطن أخف وطأة من جوع الجسد، فهذا حين يعوي، كذئب ساغب في متاهة الثلج، خليق بالخروج لأجله بحد السيف، كما عند الغفاري، طيّب الله ثراه، وطيبه ثانية وثالثة ورابعة، لأن أبا ذر الغفاري كان شمولياً، والذنب ذنبنا إذا لم ندرك شموليته، فكلامه عن الجائع الذي يخرج بالسيف على من جوّعه، لم يكن محصوراً أو مقصوراً على البطن، إنما تجاوزه إلى ما هو في أسفل البطن، عند الأنثى والذكر، وقديماً كان الكونفوشيّون، أي أتباع الديانه الكونفوشية، يرون إلى الرهبة على أنها تضحية من نوع آخر، أرقى، أسمى، أوفر إنسانية، فنذروا الرهبنة لإمتاع الذين تحول عاهاتهم البدنية بينهم وبين المتعة الجنسية، وهذا ما نعبّر عنه اليوم بحكاية

الشحاد الذي لا يطلب رغيفاً بل قبلة «دخيل الله» من الجميلة التي فتحت له الباب وناولته كسرة خبز.

رجال القانون يعتمدون الفذلكة توطئة لما يريدون قوله، ويبدو أن هذه العادة، موجبة أم نافلة، قد استهوتني، فأمعنت في قول مسفٍ، بدل أن أهجم على موضوعي فأنكحه مباشرة... نعم أنكحه، لأن النكاح ولوج، دخول، والدخول في الموضوع كالدخول في غيره، والزمخشري، بشبش المولى طوبته، أجاز لنا هذا المنفسح في تشقيق الكلمات المترادفة، لا المتقاطعة كما يفعل العجّز في هذا الزمن!

إن كلية الآداب لا تخرّج أدباء، وإلا لامتلأت دنيانا بأكلة الهواء هؤلاء، ولكنني كخريجة هذه الكلية، أرغب في إثبات جدارتي الأدبية، وسعة إطلاعي على ما أرى وأسمع، ومن هذا الذي سمعته أن الراقصة المشهورة فيفي عبدو كانت في النباهة أوفر حظاً من الروائي نجيب محفوظ، قبل فوزه بجائزة نوبل، أو بعدها، لا أدري، فأوقفت سيارتها الفارهة قصاده وهو يمشي على كورنيش النيل العظيم، وقالت له لافض فوها «انظر يا أستاذ نجيب ماذا صنع بك الأدب، وما صنع بي سوء الأدب» أو قلّة الأدب» إذا أردنا الدقة في نقل المأثور من الكلام!

غير أنني، أنا لورانس شعلّول، مولعةٌ، منذ ما قبل البلوغ، بقلة الأدب هذه، كونها هوايتي المفضلة، ومصدر ثروتي المتنامية، ومثار رغباتي الجنسية الآثمة، فالإثم، هنا، هو الإثم، وألَذّ كثيراً بتسمية الأشياء بأسمائها، لأن النواسي العظيم قال: «وداوني بالتي كانت هيَ الداء» وداء الجنس دائي، ورثته عن أبوي في الغرفة الوحيدة، الفقيرة، التي كانت تنام فيها العائلة كلها، وأنا الطفلة لِصق خاصرة أمي التي لا يعرف والدي كيف يتستر وهو يركبها، لأنه على شك ديكارتي في أن الأولاد ناموا، وشكّه في محله تماماً لأن الأولاد، وأنا منهم، لم يناموا بعد، والأم تحته تتعذب، وأنا لصق خاصرتها أتعذب، وأخي وأختيّ يتعذبون، والسبب معروف، نسبته إلى الإملاق، إو الإدقاع، أو العوز، أو ما شئت من هذه المترادفات التي أتحفنا، وأوصانا، وحضنّا على الولوع بها علاّمتنا بديع الزمان الهمذاني!

كنت صغيرة بعد، في الثانية عشرة من عمري، عندما تكسّبت، بتلك النقطة في أسفل بطني، رغيف الإثم الذي أتاح لي، في مقبل الأيام، دخول كلية الآداب، والتدرج بعد ذلك في طلب المعرفة، حتى أصبحت كاتبة معروفة، مشهورة، أتصيّد رسائل الرجال إلي، وأنشرها إثارة للفضائح، نكايةً بالفضيلة وأربابها من كل الأصناف.

أرجوكم. لا تسألوا، أو تتساءلوا، من أنا بين الكاتبات العربيات المشهورات، في طول هذا الوطن العربي وعرضه، فلورانس شعلول هي كل هؤلاء الكاتبات، وهي، فوق ذلك أو تحته، لا فرق، ليست واحدة من كاتباتنا المبجلات، المنحوتات نحتاً، أو المقولبات قولبة، أو المهندمات قامة فارعة، منحة من رب العالمين، واسمحوا لي، مرة واحدة، أن أقلّد المشاهير من كتابنا العرب، فأعتذر عن ذكر الأسماء، تجنباً للقيل والقال، محتفظةً باسم الكاتبة العربية التي أحب، وأُجلُّ، وأقدر موهبتها، لا لشيء سوى أنها، ذات عام، تكرمت فبعثت إلي برسالة معدودة الكلمات، فأجبتها برسالة معدودة الكلمات أيضاً، على مبدأ المقايضة بالمثل، أو أخذاً بالقول المأثور «خير الكلام ما قلّ ودلّ»، وسبب الإعجاب بهذه الكاتبة الرائعة، أنها تكتب بإخلاص لمهنة الحرف، وتتألق في ديباجتها طبعاً، وتجيد عدة لغات، لكنها لم تذكر، في أيٍّ من مقالاتها، أنها تجيد غير اللغة العربية، وهذا تواضع نفتقده، حقاً وصدقاً، هذه الأيام، نفتقده قياساً، ففي إعلان مأجور، وأجر الإعلان غالٍ في هذا الزمن، شكر أحدهم الذين عالجوه من مرض ألم به، ونقش الإعلان بهذه الكلمة الأثيرة لديه: «الروائي فلان يشكر..الخ» ويعرف القراء أنه روائي، أو أنه يطمح أن يكون روائياً، فلا لزوم للصفة الدالة على عبقرية الشاكر والمشكور معاً، والمسألة، هنا، لزوم ما يلزم، رغم أنف فيلسوف المعرة، واللزوم هو وضع حرف «د» أمام الاسم، حتى لم يبق اسم بغير هذا الحرف من المحيط إلى الخليج، وقد راعنا الدهر ببلوى أخرى، أشد إيلاماً، هي إثبات الحروف الأجنبية تحت الاسم الكريم، كي يعرف القراء، ويهتموا، ويراسلوا صاحب الاسم عبر موقعه على الانترنيت، أو النت اختصاراً وإيجازاً.

قالت السيدة فيروز، سفيرتنا إلى النجوم، حسب الكبير الكبير سعيد عقل، أو غنت، وهو الأصح: «كتبنا وما كتبنا، ويا خسارة ما كتبنا، كتبنا ميّة مكتوب ولهلّق ما جاوبنا» ويبدو أن بعض الرجال، ومن كل الأصناف والأشكال، وكذلك المقاسات والقامات، مولعون بكتابة الرسائل إلى هذه أو تلك من كاتباتنا الشهيرات، دون أن يفطنوا، وسوء الظن من حسن الفطن، أن هذه الرسائل ستنتشر، أو بدقة الكلمة، قد تنشر في كذا من أعوام المجرة، فتكون الفضيحة ذات جلاجل.

قال كاتب فرنسي: «لو أفصحنا عن عشر أعشار ما يدور في أذهان الناس، لأثرنا فضائح لا نهاية لها» ولورانس شعلول على خلاف مع رأي هذا الكاتب الفرنسي، كونها ضحية الغرفة الفقيرة التي كانت تؤوي عائلتها، فوالدها ذكر، وأمها أنثى، وهما في نضج العمر، ولا بد للذكر أن يقضي وطره مع أنثاه، حتى لو سمع أولاده ما يدور بين أمهم وأبيهم من كلام قبل الولوج وبعده، وخلال الرَفَثُ الذي لابد منه في إنجاز العملية الجنسية الشهّاء، وكذلك خلال الهمس المثير للغرائز الطفلية، بقدرٍ أكبر مما يثيره الكلام بصوت مسموع.

ولورانس شعلول التي هي أنا، كانت الضحية بامتياز. سمعت الديالوغ الجنسي الطريف بين والديها وهما يقاربان «واجباتهما الزوجية» في الأسبوع مرة أو مرتين. كانا جاهلين، أرعنين، لا معرفة لهما، ولو بسيطة، بمدارك الطفولة، ونباهتها في الإصغاء والسمع، وما يولدان من اهتياج في الغرائز الجنسية لدى الصغار، ومدى الكبت وعِقَدِه في نفوسهم.. الفقر آفة، الجهل آفة، تكدس العائلة الواحد في غرفة واحدة آفة، والسمع آفة الآفات، وممارسة الجنس، المشروعة تماماً بين الزوجين، غير مشروعة وبإطلاق في نفوس الأبناء، غير أن الأمور هي كذلك، ما دامت الشروط اللاإنسانية تفرض نفسها، في النكاح وفي نداء الجسد إلى الجسد، وفي التهيئة التي تسبق الإيلاج، سواء في القبل، أو في رضاع النهدين، أو عض الكتفين، أو الاحتواء بين الذراعين، أو التنهدات من غلمة، أو الصرخات الصغيرة من لذة، أو الهز واللّز، ثم الاندفاع المجنون أعلى وأسفل، حين العسيلة تتدفع من الظهرين، ويبدأ الخوار، من فرط ارتواء، بين المتراكبين! آه نعم آه،

لورانس شعلول عاشت، على مدى طفولتها المبكرة، جحيم هذه الكوميديا السوداء. كانت في الشهور الأولى كارهة. كرهت أباها لأنه كان يعتدي على أمها، وكان الاعتداء هو الجوهر أصلاً، فالعملية الجنسية عدوانية شئنا أم أبينا، ولا سبيل للوثوب على أذاها أو تفاديه.. الرضوخ إذاً، ومع الرضوخ كبت العواطف، والعواطف لابد أن تنتقم لنفسها، آجلاً أم عاجلاً، وكان انتقام عواطفي، انا التي أحكي لكم حكايتي، رهيباً جداً!

مشاكسة تقولون!؟ نعم مشاكسة! الزمن الرديء لا ينجب إلا أبناءً أردياء، والزمن المشاكس لا يلد إلا أطفالاً مشاكسين. والبلوى، هنا تهون، تهون عند الزمن الفاسد الذي ذراريه فاسدون كلهم، والمضحك في الأمر أن هؤلاء الفاسدين، يزعمون أنهم سيكافحون الفساد، فهل سمعتم رعاكم الله، أن فاسداً يكافح نفسه!؟ قد يتنطع، وهذه كلمة لا أرتاح إليها، بسبب من أن أحد الكتبة يستعملها كثيراً، قد يتنطع أحدهم فيدّعي أن الفاسد يكافح نفسه بالتوبة عن الفساد! وهذا تبرير مبرر إطلاقاً، حتى في هذه العقود التي أصبح التبرير فيها إلى رواج، كما النفاق إلى رواج، وصنوة التبصيص، والتدليس، والتمليس، وحشوا الكيس من كيس، كيس الغانم من المغنوم، وكيس المبشوم من المشؤوم، وكيس الراكب من الراجل، وكيس المقعد الحصير، وكيس البصير من الضرير، الخ الخ..

نعم! ثم نعم! ثم نعم! والتثليث، في هذا المقام، له ذمام، وله ضرورة وأحكام والمعذرة من المقشرة، وما تفعله بأهل الورى، فصاحبة هذه القصة عاهرة كوسموبوليتية، والكوسموبوليتية كلمة جذرها لاتينية، وتعني اللاإنتماء، وما دمت غير منتمية فإنني غير معنية بما اتفق عليه كتّاب القصص من أحكام القص، لذلك ديباجتي صريحة، مريحة، لا لوم عليها ولا تثريب، تكون، حيناً، بصيغة الراوي، وتكون، أحياناً، بصيغة المتكلم، أو المتأمل، أو الشاهد المحايد على ما يشطح به القلم، وبعض الأقلام، في هذه الأيام، مدجّنة، أو مخنّثة، أو محطّمة، وهي، أي بعض الأقلام، قد أدارت ظهرها لصاحب كتاب «النفط مستبعد الشعوب» فقد قال، لافض فوه:

«قلمي لا تكن كالعاهرات/ للّذي عنده الفلوس تؤاتي!»

وهذه نصيحة، والنصيحة كانت بجمل فصارت بعداوة، وعلى كل حال فإن الجائع، في وقتنا الراهن، لا يقوى على تنفيذ مقولة أبي ذر الغفاري، وله في ذلك أعذار، تتناقلها الأخبار، في العديد من الأمصار.

فإذا عدت، والعود أحمد، فإن قصتي، أنا لورانس شعلول، تبدأ بواقعة طريفة، وطرافتها مستمدة من غرابتها، وقد قالوا، قديماً، رب صدفة غير من ميعاد، وهذه الصدفة قادتني، بعد خروجي من بيت أبي في طلب الرغيف، إلى سيدة غنيّة، غنية جداً، وشاذة جداً، ولم أكن، في طفولتي المبكرة، إعرف معنى الشذوذ، لا في النساء ولا في الرجال، وعندما رأتني هذه السيدة أسير في الشارع حافية، شبه عارية، عرضت عليّ أن أشتغل عندها، فقبلت شاكرة، وما إن دخلت الباب الواسع، بقصرها الباذخ، حتى ابتسم لي الحظ، ابتسم؟ نعم! ولكن كيف!؟

-٣-

كيف هذه تحتاج إلى شرح طويل، فيه العجب، ومع العجب لابد من التأني، منتفعةً من بعض ملاحظات كتّاب القصص والروايات، وهذه الملاحظات تستدعي، في القص، ألا أسرع في حرق المواقف، فالموقف، كما أفادتني إحدى الدراسات، في أي موضوع، لا ينبغي أن نسرع فيه، كما نسرع ونحن نركب دراجة هوائية، ولا أن نبطئ كمن يتسلق جبلاً مثل جبال همالايا، لذلك أنفر وأنا أقرأ قصة أو رواية، من المؤلف الذي لا يعطي كل مشهد حقه، كأنه يقول دخل بطل الرواية الصالون، خرج منه إلى الشرفة، غادر الشرفة إلى الغرف الداخلية، خرج منها إلى الشارع، وجد نفسه، بعد قليل، في أحد المقاهي، غادر المقهى إلى كباريه، تعرف إلى إحدى الغانيات، اصطحبها إلى البيت، نام معها، وفي اليوم التالي افترقا، أو تصادقا، أو قررا الزواج، وبعد ذلك توجها إلى المأذون!

لا تعجبني مثل هذه اللهوجة في أي قصة أو رواية، القص يحتاج إلى التأمل، إلى الفهم، إلى إعطاء المشهد ما ينبغي من إشباع، إلى الإقلاع عن السرد المتعجل، شأن راكب الدراجة.

أقول هذا في حدود رأيي، ورأيي لا يلزم أحداً غيري، فالخطأ وارد دائماً، والأخطاء، في هذه الحياة، كثيرة، بسبب من أننا كلّنا خطّاؤون، والأخطاء، في هذا الزمن الرديء، رديئة، قاسية، قاتلة أحياناً، ولكم أخطأت أنا، ولكم دفعت ثمن أخطائي، ما دامت الأخطاء تتطلب أثمانها، والثمن كان دائماً جسدي، فالأنثى بائعة جسد، والمشترون هم الرجال، والروايات التي تتخذ من الجسد موضوعاً رائجة، ورائجة أكثر إذا كان هناك كلام مباح، كأن تسمي الكاتبة أعضاء جسدها، أو جسد

من يشتهيها بأسمائها، تعجلاً للشهرة، وإمعاناً في إثارة الغرائز البهيمية، المستثارة أصلاً بسبب الحرمان، فيكون الكلام على اللحس والمص والرضاع، من الأعضاء التناسلية، وعلى المكشوف.

أنا لورانس شعلول لست كاتبة، ولا أستطيع أن أكونها، وقد لا أريد أن أكونها، لذلك أترك الكلام على الجسد، وذاكرة الجسد، وما تعلق بالجسد، إلى الفتيات الصايعات، المستعجلات الشهرة، مكتفية بسرد قصتي على هون، وبنوع من تملق التعابير كي تؤاتي، ومن الصعوبة أن تستجيب، فأتعذب متشفعة بألف إبليس، مدركة أن عذابي، أو بعضه، ناجم عن عقدة تعذيب النفس التي أعاني منها، رغم أنني، كما سيعلم من يقرأ قولاتي هذه، خريجة كلية الآداب، وقد داعب خيالي المريض بالشبق الجنسي، أن أحاول الأدب، ولو بالشكل الذي يتيسر، إلا أن كلية الآداب، كما قالت إحدى المدرسات فيها، لاتخرج أدباء أو أديبات بالضرورة، وإلا لكان لدينا من هذا الصنف بعدد العاطلين عن العمل، ففي كلية الآداب، يوم كنت من طلابها، عدد يتجاوز عشرات الآلاف، وقد قال لي مدير الكلية، في نوع من فش الخلق «كل هؤلاء الطلاب سينضمون، بعد تخرجهم إلى صفوف العاطلين عن العمل» والحمد لله أنني لست منهم، لأنني اشتغلت على جسدي، وتجارة الجسد أقدم تجارة في هذا الكون المبارك.

إلا أنَّ تجارتي، وبالجسد طبعاً، كانت رابحة جداً لأمرين: الأول إرضاء غلمتي، والثاني إرضاء غلمة المرأة الغنية التي التقطتني من الشارع، كيف؟ وفي الجواب تمهلوا، نعم! لا تضطروني إلى ركوب دراجة هوائية كما يفعل غيري، نشرح المواقف بالتأني يكون، والموقف الذي أنا فيه يحتاج إلى مضاعفة التأني، كوني، الآن، عاهرة شاذة، تخرجت من مدرسة معلمتي، وسيدتي الثرية الشاذة، حتى صار الشذوذ احدى هواياتي، منذ كنت طفلة، أنام لصق خاصرة أمي، بينما أبي يركبها، وهما يظنان أنني نائمة، واخواتي وأخي مثلي، في الغرفة الوحيدة الفقيرة التي انحشرت فيها عائلتي.

أعود، بعد هذه الإستطرادات الجميلة، أو خفيفة الدم، لا أدري، إلى رواية حكايتي الطريفة والمؤلمة معاً، فالطرافة في موضوعها، والألم لأنها بنت فقر، أو إملاق، أو سغب، أو إدقاع، وهي ذكرى، والذكريات صدى السنين الحاكي «كما في أغنية جارة الوادي» التي ينسبونها إلى الظريف نجيب حنكش فخر معلقة زحلة، ومعلمتي التي التقطتني من الشارع لم تأخذني ولا مرة إلى زحلة بل إلى نينوى، ومنها إلى الشعرى، وهي مكان معلمتي، أو مسقط رأسها كما يقولون، واسم معلمتي «الست بدور» وهي غير «الست بدور التي جوّا سبع بحور» لأنّ هذه خرافة، وحكايتي حقيقيّة، وقد كانت هذه المعلمة التي أعيش الآن على ذكراها، حادة الذكاء، نيّرة البصر والبصيرة، قوية الشخصية، فولاذية الشكيمة، مسترجلة والعياذ بالله، لكنها غنية، والغني ستّار العيوب، ولم يكن في الست بدور من عيب سوى أنها تكره الرجال، وتحب الكواعب حب الموت، وكنت كاعباً، على دراية بالجنس في أصوله لا في شذوذه، لهذا كانت تضحك من جهلي في علم اللذاذات، لأنني أنثى، والذي «تمرس في اللذات وهو فتى» ذكر، وللذكر كل حريات هذه الفانية، بينما الأنثى، وحتى لو كانت كاعباً مثلي، لها «خلسة المختلس» فقط لاغير.

المهم، وهناك الأهم الذي سيأتي في سياقه، المهم أن السيدة بدور لم تأخذني إلى الحمام الفاخر في قصرها العامر، بل أجلستني قربها على كنبة، أو مقعد من عهد لويس الرابع عشر، وسألتني عن حالي، وعن مالي، وعن أهلي، وسهلي، وما إذا كنت جبلية، أو وعرية، وعن أبوي واخوتي، ودراساتي ومؤهلاتي، لكنها لم تسألني ما إذا كنت بِكراً أم ثيباً، وشرحت لي معنى الثيب التي هي فقدان البكارة، فأجبتها إنني بكر، وإن أحداً لم يبس «تمّي» سوى أُمي، فضحكتْ لهذا التشبيه، وطلبت مني أن أقف، أستدير، أجلس، أنهض، أقرفص، أميل بجذعي إلى يمين، إلى يسار، اقترب، أبتعد، أقبلها في جبينها، وجنتيها، ذقنها، فمها، أمشي، أركض، أهرول، انحني إلى الأمام، إلى الوراء، أصعد الدرج إلى الطابق الأعلى، أنزل إلى الطابق الأسفل، أفعل ذلك عدة مرات، ثم أقترب منها، أرفع ذراعي، أنزلهما، أقوم بذلك عن بعد، عن قرب، أتعب، أتعرق، تتشمّم

عرقي، تدس أنفها بخفّة، رشاقة مؤانسة، في ظهري، صدري، بين نهدي، تحت إبطيِّ، وبعد هذا النوع من الاختبار الذي لم أكن أعرف له سبباً في ذلك الوقت أرادت أن تسمع مني كلمة أو أغنية، أو تمتمة، ففعلت، تقصّدت أن أفعل، أن استجيب، أن أقوم بكل ما تطلب، دون إدراك تام للغاية من كل هذا الاختبار، سوى الحدس بأنها تريد أن تتخذني ابنة لها، وهذا ما جعلني مسرورة لأنني سأعيش معها، وفي قصرها، ثم في المبهم، الذي سيتعلق لاحقاً، كنت أرغب في شيء صغير كبير في وقت واحد: أن أكون سيدة هذا القصر الصغيرة، دون أن أغفل، لحظة واحدة، أنّ معلمتي هي سيدة هذا القصر الكبيرة، ففي هذا الترتيب الذي حدست به، قبل أن أفكر فيه، بعض الشكر، وبالشكر تدوم النعم!

لوارنس شعلول تعرف، إلى حد ما، نفسها، تعرف، أيضاً جسدها، تحب هذا الجسد، تعشقه، بغير وعي بدءاً، وبوعي تدريجياً، إنه ثروتها، ومن الغفلة ألاّ تستثمر هذه الثروة، ألا تنميها، ألا تستغلها بالشكل الأفضل، الأمثل، وتوظفها بشكل عقلاني في خدمة مآربها سواء في سواء في لذة الأثراء، أو لذة الاغتلام، أو الارتواء الذي وحده يرضي الحواس، لصبية طموح، مجبولة بالمشاعر، معجوقة بالأحاسيس، لا فرق بين الفضيل أو الخسيس منها، ما دام الجنس، في الغاية القصوى، هو التجارة الرابحة في سوق العرض والطلب، وقد مارست لورانس هذه التجارة بدراية وحنكة، وتعلمت من خلال ممارستها بعض ما ينفع، وبعض ما يضر، وتجنبت، قدر المستطاع، الخسارة، مدركة، منذ مراهقتها، أن في التجارة، بكل أنواعها، لا بد من الخسارة والربح، فدون خسارة لا يكون ربح، كما دون موت لا تكون حياة، على نحو ما وعته من شروحات آنستها في الدراسة الإعدادية.

«خلق الإنسان ليتعلم» هذه إحدى محفوظات لورانس من الإعدادي، وفي الإعدادي، والثانوي، وحتى الجامعي بعد ذلك، لم يكن هناك أي درس حول الجنس وممارساته، وحتى أعضاء الجسم ووظائفها، كان يشار إليها بالإيماء، بالتورية، أو بالتعميم، فطالبات الصف، وقد بلغن أو قاربن البلوغ، ممنوع عليهن سماع أكثر من

ذلك، رفضاً للعيب، أو تجنباً له، مع أن هذا العيب مرسوم، بشكله المستتر، على باب قاعات الدرس ونوافذها وجدرانها، والطالبات، أو أكثرهن، يتغامزن من وراء ظهر المدرسة، تغامزاً مؤداه: نعرف، ونعرف، ونعرف!

أما لورانس شعلول، التي تخرجت من مدرسة والديها في الجنس وكيفية ممارسته، وطبقته بأشكاله التراتبية، على نفسها أولاً، ومع غيرها ثانياً، سواء في السر أو العلن، فإنها كانت تفهم توريات المدرّسة وتضحك في سرها من كل هذا التكتم الذي ينتج عكسه، أي إيقاظ الأحاسيس الجنسية، تشبيبها، تسعير نارها في النقاط الشبقية، من أدنى إلى أعلى، دافعة الطالبات، أو بعضهن، إلى العبث بأجسادهن على نحو غير صحي، رغبة أو نكاية، لا فرق.

الست بدور، معلمتي الثرية جداً، كانت متزوجة وغير متزوجة، فالزوج الذي يأتي إلى البيت، في فترات متباعدة، كان يقبض جعالته ويمضي، ولم أعرف اسمه إلا بعد وقت طويل، عندما قالت له: «اسمع يا وسّوف، لا تأتي قبل أن تُتلفن، حسب الاتفاق بيننا!» ولأني قررت ألا أتدخل في الأمور التي لا تعنيني، لم أسأل عن هذا الزوج وماذا يعمل، وكيف يعمل، أو أين يقيم، وهل هو كامل الرجولة، أو عنّين، أو مخصي، أو غافل، أو متغافل، أو يعرف أن زوجته بدور شاذة، ترفض الرجال، وتأنس بالنساء، وبالفتيات الكواعب من هن، وليس حرج، أو عيب، أو خسارة، وأن السكوت، مقابل المال، مجزٍ له، ومريح لزوجته!

إن بيع الجسد، في كل أشكاله، تجارة قديمة قدم التاريخ، والأنثى التي تبيع جسدها للرجل، تبيعه للمرأة أيضاً، ومسألة التمرس باللذة يمكن الحصول عليها بأكثر من نمط واحد، على شرط أن يكون هناك تسليم، اصطبار، سبر للأمور أعمق فأعمق، مرة بعد مرة، ويوماً بعد يوم، وتفنن مكتسب على مراحل، وانتفاع متبادل، ترجمته إرضاء واسترضاء مقابل أخذ، صبر في البدء، كره أيضاً، رفض، إصرار على الرفض، يليه، مقابل المال، قبول مقتّر، قطرة أثر قطرة، جارحة بعد جارحة، اللمس البريء، اللمس غير البريء، قبلة من الرأس، بعد الخد، بعدها من العنق، ثم من الفم، فالعنق، فالصدر، فالنهد، نزولاً، صعوداً، يلي

ذلك الشعور بالدفء، بالحرارة، بالسعير، الاسترخاء مقرون بالممانعة، تخفيف الممانعة، الممانعة كرة أخرى، تخفيفها، تقبل الشيء على مضض، التزحزح، التقلب، الدفع إلى وراء، محاولة الهرب، التظاهر بالهرب ولا هرب، الشكاة، التأوه من الألم، رفع الصوت احتجاجاً، الصراخ، آه! آه! آه! ما هذا؟ كيف هذا؟ لماذا هذا؟ ماذا يجري؟ الرحمة! الرحمة، لأكاد أموت، لا أموت، الاحتضان الاحتواء، التركيز، رجاء، تقبل الرجاء، هذه المرة فقط، هذه المرة فقط.. تنتهي المرة.. بكاء، تظاهر بالبكاء، التلاشي.. الهمود، البقاء في حالة همود.. في حالة الافتراع.. في رفض النهوض.. تعب، تعب، تعب، أكاد أموت من التعب.. دلال.. دلال امرأة افترعتها امرأة.. محاولات إرضاء.. مال! هدايا.. أو وعود بمال وهدايا.. تمت اللعبة.. ولكن تمت في المرة الأولى فقط، وبعد؟ هناك مرة أخرى، ثم أخرى، ثم ثالثة، ورابعة.. امرأة تعشق امرأة.. السيدة بدور عشقت لورانس شعلول، وأنا، لورانس، بِكرٌ ولست بثيّب، لكنني أفهم جيداً في هذه الأمور، والفضل في هذا الفهم يعود إلى والديّ، يوم كان أبي يفترع أمي وأنا صغيرة، كنت لصق هذه الأم، عند خاصرتها تماماً، وبلطف وحذر أبعدتني عنها، ظنت أنني نائمة، ولم أكن نائمة بل تناومت، باختصار كان الجماع لا بد أن يتمّ، وبعد أن تمّ، تناوبني شعوران: كره والدي وحب أمي، ومع الأيام، تغير الكره والحب كلاهما، حلت اللذة الطفولية، اللذة المبهمة التي لا قذف معها، بل وضع الإصبع في النقطة الهامة، النقطة التي في أسفل البطن، والمداعبة اللاوعية ولكن المريحة، يعقبها النوم الهانئ، مع نوع من الترقب السحري، بانتظار الجماع الآخر، الذي كان يستعلن في قول الولد: «اليوم سأنام على السرير» فأفهم أنا، ويفهم الإخوة، كلٌّ على طريقته، أن شيئاً سيدخل في شيء، وأن معركة من الوشوشة، والغمغمة، والجمجمة، والسباب الفاحش، ستدور بين الوالدين، قبل الهز والرز، وارتجاج التخت الخشبي، وانطلاق سعلة الوالد التي هي بالنسبة إليهما نقطة النهاية، وبالنسبة إلينا ختام الوليمة الجنسية.

كتلة الزمن السائلة لها قانونها الخاص، ولم نكن، في الغرفة الوحيدة الفقيرة، نعرف ساعات الزمن، فالتقويم الوحيد لدينا هو الإصباح والإمساء، يطلع الضوء فنعرف أنه الصباح، وتهبط الظلمة فنعرف أنه الليل، وكان الصباح يبشرنا بالنهار، وفيه السعي وراء اللقمة، والظلمة تأتينا بالجهمة، لأن الفانوس الوحيد في الغرفة كانت «قزازته» تطق كيداً، فنسهر على ضوء شمعة، وكانت هذه الحال إلى ترجيح غالباً.

ماذا تفعل خريجة هذه المدرسة المفروضة عليها بحكم القدر؟ إن بعض الأسئلة الغبية لا تعطي أجوبة غبية بالضرورة، فالكائن البشري خلق ليتعلم، وهذا الكائن هو الأنبه بين الكائنات، لذلك هو الأجدر بالتعلم بينها، وعلى ذلك فقد تعلمت، بعد أن تخرجت من الثانوية، أن القدر لا يقاوم، ومن العبث أن نحاول ذلك، وكل ما نستطيعه هو التماس اللطف به، وهذا ما تحقق لي، عندما رماني الدهر بين مسننات الشذوذ، لدى امرأة ثرية وشاذة، وما تبقى هو الانتفاع بما وهبني الله تعالى من شبق اللذة وشبق الذكاء، في جعل هذه السيدة أسيرة رغباتي، في تدريبها على الاستزادة من لذة الوصال معي، سواء كنت تحتها وأنا استلقي على ظهري، أو جعلها تتعم بلذة الردفين والظهر وهي فوقي، ثم الرفث، أي الفحشاء، في الكلام، وبصوت عال، والعض الموجع استثارة للغلمة، وإنكاء للرعشة الأخيرة التي تنحل معها الأوصال في المرأة والرجل على السواء.

مقابل إرواء هذه الشذوذية الظمأى، كنت أسعى لكسب المال أولاً، فلما تحصل لي سعيت إلى كسب أثمن وأفخر الثياب، ولما اكتفيت منهما، انقشع أفق حياتي أمامي فأزمعت على تحقيق ما فاتني بسبب فقري، وهو إكمال دراستي في إحدى الجامعات، وفي كلية الآداب تخصيصاً، فوافقت السيدة بدور، شريطة ألا تكون الدراسة على حساب اللذة، أي أن أقوم بواجبي في الحالين، وقررت، بعزم لا يلين، أن أفي شذوذ سيدتي حقها، ودراستي الجامعية حقها أيضاً؟

الحياة شراع، وكلنا سواسية في السفر على متنه، وكانت الدراسة، صدقوني، هي المتعة الصغرى، واللذة الشاذة هي المتعة الكبرى، والتي كانت تتام

تحت، صارت مع الأعوام تنام فوق، صرت مثل حبة العدس، لا يعرف لي وجه من قفا، ودربت سيدتي بدور على شذوذي الذي أصبح أمضى من شذوذها، وفنوني في ذلك تفوق فنون جميع الشاذات أمثالها، ولم تعد لي رغبة في الرجال، ولماذا الرجال؟ لماذا وأنا أكره والدي الذي كان يحسبني نائمة وهو فوق أمي وهي التي كانت تتألم وأبي فوقها؟

قامت في نفسي رغبة في الانتقام! من الذي يزعم أن الانتقام ليس له لذة الجنس أيضاً؟ ومن يكابر في أن الجنس مصدره الجسد، وأن الجسد هو الأصل، وكل ما تبقى من لذاذات فروع؟ أنا، لورانس شعلول، امرأة شاذة، شاذة على سن الرمح، وشذوذي لا يضر أحداً لذلك لا حق لأحد في مساءلتي عنه، ومع أن الظلم لا يردع إلا بقانون، فإن لذاذات الجسد لا تقع تحت طائلة العقاب لأي قانون، في أي مكان من كرتنا الأرضية.

إنكم، وأعرف هذا عن يقين، تريدون سماع بقية حكايتي، إلا أن زميلاً لي في كلية الحقوق أوضح لي حقيقة معيشة في هذا الزمن، ومفادها التعدّدية في الأصوات، التعددية في الصفات، التعددية في المستويات، التعددية في السياسات، أو التعددية السياسية كما يقولون، كذلك، وأخذاً بمبدأ التعددية هذا، أتوقف عن إتمام ما بدأت به، مفسحة في المجال له كي يقول ما عنده، على أن تكون لي وله، عودة إلى هذا الموضوع في رواية

هل تعرفون من هو أيوب القرن الواحد والعشرين؟ إنه، وبغير إيضاحات نافلة، كاتب هذه السطور، وهذا الكاتب الأيوبي وقع عليه اختيار لورانس شعلول، في طلب لا يُرد لأسباب خاصة، كي يقرأ ما كتبت، إيماناً منها أنني نزية القصد فيما أبديه من رأي، حول ما تكتب هي أو غيرها، وذلك استناداً إلى مقولة متداولة، مفادها أنني شديد الذكاء، حاد الرؤية، نافذ البصيرة، أحط من أشاء وأرفع من أشاء، وتاريخي شاهد على أن ذلك كذلك، بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، ومع الحيطة في الإيضاح دون الإفصاح، تجنباً للفضائح التي هذا زمنها

بامتياز، وكيلا تتأذى فلانة في خليجنا العربي، أو تضار علاّنة في متوسطنا اليعربي، أو نقع في مخالفة يطالها قانون النشر، في ضميريه البارز والمستتر.

أشهد أن كل ما ذكر عني افتراء محض، ومقولة نكائي الحاد كذبة بلْقاء ستتكشف في مقبل الأيام، والحديث عن رؤيتي الصائبة حديث خرافة، ونزاهتي مشكوك فيها، واختيار لورانس شعلول في غير محله، فأنا متذوق لا ناقد، وهذا المتذوق شهادته مجروحة، وكل ما فعلته في هذه الحياة لا يتعدى نغماً في طنبور الكلام، وليس لي، من نعمة الحول والطول، سوى السترة، وغير صحيح أنّني أشيل من أريد وأحط من أريد، فلم يسبق لي أن رفعت أحداً، أو حططت أحداً، وكل ما في الأمر أنني محظوظ، وحظي هو الذي سيّرني في طريق الجلجلة، ومنذ ثمانين عاماً وأنا أحمل صليبي على كتفي، وللنكاية، قولة دعبل الخراعي، إنني لم أجد من يصلبني عليه فأستريح وأريح معاً.

لقد فكرت طويلاً في اقترح لورانس شعلول، وقلّبت الأمر على وجوهه الأربعة، بسبب من إنني أقلعت عن العادة الذميمة في نصرة المرأة مظلومة أو ظالمة، وصرت أشك في صحة موقف قاسم أمين من المرأة، هذه التي رفع لواء نصرتها بشكلٍ طائش، مندفعاً بحماسة الرجل الذي يريد إثبات إنه فاضل، ما دام أحد الأفذاذ زعم أن أفضل الرجال هم الذين يقفون إلى جانب المرأة، متناسياً النقصان في التمام، أو جاهلاً أن ابن الخطيب الأندلسي قال في كتابه «نفح الطيب» «لكلِّ شيء إذا ما تمّ نقصان» أو أن التمام قد لا يُدرك لأسباب عديدة، رغم أن المتنبي العظيم قال: «ولم أر في الناس عيباً / كنقص القادرين على التمام» وإدراك التمام تقوم علة، وهذه العلة هي الأساس «فالظلم من شيم النفوس / فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم» والعلة هنا هي القانون الذي افترض الشارع أن الناس سواسية أمامه، وهذا الافتراض كان في غير محله، لأن القوانين، كل القوانين، ورغم سقراط، تسن لمصلحة الحكام ضد المحكومين، ولمصلحة الظالمين ضد المظلومين، وإنَّ محبة الشعب بإطلاق لغو لا طائل منه او فيه، فالشعب مضلل، وبسبب هذا التضليل فإنه عرضة لعيوب كثيرة، والحب، عادةً، أعمى، فما نفع حب

الشعب إذا كان ثمنه عدم تنبيهه إلى أخطائه؟ ما نفع حب الشعب إذا لم يكن هذا الحب موجهاً نحو فتح عيون الشعب على الحقيقة؟ ثم ما نفع حب الشعب، إذا كان هذا الحب سكوتاً على الخرافات التي تجعل الشعب قطيعاً من القطعان!؟ وما يقال عن الشعب ينطبق على المرأة، فكل سكوت عن بعض المعايب التي في المرأة تواطؤ عليها، ومشاركة في تجاهل الأسباب التي تجعل منها جارية في بلاط السلطان الذي هو الرجل، فـ «الأم مدرسة إذا أعددتها» قال أحمد شوقي، وإعداد المرأة التي هي الأم لا تكون في حبها، أو عبادتها، أو الارتهان لدلالها والفخ، أو الاكتفاء بان تكون لعبة لنا، ودمية جسدية تمتعنا، أو رعشة صبابة في مضجعنا، أو شبق لإرواء غلمتنا، وبعد ذلك نركنها في المطابخ لخدمتنا أو نفترعها في الفراش لتناسل وتواصل ذرارينا.. فإذا كنا رجالاً نحترم المرأة، ونأتي لنقف إلى جانبها، ونرغب حقاً في تحررها من عوز اللقمة التي تجعل منها عبدة في بيوتنا، علينا أن نفهمها أن تحررها لا يكون إلا بعلمها وعملها، وأن نساعدها فعلياً على التعلم والعمل، وعلى شغل الوظائف التي تليق بها، ونكف عن الخوف من انكسار هذه القارورة منذ اللمسة الأولى، أو الصدمة الأولى.

قد لا تكون هذه المرافعة الطويلة والمملة ضرورية، لولا أن لورانس شعلول أرادتني كما أرادني الآخرون، أن أكون ذا رأي فيما كتبته، وقد قرأت هذا الذي كتبت فوجدته موضوعاً بكراً، جريئاً، صائباً، فيه جنف ناتج عن فقدان حرفية الكتابة، أو عدم صقل موهبة الكتابة، أو الافتقار إلى معلمية الكتابة، وهذه أمور تكتسب مع المثابرة، وتتحصل من صقل الموهبة ومن الخطأ اللجوء إلى الإصلاح، أو النصح بالإصلاح، كيلا نستلب حق الكاتبة بالطريقة التي آنست بها، أو استساغتها، في كتابة ما عاشت، وسمعت، ووعت، من أمور قد تخدش الحياء، وفي الوقت نفسه تخدش الواقع، أو تحوله إلى ديباجة أدبية مؤدبة، وكل أدب مؤدب هو، في المآل، لا أدب، أو أدب مزوّق، محسن، مطرّى، أو مجلوب بتطرية «وفي البداوة حسن غير مجلوب» لأنه مصاغ على شكل الخالق في خلقه، وعلى ما أراده الله الجميل الذي يحب الجمال في مخلوقاته.

ما تبقى، بعد هذه السفسطة التي ترونها إقحاماً وأراها إفهاماً، هو أن يكون الخير فيما اختاره الله، وأن أنزل عند رغبة كاتبة لا أعرفها سابقاً، وقد لا أعرفها لاحقاً، لأنه سبحانه وتعالى قد تاب علي من إصلاح أية ديباجة لأية امرأة، وتاب علي من كتابة المقدمات جملة وتفصيلاً، فالقلم الذي حملته منذ ستين عاماً لم يكن قلماً بل مبرداً، برد أعصابي حتى اهترأت، وأبلى لبوسي حتى تخرقت، والمؤسف إنني «تخرّقت والملبوس لم يتخرّقِ»!

هل تحسب لورانس شعلول أن المكر، وهو كل عدتها، يمكن أن يخفي كلمة الكيد، المكتوبة بشكل يُرى ولا يُرى، على جبين كل امرأة، وأنه يمكن أن يمرق حتى من حلق الردى، في محاولة لإيهامي بأن ما قالته عن معرفتها بي تعود إلى أيام الدراسة في كلية الآداب؟ إنها تكذب كما تشرب الماء، فانا من هواة المغامرة، ولي موعد دائم معها، وفي واحدة من مغامراتي هذه في باريس، اكتشفت أن لورانس تستثمر الأموال التي حصلت عليها من السيدة بدور، في عمل نافع لها، ينسجم مع رغباتها، بافتتاح بيت خاص بالسحاقيات من النساء، له بالنسبة إليها، فائدتان: الأولى الاستمتاع برؤية الشاذات وهن يمارسن، بشكل جماعي، شذوذهن، والثانية إنماء ثروتها تدريجياً، قهراً لفقرها وهي طفلة، واتخاذاً للفتاة الصغيرة الجميلة، التي تختارها عشيقة لها، كما كانت هي عشيقة السيدة بدور معلمتها الأولى، ولمّا تزل.

إن علم المنطق الذي يقضي الطلاب سنوات من العمر في تحصيله، ليس علماً في التنجيم، أو الضرب في المندل، أو قطف بعض نجيمات المجرة باليد المرفوعة إلى أعلى، إنه، ببساطة دحض الحجّة بالحجّة، إذا ما تيسّر لنا أن ننفذ إلى جوهر هذه الحجة، لورانس شعلول كانت تعمل وفق ما يتطلبه المنطق، دون أن تتعب في دراسة المنطق، وأخذها بالتعددية سبيلاً للنجاح في هذه الدنيا، كان أخذاً منطقياً، لا يجانب السياسة لكنه لا يتكلم عليها، أو يتقصدها في القول بل يعتمدها بالفعل أو عندما آثرت التوقف عن رواية قصة حياتها، كانت في الإضمار تسعى إلى التشويق كي تجعل القارئ مسوقاً إلى معرفة البقية في رواية قادمة،

قالت إنها ستكتبها، بعد أن يكون كاتب هذه السطور قد أعطى رأيه في قيمة ما كتبت من الناحية الفنية، وهذا في الغواية لب الغواية، وفي الفهلوية إتمام الرواية التي بين أيديكم بفصول من حياته، وبذلك تكون التعددية السائدة هذه الأيام قد تحققت فعلاً لا قولاً، وتكون لورانس قد بلغت ما أرادت من معرفة سيرة هذا الإنسان، أو معرفة ما تيسّر منها، والربح مضمون لها في الحالين.

إن شريك لورانس في تحبير هذه الرواية نصف عاقل نصف مجنون، ومساهمته في تحبيرها ستقتصر على رسائل موجهة منه إليه، تحت عنوان رسائل من الذاكرة المجنونة، يوم كان في العشرين من عمره، ويرغب في أن يطلع الناس على ما كان يفكر فيه وهو في هذا العمر العشرين، وإليكم الرسالة الأولى، كما وردت في نصها الأصلي، دون تدقيق أو تحوير أو تحسين، سواء في اللغة أو طريقة التعبير، ودون مداراة لما فيها من إساءة إليه، أو تجميل لسيرته، أو روتشة لصورته التي لا يحب أن يراها في المرآة أو التلفاز، لا من قبيل الفذلكة، أو الفندرة، أو الدعاية، أو لفت الأنظار، أو ولع الناس في رؤيته كأنه حيوان نادر على وشك الانقراض، بل من قبيل إثبات المثل السائر «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ومهما يكن فأنني سأنشر رسائل هذا المعيدي المجنون تباعاً:

رسالة إلى نصف مجنون!

حين كنت في العشرين من عمركَ، كنت حلاقاً غير ملتزم، في دكان على باب ثكنة في مدينة اللاذقية، بابها من أخشاب عتيقة، لا تمنع ريحاً ولا تحجب ضوءاً. نعم! هذا ما كنته يا فصيح، يوم كانت الحرب العالمية الثانية تتضرّى، وكنت تتساءل، كما غوركي، يا نفس ماذا ستكونين، وماذا يخبئ لك الغد!؟

لم يكن لديك سوى الشهادة الابتدائية، المنسية الآن في قاع البحر الأحمر، وقد حصلت عليها من المدرسة «الرشدية» في مدينة اسكندرونة، قبل الهجرة من اللواء السليب، وقد أضعت طفولتك في الشقاء، وشبابك في السياسة، سعياً وراء العدالة الاجتماعية، هذه التي تتحسر الآن عليها، لأنها لم تتحقق، لكنك غير يائس من تحقيقها، لأنها حلم البشرية أزلاً أبداً.

كنت، أيها المأفون، ترغب في تغيير العالم، ودون أن تعرف ما هي الكتابة، كتبت خربشات اسميتها مسرحية، أنت بطلها، وفيها تُغيِّر العالم في ستة أيام، وفي اليوم السابع تستريح، وقد ضاعت هذه المسرحية، وأنت غير آسف عليها، لأنك لا تأسف على ما فات، وتتطلع أبداً إلى ما هو آت!

الفقر نوعان: أبيض الذي تعيشه الآن، وأسود الذي عشته منذ وعيت الوجود، حين كنت عرياناً إلاّ من خروق تستر لحمك، وكنت حافياً، جائعاً، تبحث عن اللقمة، وفي سبيلها عملت أجيراً عند مؤجر دراجات، وأجيراً في صيدلية، وأجيراً مربياً للأطفال، وأجيراً عند حلاق، تعلمت لديه مبادئ المهنة، وحمالاً في المرفأ، وبحاراً، أو أجير بحار، على مركب شراعي، لمدة قصيرة، رأيت فيها الموت يحدّق فيك، بعيون باردة، خلال العواصف، وما أشدها في الشتاء!

إنني أكرهك يا فصيح وبسبب من هذا الكره، أرفض، إلا مرغماً، أن أرى وجهك في المرآة أو التلفاز، لكنك، في أرذال العمر، صرت مشهوراً، والشهرة جهنم، فماذا تفعل، وأنت عنيد، وعِنْدك عِنْد بغل!؟ حسناً! ترفض الدعوات، لا طاقة لك على سماع المحاضرات، والخطابات السياسية خصوصاً، لا ترتاح إلى كلمة عطاء، تضحك من الذين يقولون علينا أن نعطي، يقشعر بدنك كله من كلمة رواية، تعاقب نفسك لأنك أول من تنبأ، عام ١٩٨٢، بأن الرواية ستكون ديوان العرب، وعنك أخذها الآخرون ثم جحدوك، وهذا لا يهم طبعاً، لأن درب الرواية واسع، وفيه يسير جميع الكتبة تقريباً، ومن هذا الكم سيكون النوع، وعندئذ تكون لنا الرواية العربية التي تخترق جدار الصوت، وهذا جيد جداً، وجيد أيضاً أن تكون هناك ظاهرة إيجابية، مفادها أن الكثرة من الفتيات والسيدات يرغبن في الكتابة، وفي كتابة الرواية على العموم، وعليك، يا فصيح، أن تعطي رأياً، أن تقدم ملاحظة، نصيحة، موعظة، أو، وهذا هو الأسوأ، أن تكتب مقدمة، وأنت تلعن النصائح، والمواعظ، والمقدمات، عائداً إلى العشرين من عمرك، يوم كنت حلاقاً، وفي بدايتك بالحلاقة، لم تكن الكتابة تخطر على بالك، وقد تعلمتها، من بعد، بكتابة الرسائل للجيران، والعرائض للحكومة، بغية إصلاح هذا الرصيف، أو تزفيت هذا الطريق، أو تأمين الرغيف وتحسينه، أو الدفاع عن المظلومين، والفقراء، والمعذبين في الأرض، وإسماع المسؤولين صوت الذين لا صوت لهم، وتَقَبّل اسفنجة الخل من أجلهم جميعاً!

لقد كنت، أيها الشقي، تُسرّ بالشقاء، والشيطان يعرف لماذا، كنت في العشرين، وأنت حلاق، خرّيج سجون بامتياز، أيام الانتداب الفرنسي، وزمن الإقطاع بعد الاستقلال، تسع مرات سجنت، في اللاذقية ودمشق، وفي السجون تعلمت بعض الأشياء، وفي المنافي، لأسباب قاهرة، اكتسبت بعض التجارب، وكنت تفرح، أيام الانتداب، وأنت تقود المظاهرات ضده، والرصاص من فوق رأسك، ومن على جانبيك، يئز، دون أن يطالك، حتى نفد صبر الزبائن منك ومن حلاقتك، وجاءت الطامة الكبرى، عندما قبض رجال الأمن على من وجدوا من

زبائنك، فكان الإفلاس تاماً، وكان إغلاق دكان الحلاقة لا بد منه، والتشرد الطويل قد دقت ساعته، فودعت أمك العجوز، التي لا تعرف لأي سبب، كانت تريدك أن تكون كاهناً أو شرطياً، ولا توسط بينهما، فلم تكن لا هذا ولا ذاك، وبعد ذلك، أيام السجون والمنافي، تواضع حلمها فتَمنِتْ لو كنت راعياً، وأسفتْ لأنها أرسلتك إلى المدرسة، بينما هي وأخواتك البنات، كنّ خادمات في بيوت الناس، وقبل خروجك من اللاذقية، ودعت القوّادة جارتك، التي زودتك بهذه النصيحة قائلة: «اسمع يا فصيح! الرجل لا تذلّه سوى شهوته، فلا تدع شهوتك تذلك» وقد حفظت هذه الوصيّة، هذه الحكمة، وانتفعت بها في مشوارك الطويل، مقيماً ومرتحلاً، وعندما صار التشرّد مهنتك، التي مارستها وأنت تحمل صليبك على كتفيك، في أوروبا وفي الصين، قبضت على هذه الوصيّة، قبْضك على جمر الغربة، ورمح الحراس، في الجلجلة، يطعن في خاصرتك فينزُّ الدم.

في العشرين من عمرك، أنت البائس الذي ينافح عن البؤساء، غادرت اللاذقية إلى بيروت مرغماً، باحثاً عمن يتخذك أجيراً من الحلاقين، لكن بحثك، أياماً طوالاً، لم يُجد، رفضوك وأنت تحمل قليلاً من الثياب، والأقل الأقل من النقود، في الصرّة التي على كتفك، فكرهت أميرة المدن، في لبنان «الأخضر حلو»، ووجدت نفسك ضائعاً فيها، ولا يزال هذا شعورك، منغرساً في تربة نفسك، يتمظهر كلما زرتها، فتفر من هذا الأثم، معتذراً لشاعر «طفولة نهد» الذي تعده ظاهرة لن تتكرر، والذي قال أن بيروت أميرة المدن.

الحجر الذي رفضه البنّاؤون سيصير، في ضربة حظ، رأس الزاوية، لكن ليس قبل أن يدفع الثمن غالياً، في بحثه عن الأمل في اجتراحه لعبة صنع الأحلام حتى لا يسقط في العدم، ودمشق التي تقصدها، بعد أن خيبت رجاءك بيروت، لم تكن أبيض يداً، ولا كرماً، وقد طوّفتَ، يا فصيح، في شوارعها وأزقتها، عساك تخطى بمن يقبلك أجيراً من الحلاقين، فلم تفز بما تنشد، فالحلاق الذي كنته، رفضه الحلاقون الذين كانوا، والسبب أنهم ليسوا بحاجة إلى أجُراء، لأن لديهم الفائض

منهم، ولأن شكلك الناحل، العليل بغير مرض، الأصفر الوجه من جوع، جعلهم ينفرون منك، وكان هذا، من حسن حظك هذه المرة.

حظك!؟ لا! زمن الحظ في مطاوي الغيب بعد، وسيأتي يوم تتساءل فيه: «لماذا لم يدخل ماركس الحظ في فلسفته؟» أما وأنت في العشرين بعد، فإن المصائب، أمامك، عربات قطار، مربوط بعضها إلى بعض، وأنت تواجه تدرك، مصيبة بعد مصيبة، كما عربة قطار بعد عربة، وتتجول في شوارع دمشق، حيث «يأتيك بالأخبار من لم تزود» لأن أختك، وزوجها خائب، وقد نشزت، تاركة ابنها عند جده لأبيه، ويبلغك أحد اللوائيين أن عليك أن تذهب لتأخذ الطفل، وإلاّ رمته زوجة جده المسكونة بعفريت القسوة إلى الشارع.. ذهبت إلى كنيسة المريميّة، حيث يسكن بعض اللوائيين الفقراء، في أحد الأقبية المجانية من وقف الكنيسة، وهناك وجدت الطفل الذي أنت خاله، في ثياب بالية، وشعر طويل، يسرح فيه القمل على هواه.. تبكي؟ وما نفع البكاء حتى لو استطعته؟ تبكي أختك الناشز؟ تبكي ابنها المنذور للضياع لو لم تكن أنت؟ تبكي القدر في عربات قطار المصائب؟ كل هذا لا يفيد، «خذ الطفل إلى جدّته التي هي أمك» قالوا لك، وأخذته، وضعته على منكبيك وسرت به إلى المرجة، ومن هناك ركبت في «بوسطة» مخلّعة، وهو في حضنك، قاصداً بيروت، لأن طريق دمشق - حمص - اللاذقية، لم يكن سالكاً بعد، ولأن الطفل جائع، وأنت لا تملك إلا أجرة الطريق، فقد لجأت إلى بيت صديقك عبدو حسني، الذي سيكون معلمك خليل في رواية «الثلج يأتي من النافذة» وفي الصباح سافرت إلى اللاذقية لتوصيل الطفل «الأمانة» إلى جدته أمك، ثم تأخذه إلى الحلاق، وبعد ذلك تنظفه من القمل!

«يا شام لبنان حبّي، غير أنّي لو تُوجّع الشام، تغدو حبِّي الشام» ولم تكن، يا فصيح، الشام حبك بعد، وأنت في العشرين من العمر، إلا أنها ستصير حبك، وستستوطنها، وتضحك لك الشمس فيها، وتكتب عنها مقطوعتك اليتيمة «هل تعرف دمشق يا سيدي؟» وتظل اللاذقية هواك، ففيها البحر، وستُجن بالبحر، وتألف عواصفه، وفيها تسبح كالسمكة، وتكتب عنها ثماني روايات، أشهرها

«الشراع يطارد العاصفة» التي كرستك روائياً، و«الياطر» التي يتعشقها القراء، لا تدري لماذا، وبها تدخل البيوت من أبوابها الواسعة، لا بيوت الفقراء فقط، بل بيوت الأميرات والأمراء معها، وستتمّنى، في تجريد المستحيل، لو تنتقل الشام إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى الشام، التي رفض الحلاقون فيها، وأنت في العشرين ربيعاً، أن يتخذوك أجيراً، مقابل اللقمة وحدها».

رجاء البائسين لا يخيب إلى الأبد، رجاؤك أنت البائس، الذي ينظف ابن أخته من القمل، لم يخب، فقد نشرت لك مجلة «الطريق» اللبنانية قصة قصيرة جداً، عنوانها «طفلة للبيع»، وكان نشرها مفاجأة، وكان فاتحة، وجواز مرور إلى عالم الحرف، وبهذا الجواز عدت إلى دمشق، وبفضل صديق له الشكر مديد، قصدت معه جريدة «الإنشاء» لصاحبها المرحوم وجيه الحفار، الذي كان بحاجة إلى محرر.. وقد سألك، وأنت متطامن أمامه، عما تحمل من شهادات، فتلعثمت، ارتبكت، وجمت، وبعد أن تمالكت قليلاً، أخرجت له قصاصة «طفلة للبيع» التي لم يقرأها، بل قال لك «تعمل ثلاثة أشهر كمحور متمرن دون أجر!» وقبلت العرض، بإيحاء من ذلك الصديق الذي أسكنك بيته، وأطعمك خبزه وملحه.

في جريدة «الإنشاء» عملت، يا فصيح مع سكرتير التحرير الرائع الإنسان، الذي اسمه أحمد علوش، والذي سيكون صاحب جريدة «الصرخة» الوطنية، القومية، التقدمية فيما بعد، رحمه الله.. ومنذ عملت معه بث الطمأنينة في نفسك، فقد شرح لك، بأناة، ملامح عملك، وأولها سماع نشرة الأخبار الإملائية الصباحية من إذاعة دمشق، وتسجيلها بخط واضح، وثانيها كتابة ما يُملي عليك، وثالثها تصحيح «بروفات» لاستخدامها في الصفحة الثالثة، وخامسها توضيب المحليات من نشرات المخبرين المحليين ونشرها في الصفحة الثانية، وسادسها عدم الخجل من السؤال عما لا تعرف.. وقد اجتهدت في استيعاب كل ما يقوله، وتنفيذه بدقة، وفي آخر الشهر الأول، دخل غرفة صاحب الجريدة وأثنى على عملك دون أن يخبرك، وفي اليوم التالي طلبك الأستاذ وجيه الحفار، وقال لك: «بعد أن شهد لك

الأستاذ أحمد، وحمد طاعتك، واجتهادك في العمل، قررتُ اختصار التمرين إلى شهر واحد، وستأخذ مئة ليرة سورية في الشهر، اعتباراً من اليوم!»

الفرحة الغامرة تشهّت على وجهك حتى لم تعد تعرف كيف تشكره، لكنك لم تغادر مكتبه، فسألك: «ماذا تريد؟» قلتَ على استحياء شديد «عشر ليرات على الحساب، لأنني جائع!» وفي ذلك اليوم تغديت كباباً في مطعم على كتف بردى، بجانب جسر فيكتوريا، وكان النهر مكشوفاً بعد.. وكانت الجريدة بأربع صفحات، وبقيت فيها إلى أن صُرفت من العمل، بسبب معارضتك حلف بغداد، بعد أن غادرك الأستاذ أحمد علوش، وصرت سكرتير التحرير مكانه.

تنقلت بين صحف دمشق، وتابعت، بحماسة ودربة، العمل السري الذي اعتدته في اللاذقية، وكان هذا العمل يسحرك بسرّيته، لانتمائك إلى حزب ممنوع، يطالب بالعدالة الاجتماعية.. ولم تكن، وقتئذ، تعرف ما يخبؤه لك القدر من تشرد طويل طويل، في سبيل هذه العدالة.

ترنّم الشاعر المرحوم معين بسيسو بقوله: «الصمت موت، والقول موت، فقلها ومت» وقلتها ولم تمت.. أنك، الآن، على مشارف الثمانين من عمرك، وقد كنت دائماً على موعد مع المغامرة، نصف مجنون نصف عاقل، وتحب نصفك المجنون أكثر! آمل أن تصلك رسالتي، فتعرف، قبل الناس، من أنت!!!

وأنتّ، يا فصيح، لا تزال تؤمن بالعصر، رغم خيباتك فيه، وستظل تؤمن لأنك، كما تزعم، أن العصر لا يخيفك، وأنك لست بالهارب منه، وترفض أمنية أن تنام الآن، لتستيقظ بعد مئة عام، حيث الخيبات تكون قد انتهت، والهزائم العربية توقفت، و«نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ أطويل طريقنا أم يطول؟» ودون تردد تحكم أن الطريق طويل، وأننا في حال جزر، والمدّ المنتظر يحتاج إلى عقود، ولا فائدة من السؤال الذي هو اشتياق، «وأنّ كثيراً من ردّه تعليل!» فقد عللونا بالوعود قروناً، وبُشِمْنا من الوعود «ولا تفنى العناقيد!» والمقولة التي أطلقها الأمير عبد الله، ولي العرش السعودي، تتردد الآن، كما الأمس وقبله وقبله: «الانسحاب الكامل، مقابل السلم الكامل» ولشد ما أربكتْ هذه المقولة، وأزعجتْ أيضاً، أميركا

وإسرائيل، وقد مر الزمان عليها، وجرت محاولات لطمسها، لكنها كعرق الذهب في التراب، تتجوهر كل يوم، وأكثر فأكثر، وتُذكر هذه الأيام والعرب حيارى، أمام ما يجري في فلسطين والعراق، وتبقى الحكمة إياها سبيلاً إلى الفرج المنتظر.

وما حاجتك إلى السؤال: «من أنتَ؟» ألا تعرف، يا فصيح من أنت؟ وترد سريرتك قائلة: «لو عرفتَ من أنت لكنت حكيماً، من يعرف نفسه يكن في الحكماء، وأنت لست منهم، أنت تكذب، ببساطة على الناس، وعلى نفسك أيضاً، في زعمك أنَّ ما أنت فيه، سببه الحظ، مع أنك، في القرارة، على يقين أن الحظ خانك منذ كنت يافعاً، وظل يخونك حتى في الكهولة، والشيخوخة التي هي أرذل العمر، وسيستمر سوء الحظ إلى أن يتهاوى الجسد، فتسقط مريضاً أو ميتاً!»

ترى كنت، أيها الذي يشقى الآن، تحسب أن يوماً سيأتي، لا تعرف فيه ما تريد؟ أنت مراوغ في كتلة من الخبث، والذي تريده معروف وغير معروف، إنه، ببساطة، مثل الزئبق في ميزان الحرارة، يتأرجح بين صعود وهبوط، حسب الحالة النفسية التي تكون فيها، وأمنيتك في موت مريح خلبية كسائر أمانيك، وهذا ليس بالسوء الذي تظن، فهو دلالة على التعب، لا أكثر ولا أقل، وماذا ينتظر الأديب أو الفنان، في عالمنا العربي الكبير هذا، سوى التعب؟ وكم قلت للناس، في كتبك ومقابلاتك الصحفية، أن الراحة، ولو بغير تعب، مرفوضة، لأن الكتابة تحفظ توازنك النفسي، وهي خلاصك المنشود في هذا العالم المضطرب؟

تكره نقيق الضفادع تقول، وقد يكون هذا ناشئ عن وهن في أعصابك لأنك، كما ترغب أن تصف القلم بأنه مبرد، وأن هذا المبرد بَرى، أو حتى أتلف، أعصابك، وهذا وصف يقارب الدقة، إلا أنه نقيق ضفدعة هي أنت، أيها السمكة في بحر، ولا تعرف أنها في بحر، والنقيق المكتوم في ذاتك، يحسن بك أن تخرجه إلى العلن، لمصارحة الذين حولك، بالحقيقة التي تأبى الاعتراف بها، مع أن الاعتراف يريحك، وعندئذ يكف النقيق الذي في داخلك، حول الرغبة في الموت، أو الرغبة في الحياة، وما دامت الكتابة هي خلاصك في هذا العالم، فلماذا الاختباء وراء إصبعك؟ ولماذا تخفي حقيقة أنك تريد أن تكتب وتكتب، وفيها اعتراف بأنك

ترغب أن تعيش وتعيش، لأن الأحياء وحدهم يكتبون، أما الأموات فإنهم يسكنون ذاكرة الأحياء، ويخلدون إلى الراحة في ظلمة مثواهم الأخير.

إذاً، أنت يا فصيح، تنق، وتشدد، في الوقت نفسه، على كرهك للنق، والمسألة، هنا، من طبيعتك ككاتب، والكتّاب والفنانون ليسوا على صلح مع الحياة، لا بالنسبة إليهم كشخوص يحيون بيننا، وإنما كشخوص يفترقون في نقطة أساسية عنا، هي أنهم ليسوا في صلح مع الحياة بالنسبة للآخرين، المعوزين والمظلومين، وفي كفاح الأدباء والفنانين لأجل ما هو أفضل، يستأنفون دائماً ضد ما هو كائن، من أجل ما سوف يكون، أي توفير الحرية والرغيف والمأكل والملبس، وبكلمة: العيش الشريف، للناس، ولأن هذا لا يتحقق على النحو الذي يريدون، بالسرعة التي يبتغون، يقع التصادم بينهم وبين محيطهم، وهذا يقودهم إلى عدم التلاؤم، عدم الانسجام، عدم الاهتمام بالقانون السياسي، ومفادها ألا يتقدم أحد منهم كثيراً عن الركب الذي وراءه، وألا يتأخر كثيراً عن هذا الركب، فتكون الفجوة كبيرة، والمسافة شاسعة، بين القائد والمقود، بين من يريد لهم الخير، وبينه هو الساعي إلى هذا الخير، والنتيجة، غالباً، الخيبة، «ونحن الكبار في آمالهم / صغار في خيبات آمالنا، ولأن منهم خصوصاً، فإنهم يصابون بالإحباط، باليأس، بالنزوع إلى ما هو غير عادي، غير مألوف، بالمعنى الضار للكلمتين، فيقدمون على إلحاق الأذى بأنفسهم، سواء بالتشرد، أو الصمت، أو اللامبالاة، وكلها، كما يخيل إليهم، يحمل معنى الاحتجاج على الواقع، وهو كذلك فعلاً، إذا لم يتجاوزه إلى التهلكة، إلى المغامرة غير المفيدة، مثل الجنون، الانتحار، العدوان، الاستباحة، الإفراط في تناول الكحول، وتدريجياً إلى تناول المخدرات، وما فيها من سموم تتلف العقول، وتالياً الأجساد!

الذي حماك، يا فصيح، من الانحدار إلى جحيم هذه الموبقات، إنك جئت من السياسة إلى الأدب، وليس العكس، وأنك ناضلت بالجسد والقلم، وأن مشكلتك نفسية، ومن النوع الخطير، فأنت مصاب بالوسواس القهري، وقد انتبهت إليه، وصارعته طويلاً، ولا تزال تصارعه، وفي صراعك الوحشي هذا، مع الذي

يُحس ولا يُرى، استعنت بالحبوب المهدئة، من جميع الصنوف والمصادر، فانتقلت من الوسواس إلى الإدمان، ومن علاماته كثرة التدخين، وسرعة الانفعال، وانتفاء الرضى، وخبث اللاشعور، والظمأ العاطفي، والبحث، دون جدوى، عن شيء لا تعرف ما هو، عبّرت عنه بقولك: «أنا نصف مجنون نصف عاقل، وأفضّل تصفي المجنون على نصفي العاقل» وفي هذا القول الجاد، الذي لا يحمل، من قبل الآخرين، على محمل الجد، بعض التنفيس عن الضغط الداخلي، للمشاعر المكبوتة، بقوة الإرادة، لا بقوة المعالجة، وصولاً إلى الشفاء، الذي تدرك، وبعمق، انه سراب، تشفق على يتمه تارة، وتشفق على نفسك من إغراء هذا اليتم طوراً!

أنت، يا فصيح، عاقل مجنون، وستبقى عاقلاً مجنوناً، وعذابك في هذه الدنيا، أنك تتستر على الاثنين، وما يولدان من إرباك نفسي يتجلى في قولك: «إنني لا أعرف ما أريد!» وفعلاً أنت لا تعرف ما تريد، ما دمت تحافظ على التوازن بين تعقلك وجنونك!

ولشد ما عانيت، يا فصيح، وأنت في العشرين بعدُ، وكم قاسيت في مدينتك اللاذقية التي تحب، وقد كُتِب عليك، بدءاً، أن ترى إلى هذه المدينة، بعيني المدينة التي هاجرت منها، حيث كتب عليك، وأنت يافع لا تزال، أن تخوض النضال مبكراً، وان تسمع أزير الرصاص، عن يمينك والشمال، وفوق رأسك والكتفين، وتشهد، بدهشة وهلع، سقوط زميلك في مدرسة «الرشدية» الابتدائية، والدم نافورة في صدره، وهو يصرخ من الألم، طالباً إنقاذه، متوسلاً أن يرى أمه، الذي هو وحيدها، فلا يجد من ينقذه، ولا تكتحل عيناه، قبل اطباقهما مرة وإلى الأبد، برؤية وجه أمه الأليف، الحدب، الراشح بالحنان، في قسماته والعيون!

كنت، يا فصيح، في السادسة عشرة بعد، لكنك، على صغر سنك، كنت تحب البحر، وتجيد السباحة، وتتفهم بعض ما يقال عن العدالة، وعن الفقر والظلم، وعن بلاد المسكوب، وثورة الجياع، بقيادة لينين الذي قمت، مع الرفقة من أقرانك، بحفر اسمه على أشجار الكينا، في المنشية التي تجاور حي المستنقع في اسكندرونه، فجن جنون المستعمرين الفرنسيين، وبعثوا من يزيل الاسم المحفور،

وألقوا القبض على المناضل فائز الشعلة، بوشاية من خائن جبان، دلّهم على المخبأ الذي يتواجد فيه، في إحدى مغائر الجبل، وساقوا فائز إلى حلب، حيث عذبوه ليعترف بأسماء الذين حفروا اسم لينين على أشجار الكينا، وبلغوا، في تعذيبه، حد إرغامه على الجلوس، فوق ساج تبرق النار فيه، لشدة ما هو محمّى!

إلا أن الفرنسيين دهشوا، لأن الاسم الذي أزالوه عن أشجار الكينا، عاد إلى الظهور منقوشاً عليها، وعاد الفرنسيون، في مدينة اسكندرونة، إلى ملاحقة المشتبه بهم، دون أن يقطنوا إلى أن من يقوم بذلك، هم فتيان يا فعون، كنت، يا فصيح، في عدادهم، أو الأصح، في قيادتهم!

المؤامرة، عندما تنضج، تكون لها رائحة، مثلما اللحم المشوي، في رائحته الفواحة، التي يتحلب لها اللعاب في فم الجائع، وقد شممنا رائحة المؤامرة في سلب لواء اسكندرونة، وإعطائه هدية غير موفقة، لضمان وقوف تركيا على الحياد، في الحرب العالمية الثانية، التي لاحت بوادرها في أفق الحياة السياسية.

كان على العرب أن يتحركوا، أن يصغوا إلى نداءات إخوتهم العرب في لواء اسكندرونة، أن يقدموا لهم المساعدة في كفاحهم ضد تتريك اللواء، إلا أن المسؤولين العرب، في سورية والوطن العربي، لم يفعلوا، كما هي العادة، غير إتخامنا بالخطابات، وفيها من الرنين ما يتساوق ورنين الأجراس، في المناسبات، ولم يتخلف عن ذلك الوطني الكبير، المرحوم فارس الخوري، الذي أعلن صادقاً، «أنّ لواء اسكندرونة سيبقى عربياً، وإلى الأبد!» لأنه، وهو الذي عرف النضال، وسجن مع زملائه في قلعة جزيرة أرواد، أخذ الوعود الفرنسية المعسولة على أنّها وعود شرف، غير مدرك أنَّ الشرف في وعود المستعمرين، في «سفر هيهات منه يرجع!».

على كل حال فزنا، في اعتقال فارس الخوري ورفاقه في جزيرة أرواد، بأغنية جميلة، نرددها حتى اليوم، وهي «يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلام / ليس بعد السجن إلا فجرُ نور يتسامى» وضع كلماتها نجيب الريس، ولحنها فخري البارودي، وبعد هذا الفوز، الذي كان فاتحة للأناشيد الوطنية، كان على الروائيين

أن يناضلوا بأنفسهم، وفي سياق هذا النضال، وكنموذج له، قيام زكي الأرسوزي بزيارة اسكندرونة، بدعوة من «عصبة العمل القومي» إلا أنَّ الفرنسيين اعتقلوه، فهب الناس، وبينهم طلاب المدارس، للتظاهر أمام السراي، صارخين «الحرية لزكي الأرسوزي» وعندما حاولوا اقتحام السراي، لإنقاذه بالقوة، أمطرهم الفرنسيون بالرصاص، وسقط زميلي وصديقي عبد المسيح، الوحيد لأمه، قتيلاً إلى جانبي، وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى في هذه المعركة الدموية!

منذ ذلك اليوم، عرفت يا فصيح، أنَّ السياسة غير السباحة، وأن النضال ضد الفرنسيين المحتلين، يتطلب الأضاحي، وأنَّ عليك أن تضحي، وقد ضحيت، صغيراً في اسكندرونة، يافعاً في اللاذقية، رجلاً في دمشق، وتساق بقوة الحديد، إلى السجون في كل هذه المدن، وتخرجت من السجون بشهادة هي أم الشهادات: «الحقّ المقدس على المحتلين وأذنابهم» وإنَّ النضال علنيّاً يكون حيناً، وسريّاً في أكثر الأحيان، وأنَّ عليك، يا فصيح أنْ تفهم أنّ «السياسة في القيادة» تكون، وأنَّ العمل السياسي ليس لعباً، ولا تسلية، فالعيش في زنزانة، غير كتابة الأسماء على الأشجار، وتحملّ تعذيب الشرطة العسكرية الفرنسية، غير الهتاف وأنت طليق «يسقط الاستعمار الفرنسي» والانخراط في العمل السري، له لذاته، حلاوته، وله أيضاً مرارته وعلقمه، ومقولة «حب الوطن من الإيمان» تصبح، في ترجمتها إلى واقع، مفاداة بالروح والمال، والنزهة وأنت حر، غير النزهة وأنت منقول في سيارة السجن إلى المحكمة، وكما تختلف السجون، تختلف سياراتها، وأنت محشور بين المساجين فيها، وأن دفاع المحامين عنك مفيد، إلا أن دفاعك عن نفسك، بجرأة، وصلابة، وذكاء، أمام حكام تحجرت ضمائرهم في خرسانة القوانين، أجدى، وأكثر نفعاً، والمثال هو جورج ديمتروف، المناضل البلغاري، أمام المحاكم الهتلرية، بتهمة حرق الريخستاغ، ودفاعه عن نفسه بألمعية، وجدارة، وثبات على المبدأ، حتى انتزاع براءته، ليبقى بعد ذلك مثالاً للمناضلين الشرفاء، جيلاً بعد جيل.

ولكن لماذا، يا فصيح، كل هذه الاستطرادات المملة، وأنت لست بالمؤرخ، أو كاتب مذكرات؟ ستقول مكابراً «هذا ما سُمّي الإحاطة بالموضوع

من كل جوانبه!» وتجيبك الحقيقة، التي لها طعم الحقيقة: «هذا لأنك حكّاء، وكاتب الرواية حكّاء، يرش على حكاياتهٍ بودرةَ الفن، إخفاءً لعيوبها، ومخادعة للقراء.. ماذا تقول؟».

أقول:

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري

فدرهم الصبر يسوى ألف دينارِ

في علم النفس، هناك نقطة غاية في الأهمية، أطلقتُ عليها اسمٍ خبث اللاشعورِ وقد جرى نقاش طويل، ولا يزال، بيني وبين أطباء الأمراض العصبية والنفسية، حول هذا الخبث اللاشعوري، الذي ينكر بعضهم وجوده، لأن الكتب التي تبحث في سيكولوجيا الإنسان، من فرويد إلى يونغ، تركز على مبدأ الأنا العليا، وعلى الشعور واللاشعور، متجاهلة خبث اللاشعور، الذي قد يكون متضمناً في مقولات نفسية أخرى، وليس له استقلالية في ذاته!

لقد كتبت، حتى الآن، ما يزيد على أربع وثلاثين رواية، ودون علم النفس، لا يمكن للروائي، أن يفهم، ويطوّر، مع نمو السياق، ونمو الشخصيات، نمو الحالة النفسية، لكل شخصية في ذاتها، وفي فرادتها، على كثرة ما في كل رواية من شخوص أساسية وجانبية، ومّن يتعامل مع الرواية، في انبثاقها حدثاً، مبنياً على الواقع، وعلى التجربة والمعاناة في هذا الواقع، واستيقاظها بعد هجوع في قاع الذاكرة، يدرك أن عليه، بداية ونهاية، ألا يهمل الأشياء الصغيرة، التي تصبح في دلالتها، أشياء كبيرة، سواء في مساندتها لأبطال الرواية، أو في إغناء الخط الأساس، الذي تكون الخطوط الجانبية في خدمته إذا صح التعبير، وقد أبلغتني سيدة تشتغل على رواياتي، في رسالتها لنيل الماجستر في الأدب، أن الدكتور عبدو عبّود نصحها قائلاً: «إذا أردت أن تفهمي بعمق، ما كتب فصيح في الروايات التي بين يديك، ادرسي علم النفس أولاً».

وسواء كانت هذه النصيحة واقعة، أو متخّيلة، فإنَّ الإلمام بنوازع النفس البشرية، وبطبائع الحيوان والنبات، تبقى ضرورية، مطلوبة لذاتها كثقافة، ومطلوبة، بشكل أكبر وأعمق، في رسم الشخصيات، ورصد تنوعاتها النفسية التي لا حصر لها، ومن بين هذه التنوعات، خبث اللاشعور الذي كثيراً ما يهمل، وخبث اللاشعور ليس بسيطاً كما نظن للوهلة الأولى، فهو يندس في الشعور نفسه، ويستخفي في طياته، فنحن قد نساعد امرأة ما، قائلين في سرائرنا: هذه مساعدة لوجه الله الكريم، لكننا، في خبث اللاشعور، نساعدها لشيء آخر، يتكشف فيما بعد، فإذا هو غاية، أو قصد، أو نازعةُ تقرُّب لصيد ما، كما العنكبوت الذي ينسج شباكه لأمرٍ يعرفه، هو اصطياد فريسته.

إن خبث اللاشعور يتجلى عند الشيوخ، بأكثر ما يتجلى عند الشباب، فالشاب يفوز ببغيته، بأسرع، وأسهل، مما يفوز بها الشيخ، الذي تظل روحه طامحة إلى الجنس وغيره، بينما يخونه جسده في الجنس وغيره، وهذا ما أريد التركيز عليه، فالروح تبقى شابة مهما تقدم العمر بالإنسان، وفي شبابها الذي يبقى حتى النفس الأخير، تطمح الروح دائماً إلى البقاء، وهذا مشروع جداً، ما دام الطموح صنو الأمل، أو عينه، إلا أن الجسد يخون طموح الروح، ومن هنا حاجة هذا الجسد إلى المنشّطات، والمقوّيات، ومن هنا وعي مراكز البحوث الطبية، بما أسميته شباب الروح، وشيخوخة الجسد، حيث أقبلت على صنع العقار المقوي، سواء على شكل حبوب أو غيرها، فانتعشت آمال الشيوخ، في استعادة شباب الجسد، ووقف انهزامه أمام شباب الروح.

قد لا يكون أمير الشعراء أحمد شوقي، ملماً بمقولة شباب الروح وشيخوخة الجسد، لكنه، من خلال تجربته الشخصية، أو رصد تجارب الشيوخ، واتته فكرة الاشتهاء إلى الأخرى، حين لم تكن الحبوب المقوية قد اخترعت بعد، وتبدّى له الجمال الجسماني، في الأنثى وغيرها، وبدافع استشفافي من ذلك، وضع قصيدته التي مطلعها:

ســـلوا قلبـــي غـــداة ســـلا وتابـــا

لعل على الجمـــال لـــه عتابـــا

ويسأل في الحـــوادث ذو صـــواب

فهل ترك الجمال له صـــوابا؟

وكنـــت إذا ســـألت القلـــب يومـــاً

تولى الدمع عن قلبي الجوابـــا

ولـــي بـــين الـــضلوع دم ولحـــم

هما الواهي الذي ثكل الـــشبابا

إنني أتوقف عند البيت الأخير، لما فيه من اعتراف صريح وصحيح، بأن الذي ثكل الشباب هما الدم واللحم، أي الجسد الذي خان شباب الروح، وأعرف، كما يعرف القارئ الكريم، حكايات وحكايات، عن شيوخ خانهم جسدهم، وظلت روحهم شابة، وبتحريض من هذه الروح، بكوا شبابهم الغارب، أو أقدموا على زيجات غير متكافئة، من حيث فارق السن، أو تحسروا حسرةَ الكي بالنار، لأنهم لا يستطيعون ترميم جسومهم، بالمقويات والمنشطات، بالحبوب الكفيلة، مع الخطر، باستعادة أجسامهمٍ قوتها ولو لوقت قصير، فلجؤوا إلى عزاء الصبابة، ولعل لفظة الصبابة كانت، بدءاً، هي التعبير عن هذا العزاء.

في كتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، كثير من الروايات والنكات من الشيوخ الذين يتصابون، والتصابي، بمعنى البصبصة على النساء، مرذول غالباً، وإلى يومنا هذا، وتصابي الرجل العجوز منموم، ويُنظر إلى الشيخ المتصابي، نظرة فيها القدح، وفيها التشهير، وفيها الدعاية، أو النكتة البذيئة، وفي الأمثال الشعبية المتداولة، هذا القول: «شيئان أضرب من ينْح، شيخ تصابى، وصبيّ تّمشْيَخْ!» ورغم كل المذمات، والأمثال، والنكات، فإن الشيوخ يتصابون، ويبصبصون، ويتحسرون على قوة الشباب، التي ثكلها الجسد، وبعضهم يغامر،

حتى لو شكلت مغامرته فضيحة، فيتزوج، وهو في أرذل العمر، فتاة في أول العمر، دون أن يؤثر فيه، أو بصدّه عن بغيته، لوم أو عذل، ورحم الله ابن زريق السمّان الذي قال:

لا تعذليـــــه فـــــإن العــــذل يولعـــــهُ

قد قلــت حقــاً ولكــن لــيس يــسمعهُ

جاوزتِ فــي لومــه حــداً أضــرَّ بــه

مــن حيــث قــدَّرت أن اللــوم ينفعــه

وبعضهم يضع كلمة النصح، بدل كلمة اللوم، والفارق هنا بسيط، لأن في النصح لوماً، أحياناً كثيرة، والعكس صحيح.

تبقى مسألة بحاجة إلى إيضاح، وهي أن التصابي ينصب على العجائز من الرجال، بأكثر مما ينصب على العجائز من النساء، والسبب في ذلك أن المرأة تفقد رغبتها في الوصال في حدود الخمسين فما فوق، أما الرجل فتبقى لديه هذه الرغبة إلى التسعين فما فوق!

العوسجة الملتهبة وقبر موسى

وتجلّــــدي للـــــشامتين أريهـــــمُ

أنّـــي لريـــب الـــدهر لا أتضعــضع!

كانوا عندنا، في مدينة السويدية الفينيقية ومصَبّ نهر العاصي إلى الآن، يقولون في أمثالهم «دوّر على قبر موسى» ذلك أن النبي موسى عليه السلام، لا يَعرف له قبر، وهو الذي رأى في برية سيناء عوسجةً تلتهب، وسمع صوتاً يناديه «اخلع نعليك فأنت في المكان المقدس» فامتثل لذلك، ثم مات ولم يَعرف مكان لقبره.

هذا ما قصّه علي والدي سليم مينه وأنا طفل، وقال لي، وهو قاص موهوب بالفطرة، نحن من منطقة المينا في السويدية، لكن المختار جرجي لبّس كتب الكنية بالياي، وبعد هجرتنا من لواء اسكندرونة، وكانوا يقولون «سنجق اسكندرونة» حاول المختار الياس سلّيط، وكان مفذلكاً، إن يصلح الكنية فعماها، أي كتبها بالتاء المربوطة، والحقيقة إن كنية العائلة مينا، لأن أهلنا من منطقة المينا في السويدية، التي صار اسمها الآن «سمان داغ» أي جبل سمعان، في مقاطعة «ها تاي»، الاسم التركي للسنجق العربي القديم.

أضاف والدي: «اسمع، يا حنا، هذه الحكمة وأحفظها جيداً، أنت ابن مدرسة، لكنك لا تفك الحرف بعد، وإلا لقلت لك أكتبها حتى لا تنسها. قال ذلك وصمت قليلاً، كعادته حين يقص فيجعل قصّه مشوقاً، مما يذكرني ببيت شعري لعمر بن أبي ربيعة:

وذو القلـــب المُـــصابِ وإن تعـــزّى

مـــشوق حـــين يلقـــى العاشـــقين

ويذكرني أيضاً بالقوادة الشجاعة، أي امرأة القبو في روايتي «الشمس في يوم غائم» التي قالت لي، حين أزمعت السفر في طلب الرزق، بعد انقطاع رزقي، أنا الحلاق في حارة القلعة، بسبب ملاحقة رجال الاستخبارات الفرنسيين المتواصل لأثري، إيقافاً لنشاطي مع الآخرين، وربما في قيادة الآخرين، ضد استعمارهم البغيض، حتى جلوا إلى غير رجعة، فكانت سورية البلد العربي الوحيد والأول الذي حقق استقلاله قبل أي بلد آخر، في الوطن العربي الكبير.

وقد كانت نصيحة الوالد هي التالية:

«الدهر دولاب، لا عمّك ولا خالك»

وكانت نصيحة امرأة القبو، القوادة الذكية، الشجاعة، التي تحمل لي الطعام إلى السجن، هي الأثقل، لكن الأبلغ – قالت لي وقد جئتها مودعاً إلى سفر «هيهات منه أرجع»: «اسمع يا عزيزي الصغير!».

نبرت:

- أنا لست صغيراً.. انظري معصمّي، حديد القيود وأنا أساق من سجن إلى سجن، أكل لحمها!

ضحكت امرأة القبو وقالت:

- أبق صغيراً حتى أظل أحبك!

- تحبيني من بعيد؟

بل من قريب.. الجبل، يا فتاي «المسافر بغير حقيبة دائماً كما نقول، الجبل لا يلتقي بالجبل، لكن الإنسان يلتقي بالإنسان دائماً!».

- وأخيراً!؟

- مثل أولاً..

- كيف؟

- من دون كيف هذه! أرجوك!

- وأنا أقبلك وأعجب للنزق في طبعاك .. كن صبوراً، تعلم أن تكون صبوراً!

- لا أريد أن أكون صبوراً، ولا أريد، خصوصاً، أن أتعلم كلمة الصبر هذه..

- أنت حرّ، ولكن الذي لا تعلمه الأيام تعلمه الحكّام.

صدقت امرأة القبو، هذه العزيزة المفارقة كانت تعلم أكثر مما أعلم، وفوق ما سوف أعلم عمر كله.. ومع هذا فقد كنت، في ذلك الزمن شاباً غريراً، يحسب أنه رجلٌ حكيمٌ، لكثرة ما علمته السجون من شجون، سيذكرها حين يصير، مثله الآن، في أرذل العمر.. ولشد ما أتأسّى، ولشد ما يغتالني التأسّي، ولشد ما سوف أكره الذكريات، التي تغتالني بغير رحمة، لكثرة ما طوّفت في الجهات الأربع من دنيانا، حاملاً وطني في قلبي، وشعبي في روحي، متابعاً نضالي بالقلم، بعد أن وهن الجسد، في سبيل قضية بسيطة، إنّما ثمينة، تعيش بين الجلد واللحم من جسدي، وهذه القضية هي: «نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض».

نصيحتان لن أنساهما ما حييت:

قول والدي: الدهر دولاب، لا عمك ولا خالك»

وقول امرأة القبو: «الرجل لا تذلّهِ إلا شهوته، فلا تدع شهوتك تذلّك».

أما العوسجة الملتهبة وقبر موسى، فإنني أدع أمرهما لمن هم أدرى، للمؤرخين المختصين، الذين أغظتهم مرتين: حين قلت إنّ المرأة هي التي صنعت تقدمنا الاجتماعي الحالي، وعندما فضّلت أمنا حواء على أبينا آدم،

وابنتي لوط على النبي لوط نفسه، أما قولي «التاريخ بدأ مع الجنس» و «شباب الروح وشيخوخة الجسد» «وسقراط في شربه السم طاعة للقانون هو القدرة المرفوضة والمرذولة» وأرسطو، على أنه الأفضل، فقد سار في ركاب الاسكندر ذي القرنين وعلّمه ثعلبيّة «فرق تسد».

قبر موسى موجود في مرثية المعرّي، والعوسجة الملتهبة هي كل مبدع ملتهب، يرفض أن يكون خادماً للسلطان.. وحتى للسيدة بلقيس، ملكة سبأ المشهورة.

أما فلسطين الجريحة، فأنعش ذاكرتها بصرخة عبد الكريم الكرمي، «أبو سلمى»:

ثـوري ولـو فـرش الـذين طغـوا

على طرق الجهـاد أسـنةً ونـصولا

أما أنا فهناك وصيتي المعروفة، نعذرها، كرمى للذي عاش بسيطاً، ويرغب أن يموت بسيطاً كما عاش.

حصان عنترة العبسي وأنا

ماتت ذاكرتي فصلوا لأجلها،

أنا الذي قتلتها كما قتل عُطيل ديدمونة

ولأني قاتل فسأحاكم وأعدم

وهكذا أرتاح دفعة واحدة

لقد سئمت كل بازارات العالم

وأنت تعرفون لماذا،

لأن «حصاني كان دلاّل المنايا»

ودلال الكلام،

والكلام صار بضاعة هذه الأيام

ولقد «بشمنا» وما تفنى العناقيد،

بشمنا من باعة الكلام، هذه الأيام

الرحمة على غاليلي، فقد كان أشجع منا

قال لقتلته وهو على منصّة الإعدام عبارة واحدة:

«ومع ذلك تدور» ثم تدلى من حبل المشنقة

فدقّي يا طبول العالم

وارقصي، على دقاتها، يا دليلة، فقد انتصرتِ

وتناسلتِ وتكاثرتِ، فكان الازدحام

في جبالنا، في سهولنا، في اليابسة، والبحر أحمر

و«أديب البحر» يبكي إليها كما على البحر، لأنه غدا أحمر، وليس في قاعه مرجان أ حمر

إن باعة الكلام، هذه الأيام، ضاقت بهم ساحاتنا،

ولم يبق لدليلة مكان ترقص فيه،

حاملة، على طبق، رأس صاحب الفم الذهبي

انتقاماً من الطهارة، التي اغتالتها «الدعارة»

فصارت كل بحور العالم، هي البحر الأحمر، لا من المرجان، بل من باعة الكلام، نجباء هذه الأيام.

فأنقذونا، أنقذونا، قبل فوات الأوان، من باعة الكلام.

فدليلة صارت دليلات، والرأس المقطوع على طبق، يصيح

«إن في الحسن يا دليلة أفعى، كم سمعنا فحيحها في سرير»

وبلاطس النبطي، غسل يديه من دم هذا الصديق،

وكلنا غسلنا أيدينا واسترحنا، مثل بلاطس النبطي،

فهزي خصرك «يا نواعم» وزيدينا من الكلام، بضاعة هذه الأيام..

وأنا في المدينة، ولا مدينة، ماتت مدينة، من عهرها لا من طهرها، لا فرق، وهكذا، سيداتي سادتي، صارت مدينتي التي «بحرها شراييني» مقنّعة، حياءً من باعة الكلام، الذين تكاثروا، هذه الأيام، وتقنَّعتُ مثلهم، كيلا يرى أحد دموعي، وخصوصاً باعة الكلام، فيشمت بي، وبقلمي، «صيارفة الهيكل» فُطْر هذه الزمان..

والسلام ختام، تصبحون على خير، فقد صاح الديك،

والتلميذ بطرس، أنكر أنه يعرف معلمه، بعد صياح الديك،

أو قبله، لا فرق! إنما في النهار، حين قرأت ما كتبته في الليل، اكتشفت أن «الزهيمر» أو الخَرَف المبكّر، قد تفشّى، مثل داء الخنازير، ومن الجائز، أو من المؤكد، أن نصفي العاقل قد أصيب به، فلم يبق إلا نصفي المجنون، وهذا أفضل.

إنَّ حصان عنترة العبسي، الذي كان دلاّل المنايا، قد تعب كما يبدو، وسيفه الذي كان «يداوي رأس من يشكو الصداعا» قد تصدّع بدوره، ومنصور المنسَّى الذي عملت عنده أجيراً في لبنان، أيام زمان، بانتظار وصول أوراقي من البرازيل، كي أسافر إليها، يقول لي: يا ولد امْسح الزيت، كنّس الأرض جيداً، «سرّب» معي، يوم الأحد، إلى كنيسة القديس جرجس، لعل الله يستجيب لدعائك، فتسافر إلى أولاد عمك في البرازيل، ولكن على «فوقه» من أين لك معرفة بعنترة العبسي «فارسي المحبوب»!؟

فأجيبه: «من قراءة فنجان القهوة على الريق» يا معلمي!

- عجيب أمرك يا ولد!

- وما هو العجيب؟

- لا تفك الحرف، وتعرف عنترة وأشعاره أيضاً!؟

- وأعرف معلّقته على جدار الكعبة الشريفة، ومطلعها «هل غادر الشّعراء من متردم، أم هل عرفت الدار بعد توهم».

- وأيضاً!

- جسّ الطبيب لي نبضي!

- قلت إن عنترة له سيف يداوي رأس من يشكو الصداعا.

- هذا صحيح، لكن صداعي مزمن، لا يداويه أي سيف!

- هذا من القهر.. تأخرت أوراق سفرك إلى البرازيل يا ولد!

- حظي سيئ فماذا أفعل؟

- دواؤك الصلاة، صلِّ يا بني صلِّ!

- صلّيت حتى بشمت يا معلمي! ولكن عنترة..

- أنت تمزح يا ولد! اترك عنترة تفلح!

- تركته فلم أفلح! حظ!!!

كيف نغيّر العالم.. بأحلام المراهقة

أنا أيضاً كنت في الحالمين، وكان حلمي أن أغير العالم بالكلمة لا بالمقص، باعتباري، آنذاك، حلاقاً على باب تكنة، زبائني من الجنود الفقراء، الذين يتناسب فقرهم مع فقر دكان الحلاقة، رغم أنني، في نزوة الشباب المبكر، سميت هذا الدكان «صالون الزهور»!.

وفي هذا «الصالون» العاري إلا من مرآة وكرسي الحلاقة البدائيين، كتبت أول «عمل أدبي» على شكل مسرحية أنا بطلها، وهذا البطل «الثوري الفظيع» يغير العالم في ستة أيام، ويستريح في اليوم السابع!

بعد ذلك علمتني سجون الاحتلال الفرنسي لسورية، أن العالم لا يتغير بالنيات الحسنة، مصاغة خربشات على الورق، وإن بداية التغيير، عن طريق الكفاح، هو إجلاء المحتل ونيل الاستقلال، وبعد الاستقلال، وفي إطاره، نشدان الغد الأفضل بإزاحة اليوم الأسوأ، المتمثل بالإقطاع الذي يحكمنا نحن عبيد الأرض، وهذه الإزاحة لا تكون، أولا تتم، بمسرحية أو قصة أو قصيدة أو لوحة فنية أو أغنية ثورية، وإنما بالكفاح، والصبر والمصابرة فيه، ودخول «السجون الوطنية» بعد أن تخرجنا من «السجون الأجنبية» ومعنا شهادات «الناس الخطرين» التي تسد في وجوهنا أبواب الرزق.

الآن أنا كاتب بسيط، يؤلف حكايات رائجة، بسبب من أنها مسلية، وأنها فوق ذلك، أو قبله، مضبوطة الإيقاع، حسنة التشويق، لاتحلم بتغيير العالم، لأن هذا ليس دورها، وإنما تطرح القضايا طرحاً صحيحاً، يصوغ وجدانات الذين يعملون

لتغيير هذا العالم، عن طريق البذل، والتضحية، ومقاربة النار التي تتفتح أزاهير عذاب على أناملهم.

وهذا الكاتب البسيط، الذي حفظ درسه جيداً، منذ مسرحيته الأولى والأخيرة، أدركه «العقل» منذ أدركته حرفة الأدب، فلم يعد يؤمن، على شدة إيمانه، بأن كلماته ستغير العالم، وهو يستذكر، كشاهد مشفق، كم من كتّاب حسبوا أن كتاباتهم ستغير أشياء الوجود، ولأنها لم تؤد إلى ذلك، أصيبوا بالاحباط فاليأس، وتخلى بعضهم عن الكتابة كلها، ومن هؤلاء الذين صادفتهم في حياتي، كاتب غير مشهور، قال لي في الخمسينيات، حين كنت أعمل صحفياً، «لاتتعب نفسك، لا تنفخ في قربة مثقوبة، فقد كتبت سبع مقالات ثورية، إلا أن «الثورة» التي ابتغيها لم تحدث، فلا فائدة، إذن، من الكتابة، ولم أناقش صاحب هذا القول الادعائي، لأنه كان يتكلم بعصبية بالغة، ووثوق بحقيقته المطلقة، التي يرفض معها أي نقاش، ناهيك بالرأي والرأي الآخر، هذا المعتقد الذي صار يقيناً في وقتنا الراهن، ومن قبل كثرة ممن ينادون بلغة الحوار.

لقد صادفت على مدى خمسين عاماً من دخولي مملكة الأدب، أنماطا وأشكالا من الكتاب والكتبة، الذين يعملون على الأجناس الأدبية كلها، يشكون، بنقيق ضفدعي، من هذه المعضلة التي اسمها تغيير العالم بالكلمة، رافضين، بإصرار، الأخذ بأي رأي، أو أية وجهة نظر، أو أي شرح، يعيدهم إلى سواء السبيل، أو يبعث فيهم الطمأنينة، على أن تأثير الكلمة في مضمونها الجيد، هو تأثير قائم وفاعل، وأنَّ هذا التأثير، في تشكل الرأي العام، يحتاج إلى عقود طويلة ليزهر ويثمر، وإنّه، حتى بعد إزهاره وإثماره، لا يبلغ أن يكون وحده عنصر تغيير، إذا لم يقترن بالتنظيم، وإنّ التنظيم ليس من شأن الكاتب، بل من شأن السياسي، وكذلك العاملون في حقل السياسة، أو حقل الجمعيات والمنظمات الفكرية والسياسية، وكل زعم آخر باطل، كما هو باطل الظن أن تغيير المجتمعات، والارتقاء بها نحو الأجمل والأعدل، لايقاس بعمر القلم الرصاصي،

الذي قد ينتهي، إذا ما وضع موضع العمل المتواصل، في أسبوع أو شهر، ولا يقاس، أيضا بعمر الإنسان، هذا الذي لا يرى في المجهر، إذا ما قيس بعمر الزمن، وإنّه ليس من الضروري، بالنسبة لمن يعملون لمستقبل مشرق، تتنور فيه الحرية والعدالة، أن يروا هذا المستقبل وقد تحقق في حياتهم، ففي هذا المبتغى غير قليل من الأنانية، وإنّ الكثير من الاحباطات، وحالات اليأس تالياً، مصدره الإصرار على تحقق أحلامنا في حياتنا، لأننا بذلك نخالف بدهية ذلك المزارع البسيط، الساذج، الذي سئل يوماً: «لمن تزرع وأنت عجوز؟ فأجاب: «زرع الذين قبلنا فأكلنا، ونزرع لمن هم بعدنا فيأكلون».

أنكر أنّه في بداية حرب تشرين ١٩٧٣، أدلى الكاتب المصري المرحوم توفيق الحكيم، بتصريح وهو قابع في برجه العاجي، قال فيه: «المجال، في الحرب، للرصاصة وليس للكلمةّ» متجاهلاً أن الكلمة تصوغ وجدان صانع «الرصاصة، ومطلقها، والغاية التي يطلق لأجلها، ودون هذه الصياغة لم يكن اختراع الرصاصة، ولا وجد من يطلقها، ولا تحددت الغاية من إطلاقها: هل هي عدوانية أم ضد العدوان؟ وهل كان اختراع الرصاصة لصالح البشرية أم ضدها؟ وفي أي وضع هي للخير، وأي وضع هي للشر؟ ومتى تكون الكلمة أقوى من الرصاصة وبالعكس؟ وهل الأسبقية، في كل حال، للكلمة أم للرصاصة؟

إن الإعلام يبقى ثقافة من الثقافة، وقوام الإعلام هو الكلمة، وبها يتم التوجه إلى الشعوب، وبها، أيضاً، يكون التأثير على الشعوب، في مشاعرها وضمائرها، خلال السلم والحرب، فهل نتصور إعلاماً بغير الكلمة؟ وهل ثمة من ينوب عنها في التوصيل بين المؤدي والمتلقي؟ وفي غياب الكلمة، ماذا يفعل صمت الرصاصة أو الصاروخ؟ وفي حال إطلاقهما، لابد من إنسان ينهض بهذه المهمة، وحتى في زمن ثورة المعلوماتية لابد من زر يضغط عليه إنسان، وتشكل وجدان هذا الإنسان مرجعه أولا وأخيرا، إلى الكلمة، فكيف نيأس من قدرة هذه الكلمة على التغيير، لا بذاتها بل بالآخر المصاغ تفكيره بها؟

إنّما الكلمة، في مجال الإبداع، هي الإبداع، وتتوقف جلوتها على الطلاوة التي تكون لها، وبهذه الطلاوة، أو هذا الرواء، تتألق الحروف التي تكونت منها، إذا ما استخدمت الكلمة، من قبل المبدع، في المكان المناسب، المخصوص لها من النص، وفي هذا سر، وسحر، الأدب كله، وإلا بطل أن يكون أدباً، وفوق ذلك أن يكون أدباً إبداعياً.

يقول القاص الصديق وليد معماري: «حين جاء (أبونا) ليكرز البيت، رشني وكتابي الذي أقرأ فيه بالماء المقدس، وحين انتبه إلى استغراقي في القراءة توقف وسألني: «آه يا بني لعلك ستصبح كاتباً؟» فأجبته: «نعم يا أبانا، ألا يقول الكتاب: في البدء كانت الكلمة» جمد أبونا بالرد الذي فاجأه.. ثم عاد ليرشني بالماء المقدس.. ربما ليطرد عني الأرواح الشريرة.. بينما تابعت أنا محاولاتي لتغيير العالم بالكلمة».

نعم! تغيير العالم يكون بالكلمة، بما هي صياغة وجدان المغيرين، وليس بالماء.. حتى لو كان مقدساً بصلاة أبينا!

عندما حاولوا قطع لساني

لقد كنت محقاً، حين قلت أن الرواية ستكون «ديوان العرب» في القرن الواحد والعشرين، وقد صدقت رؤيتي الاستشراقية فصارت الرواية ديوان العرب في القرن العشرين، وبعد الهياج الذي استفز هذا أو ذاك ممن يّدعون محبة الشعر، انقلب السحر على الساحر، وراح الجميع يّدعون أنهم، هم، هؤلاء الأفاضل، من سبق إلى النطق هذه المقولة، قبل أن يصغى إليها، هذا الذي كان حلاقاً في حي القلعة باللاذقية، وكل تحصيله، في هذه الدنيا الفانية، شهادة «السرتفيكا»، أي الشهادة الابتدائية، التي كانت أمه المرحومة تطالبه، صباح مساء، بيروَظِتْ هذه الشهادة وتعليقها في صدر البيت، حاسبة «المستورة» أن ابنها حصل على شهادته من جامعة جورج تاون أو من الكولج دي فرانس، ثم انقلبت هذه الأم، عندما أخذ ابنها يمارس السياسة وهو فتى، ممارسة على الأرض، لا بين رقاق السحب عند المغيب، وصارت تبكي لأنها كانت تريد، بإصرار، أن تجعل منه كاهناً أو شرطياً، فلم يكن لا هذا ولا ذاك، بل اندفع يمارس السياسة ضد المستعمرين الفرنسيين أولاً، وضد الإقطاع وأذنابه ثانياً، وشعاره «نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض».

إنَّ ممارستي السياسة باكراً، أي في سن المراهقة وما بعدها، جعلت منّي سياسياً متمرساً بامتياز، وفي الأربعين من عمره ودّع حنا السياسة، وراح يكتب الرواية، وينظر لها، من منطلق ولعه بعلم النفس.

إن نبوءته التي صحّت، وراح كل من هبّ ودبّ يبدأ حياته الأدبية بكتابة الرواية، وفي أيامنا الرديئة هذه، نبتت من أشواك تين الصبار الرواية الفضائحية، التي ستذهب مع الريح كبدعة مرذولة.

لقد تقدم بي العمر، وكي أريح وأستريح، كتبت وصيتي التالية، التي نشرتها جريدة تشرين مع مقدمة من الأستاذ عصام داري رئيس التحرير، أنشرها مع لفت النظر إلى أنّ زوجتي الوارد ذكرها في الوصية، قد ماتت، وبذلك تكون قد سبقت في المزدلف إلى العالم الآخر، رحمها الله.

وصية حنا مينه

كتب حنا مينه يقول:

أنا حنا بن سليم حنا مينه، والدتي مريانا ميخائيل زكور، من مواليد اللاذقية العام ١٩٢٤، أكتب وصيتي وأنا بكامل قواي العقلية، وقد عمّرت طويلاً حتى صرت أخشى ألا أموت، بعد أن شبعت من الدنيا، مع يقيني أنه «لكل أجل كتاب».

لقد كنت سعيداً جداً في حياتي، فمنذ أبصرت عيناي النور، وأنا منذور للشقاء، وفي قلب الشقاء حاربت الشقاء، وانتصرت عليه، وهذه نعمة الله، ومكافأة السماء، وإني لمن الشاكرين.

عندما ألفظ النفس الأخير، آمل، وأشدد على هذه الكلمة، ألا يذاع خبر موتي في آية وسيلة إعلامية، مقروءة أو مسموعة أو مرئية، فقد كنت بسيطاً في حياتي، وأرغب أن أكون بسيطاً في مماتي، وليس لي أهل، لأن أهلي، جميعاً، لم يعرفوا من أنا في حياتي، وهذا أفضل، لذلك ليس من الإنصاف في شيء، أن يتحسروا علي عندما يعرفونني، بعد مغادرة هذه الفانية.

كل ما فعلته في حياتي معروف، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي، وقد كرست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف، وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري، شرّعت قدمي لأجل الهدف ذاته، ولما أزل.

لا عتب ولا عتاب، ولست ذاكرهما، هنا، إلا للضرورة، فقد اعتمدت عمري كله، لا على الحظ، لا على الساعد، بل على الساعد، فيدي وحدها، وبمفردها، صفقت، وإني لأشكر هذه اليد، ففي الشكر تدوم النعم.

أعتذر للجميع، أقرباء، أصدقاء، رفاق، قراء، إذا طلبت منهم أن يدعوا نعشي، محمولاً من بيتي إلى عربة الموت، على أكتاف أربعة أشخاص مأجورين من دائرة دفن الموتى، وبعد إهالة التراب علي، في أي قبر متاح، ينفض الجميع أيديهم، ويعودون إلى بيوتهم، فقد انتهى الحفل، وأغلقت الدائرة.

لا حزن، لا بكاء، لا لباس أسود، لا للتعزيات، بأي شكل، ومن أي نوع، في البيت أو خارجه، ثم، وهذا هو الأهم، وأشدد: لا حفلة تأبين، فالذي سيقال بعد موتي، سمعته في حياتي، وهذه التآبين، وكما جرت العادات، منكرة، منفرة، مسيئة إلي، استغيث بكم جميعاً، أن تريحوا عظامي منها.

كل ما أملك في دمشق واللاذقية، يتصرف به من يدّعون أنهم أهلي، ولهم الحرية في توزيع بعضه، على الفقراء، الأحباء الذين كنت منهم، وكانوا مني، وكنا على نسب هو الأغلى، الأثمن، الأكرم عندي.

زوجتي العزيزة مريم دميان سمعان، وصيتي عند من يصلّون لراحة نفسي، لها الحق، لو كانت لديها إمكانية دعي هذا الحق، أن تتصرف بكل إرثي، أما بيتي في اللاذقية، وكل ما فيه، فهو لها ومطوّب باسمها، فلا يباع إلا بعد عودتها إلى العدم الذي خرجت هي، وخرجت أنا، منه، ثم عدنا إليه.

من مهنة الحلاقة.. إلى مهنة الصحافة

بعد أن يئست من العمل في الحلاقة «كأجير» في بيروت. انتقلت إلى دمشق للغاية نفسها، إلا أن الحظ لم يبتسم لي في الشام، وكان هذا من حظي، لأن الصديق العزيز نديم عدي، الذي استضافني في بيته مشكوراً، قال لي، وكان من الحزب الوطني:

- اسمع يا صديقي حنا، لنترك الحلاقة ولعنتها، ونبحث عن عمل آخر، أفضل لكنه أصعب!

أجبته:

- مواجهة الصعاب هي مهنتي منذ أبصرت عيناي النور، فقد ولدت في حاضنة الشقاء، ولأزال في حرب معه، ولي ثقة إنني سأنتصر عليه، في يوم من الأيام.. ماهي اللعنة الجديدة، الصعبة كما تقول.

ابتسم الصديق نديم عدي، الذي أدين له سابقاً ولاحقاً، بما أسدى إليّ من معروف متواصل، كان ولايزال موضع شكر وامتنان من قبلي، ثم فاجأني بعبارة أدهشتني:

- ما رأيك أن تشتغل بالصحافة؟

- بالصحافة!؟

- نعم بالصحافة، ولماذا الاستغراب، أنت تكتب جيداً، منذ كنت حلاقاً في حارة القلعة في اللاذقية، وأنا قرأت لك وأعرفك جيداً بسبب القربى التي بيننا!

فكرت قليلاً وقلت:

- من أجير مرفوض في الحلاقة، إلى محرر مقبول في الصحافة؟ هذه نكتة!

قال الصديق نديم:

- نكتة غريبة!

- وعجيبة أيضاً.. نحن، يا صديقي، لسنا في زمن العجائب.. لو عرضت علي أن أعمل كرسوناً في مقهى، لكان ذلك مناسباً وجدياً وبعيداً عن النكتة..

- أنت، يا صديقي، لا تخاف الحياة، وتقول إنك ستجعل الحياة تخاف منك.. نعم أم لا؟

- نعم ثم نعم.. وهذا تاريخي.. إنني متمرس في السياسة نظرياً وعملياً، ومتمرس في النضال كذلك، وقد رأيت الموت كثيراً، فلم أهبه.. الموت جبان، إلا أن الحظ، وكيلا أغشك، ضدي فماذا أفعل!؟ لم أنجح في الحلاقة لأنني لم أكن مسلكياً فيها، غير أن الحلاقة شيء... والصحافة شيء آخر.. فلا تزِد الدنيا سواداً في عيني.. صحافة قال صحافة!! دبر لي عملاً معقولاً، أرجوك..

سألني بكياسة:

- كم مرة دخلت السجن، ضد فرنسا وضد الاقطاع، وضد الحظ السيئ، الذي يلاحقك كما تقول؟

- كثيراً! السجن، في تلك الأيام، كان بخمس نجوم! أما الآن فإنه بنجمة واحدة..

- لكن السجن هو السجن.. بخمس نجوم أم بنجمة واحدة، وأنا أعرض عليك أن تعمل في الصحافة لا أن تعود إلى السجن..

- هذا كله مفهوم.. لكن الصحافة حلم أكبر وغير واقعي.. أنا لم أنجح في الحلاقة، فكيف أنجح في الصحافة!؟

قال نديم:

- العطشان يشرب من الماء العكر.. وأنت عطشان فجرب الماء العكر، ولن تخسر شيئاً..

- هذه الحكمة صحيحة.. ولكن كيف؟

- أنت تعرف إنني من الحزب الوطني، والاستاذ وجيه الحفار من الحزب الوطني أيضاً، ويحتاج إلى محرر.. فماذا تخسر لو ذهبت معي إليه؟

- لن أخسر شيئاً.. ما اسم جريدته؟

- الإنشاء..

- سمعت بها، ويسرني أن أتعرف على صاحبها.. وآمل أن يكون لطيفاً معي، ويقبل أن يجربني.. لكن دون أن يهزأ بي، لأن المناضل مثلي، كرامته هي رأسماله، ولن أقبل بخسران آخر ما لدي وهو الكرامة.. خذني إليه!

- على شرط!

- كل شروطك مقبولة ما دمت أنت معي!

- أنا لن أكون معك.. اذهب وحدك.. وتحمل الأذى وحدك، وهذا أفضل لي ولك..

- قبلت بما تقول.. هذا من الحكمة التي ألعنها.. خذني إلى مكان الجريدة، وسأكون كما ينبغي، فالمثل يقول: «إذا كنت غريباً فكن أديباً» وسأكون أديباً، صبوراً، قدر المستطاع.

- قدر المستطاع هذه لا ضرورة لها.. كن صبوراً، مهما كان الموقف محرجاً..

ذهبت مع هذا الصديق إلى بناية القدسي، مقابل البريد المركزي الآن، وطلبت الإذن اللازم لمقابلة الاستاذ وجيه الحفار..

انتظرت حتى انتهى من كتابة الافتتاحية، وعندما دخلت إلى مكتبه، راعتني فخامته، وراقني ترحيب الاستاذ وجيه بي، رغم أنه لم يقل لي «تفضل اجلس» وكان يضع نظارة ذهبية، وله وجه مريح، أقرب إلى الطيبة، ولياقة متميزة، في اللباس وفي الكلام، لكنه، وهذا حقه وفي موضعه، دهش عندما سألني:

- هل عملت في الصحافة قبل الآن؟ ومع مَنْ مِنَ الصحفيين في سورية!

- لم أعمل في الصحافة قبل الآن!

- وماذا تحمل من شهادات؟

- لا أحمل أية شهادة!

- وتريد أن تعمل في الصحافة؟

جربني.. أرجوك..

فكّر قليلاً، وأنا واقف أمامه، انتظر قراره الذي سيحدد مصيري، وبعد هنيهة نظر إلي متفحصاً وقال:

- هذه هي المرة الأولى التي اصادف فيها إنساناً جريئاً، واثقاً من نفسه، لا يحمل أية شهادة، ويريد أن يكون صحفياً..

أضاف..

- من باب الرغبة في المعرفة لا أكثر، سأجربك، سأوافق على عملك في جريدتي لكن على شرط..

- اوافق على كل شروطك..

- لا تستعجل يا بني.. شرطي سيكون قاسياً

- عرفت كل الشروط القاسية في حياتي وانتصرت فيها!

- أنت واثق من نفسك بأكثر مما يجب..

- بل بأقل ما يجب..

- هكذا؟

- نعم هكذا..

- هذا جواب فيه الكثير من التحدي.. من يريد أن يعمل لا يتحدى صاحب العمل بهذا الشكل

- أنت يا أستاذ لطيف جداً..

- وكيف اكتشفت هذا اللطف، وبهذه السرعة؟

- قلت لي: من يطلب عملاً لا يتحدى بهذا الشكل.. لكنك في سرك، قلت: بهذه الوقاحة!

- ابتسم من تحت نظارتيه وقال:

- بصراحة: نعم! قلت ذلك في سري.

أضاف:

- ولكن هذا من الفراسة، إذا لم أقل من علم النفس.. أنت غريب يابني، والغرابة هنا مردها إلى الكذب..

- الكذب رأس المعاصي.. وفي حياتي لم ارتكب هذه المعصية.

- ارتكبتها!

- كيف؟

- قلت أنك كنت حلاقاً!

- هذا صحيح تماماً!

- الحلاق يكون ثرثاراً عادة، وهذا من الجهل.. أما أنت فتعرف، لكن أجوبتك فيها وقاحة لا ثرثرة..

- تماماً!

- وتقول تماماً بلا مبالاة!

- تعبت من الوقوف.. هذه هي المسألة..

- المسألة إنني أمتحنك..

- ألا ترى، يا أستاذ أن هذا الامتحان طال أكثر مما ينبغي.. هي كلمة واحدة: تقبلني محرراً أم لا؟

قال بلهجة مغايرة، فيها انزعاج:

- أقبلك كتجربة، تعمل ثلاثة أشهر بغير راتب.

- أوافق!

- مع السلامة.. اذهب إلى الاستاذ أحمد علوش مدير التحرير!

ذهبت.. عملت، جربني، نجحت التجربة.. كان الاستاذ أحمد علوش رائعاً، من جماعة أكرم الحوراني، وقد أفدت منه كثيراً، وأحببته كثيراً وبعد شهر واحد، ودون أن أعرف، دخل على الأستاذ وجيه، وقدم شهادة حسنة عني، وربما أكثر من ذلك، فاستدعاني الاستاذ وجيه الحفار وقال لي:

- الاستاذ أحمد أثنى عليك وشهد بأنك مجتهد وتتقن عملك، لذلك أكتفي بتجربتك لمدة شهر واحد، واعتباراً من بداية هذا الشهر سيكون أجرك مئة ليرة سورية.. ما قولك؟

- أشكرك وأشكر الاستاذ أحمد، لكنني جائع، وإذا كان ذلك ممكناً، فإنّني أطلب عشر ليرات على الحساب، كي آكل لأنني جائع!

ابتسم الاستاذ وجيه وضغط على الجرس فلما جاء المحاسب قال له:

- ادفع للأستاذ حنا عشر ليرات سورية على الحساب.. وبعد أن خرج المحاسب قال:

- وهذه خمس ليرات تشجيعاً مني!

شكرته واعتذرت عن قبول ليراته الخمس التشجيعية، ومنذ ذلك اليوم، كان ودٌّ بيننا، بل أكثر.. كان في أوقات الفراغ يطلبني إلى مكتبه، ويطلب لي القهوة، ونتحدث في بعض الأمور، ومن باب المودة أو التشجيع كان يقول لي:

- أكاد لا أصدق أنّك كنت حلاقاً!

فأجيبه:

- هل هذا لأنني غير ثرثار؟

- لا أبداً قل.. من باب الإعجاب.. أنت، يا استاذ حنا لم تكن حلاقاً فقط..

- كنت حلاقاً غير مسلكي.. كان لدي، في سريرتي، طموح لا أعرف ما هو..

- والآن؟ عرفت هذا الطموح!؟

- تقريباً..

- وإذا قلت لك إنك ستكون مدير التحرير، لأن الاستاذ أحمد سيغادرنا، وظني إنه سيسعى إلى أن يكون صاحب جريدة ما..

- هذا يسرني من جهة، ويحزنني من جهة أخرى.. الاستاذ أحمد أستاذي!

- لكنه يقول عنك: «رُب تلميذ يفوق استاذه»..

- هذا من تواضعه..

- ومن كفاءتك.. تظنني لا أعرف من أنت؟

- من أنا؟

- شيوعي حتى العظم؟

- لكنني أعمل في جريدة صاحبها من الحزب الوطني..

- هذا لا يتعارض مع المبدأ.. أنت أمين ومؤتمن.. لا تكتب حرفاً فيه لك منفعة خاصة..

- الله يعلم.. أنا يا أستاذ وجيه، خريج مدرستك الصحفية!

- هذا فيه قدر كبير من التواضع..

ـ يكفي أنه حقيقة..

ودارت الأيام، وسجن الاستاذ وجيه الحفار في اليوم الأول لانقلاب حسني الزعيم، بينما هربت أنا إلى لبنان، وبعد زوال حسني الزعيم، عدت للعمل مع الاستاذ وجيه، إنما في مجلة «الإنشاء» وعندما وجد أن المجلة لم تتجح، عاد إلى إصدار الجريدة بأربع صفحات، كما كانت الصحف تلك الأيام، وعدت لأعمل معه كمدير للتحرير.. ثم تغيرت الأوضاع سياسياً، ولم يعد ممكناً العمل معاً، فصارحني بذلك، ودفع لي تعويضاتي كاملة، وافترقنا على أمل اللقاء.. لكننا لم نلتق مع الأسف، لأنني غادرت سورية، لأسباب قاهرة.

وفي غيابي انتقل وجيه الحفار إلى رحمة ربه، وقد حزنت لذلك، وليس لي، ختاماً سوى هذا القول:

«يا دارجاً في الخالدين ضميره صلت عليك الرفقة الأبرار».

(١) الشرطة العسكرية الفرنسية
عندما رُميت ... في نادي الرماية!

إنني أكتب في شروط لا إنسانية، وألاحق، على المودات، في ظروف لا إنسانية أيضاً، رافضاً، منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، دعوات المراكز الثقافية لإلقاء محاضرة هنا، أو إجراء حوار مع الجمهور هناك، أو حتى المشاركة، في وليمة القصيدة أو القصة أو الرواية، دون معرفة السبب الذي يحول بيني وبين تلك المباهج، التي يفرح بها، أو يطرب لها، الادباء والفنانون عادة، ويرون إليها كواجب تقتضيه المناسبة.

في شبابي، عندما كنت حلاقاً في اللاذقية، كانت هذه المناسبات إحدى هواياتي، أترك دكان الحلاقة لأجلها، مسرعاً إليها، مهما يكن الدرب بعيداً، والاحتفال متواضعاً، مادام هناك شعر، وخطابة، وكلام يقال، في أي موضوع من المواضيع!

لا أرغب ان يفهم، من كلامي هذا، أنني، مع التقدم في العمر، أياسر الى العزلة، أو أشيح بوجهي عن التمتع بمفاتن الطبيعة، أو الإيناس بلقاء الأحبة، او التواصل مع القراء الأعزاء، فهذا كله بعيد عن شرفي كروائي، عليه أن يعيش البيئة، ومن فيها من أخلاط البشر، ومن المغامرة في الوصول إلى قاع المدن، ورؤية الأشياء عياناً، وتقليب أحجار التجارب، لرؤية ما فوقها وتحتها وعلى جوانبها، وقد قلت، ولا أزال، إنني على موعد دائم مع المغامرة، بكل أبعادها، غير أن المشاغل تغتال أفضل نواياي، وتفرض علي الانتقال من مكان إلى آخر، كي أجد الوقت اللازم للكتابة.

إنّ الأحباء من أهل الصقيلبية، دعوني مرة، ومرة، فلم أتمكن من تلبية الدعوة، وفي أحد الأيام جاءني، بريدياً، مغلف كبير، عجبت له، وازداد عجبي، وخجلي، لأن المغلف كان ينطوي على عريضة، موقعة من كل أهالي الصقيلبية، والمعنى واضح: «إذا كنت لا تأتي بالدعوات، فشرف وتعال بالعرائض!» ومع هذا لم يكن لدي متسع من الوقت، لأستجيب إلى العريضة، ويبدو أن أصحاب العريضة من ذوي الصبر الطويل، لأنهم جددوا الدعوة هذا العام أيضاً، وأبلغوني أن أجراس الكنائس ستقرع عند وصولي، وأنهم حصلوا على الموافقة اللازمة لإلقاء محاضرة «عندما أضعت البحر.. مرة أخرى» أي ذات المحاضرة التي ألقيتها، بعد خمسين عاماً من الانتظار، في القاعة الكبرى لكنيسة الصليب في دمشق، وحضرها حشد يزيد عن ألف مستمع، ظل بعضهم وقوفاً!

شكراً للجميع، واعتذاراً من الجميع، على هذه الحفاوة، التي لا أستحقها، لأنها جاءت متأخرة نصف قرن، غير أنني، في اليوم التالي ذهبت إلى معلولا، لأسكن فندقها الذي يديره، إدارة جيدة، الصديق عبدو كوكب، ويسهر كل من في الفندق من عاملين على راحتي، وتوفير التفرغ لي كي أكتب، وفعلاً كتبت رواية، خلال شهرين، عنوانها «النار بين أصابع امرأة» ولي مع هذه الرواية حكاية ليس هذا المقال مجالها!

المهم أنني، في العام التالي، لم أستمع للنصائح، فقد غامرت وذهبت إلى فندق معلولا، الذي صرت معروفاً فيه، ولم أستطع الكتابة، لأن الكرام من قرائي تقاطروا علي، وفي المقدمة أحبّاء من مشتى الحلو، جاءوا ليأخذوني معهم، فاعتذرت، لكنهم ألحوا في الطلب، فوعدتهم خيراً، ولم أفِ بوعدي، بل هربت من فندق معلولا، الى نادي الرماية في السويداء، حيث قامت الصديقة العزيزة سناء، التي أعرفها من سنوات، بالسهر علي، والعناية بأمري، عناية كاملة، مثل ايقاظي في الساعة السابعة صباحاً، كي أشرب القهوة، وأفطر، وأكتب قبل حلول الظهر، حيث يبدأ الطبل والزمر تحت نافذتي، وتقوم القيامة من حولي!

قال لي الأصدقاء المرموقون في السويداء، إن فصل الخريف هو فصل الأعراس في نادي الرماية، فكل مغترب يجمع بعض المال، يأتي ليتزوج في هذا الفصل، والزواج له تقاليد الأعراس، التي لا تتم إذا لم يكن هناك طبلٌ وزمرٌ، وعليّ أن أتحمل، ففي كل يوم هناك عرسان، أحدهما تحت نافذتي، والآخر تحت الشرفة من الناحية الثانية، ولا مفر من تقبل الواقع، ولا فائدة من التنكر باسم عمر، أو التخفي عن الذين يعرفونني، ويكفي أن اكتب حتى الظهر، وبعده أتفرغ للزوار، وفي الليل هناك المرابع الجميلة، من المغارة إلى الفيصل إلى السوآدا، حيث يغني ابن المرحوم الفنان فهد بلان، نفس أغاني ابيه، وبصوت جميل تحسبه صوت أبيه تماماً، وكان هذا القول صحيحاً، وأصغيت إلى الابن وأنا أترحم على والده.

في البدء اصررت على التخفي، ذهبت بالشحاطة، مع أصدقاء أعزاء، إلى المغارة، البعيدة نسبياً، والجميلة جمالاً خلاباً، لأنها مغارة فعلاً، قاعها يزدان بنوافير الماء، وأحواض الخضرة والزهر، وجوانبها، وفي استدارة المغارة تماماً، هناك الأضواء الملونة والعرائش الخضر، والزينات بكل أنواعها وأشكالها، والتماع الماء، الذي يقطر، أو هذا ما خيل لي، قطرات تلتمع بانعكاس الأنوار عليها.

جلسنا إلى طاولة مرتفعة، في الأرض الترابية، وشرع، مع الموسيقى، رجل نصف، يغني تارة، ويخطب تارة اخرى، وكان هذا الرجل الفارع القوام، المكتنز البدن، ظريفا، خفيف الدم، ينشد الشعر العامي بصوت مليح، فيلقي، مثلاً، خطاباً وطنياً. نارياً، وبعده، مع الموسيقى، يغني «عالعصفورية» لصباح، ثم يشوبش باسم فلان أو علان، حسب النقود التي تصله، إلى أن فاجأ الحضور، ونحن منهم، بالقول إن الروائي، أي أنا، الذي هو «فلتة زمانه» موجود معنا، صفقوا، يا أعزائي، تحية له، تصفيقاً قوياً!

صفق الحاضرون من كل جوانب المغارة، وهجم علي جمهور غفير من الشباب والشابات، والرجال والنساء، وجروني، وهم يقبلونني، من المرتفع الترابي، إلى المنحدر الترابي، وأنا مرتبك لأنهم اكتشفوني، وخائف على الشحاطة أن تضيع

من قدمي، وأنا استمع الى الرجل الظريف، وهو يغني، في المكرفون، بصوت جهوري، أغنية وديع الصافي: «عندك بحرية ياريس» والكل يردد معه.

شوبشت، كغيري، بألف ليرة سورية، فأمسك بها، ورفعها بيسراه، وأمطرني بخطاب، والمكرفون بيمناه، من «العيار الثقيل» فيه هذه القفلة: «يا جامع الشمل تجمعني بهم ليلاه» ثم جاء إلي فقبلني، وشرب جرعة من الحكول، وعاد ليواصل الخطابة والشوبشة، وكلما نشف ريقه، جاء وشرب جرعة أخرى طيبة.

هكذا انكشف أمري، وبحث بعض الشباب، عن فردة الشحاطة بين التراب، وأعادوها إليّ، وعدت إلى غرفتي، في نادي الرماية، في الثالثة صباحاً، وفي الساعة السابعة رن جرس الهاتف، وجاءت سناء إلي بالقهوة والفطور وقالت بصوت آمر: اكتب قبل ان يبدأ الطبل والزمر!»

لم أستطع الكتابة، حاولت، مع قلة نومي، أن أنام، ففشلت، وحين بدأ الطبل والزمر تحت نافذتي، أصغيت دون تأفف، ثم لبست ثيابي ونزلت الى العرس، دون معرفة عرس من يكون، وشوبشت بألف ليرة، ثم بألف للطبال والزمار، وقلت: «رقصني عالوحدة ونص!» وأصحاب العرس يتساءلون، وأنا أرقص: «من هذا؟ ومن أين جاء؟ وما هي قصة الوحدة ونص؟» فلما علموا بي، تعالى التصفيق، ودوى الطبل، واشتد الزمر، وقلت في نفسي: «الى جهنم بالكتابة والكتب، فأنا منذ خمسين عاماً، لم أسمع طبلاً وزمراً، ولم أرقص رقصتي المفضلة : «عالوحدة ونص!» ولم آكل من طبيخ العرس وأضحى التخفي ضرباً من الجنون!

في الساعة الثانية جاء شادي، سائق التكسي الذي يعمل معي إلى منتصف الليل، وقال وهو يضحك:

ماذا فعلت؟

رقصت!

هل تتغدّى؟

أكلت من طبيخ العرس!

وهل تعرف عرس من هذا؟

لا !

وقالت سناء التي جاءت مسرعة:

رأيتك وانت ترقص، عجوز ويرقص هذا الرقص.. فكيف كنت ترقص اذن وانت شاب؟

في شبابي، يا سناء العزيزة، لم أكن أرقص، كنت اشتغل في السياسة!

وماذا نابك من السياسة؟

السجن وأشياء أخرى!

أنت مجنون!

هذا صحيح .. ولي قول معروف: «ولدت كريماً وزكرتاً، وسأموت كريماً وزكرتاً» هيا.. ضبي أغراضي في الحقيبة.. فأنا عائد الى دمشق!

بهذه السرعة؟ أنا لا أفهمك!

ومن الصعب أن تفهميني، يا سنائي الرائعة!

مفاجأة غير متوقعة!

إنَّ النوم تحت الجسور، عندما لا يكون ثمة مترو الأنفاق، أليف لدي، وقد نمت، أنا المشرد قهراً، تحت هذه الجسور في سويسرا، قبل أن أتعرف إلى مقصف روجيه، في شارع باريس الصغير، لكثرة ما فيه من خمارات، وفي هذا المقصف، في جنيف، رهنت سترتي مقابل كأس من البيرة، وعبرت الحدود إلى فرنسا، دون جواز سفر، لأن السيدة المحسنة، التي معي في السيارة، غمزت رجل الأمن الفرنسي قائلة: «إنّه صديقي!» فأجابها وهو يبتسم «أوكي!»

وفي الطائرة، هارباً من «زوّار الفجر» للمرة الثانية، راحت المضيفة تذهب وتجيء، محاولة رؤية وجهي المستتر بجريدة الأومانيتيه، وعندما نفذ صبرها، أزاحت الجريدة قائلة: «أنت فلان، أليس كذلك؟» قلت عبوساً «وماذا تريدين مني!؟» أجابت «أنت مطلوب إلى غرفة القيادة، هيا معي!» أطعتها مرغماً، لأنه لا مفر، وأنا بين أرض وسماء، وجواز السفر المزور، لا يعصم من الاعتقال، والإعادة، مقيد اليدين، إلى البلد الذي هربت منه، أنا المواطن في الإقليم الشمالي!

في غرفة القيادة أجلسوني على لوح يُفتح ويُطوى، وبعد دقائق عشر، حسبتها دهراً سألني قائد الطائرة:

- ما رأيك بكأس من المشروب الأصفر الذهبي؟.

أجبت يائساً من الهرب:

- هذا من اللطف يا سيدي، فأنا، بدل المشرَوب، كنت أحلم بكأس من الماء، لكن كرمكم فاق تصوري!

جاء الأصفر المثلوج، من يد كاعب حسناء، فهان عليَّ الاعتقال، وقلت في نفسي: «وإذا لم يكن بدٌّ من السجن، بعد الإعادة إلى دمشق، فالأفضل أن أدخله

متعتعاً، على مذهب أبي نواس.. لذلك تذوقت الكأس، بلذّة مبهمة، مفوضاً أمري إلى الله، كالمحكوم بالإعدام، وأنشوطة الحبل في عنقه. وبعد الكأس الأول، جاء الكأس الثاني، «وهانت فما أبالي بالرزايا / وما انتفعت يوماً بأن أبالي» متذكراً قول الأخطل الكبير «إذا ما علّني ثم علني صاحبي/ ثلاث زجاجات لهن هديرُ/ خرجت أجر الذيل تيها / كأني عليك، أمير المؤمنين، أميرُ!» وفي الكأس الثالث، قال لي قائد الطائرة:

- أنت، يا أستاذ، ضيفنا اليوم!

قلت:

- مفهوم يا سيدي، أنا ضيف غير عادي، وصيد غير عادي أيضاً!

قال:

- عن أي صيد تتحدث؟ أقول لك أنت ضيفنا، وتقول لي أنا صنف غير عادي وصيد غير عادي.. ماذا بك؟

قلت:

- الذي بي تعرفه جيداً، وإلا لماذا أنا في غرفة القيادة؟

- أنت في غرفة القيادة، لأن طبيب الطيران فلان، أوصاني بك خيراً، وآمل أن أكون قد وفيت هذا الخير حقه.

قلت ملهوفاً:

- أوفيته وزدته وفاء.. وبودي، إذا سمحت، أن أشرب كأساً آخر، في صحتك، وصحة الطائرة، وصحة طاقم الطائرة، ومضيفات الطائرة، وركابها جميعاً!

وشربنا على ذكر الحبيب مدامة، إلى أن هبطت الطائرة بسلام، وخرجت منها بسلام، وسرت، أنا المسافر بغير حقيبة، ضاحكاً من نصفي المجنون، رغم أنّي لم أكن مجنوناً هذه المرة!

القصة نافلة، أوردتها كي تعلموا أنني سبحت في مياه الغربة طويلاً، واكتويت بنارها طويلاً، فمن بكين إلى طوكيو، ومنها إلى نيويورك، ومن نيويورك

إلى مكسيكو، أما لندن وباريس وبون وبودابست، فإنّها بعض ملاعبي، وبعض دمعي، كما في رواية «حمامة زرقاء في السحب» وعندما عُرِض مسلسل «نهاية رجل شجاع» تساءل المشاهدون: «هل هذا هو المرفأ!؟» وأجبتهم: «هذا هو المرفأ، الذي عملت حمالاً فيه» فأنا لا أكتب إلا ما عشته، ورأيته، وعانيته، وبعيد عن شرفي أن أحب امرأة، افتراضاً، لأكتب قصة حب، أو أزور مصنعاً، لأكتب عن المصانع والعمال، أو أتشرد في الريف، لأكتب عن الفلاحين وشقائهم، رجالاً ونساءً، فالحياة، بالنسبة إلي، جديرة بأن تعاش لذاتها، لا للكتابة عنها، وقد تعلّمت من زوجتي، مريانا دميان سمعان، هذه الأرجوزة «درت كتير وعشْت كتير، وشفْت كتير بزماني، وما في ع بالي بعنْ، غير البيت الربّاني!»

لقد ولدت في اللاذقية، في بيت عتيق، مهلهل، على طرف سوق العنّابي، إلا أن المختار، الذي فوّضه والدي، وهو نصف سكران، بالكتابة على كيفه، دوّن في دفتره أنني ولدت في السويديّة، مصب نهر العاصي، وأن تاريخ ميلادي يرقى إلى القرن التاسع عشر، ولشدّ ما عانيت في تصحيح بعض هذه الأخطاء، لا كلّها، ولشدّ ما ابتسمت، مشفقاً حدباً، على سواء الحظ الذي رماني عند هذا المختار، الذي يكتب كلمة في دفتره، ويتحدث بعشر عن فتوحاته الجنسية والبهلوانية، ضاحكاً، أو متضاحكاً، وحَرِناً إذا لم تجاره في ضحكه الأبله!

إن الكتابة مهنة حزينة، فالورقة البيضاء أفعى بيضاء، وما تكتبه في الليل، قد تمزقه في النهار، والمساءلة، في غير أوانها، مغيظة، فأنا أحب اللاذقية، ولا أرغب في الكلام على هذا الحب، لئلا أقتله، غير أن الصحافة لا ترحم، طالبة أن تتحدث إليها عن حبك هذا، وعن الفارق بين حبك للمدنية، وحبك للبحر الذي هو جار المدينة، وأي الحبّين هو الأكبر، والأعمق، والأنفذ، وأجيبهم: «نعم يا سادتي، أحب اللاذقية، وأحب البحر، فالذين ولدوا في الموج، يؤثرون أن يكون المُقام والمثوى إلى جواره، إلا أن اللاذقية، التي كانت الهجرة من إسكندرونة إليها، غير اللاذقية التي هي اليوم «وزودينا بحسن وجهك ما دام/ فحسن الوجوه حال تحول»، وما لنا كلنا جوٍ يا رسول/ أنا أهوى وقلبك المتبول!» ودائماً كان الهوى، وكان الغدر فيه من الرسول الذي يغار ويغدر بالذي أرسله!

همسة وجد.. ورعشة صبابة!

زودينا من حسن وجهك ما دام   فحسن الوجوه حال تحولُ

وصلينا نصلك في هذه الدنيا   فإن المقام فيها قليلُ

عندما أكتب إلى الاحباء، وعندما أكتب عنهم ايضاً، تعتارني ذكريات غوالٍ، قلت عنها يوماً: «فجيعتي في ذكرياتي، التي تغتالني بغير رحمة، في الأصباح والأماسي» ولكن الذكرى، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي، «صدى السنين الحاكي» والإنسان الذي بغير ذكريات، إنسان بغير ماضٍ، ويبقى الفارق بين الإثنين، إنّ ذكريات الذي لم يرتحل، لم يغامر، لم يسافر، تبقى محدودة، بينما ذكريات الذي طوّف في أربع جهات الارض، فإنها ذكريات طويلة، عريضة، مفرحة حيناً، محزنة أحياناً كثيرة.

وقد قال بدوي الجبل، الشاعر الذي يصوغ الشعر، كما يصاغ الذهب.

يامن سقانا كؤوس الهجر مترعة   بكى بساط الهوى لما طويناه!

فهل طوينا بساط الهوى   وهل سقى الشعر من صهبائه الباتا؟

إنني، أنا المجنون على طريقتي، أقارب النثر المقدس في رواياتي وأقاصيصي، لكنني أحفظ الشعر في الجاهلية، والعصر الاموي، والعصر العباسي، وعصور الإحباط أيضاً، وأخالف عميد الأدب العربي د. طه حسين، في أن شعر الجاهلية منحولٌ كله، وحملته غير المبررة وغير الموفقة، على أكبر شعرائنا المتنبي العظيم، الذي في ذكرى ألفيته قال عنه الشاعر بشارة الخوري، الأخطل الصغير:

طلبت بالشعر دون الشعر منزلـــةً   فـــشاء ربّـــك ألاّ يحقـــق الأربـــا

نعم إنني ناثر، مهووس بالشعر، وقد قلت في العام ١٩٨٢، إن الرواية ستكون ديوان العرب، في القرن الواحد والعشرين، لكن الرواية صارت ديوان العرب في القرن العشرين نفسه، وعنّي، كما يثبت الناقد اللبناني الاستاذ محمد دكروب، أخذ الآخرون هذه المقولة، وهاجمني من يدّعون الشعر بغير حق، هجوماً كاسحاً، مغرضاً، إلاّ انّ الحقيقة الموضوعية أثبتت نبوعتي، فصارت الرواية، في الوطن العربي والعالم كله، هي سيدة الموقف!

إنني اكتب هذه الكلمات تحية للسقيلبية بعامة، وأكتبها لأجل جميلة الجميلات فيها بخاصة، وقد كنت مريضاً، فتحديت المرض وخرجت لأن التحدي طبعي، وقد رأيت الموت، في البر والبحر، فلم أهبه، ولا أزال أبحث عنه، أنا العجوز ابن الواحد والثمانين عاماً، وهو يهرب مني الآن. الموت جبان، صدقوني!

لقد أرسل لي الصديق الغالي، بشار الضاهر، مجموعة من الصور، التقطت لي وأنا في السقيلبية، لمدة ثلاثة أيام فعجبت وخجلت من نفسي أن أكون عجوزاً الى هذا الحد وأن ارقص أيضا، وأصغي طرباً، والشاعر المغني الكبير إبراهيم رستم، يرتجل الشعر غناء عذباً، ثم يليه المطرب والشاعر كامل إبراهيم، وتضجّ القاعة الكبيرة في المقصف، بالتصفيق الحاد، ثم تغني سيدة لا أعرف، أو لم احفظ اسمها، لذلك اعتذر إليها!

قلت للسيدة كوثر البشراوي، التي أجرت معي مقابلة لتلفزيون m.b.c إنني يا سيدتي، لا أريد أن أرى وجهي في المرآة او التلفزيون لذلك أطلب ما أريد، وأحصل، دائماً، على ما أريد، والغنج أو الدلال لا ينفعان معي! وقلت إنّ سبب شهرتي الواسعة هو الحظ، وقد كذبت في هذا القول، لأنّ الحظ عاكسني منذ الطفولة الشقية، ولا أبرح أصارعه حتى في شيخوختي! والآية الكريمة تقول: «..ومنهم من يُردّ الى أرذل العمر» وها أنا في أرذل العمر، ولي فلسفتي الخاصة في هذه الحياة، وقد اتعسني أمران: أنني لا أتأثر بشراب التفاح، ولا أعرف ما هو الحب، ولي قولان معروفان «لا تستعجل الانتصار تقتله!»

«وإذا أدارت المرأة لك ظهرها، دعها تذهب بسلام».

أما الأيك والبان، والبحر، والبر، فهي ملاعبي، وعندما بدأت الكتابة، في الأربعين من عمري، كنت قد ملكت معلمية الكتابة، أي كنت فناناً، لأن من يملك معلمية حرفته، هو فنان في نظري، من الخياط إلى النجار، إلى صديقي المبدع إخراجاً «نجدت انزور» الذي قال في تصريح له مؤخراً :«مسلسل نهاية رجل شجاع سيبقى، إلى الأبد، افضل أعمالي التي اعتز بها».

إنّ صداقتي مع نجدت انزور مردها الى الجنون، هو مجنون في إخراجه، وانا مجنون في كتابتي، وكلانا يتيه على الدنيا، وبالتيه يكون الجمال أو لا يكون، والموت كما قال شكسبير: «نوم ثم لا شيء» غير أنّ خوفي ألا يأتي هذا «النوم» فأبقى عجوزاً وفي أرذل العمر ايضاً!

يهتفون لي من السقيلبية: «تعال يا حنا» وجوابي : «سآتي ليوم واحد، وسهرة واحدة، وسقاية شجرة الزيتون التي غرزت على اسمي! والاعتذار من الأحبة الذين أحاطوني بالمودة واحداً واحداً.

عندما سرقوا ذاكرتي... لا كليتي!

أضعت ذاكرتي، فصلّوا لأجلها وقالوا لي كي يبلسموا جراحي (العوض على الله) ومن نزيل سجون، إلى نزيل مشاف، والشغل دوار.

(أوقفي الركب يا رمال البيد/ إنه تاه في مداك البعيد) والأطباء يجمعون (أنت مرهق بحاجة إلى راحة تامة –طويلة –طويلة !) ودرت أبحث عن الراحة لدى العطارين فقالوا لي (ما أفسده الدهر لا يصلحه عطار) لكن المغامرة في دمي فحيث تكون أكون والمغامرة في البر غيرها في البحر، وفي الغابة غيرها في المدينة وكذلك الأمر في الجبل والسهل، ألست كاتب المناطق المجهولة؟ ألم أرَ هذا الجبان الذي اسمه الموت، مرة ومرات، فحدّق كلٌّ منا في الآخر، بعيون باردة عيون أفعى (إنه في الخن يا دليلة أفعى/ كم سمعنا فحيحها في سرير!؟) والأفعى مباركة، إذا ذكرت، ذكرت التفاحة معها، وذكر جدنا آدم، وجدتنا حواء، والوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس هل وسوس في صدر حواء فكان الوصال وكان معه التاريخ بدءاً ثم الهبوط من جنة السماء إلى الأرض، حيث الكفاح قانون الحياة، ودونه لا نسل ولا تناسل، ولا ذراري، ولا نوح وفُلكه المشهور الذي يقال إنّه رسا على جبل أرارات والله أعلم.

في سفر التكوين أنّ الله تبارك وتعالى خلق آدم فوجد أنّ المعادلة ناقصة فنسل ضلعاً من ضلوعه ونفخ فيه فكانت حواء وكان الحب هذا الذي حاول أستاذ جامعي طول ربع ساعة أن يشرحه في التلفاز فلم يوفق مع أنه بسيط جداً خطير جداً لأنه الحب – مرض لذيذ ولذّته لا توصف ولا تشرح (بتسأليني أحبك ليه؟ سؤال غريب ما جاوبش عليه) غنى عبد المطلب في مصر، فحارت الدنيا بروعة

السؤال، وروعة الجواب، فقد لخص في بيت من الشعر ما تعجز عنه كتب أو كتاب واحد مثل: (الأغاني لأبي فرج الاصفهاني) ويعجز الفيلسوف الماجن أبو نواس الذي منعه الخليفة المأمون من تناول الخمرة فقال (إنّ حظّي منها إذا هي دارت، أن أراها وأن اشم النسيم) وأضاف (كأنني معدي يحسن التحكيما).

وقصة التحكيم مشهورة في تاريخنا لعب فيها عمرو بن العاص دوراً خبيثاً جداً، لأنه تلميذ معاوية بن أبي سفيان، وقد سأله معاوية يوماً:

- ما مبلغ دهائك يا عمرو؟

أجاب هذا:

- ما دخلت، يا أمير المؤمنين مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه.

ابتسم معاوية وقال:

- ما هكذا يكون الدهاء يا عمرو، الدهاء ألا تدخل مدخلاً تدفع ثمن الخروج منه.

ومتابعة لموضوع الدهاء، وما كان له من أثر عميق عند أسلافنا العرب وما له من أثر كبير في حياتنا السياسية الآن أذكر أن دهاة العرب الأقدمين كانوا ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة.

وقد كتبت في جريدتي (تشرين): إن سياسة بغير دهاء لا سياسة، والدهاء نوعان: جيد يخدم الوطن والشعب وخبيث ضار بالوطن والشعب علينا أن نحذره رصداً ومداولة ونفيد منه في قلبه كسلاح نفسي ضد أعدائنا وضد الضغوطات المتكاثرة علينا والتي تتحطم واحدة بعد أخرى على صخرة موقفنا المبدئي الثابت مع بعض المرونة التي لا بد منها، ففي السياسة ثمة مقولة مفيدة جداً إذا احسنّا الاستفادة منها وهذه المقولة هي: (لا تصلب إلى حد الانقصاف ولا مرونة الى حد فقدان المبادئ) وفي تطبيق هذه المقولة السهلة والمتمنعة قد نقع في خطأ بل أخطاء وهذا طبيعي جداً لاننا نعمل فالذي لا يعمل هو الذي لا يخطئ ونحن نعمل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لذلك قد نقع أحياناً في خطأ ما يحسن بنا أن نتداركه قبل وقوعه فإذا وقع هناك مقولة (تحويل السلب إلى إيجاب) ومن البديهي أننا على علم

بها، فإذا لم نكن على علم بها، أو علم كبير بها، فلا بأس من أخذها في حسابنا والتمرس في معالجتها من كل نواحيها أو أكثر نواحيها على الأقل.

إنني كاتب من نبت أرضنا الطيبة المباركة، وأحمل مسؤولية الكلمة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ومن النافل ضرورة التفريق بين الكاتب وبين السياسي، فالكاتب يستأنف ضد ما هو كائن في سبيل ما سوف يكون، ودوره أن يكون مثل طائر الهدهد، الذي يتقدم الركب، ليدلّ على نبع الماء في الأرض من أعاليه التي يحلق بها في السماء، أما السياسي قائداً كان أو حزبياً، فإنه يمتلك الاستراتيجية ويعتمدها كخطة عمل على المدى البعيد، والاستراتيجية في العمل السياسي اليومي لا غنى لها عن التكتيك والسبب أنّ الاستراتيجية كمبدأ ثابت بينما التكتيك يتغير بين يوم ويوم والسياسي البارع المتمرس هو من يجيد استخدام هذا التكتيك في كل تقلباته واحتمالاته وعلى الكاتب أنْ يضع خبرته – تجربته رؤيته في مساعفة السياسي قائداً وحزبياً وبذلك يكون كطائر الهدهد – الذي يتقدم الركب فالرؤى تتبدل لكن المبدأ ثابت.

قلت آنفاً إنهم سرقوا ذاكرتي لا كليتي والذاكرة بالنسبة للكاتب أهم من الكلية فهذه تعوض بثنائيتها أو بشرائها أما الذاكرة التي عليها ألا تنسى حتى الفاصلة، فإنها ذات خصوصية في الجسد كالقلب –كالشريان الأبهر، كعرقي الرقبة لذلك ينبغي صيانتها – إزكاؤها –شحنها –تدليلها كالأنامل التي تحمل التعلم وعلى القلم أن يكون شريفاً نضراً معافى سليماً من الأذى وثاباً على الأذى دفاعاً عن الوطن والشعب والفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض وأن يترفع عالياً جداً عن المساومة – التسليع – البيع – الشراء. ورحم الله توفيق إبراهيم يزبك –صاحب كتاب (النفط مستعبد الشعوب) الذي قال:

قلمـــــي لا تكـــــن كالغانيــــــات   للــــذي عنـــده الفلـــوس تــــؤاتي

كيف نغيّر العالم.. بأحلام المراهقة

أنا أيضاً كنت في الحالمين، وكان حلمي أن أغير العالم بالكلمة لا بالمقص، باعتباري، آنذاك، حلاقاً على باب ثكنة، زبائني من الجنود الفقراء، الذين يتناسب فقرهم مع فقر دكان الحلاقة، رغم أنني، في نزوة الشباب المبكر، سميت هذا الدكان «صالون الزهور»!.

وفي هذا «الصالون» العاري إلا من مرآة وكرسي الحلاقة البدائيين، كتبت أول «عمل أدبي» على شكل مسرحية أنا بطلها، وهذا البطل «الثوري الفظيع» يغير العالم في ستة أيام، ويستريح في اليوم السابع!

بعد ذلك علمتني سجون الاحتلال الفرنسي لسورية، أن العالم لايتغير بالنيات الحسنة، مصاغة خربشات على الورق، وإن بداية التغيير، عن طريق الكفاح، هو إجلاء المحتل ونيل الاستقلال، وبعد الاستقلال، وفي إطاره، نشدان الغد الأفضل بإزاحة اليوم الأسوأ، المتمثل بالاقطاع الذي يحكمنا نحن عبيد الأرض، وهذه الإزاحة لا تكون، أولا تتم، بمسرحية أو قصة أو قصيدة أو لوحة فنية أو أغنية ثورية، وإنما بالكفاح، والصبر والمصابرة فيه، ودخول «السجون الوطنية» بعد أن تخرجنا من «السجون الأجنبية» ومعنا شهادات «الناس الخطرين» التي تسد في وجوهنا أبواب الرزق.

الآن أنا كاتب بسيط، يؤلف حكايات رائجة، بسبب من أنها مسلية، وأنها فوق ذلك، أو قبله، مضبوطة الإيقاع، حسنة التشويق، لا تحلم بتغيير العالم، لأن هذا ليس دورها، وإنما تطرح القضايا طرحاً صحيحاً، يصوغ وجدانات الذين يعملون لتغيير هذا العالم، عن طريق البذل، والتضحية، ومقاربة النار التي تتفتح أزاهير عذاب على أناملهم.

وهذا الكاتب البسيط، الذي حفظ درسه جيداً، منذ مسرحيته الأولى والأخيرة، أدركه «العقل» منذ أدركته حرفة الأدب، فلم يعد يؤمن، على شدة إيمانه، بأن كلماته ستغير العالم، وهو يستذكر، كشاهد مشفق، كم من كتّاب حسبوا أن كتاباتهم ستغير أشياء الوجود، ولأنها لم تؤد إلى ذلك، أصيبوا بالاحباط فاليأس، وتخلى بعضهم عن الكتابة كلها، ومن هؤلاء الذين صادفتهم في حياتي، كاتب غير مشهور، قال لي في الخمسينيات، حين كنت أعمل صحفياً، «لا تتعب نفسك، لا تنفخ في قربة مثقوبة، فقد كتبت سبع مقالات ثورية، إلا أن «الثورة» التي ابتغيها لم تحدث، فلا فائدة، إذن، من الكتابة، ولم أناقش صاحب هذا القول الادعائي، لأنه كان يتكلم بعصبية بالغة، ووثوق بحقيقته المطلقة، التي يرفض معها أي نقاش، ناهيك بالرأي والرأي الآخر، هذا المعتقد الذي صار يقيناً في وقتنا الراهن، ومن قبل كثرة ممن ينادون بلغة الحوار.

لقد صادفت على مدى خمسين عاماً من دخولي مملكة الأدب، أنماطا وأشكالا من الكتاب والكتبة، الذين يعملون على الأجناس الأدبية كلها، يشكون، بنقيق ضفدعي، من هذه المعضلة التي اسمها تغيير العالم بالكلمة، رافضين، بإصرار، الأخذ بأي رأي، أو أية وجهة نظر، أو أي شرح، يعيدهم إلى سواء السبيل، أو يبعث فيهم الطمأنينة، على أنّ تأثير الكلمة في مضمونها الجيد، هو تأثير قائم وفاعل، وأنّ هذا التأثير، في تشكل الرأي العام، يحتاج إلى عقود طويلة ليزهر ويثمر، وإنه، حتى بعد إزهاره وإثماره، لا يبلغ أن يكون وحده عنصر تغيير، إذا لم يقترن بالتنظيم، وأنَّ التنظيم ليس من شأن الكاتب، بل من شأن السياسي، وكذلك العاملون في حقل السياسة، أو حقل الجمعيات والمنظمات الفكرية والسياسية، وكل زعم آخر باطل، كما هو باطل الظن أن تغيير المجتمعات، والارتقاء بها نحو الأجمل والأعدل، لا يقاس بعمر القلم الرصاصي، الذي قد ينتهي، إذا ما وضع موضع العمل المتواصل، في أسبوع أو شهر، ولا يقاس، أيضا بعمر الإنسان، هذا الذي لا يرى في المجهر، إذا ما قيس بعمر الزمن، وإنّه ليس من الضروري، بالنسبة لمن يعملون لمستقبل مشرق، تتنور فيه

الحرية والعدالة، أن يروا هذا المستقبل وقد تحقق في حياتهم، ففي هذا المبتغى غير قليل من الأنانية، وإنّ الكثير من الاحباطات، وحالات اليأس تالياً، مصدره الإصرار على تحقق أحلامنا في حياتنا، لأننا بذلك نخالف بدهية ذلك المزارع البسيط، الساذج، الذي سئل يوماً: «لمن تزرع وأنت عجوز؟ فأجاب: «زرع الذين قبلنا فأكلنا، ونزرع لمن هم بعدنا فيأكلون».

أنكر أنّه في بداية حرب تشرين ١٩٧٣، أدلى الكاتب المصري المرحوم توفيق الحكيم، بتصريح وهو قابع في برجه العاجي، قال فيه: «المجال، في الحرب، للرصاصة وليس للكلمةّ» متجاهلاً أنّ الكلمة تصوغ وجدان صانع «الرصاصة، ومطلقها، والغاية التي يطلق لأجلها، ودون هذه الصياغة لم يكن اختراع الرصاصة، ولا وجد من يطلقها، ولا تحددت الغاية من إطلاقها: هل هي عدوانية أم ضد العدوان؟ وهل كان اختراع الرصاصة لصالح البشرية أم ضدها؟ وفي أي وضع هي للخير، وأي وضع هي للشر؟ ومتى تكون الكلمة أقوى من الرصاصة وبالعكس؟ وهل الأسبقية، في كل حال، للكلمة أم للرصاصة؟

إنّ الإعلام يبقى ثقافة من الثقافة، وقوام الإعلام هو الكلمة، وبها يتم التوجه إلى الشعوب، وبها، أيضا، يكون التأثير على الشعوب، في مشاعرها وضمائرها، خلال السلم والحرب، فهل نتصور إعلاماً بغير الكلمة؟ وهل ثمة من ينوب عنها في التوصيل بين المؤدي والمتلقي؟ وفي غياب الكلمة، ماذا يفعل صمت الرصاصة أو الصاروخ؟ وفي حال إطلاقهما، لابد من إنسان ينهض بهذه المهمة، وحتى في زمن ثورة المعلوماتية لابد من زر يضغط عليه إنسان، وتتشكل وجدان هذا الإنسان مرجعه أولا وأخيرا، إلى الكلمة، فكيف نيأس من قدرة هذه الكلمة على التغيير، لا بذاتها بل بالآخر المصاغ تفكيره بها؟

إنّما الكلمة، في مجال الإبداع، هي الإبداع، وتتوقف جلوتها على الطلاوة التي تكون لها، وبهذه الطلاوة، أو هذا الرواء، تتألق الحروف التي تكونت منها، إذا ما استخدمت الكلمة، من قبل المبدع، في المكان المناسب، المخصوص لها من

النص، وفي هذا سر، وسحر، الأدب كله، وإلا بطل أن يكون أدباً، وفوق ذلك أن يكون أدباً إبداعياً.

يقول القاص الصديق وليد معماري: «حين جاء (أبونا) ليكرز البيت، رشني وكتابي الذي اقرأ فيه بالماء المقدس، وحين انتبه إلى استغراقي في القراءة توقف وسألني: «آه يا بني لعلك ستصبح كاتباً؟» فأجبته: «نعم يا أبانا، ألا يقول الكتاب: في البدء كانت الكلمة» جمد أبونا بالرد الذي فاجأه.. ثم عاد ليرشني بالماء المقدس.. ربما ليطرد عني الأرواح الشريرة.. بينما تابعت أنا محاولاتي لتغيير العالم بالكلمة».

نعم! تغيير العالم يكون بالكلمة، بما هي صياغة وجدان المغيرين، وليس بالماء.. حتى لو كان مقدساً بصلاة أبينا!



روايـة «الياطر».. وجنون القراء بها!

لقد مضت سنوات ولم أذهب إلى اللاذقية، مع أن فيها «أمي الصغيرة قدسية مينه» التي لها عليَّ أفضال لا تنسى، وقد أهديتها إحدى رواياتي، عرفاناً بالجميل، وكتبت، عن زكريا المرسنلي، وشكيبة الراعية التركمانية، إحدى أحب الروايات، وهي «الياطر»، أي مرساة المركب، التي جن بها الناس، وطبعت حتى الآن، عشرين طبعة ونيفا، وغطت على روايتي «الشراع والعاصفة»، مع أنها أي «الياطر»، هي الجزء الأول، الذي ينتظر القراء جزأها الثاني منذ أربعين عاماً، دون جدوى، ودون أن أقبل، من إحدى الأميرات، «شيكاً» مفتوحاً على بياض، مقابل كتابة الجزء الثاني، الذي وعدت بكتابته القراء وأخلفت بوعدي، لأنني مزاجيّ إلى حدِّ اللعنة، ومجنون في الحياة كما في الكتابة!

قلت إنني، في الصيف، أهرب من دمشق، وكان هروبي، منذ سنوات، إلى فندق «سفير معلولا» الذي عشت فيه أياماً سعيدة، هادئة، هانئة، إلى أن اكتشف الأحباء مكان وجودي، ولاحقني الصحفيون، من دمشق وبيروت ومصر، ملاحقة ملحاحاً، وجاءني وفد كريم من مشتى الحلو، واتصل بي الأصدقاء في الصقيلبية، وفي مطعم «الخيمة» حيث أم الياس و«الكبة النية» من يدها لا أشهى ولا أطيب، وحيث أبناؤها الشباب من أعز قرائي، ومطعمهم مقصد الناس، من سورية والبلاد العربية وحتى الأجنبية اكتشفوني أيضاً، فلم أجد بداً من الهرب، ثانية، إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، فاخترت نادي الرماية في السويداء، الذي أعرفه منذ سنوات طوال، وأعرف الصديقة

العزيزة سناء، معرفة حميمية، وهي التي تدير النادي إدارة ناجحة، وعلى كتفيها كل المسؤوليات، من صغيرها إلى كبيرها أيضاً!

كانت هذه، تماماً، المرة الرابعة التي أقصد فيها نادي الرماية في السويداء، خلال الصيف الماضي، وكانت الغرفة رقم ٥، هي غرفتي المفضلة، وفيها وضعت حقيبتي بانتظار أن تفتحها سناء، كما هي العادة، وتوضب ما فيها، بعناية تامة، في الخزانة ذات الباب الواحد، بعد أن تفرز، بدقة، هذا القميص، أو هذا الجاكيت، أو تلك الكنزة قائلة:

هذه كلها للتنظيف والكوي، حتى تصبح لائقة بك، أنت الكاتب المشهور، الذي لا أعرف، كما قلت مراراً، ماذا يكتب، وبماذا ينتفع بكتابته، وهل هو مشهور حقاً، أم أن المسألة غباء القراء أمثالي!؟

قلت المسألة، يا سناء، لها علاقة بالفهلوية، وليس بغباء القراء، وأنت خصوصاً، لأنني لا أغش في اللعب، وعندما يكون الورق قوياً، اضرب ضربة الصولد، أي بكل الرصيد الذي أمامي.. فهمتِ؟

لم افهم!

وهذا أفضل يا سناء العزيزة!

لم أفهم تماماً، لكنني أسمع بلعبة البوكر، وأراها في الأفلام المصرية.. هنا لا بوكر ولا غيره.. أعراس، وطبول وزمور، ورقص، ودبكة، وهذا كل شيء.. لماذا تذهب وتأتي كثيراً هذه الأيام!؟

لأجلك يا سناء!

نظرت إلي سناء باسمة وقالت:

أعرف أنك تضحك علي، ولكن، صدقني، أحب هذا النوع من الضحك، ثم من يدري!؟ تمهل حتى أضع هذه الثياب في غرفة الغسيل، وأجلب لك القهوة التي أحضّرها بنفسي.. وبعد ذلك نتكلم على رواق، وبصراحة كما عودتني.

جاءت، بعد قليل، بركوة القهوة، وفنجانين، وثلاث كؤوس، ودخل النادل وراءها حاملاً طاولة عليها غطاء مزهر، نظيف ومكوي، وهي الطاولة

نفسها التي أرتاح بالكتابة عليها، بينما أنا منصرف إلى مزج شراب التفاح الذي تؤثره، بقليل من الثلج، في قدحين مخصصين لمثل هذا الشراب.. وبعد النخبين المتبادلين سألتني:

خير إن شاء الله.. ما سبب هذه العودة غير المتوقعة؟

وقلت وأنا أختبئ وراء أصبعي، لأني من وطن عربي، بإمكان أي عنصر فيه أن يدخلني السجن، فلا أخرج منه إلا حين تتذكرني الآلهة! وكي أمازح مضيفتي قلت:

الشوق يا سناء!

وبعده؟

الوداع! ألا تقرئين جريدة «سوء المصير»؟ نعم!.. إذاً قرأت مقالي «خذوني إلى السجن.. أرجوكم!» وفي هذا المقال أكدت أن الوطن العربي الكبير، سجن كبير، وأنا أفضل السجن الصغير في بلدي، ما رأيك؟

رأيي أن مقالك ملغوم.. اسألني لماذا؟ لأنهم، إذا كنت مشهوراً كما أسمع عنك، وحتى منك أيضاً، لا يتجاسرون على أخذك للسجن.. وعلى كل حال، ومن باب الاحتياط، هربك إلى هنا كان في محله، فأنا بالنسبة إليك الحارسة والسجانة، وماذا تريد أكثر!؟ أنا يا عزيزي الكاتب المشهور، آنسة لا أزال، وهذا من سوء الحظ، لكنني من النشامى، ودمهم يجري في عروقي، فلا تخف، وسلفاً أقول لك أنت غير خائف، أنت هارب من بلاوي الناس، وأذكر أنك قلت لي، في الزيارة السابقة: «أنا في جهنم يا سناء، الشهرة جهنم يا عزيزتي.. أم أنك كنت تكذب! لا أنت لا تكذب، لأن الكذب رأس المعاصي كما قلت لي.. أنت ببساطة، تريد الراحة دون أن تدفع الثمن، وهذا محال.. شراب التفاح هذا جيد، من أي معصرة اشتريته؟

من معصرة الوهم!

وهذه هي الحقيقة، يا صديقي الهارب من جهنم إلى جهنم من دون أن يدري!

المغامرة

مع سمك القرش! في أيلول عام ١٩٦٧، عدت إلى دمشق بعد غياب استمر زهاء عشر سنوات، وهجرة بلغت فيها، لا أقصى خراسان، بل أقصى الصين. ولم يكن ترحالي في طلب العلم، وإنما في طلب الخبز.

وقد قيض لي، خلال هذه الهجرة، أن أعرف كثيراً من ألوان البطالة، وألوان العمل، وأن أسبح في مياه اليانغتسي (النهر الأخضر) في الصين، ومياه المحيط الهادئ على شواطئها، وأن أنخل الرمل، مع نخل الأفكار، في لعبة عبثية، قامت بها أصابعي ودماغي معاً!

كنت لا أجرؤ على النظر إلى وراء، فالمسافات التي قطعتها حتى بلغت الصين، بدت لي، تلك الأيام، أطول مسافة يمكن أن يقطعها إنسان، حاملاً وطنه على ظهره، وفي زوادته الحنين إلى دمشق، والغوطة، وغابات وشواطئ اللاذقية، وكل الأهل والزوج والولد والأصحاب الذين تركتهم ورائي.

وكان السؤال الذي أشربه صباحاً مع فنجان القهوة، ومساء مع كأس الشاي: تراني أعود بعد هذه الغربة؟ ولم يكن ثمة جواب، ولم يكن هناك ملل في طلبه، وهكذا تعاركت والصبر، أغلبه تارة، ويغلبني طوراً، وفي كل ليلة كانت تقبع، على مكتبي، ورقة بيضاء، ولم أستطع أبداً، خلال أعوامي كلها، أن أسود تلك الورقة، حتى صار بي كره للورق الأبيض، كما يكره، المحكوم بالإعدام، الحبل إذا تراءى له من خلال النافذة.

لم تكن تنقصني الأفكار، الأحداث، الصور، الذكريات، وكان لدي، ومن حولي، في المدينة الصغيرة التي أعيش فيها قرب العاصمة بكين، والمخصصة

للأجانب، أنماط من الناس، وأنواع من المفارقات، وغزارة من القصص، تكفي لكتابة مجلدات، ومع ذلك لم أكتب شيئاً!

ومن الغريب أنني، حتى الآن، وعلى كثرة ما كتبت، لم أقارب أيام الغربة كمنكرات، كأنما أخشى أن أنكأ الجراح التي ولدتها الغربة الطويلة، والوقائع المتعارضة، في الجسم، والروح، والقلب، والجوارح كلها.

وسيكون عجيباً، بالنسبة لكاتب تغرب، تشرد، جاع، عطش، نام كيفما اتفق، عاش حالة المصادفات، وتحصلت له من كل ذلك مادة كتابية ضخمة، متعددة، متنوعة، غنية، ثم هو لا يتناولها، لا يدانيها، لا يلامسها، وكلما ساءلته نفسه: متى؟ قال: غداً، أو بعد غد، وهذا الغد لا يأتي، وقد لا يأتي أبداً!

قيل لمكسيم غوركي يوماً: كم لديك من رحلات، ومن مشاهد، وتجارب، وخبرات، وكم أنت غني بمعاناتك الشديدة، التي تستطيع أن تكتب منها قصصاً وروايات لانهاية لها. وكان رد غوركي: هذا هو بالذات، أي كثرة التجارب، ما يزعجني، لأنني أحار في أيها أبدأ، وأيها أنتقي، لأن كثرتها، تفرض علي، أحياناً، أن أتناول أكثر مما ينبغي، وهذا ما يفسد العمل.

ربما كثرة تجاربي، أنا أيضاً، هي التي أفسدت عليَّ بعض حياتي، وبعض كتابتي، لكن تجربة واحدة منها، فريدة، هي التي استولت علي، واستبدت بي، وأخضعتني بعد تمرد، تلك هي التجربة العريضة في الطفولة، واليفاعة، والشباب، والكهولة، قصدت تجربة البحر، وقد عالجتها، في أكثر ما كتبت من قصص وروايات ومقالات، ولم أزل، كما قلت، من كتاب البحر في المقدمة، وكما حدث معي في ثلاثية البحر، حين قلت إنني فرغت من الزرقة واللجة، فإذا أنا أجد تجربة البحر تقرع بابي، وتوقظني من نومي، وتأخذ علي طريقي، وأحياناً تترأف بي، وتمسح على جراحي، وتداريني، وأداريها، كالهموم التي تحدث عنها شعراً بدوي الجبل، أو كالغابة التي ناجاها، وناجته، زكريا المرسنلي في رواية «الياطر».

ماأريده، من وراء هذا القول، أن أذكر حادثتين عن البحر، لاتزال تجربتهما تجيش في نفسي، وتضطرب في صدري، وينازعني الشوق إلى ترك كل شيء،

والكتابة عن كلتا الحادثتين البحريتين: الأولى وقعت في الصين، وفي مصيف بيتاخد تحديداً، حيث كنت أصطاف على شاطئ الباسفيكي، وأسبح في مياهه الملأى بأسماك القرش.

أنا لا أدعي الجسارة، أو حب المغامرة، ولم تكن بي رغبة مرذولة في الانتحار، كل ما في الأمر أن البحر يناديني، وأنني ألبي النداء، ففي صبيحة يوم عاصف، ماطر، جهم من أيام آب، شهر العواصف والأمطار في الصين، ارتديت ثياب السباحة، والقيت بمنشفتي على كتفي، وتوجهت في الضحى إلى الشاطئ، حيث المسبح البحري، المحوط بشباك حديدية عالية، منعاً للقروش من التسرب إلى حوض المسبح، وعلى السابحين والسابحات أن يبقوا في حرم هذه الشباك، وألا يخرجوا من البحر.

كنا، جميعاً، نتقيد بالتعليمات، وكنت أسبح، أغطس كثيراً، باذلاً جهداً فوق طاقتي كي أنسى، إذا ما خرجت إلى الشاطئ، واستلقيت على الرمل، بعض أفكاري. هكذا استطيع القول، إن البحر، تلك الأيام، كان دواء بالنسبة لي، كان نوعاً من المهدئات التي أتناولها، الآن، بكثرة ولا فخر، كي أستطيع العيش والاستمرار في الكتابة.

وفي ذلك اليوم العاصف، منع الناس من النزول إلى البحر، لأن المسبح مقفل، بسبب الأمواج المرتفعة، التي تقفز فوق الشبك الحديدي، ويمكن لسمك القرش أن يثب في مطاويها، وقد سبق أن جرى مثل هذا، وذهب رجل أجنبي يعمل في الصين ضحية عناده.

ماذا أفعل إذاً؟ قلت في نفسي، وطوال ساعات ما قبل الظهر، بقيت واقفاً، أو جالساً على الشاطئ، أرقب العاصفة، والأمواج العالية، بانتظار أن تهدأ، وأن يسمح لي بالنزول إلى الماء. لكن المترجم أبلغني ألا فائدة من الانتظار، فبعد هدوء العاصفة، سيقوم المختصون بتفجير الديناميت في المسبح، كي يقضوا على أية سمكة قرش تكون قد تسربت إليه.

كان وقع هذا الخبر مزعجاً لي، فقد كان والدي رخواً أمام المرأة، وأنا رخو أمام البحر، وكما كان يعجز عن مقاومة السكر، كنت أعجز عن مقاومة إغراء الغوص في الماء، إضافة إلى أنني بحاجة، في يومي ذاك، إلى دوائي المهدئ، الذي دون تناوله في جرعات من السباحة العنيفة لا سبيل إلى النوم.

أخيراً قررت أن أخالف التعليمات، فألقيت بمنشفتي بعيداً، وركضت، مثل زوربا، إلى البحر، مندفعاً إلى الأمواج، غاطساً في ثناياها، سابحاً إلى أبعد مسافة ممكنة، وفوراً بدأت صافرات الحرس، وتلويحات المنقذين أن أرجع، ولما عاندت نزل قارب لإرجاعي فصدته الأمواج، ولأنني أجنبي، فقد أبلغت قيادة المصيف بالخبر، وهكذا أثرت ضجة بسبب رعونتي، وصدر الأمر بإنزال زورق بخاري، فيه بعض المنقذين، مدوا أيديهم إلي، رفعوني إلى الزورق، وكفوني بالقوة في قاعه، وعادوا بي محروساً إلى الفندق، لكنني لم أرعو، فعدت إلى البحر، وعادوا إلى إبعادي عنه بالقوة!

(الحادثة البحرية الثانية تلي)

سهرة.. مع العاصفة!

الحادثة البحرية الثانية، جرت معي في مدينتي اللاذقية، بعد عودتي من الغربة، وطوافي، طوال شهور، على نحو ما ذكرت في «هواجس في التجربة الروائية»،.

في شوارع المدينة أذرعها بغير أمل، بعد أن عدت من دمشق، التي ذرعت شوارعها، هي الأخرى، بلا أمل، فأبواب العمل انسدت، في وجهي، في المدينتين، ولم أتمكن، أنا صاحب العائلة، أن أجد ملاذاً سوى في التسكع، يدي في جيب بنطالي، وفمي يصفر لحناً حزيناً، ينسجم مع نفسيتي التي استبدت بها الكآبة لسببين: الغربة التي أحسستها في الوطن، والبطالة التي عرفتها فيه. كان هناك صاحب مقهى يدعى الحاج خليل، تربطني به صحبة قديمة، نشأت في السجن، إثر مظاهرة اشتركنا فيها ضد الاحتلال الفرنسي، نطالبه فيها بالجلاء والجيش، خلال الحرب العالمية الثانية، وما كنت أحسب، أو أفهم، في تلك الأيام، أنَّ صحبة السجن، التي طالت عليها الأعوام، ستكون حية في ذاتها، تعيش في ذاكرة صاحبها، وتعبر عن نفسها بهذا الترحاب الذي استقبلني به، هو الذي هاجر، مثلي، وعاد يستقر في اللاذقية، ويفتح فيها مقهىً يطل على البحر، نوافذه مشرعة عليه، وزرقة الماء، تتدافع مع موج يتكسر على الشاطئ الصخري، تحت تلك النوافذ، ثم ينداح على الرمال.

المهم أنّ الحاج خليل، الذي يهوى جيرة البحر مثلي، كان قد حول مقهاه إلى متحف بحري، وهذا ما زاد في إغرائي بالتردد عليه، وفي شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٨، حدثت سلسلة من العواصف العادية، التي

شهدناها معاً، وتحدثنا حولها طويلاً، مستعيدين ذكريات إبحارنا على مراكب الغربة، وما صادفنا، خلال سفرنا في البحر، من عواصف وأعاصير.

وجاء يوم الجمعة ١٩٦٨/١/١٢، وكنت في المقهى قبل الظهر، فرأينا، معاً، جهمة الجو، وبوادر عاصفة شديدة مقبلة، لكننا، مع ملاحظة ذلك، لم نكن نتوقع أن تكون العاصفة هوجاء، عاتية، على النحو الذي كانت عليه ذلك المساء.

بدأت الريح تعصف منذ المغيب، وراحت سرعة الرياح تشتد، فاضطررنا إلى اتخاذ بعض الاحتياطات في المقهى، كيلا تخلع الريح النوافذ والأبواب.. ولم يكن عنده، ذلك المساء، أحد من الزبائن، فالجميع غادروا الشاطئ، الذي أصبح مقفراً، هائجاً، من فوقه سماء مربدة الصفحة، حتى إنني، إلى اليوم، لا أعرف النداء الخفي، الآسر، الذي دعاني إلى الخروج في ليلة ليلاء كهذه، بهياجها، وظلمتها، ومطرها، وريحها التي اقتلعت الأشجار من جذورها!

ويبدو أن الشوق إلى العاصفة، الذي استبد بي، وأطلقني باتجاه الشاطئ، قد استبد ببحارة آخرين، وهكذا اجتمعنا ستة بحارة، في مقهى الحاج خليل، نعيش العاصفة بمشاعرنا، ووجداناتنا جميعاً، ونرقب المشهد المجنون للطبيعة، من وراء زجاج النوافذ، أو عند الخروج من المقهى، لتأدية المهمة التي كلفنا بها صاحبه، حوالى منتصف الليل، والعاصفة تزمجر من حولنا.

كان دورنا أن نقوم بما يطلبه منا، ودوره أن يسقينا مجاناً، مادامت العاصفة قائمة، ونحن شبه محصورين في المقهى. وكانت العاصفة المروعة، الرئيسية قد بدأت حوالى الساعة الثامنة ليلاً، وهي عاصفة فجائية، هوجاء، غير عادية بكل المقاييس، مزقت الأشرعة، وقطعت الحبال، وحطمت الصواري في المراكب، وأدت إلى جنوح بعضها، وبعض السفن الراسية في حرم المرفأ معها، فكانت هولة لم يسبق لي أن قرأت، أو عشت، مثلها.

كانت الريح تدوي، في صفير حاد، زاعق، مرعب، ونحن نشاهد المراكب والسفن، في ارتطامها على الصخور، وعلى حاجز المكسر

الحجري، وتفككها، وخروج البضائع منها، في صناديق خشبية، يحملها الموج باتجاه الشاطئ، ودورنا، نحن البحارة ومعنا الحاج خليل، النزول إلى الماء، وسحب الصناديق، والبراميل، واللاطات الخشبية، ورفعها، عبر طريق ضيق، صاعدين بها إلى مستودع المقهى، ثم العودة من جديد، للسحب والرفع من جديد، والحاج خليل، البحار مثلنا، ينخينا، يسقينا، يحيينا بقوله «لنهجم، على هذه النعمة، يا إخوتي، التي ساقتها إلينا العاصفة، ومتى انتهت ستكون لكم مكافآت مجزية!».

إلا أن العاصفة لم تنته، من الثامنة ليلاً، إلى ظهر اليوم التالي، فهي، من ناحية الأرصاد الجوية، عاصفة لم يشهدها البحر في اللاذقية، عمره كله. فقد رافقها مطر غزير، وأمواج جبالية، لم يعرف لها مثيل، وقد قاوم مكسر المرفأ الرئيسي مدة ١٢ ساعة، ثم حدثت فيه ثغرة، وبدأت، من هذه الثغرة، الكارثة، فدمرت الريح التي بلغت سرعتها ١٣٠ كيلومتراً في الساعة، وتكسرت، لشدتها، أبواب مستودعات المرفأ الأمامية، واجتاحت الأمواج المقاهي الواقعة على الشاطئ، ودمرتها بكل ما فيها، وأصيبت حتى مراكب الصيد المرفوعة على اليابسة، ووصل الموج، في جزيرة أرواد، إلى المقبرة الأثرية، وحطم منازل عمرها مئة عام، وبلغت سرعة الرياح في طرطوس نسبة أعلى، وزاد في الطين بلة أن العاصفة حدثت في منتصف الشهر القمري، في موعد المد الأعظم، وشاهد المرشدون البحريون، في اللاذقية، كتلة حجرية تزن عشرة أطنان، تقذفها الريح والأمواج من خارج المكسر إلى داخله، فوق ترويسة المكسر الخرسانية التي ترتفع خمسة أمتار عن مستوى مياه البحر.

وقد ترددت أصداء هذه العاصفة في الصحف والإذاعات، وكتبت جريدة لاذقانية، في تلك الأيام حول الأضرار المادية التي خلفتها العاصفة تقول: إضافة إلى غرق، وجنوح، عدة مراكب وسفن شحن، فقد لحقت أضرار جسيمة في منشآت المرفأ وتجهيزاته، وكانت أضخم تلك الأضرار في المكسر

الرئيسي للمرفأ، حيث انهار القسم العلوي منه بطول يتراوح بين مئة ومئتي متر، ونُزع الفنار من مكانه على رأس المكسر وأغرقته الأمواج، وحدثت فجوات وانخسافات متفرقة، في أرض أحد أرصفة الميناء، وأصيبت الروافع الضخمة على الأرصفة، وتلفت واقيات الرصيف بكاملها، وتكسرت أبواب المستودعات وتقطعت أسلاك الكهرباء والهاتف، ونزع جزء من سقف أحد المستودعات، ونزعت، أيضاً، بعض ألواح الألمنيوم في البراد الكبير للمرفأ، وهناك أضرار كبيرة متفرقة.

الوحيد الذي لم يصبه أذى، كان مقهى الحاج خليل، لأنه يقع على مرتفع يطل على المرفأ، وقد غنم صاحبه، بما قمنا به نحن البحارة من عمل، مغنماً كبيراً، لم يسأله عنه أحد، باعتبار أن البحر أخذ والبحر أعطى، فليكن اسم البحر مباركاً!



كنت في الرياض، ولم أكن فيها!

كنت في الرياض وأجهل كيف هي الرياض، تأملوا!!

المناسبة مهرجان الجنادرية وفي الفندق الذي نزلت فيه، تبارى الشعر مع المرض، وانتصر، لسوء الحظ، المرض، فعدت إلى دمشق سريعاً لأدخل المستشفى الفرنسي، وكل زادي ما تبقى من شعر الصديقين العزيزين: عبد الرحمن الأبنودي، وحسين حمزي، موشاة بزهر سريرتي، لا في ذاكرتي التي هي غربال!

الأسف لا يصنع إبداعاً، ولا يطعم خبزاً، لذلك أجافيه، لا أتعامل معه، غير أنني، في زيارتي القصيرة للرياض، أسفت لأن الحظ لم يسعف في التعرف على بعض من أرغب: دار اليمامة ورؤية أستاذي وصديقي الكاتب الكبير الأستاذ تركي السديري، رئيس تحرير جريدة (الرياض) الغراء.

لقد قلت، سابقاً، أنا لا أملك يداً سحرية تقطف النجوم، وأصابعي التي هي أغصان شجرة مرجانية، منسية في قاع البحر الأحمر، لا تورق كزهور الثلج، وأضيف اليوم: أن حروفي منذورة لدمي الذي نزف في مواقع خطواتي على درب الشقاء الطويل! نعم! درب الشقاء الطويل، الذي أباركه لأنه صاغني، من حبة رمل على شاطئ مهجور، إلى حجر منمنم، أو إلى حصاة مدورة، لكثرة ما تأنق الموج في تقبيلها، ليجعل منها حصاة متشكلة بريشة فنان، أو مستثيرة بمفردة شاعر، أو، ربما، مصوغة، بإزميل نحات ماهر.

هكذا كتب عليَّ أن أشقى، وما همُّ، الشقاء هو الذي صقل يراعتي، وماكنت، في أيما يوم من يفاعتي، أحلم بأن تكون لي يراعة، وتالياً كلمة مكتوبة، لأنني

بالخطأ ولدت، وبالخطأ نشأت وبالخطأ كتبت أيضاً، ومن يدري، فقد أموت بالخطأ أيضاً، وعندئذ تنغلق الدائرة السعيدة، شرط ألا يتأخر انغلاقها، فأمسي في التعساء، سأماً من حياة عشقتها ولمّا أزل.

لقد باركت، عمري كله، أصابع اليد، فهي الإبداع في كلِّ ألوانه، ولئن عجزت أصابعي أن تقطف النجوم، فإنها خطت الحروف، والحرف، في دلالته البهية، هو الذي أعطى النجمة بهاءها إذا غصن المرجان أورق وأثمر، ولما لم تكن لي حبيبة أهديها نجماً، أو أقدم لها غصن مرجان عند جني الثمر، فقد أضعت عمري، واختل توازني النفسي، ولم أجد سبيلاً إلى خلاص روحي المجرحة بالألم، إلا بخربشة الحكايات على الورق، ولعلكم، أو بعضكم على الأقل، قرأ، مشكوراً، بعض حكاياتي، أو بعض قصصي، وهذا حسبي، فأنا قاص، وروائي، إذا ما كان زعمي، وزعمكم أيضاً، صحيحاً في هذه التسمية، أما التنظير للقصة أو الرواية، فليس لي فيه شبر أو فتر، وإنما رأيٌ يُرى وإلا لماذا أكتب؟ ولماذا أتكلم وقد كنت أرغب في الصمت!؟ ولماذا أقتنص حق غيري في الحديث على الرواية العربية وفن القص بين التراث والحداثة؟

رأيي، في هذا المجال، بسيط جداً، مختصر جداً، ففن القص هو ابن زمانه، أو ابن تاريخه الاجتماعي، والتاريخ عصور، ولكل عصر فنه في هذا المجال، وهذا هو التحديث، المستند إلى التراث، أو إلى الموروث الشعبي. لقد أخذنا الكثير من هذا التراث، وهذا الموروث، وأعطينا ما أخذنا بشكل آخر، في الرواية والقصة والمسرح والسينما والتلفزة. أخذناه خامة، أو نطفة، أو ملاحظة، أو حكاية، وسبكنا، كل ذلك، سبكاً جديداً، حديثاً، له من مرحلته التاريخية طابع الحداثة، وحسناً فعلنا، لأن غيرنا، في العالم، صنع نفس صنيعنا، فكانت حداثته غير منبتة الجذور عن تراثه، موروثه، بيئته، تاريخه، لذلك أسمح لنفسي بالقول: إننا في الموقع الصح.

إنَّ كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وبخلاء الجاحظ، وغيرها وغيرها، قد أثرت إبداعنا، بما تناولناه منها، وأخرجناه مخرجاً فنياً، يلائم زمننا، وهذا، في المآل، هو التحديث والحداثة. والشأن ذاته مع الموروث الشعبي، فقد أفدت أنا

نفسي، الكثير من هذا الموروث، واتكأت عليه، سواء في قصص والدي، الذي منه تعلمت القص، أو من حكايات عمال المرفأ، حين كنت حمالاً في المرفأ، أو حكايات البحارة حين كنت، في يفاعتي، بحاراً على المراكب الشراعية، أو من السجناء، حين كنت، زمن الانتداب الفرنسي، وبعده أيضاً، أدخل السجن لأخرج منه، ثم أعود إليه، مكافحاً في سبيل التحرر والحرية والعدالة الاجتماعية، وهذا واضح في أعمالي الأدبية كلها، أو أكثرها على الأقل.

سؤال أخير: هل قلت جديداً؟ لا! وعن قناعة تامة، فأنا لا أحب التواضع والغرور كليهما وقد فكرت ملياً في عنوان هذه المقالة، ورأيت فيه، بعد شيء من التكفير، هذا الذي قرأتموه ولا زيادة لدي، فاعذروني، والعذر من بعض الشيم.

الرياض خضراء يقال؟ أعترف. الرياض خضراء بكل معاني الخضرة، وبعض هذا الاخضرار في قلوبكم الكريمة، فيئاً كان، وفيئاً يبقى، ويداً للثقافة والحضارة، تبسط ولا تقبض، فالشكر وللرياض على هذا الفيء الثقافي الذي به نستظل، مادامت الثقافة، في هذا الزمن، هي المعول عليها، بعد أن فقد الخطاب السياسي صدقيته، وتقدمت الثقافة إلى مركز الصدارة، وصارت الجنادرية ومهرجانها على هذا القدر من العطاء والبهاء.

أصابع اليد والإبداع

قلت، سابقاً، أنا لا املك يداً سحرية تقطف النجوم، وأصابعي التي هي أغصان شجرة مرجانية، منسية في قاع البحر الأحمر، لا تورق كزهور الثلج، وأضيف، اليوم، إن حروفي منذورة لدمي الذي نزف في مواقع خطواتي على درب الشقاء الطويل! نعم!.

درب الشقاء الطويل، الذي أُباركه لأنه صاغني، من حبة رمل على شاطئ مهجور، إلى حجر منمنم، أو إلى حصاة مدورة، لكثرة ما تأنق الموج في تقبيلها، ليجعل منها حصاة متشكلة بريشة فنان، أو مستنيرة بمفردة شاعر، أو، ربما، مصاغة بإزميل نحات ماهر.

هكذا كتب عليّ أن أشقى، وما همّ، الشقاء هو الذي صقل يراعتي، وما كنت، في إيّما يوم من يفاعتي، أحلم بأن تكون لي يراعة، وتالياً كلمة مكتوبة، لأنني بالخطأ ولدت، وبالخطأ نشأت، وبالخطأ كتبت أيضاً، ومن يدري، فقد أموت بالخطأ أيضاً، وعندئذ تنغلق الدائرة السعيدة، شرط ألاّ يتأخر انغلاقها، فأمسي في التعساء، سأماً من حياة عشقتها ولمّا أزل.

لقد باركت عمري كلّه، أصابع اليد، فهي الإبداع في كلِّ ألوانه، ولئن عجزت أصابعي أن تقطف النجوم، فإنها خطّت الحروف، والحرف، في دلالاته البهية، هو الذي أعطى النجمة بهاءها، إذا غصن المرجان أورق وأثمر، ولمّا لم تكن لي حبيبة أهديها نجماً، أو أقدم لها غصن مرجان عندمي الثمر، فقد أضعت عمري، واختل توازني النفسي، ولم أجد سبيلاً إلى خلاص روحي المجرّحة بالألم، إلا بخربشة الحكايات على الورق، ولعلكم، أو بعضكم على الأقل، قرأ،

مشكوراً، بعض حكاياتي، أو بعض قصصي، وهذا حسبي، فأنا قاصٌّ، وروائيّ، إذا ما كان زعمي، وزعمكم أيضاً، صحيحاً في هذه التسمية، أما التنظير للقصة أو الرواية، فليس لي فيه شبر أو فتر، وإنما رأيٌ يُرى، وإلا لماذا أنا هنا؟ ولماذا أتكلم وقد كنت أرغب في السماع فقط؟ ولماذا أقتنص حق غيري في الحديث على (الرواية العربية وفن القص بين التراث والحداثة)!؟.

رأيي قرائي الكرام، بسيطٌ جداً، مختصر جداً، ففن القص هو ابن زمانه، أو ابن تاريخه الاجتماعي، والتاريخ عصور، ولكل عصر فنه في هذا المجال، وهذا هو التحديث، المستند إلى التراث، أو إلى الموروث الشعبي. لقد أخذنا الكثير من هذا التراث، وهذا الموروث، وأعطينا ما أخذنا بشكل آخر، في الرواية والقصة والمسرح والسينما والتلفزة. أخذناه خامة، أو نطفة، أو ملاحظة، أو حكاية، وسبكنا، كل ذلك، سبكاً جديداً، حديثاً، له من مرحلته التاريخية طابع الحداثة، وحسناً فعلنا، لأن غيرنا، في العالم، صنع نفس صنيعنا، فكانت حداثته غير منبتة الجذور عن تراثه، موروثه، بيئته، تاريخه، لذلك أسمح لنفسي بالقول: إننا في الموقع الصح.

إن كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وبخلاء الجاحظ، وغيرها وغيرها، قد أثرت إبداعنا، بما تناولناه منها، وأخرجناه مخرجاً فنياً، يلائم زمننا، وهذا، في المآل، هو التحديث والحداثة. والشأن ذاته مع الموروث الشعبي، فقد أفدت، أنا نفسي، الكثير من هذا الموروث، واتكأت عليه، سواء في قصص والدي الذي منه تعلمت القص، أو من حكايات عمال المرفأ، حين كنت حمالاً في المرفأ، أو حكايات البحارة حين كنت، في يفاعتي، بحاراً على المراكب الشراعية، أو من السجناء حين كنت، زمن الانتداب الفرنسي، وبعده ايضاً، أدخل السجن لأخرج منه، ثم أعود إليه، مكافحاً في سبيل التحرر والحرية والعدالة الاجتماعية، وهذا واضح في أعمالي الأدبية كلها، أو أكثرها على الأقل.

سؤال أخير: هل قلت جديداً؟ لا! وعن قناعة تامة، فأنا لا أحب التواضع والغرور كليهما، وقد فكرت ملياً في عنوان الندوة، ورأيت فيه، بعد

شيء من التفكير، هذا الذي سمعتموه، ولا زيادة لدي، فاعذروني، والعذر من بعض الشيم.

تونس الخضراء يقال، أعترف.. تونسكم خضراء بكل معاني الخضرة، وبعض هذا الاخضرار في قلوبكم الكريمة، فيئاً كان، وفيئاً يبقى، ويداً للثقافة والحضارة، تُبسط ولا تُقبض، فالشكر لكم على هذا الفيء الثقافي الذي به نستظل، ما دامت الثقافة، في هذا الزمن، هي المعوّل عليها، بعد أن فقد الخطاب السياسي صدقيته، وتقدمت الثقافة إلى مركز الصدارة.



هل تعرف دمشق يا سيدي؟

جئت دمشق أبحث عن عمل، في أحد دكاكين الحلاقة، لكن أحداً لم يقبلني عنده، وتعبت من البحث دون جدوى، إلى أن أشار علي صديق أن أعمل في الصحافة، وكان قد قرأ بعض كتاباتي وأنا حلاق في اللاذقية.

ذهبت إلى جريدة «الإنشاء» في بناية القدسي، مقابل البريد المركزي، وقابلت صاحب الجريدة المرحوم وجيه الحفار، فسألني عما أحمل من شهادات، وحين أجبته أنني لا أحمل إلا الشهادة الابتدائية، ابتسم اشفاقاً، فسارعت إلى إخراج قصاصات من ورق الصحف، فيها بعض كتاباتي، وبعد تفكير قال لي: «عليك أن تشتغل ثلاثة أشهر تحت التمرين دون أجر» أجبته: «ومن أين أنام وآكل أنا الغريب عن دمشق؟ قال: «هذا ليس شغلي!»

قبلت العمل مجاناً، ورحت أنام هنا وهناك، وآكل ما تيسر الذي لا يبلغ حد الشبع، وكان رئيسي المباشر في الجريدة، سكرتير التحرير المرحوم أحمد علوش، الإنسان الطيب التقدمي، والذي ذهب إلى صاحب الجريدة، في نهاية الشهر الأول، وقال له: «حنا محرر جيد، ونحن نحتاج إلى مثله» واقترح عليه أن يدفع لي أجراً، فقرر الاستاذ الحفار أن يدفع لي مئة ليرة سورية في الشهر، وهكذا صرت، أنا الحلاق، صحفياً بالمصادفة.

كنت أسكن عند قريبة لي، في حي الحبوبي الرابع، فدفعت لها نصف راتبي أجرة سكن، وعشت بالنصف الباقي عيش تقتير، ورحت أطوف في دمشق ماشياً، قصد التعرف على أحيائها ومعالمها، وأكتب في الجريدة عن مشاهداتي، بأسلوب مقبول نسبياً، دون أن يخطر في بالي أن أكتب رواية عنها، ودون أن تكون كتابة الرواية واردة في حسابي، ووجدت مكتبة قبلت أن تعيرني بعض الكتب بأجر

زهيد، على أن آخذ كتاباً فأقرؤه، ثم أعيده لآخذ غيره، وهكذا التهمت كتبها تدريجياً، دون أن أفعل ما سوف أتعلمه لاحقاً، وهو المطالعة على مكتب، أو حتى طاولة، وإلى جانب الكتاب ورقة أو دفتر، أسجل فيه ملاحظاتي، وإشارات استفهامي حول هذه القضية أو تلك، مع متابعة التطواف في شوارع دمشق، ودروبها، وأزقتها الضيقة، المتعرجة، في أحيائها القديمة.

ولما بدأت كتابة الرواية فعلياً، في الأربعين من عمري، فكرت بكتابة رواية عن دمشق، غير أني وجدت معارفي عنها لا تشكل مادة مطاوعة لذلك، ثم كرت الأيام وأنا أفكر بكتابة هذه الرواية التي لن أكتبها أبداً، والسبب بسيط: هذه الرواية، لو كتبتها، تخصني أنا وحدي، وليس للناس علاقة بها، ففيها جرحي الذي تسببت الظروف، يوم جئتها فقيراً معدماً، في جعله ناغراً إلى أن أندمل، ولا فائدة من الكلام على هذا الفقر الخاص، والذي كتبت عنه كثيراً، وباعدت بيني وبينه الأعوام، إضافة إلى أن التعميم الفني، يقتضي تحويل ما هو خاص، إلى ما هو عام، أي أن ألمي كفرد، ينبغي أن يتناول ألم الناس الذين كانوا في مثل وضعي، وفي هذا إعادة فتح للجراح لا مبرر له، باعتباره يدخل في سيرتي الذاتية، التي بدأت مع ثلاثية «بقايا صور - المستنقع - القطاف» وعلي أن أنتظر إلى أن تتكامل، فتبلغ مرحلة معاناتي القاسية في دمشق، ولئن رحلت قبل الوصول إليها فلن يخسر القراء شيئاً، مادامت حياتي كلها معاناة سوداء، منذ وعيت الوجود إلى أن اقتربت من الثمانين، التي قال عنها زهير بن أبي سلمى بيته الشعري المعروف.

لقد كتبت روايتي «الياطر» (مرساة السفينة) قبل ثلاثين عاماً، وشاء القدر أن تكون أشهر رواياتي، وأن تطبع حتى الآن أكثر من سبع عشرة طبعة، وهي، كما يعرف القراء، الجزء الأول، الذي يتناول حياة زكريا المرسلني، وقتله زخريادس الخمار، وفراره إلى الغابة، والرواية، ككل، تتحدث، أصلاً، عن ابن زكريا، الذي قتل حسن الجربيدي، وتفاصيل هذا الجزء، وهو الثاني، حاضرة في ذهني، ولاأزال احتفظ بمخططها على الورق، بكل دقته وشروحه، إلا أنني، رغم إلحاح القراء، و«دار الآداب» ناشرة كتبي، على إكمال الرواية، فإنني لم أفعل، بسبب من أن اللياقة الجسدية والنفسية، التي كنت عليها، حين كتبت الجزء الأول، الياطر، قد اندثرت،

تآكلت مع الزمن، صارت ورائي، ولو أقدمت على كتابة الجزء الثاني، فلن يكون بقوة الجزء السابق، لذلك أسوّف، وأماطل، وأعتزم، وأرتد عن عزمي خوفاً، مع أن هذا الخوف سيتبدد، أغلب الظن، ما إن أبدأ، إلا أنني لا أبدأ، ومن المرجح أن هذه البداية لن تكون، وأن الجزء الثاني لن يرى النور إلا بمعجزة.

الخوف نفسه يتملكني كلما هممت بوضع رواية عن دمشق، وإني لأتساءل: لماذا هذا الخوف، وقد عشت كل هذا العمر في دمشق، كلما صح عزمي على أن أبدأ؟

ولماذا التردد في كتابة رواية عنها، ما دمت قد اخترقت كتامة مجتمعها، وأصبحت أحد سكانها منذ خمسة وخمسين عاماً!؟ لا جواب، أو إنني أزوغ عن الجواب، لسبب نفسي مجهول، لا أدري لكنه، وحين أدري، إذا كانت ثمة فسحة باقية في العمر، سأفعل، سأكتب رواية هي الآن ملك الزمن الآتي، ملك الأيام الأجمل، التي لم أعشها بعد، حسب ناظم حكمت، وعندئذ سيقرؤني الناس في باطن أشيائي لا ظاهرها، ويعرفون من سيرتي ما يريدون، ويختلفون في هذه السيرة ما يشاؤون، لأنه مكتوب في المزامير أن التي عرفتها كانت جنية القمر، وظلت هناك، متربعة على عرش القمر، وفي الليالي التي يصير فيها بدراً، ستبتسم ابتسامة الجوكاندا للأرض، وتهبط مع شعاعها إليها، وهذا من الجنون، أو من المستحيلات، وهو «وهم هذيت به من بعض أوهامي!» وزال الوهم الآن، ومعه جنون الشباب، عندما صرت، كغيري، عاقلاً في الشيخوخة!

أما دمشق، المدينة الفريدة بين المدن، التي منها كانت حبيبة سليمان، ومنها الطريق المستقيم، والسور الذي قفز منه بولص، وبوابة خالد بن الوليد الشرقية، أما دمشق، هذه اللؤلؤة في تاج الزمن القديم قدم الأرض، ذات البهاء الذي لا يوصف، والأهمية التاريخية النادرة، فإنني كتبت عنها خمسين كلمة، في خمسين سنة، وسأطلعكم عليها!

رواية؟ لا! صورة وصفية، وهذا كل شيء، فالرواية لا تؤاتي، حين نريدها أن تؤاتي، ولا تنقاد لمجرد أننا نحبها أن تنقاد، الرواية مجنونة، كالروائي تماماً!

نعم!.. لا أعرف دمشق!

الرواية، في نظر جان جورج عمل تخييلي نثري، طويل نسبياً يرسم شخصيات معينة في وسط ما، تبدو وكأنها واقعية، وتجعلنا نتعرف على مكانها، وزمانها والعوامل النفسية لأبطالها، ومصائرهم ومغامراتهم، ويقول الدكتور علي نجيب إبراهيم في دراسته عن جماليات الرواية: إنَّ تصوير الحقيقة أسمى القيم الواقعية، فكل شيء يجب أن يكون ملحوظاً بدقة، ليس ظاهرياً فقط، إنما في العمق، بغية كشف القوانين التي ترسم حركته واستمراره.

ولقد سعيت من أجل تصوير الحقيقة، إلى التعرف على دمشق في قاعها المعماري والحياتي، في تشابك بناء أحيائها القديمة، وما تنطوي عليه من أسرار تبوح ولا تبوح، بعد أن كنت، قبل ذلك، قد تعرفت على دمشق الحديثة، في الصالحية والمهاجرين وشارِع أبي رمانة الذي كان في جدته وبهائه، مقصد الزوار والسياح.

ولم تكن غايتي، في معرفة دمشق القديمة، أن أتعرف على شخصيات معينة في وسط ما، كي تبدو وكأنها واقعية في عمل روائي أشتغل عليه، كما يقول جان جورج إنما كنت أرغب في الاطلاع، سواء كتبت عن هذا الذي اطّلعت عليه أم لم أكتب، وقد كان هذا دأبي ولا يزال، فالمهمُّ، كما قال تشيكوف، أن أغني دولاب محفوظاتي، وأن أرى الأشياء بأم عيني.

بدأت أمشي في حي القيمرية، بعد أن اجتزت حي العمارة، ثم مضيت إلى أمام، وسط الأدغال المتشابكة لبيوت من طين ولبنات، يستطيع سكانها أن يتصافحوا من النوافذ، ويتبادلوا الزيارات عبر السطوح، ويسمروا في ليالي

الصيف جلوساً أمام الأبواب، ما دامت الغابة البنائية القديمة قد أهلتهم لكل ذلك، ووفرته لهم توفيراً طبيعياً ملائماً.

وكما يناديني المجهول إلى المضي في عمق غابة ما إلى درجة معانقة نشوة الضياع فيها، ناداني إحساس خفي مبهم، إلى الدوران اللولبي مع الأزقّة الحلزونية، مدفوعاً بسحر دمشق العجوز، مأخوذاً بفرحة طفل، ولذة متشرد حر، أو منقاداً، ببساطة، باللاوعي الذي يحركني في الاتجاه الذي ينفتح للقدمين في هذه المتاهة الحلوة.

كنت، وأنا في غابة البيوت، أستشعر سيري في غابة الأشجار، فالسائر في الغابة يتلقى انعكاسات النظرات السنجابية أو الأفعوانية للعيون التي في الأدغال من حوله.. يستشعر الوحدة والرهبة وهو يعلم أنه ليس وحيداً، وأن ثمة مخلوقات تراه، تراقبه تتبادل معه كل الأسئلة الصامتة، وكلَّ الأحاسيس المتباينة للمودة والعداء، وكل الرغبة لتحقيق تلك الأحاسيس المنطوية على خطر الموت ومتعة اللذة في عملية العنف التي هي بديل وحيد عن رتابة العيش والضجر المتولد منها، وكذلك في عملية طرد الخوف للوصول إلى الطمأنينة، عبر العراك الذي يحقق التلاقي أو الافتراق، في ظرف استثنائي لوجوده في متاهة الغابة.

إنني أعرف الغابات، فقد ولدت فيها حين ولدت في اللاذقية كما أعرف البحر، لأنني جزء منه بالولادة أيضاً، وشرط المكان والزمان وكل العوامل النفسية، الناجمة عن الغابة والبحر، متوفرة لديَّ بحكم اليفاعة التي كانت إلى جوارهما، غير أن الشيطان وحده يعلم مقدار انجذابي إلى المجهول، حيث الضياع ورهبته، وحيث الخروج من هذا الضياع وفرحته، وهذا المجهول وأنا أسير في أزقة دمشق القديمة، ردَّني لا شعورياً إلى الغابة رغم أن لا شبه بين غابة الأشجار وغابة البيوت المتشابكة عبر القناطر، وأن الاحساس في الحالتين لا تجانس فيه فأنا هنا في أمان بينما أنا هناك في خطر وفي رهبة من هذا الخطر.

أغلب الظن، أنّ الفيء، المتولد عن احتجاب الشمس، والنداوة المتولدة عن هذا الاحتجاب، هما اللذان شكلا شعوراً مبهماً في ذاتي، أوحى إليَّ أن

المجهول يترصدني، وأن عليَّ أن أتقدم لاكتشافه، وأن غابة البيوت هي نفس غابة الأشجار، وأن العوالم فيهما متمازجة وردود الأفعال ذات الدبيب النملي ودغدغته واحدة فكما أنه لا يستطيع أي السائر في الغابة أن يحدد الدغل، أو الشجرة أو الأكمة، التي ترسل إليه، وتلتقط منه، تلك الأحاسيس وردود أفعالها، فإن هذا البيت، أو هذه القنطرة، أو هذا الزاروب المسدود، ترسل وتلتقط أحاسيس لها الواقع نفسه ويظل المرء كما في الغابة يراوده سؤال: ماذا وراء هذه الجدران؟ أيَّ عالم؟ أية مخلوقات؟ أي أسرار تكمن هنا؟ لقد عرفنا الجواب، عن كل هذه الأسئلة وغيرها من تجوالنا في غابات كثيرة، وغابات اللاذقية وجبال كسب خصوصاً، كما عرفنا مدناً كثيرة، باحت لنا، على نحو ما، بأسرارها فالرواد الشجعان والأبناء الأشاوس، المتسطلعون لكشف ما هو مجهول، أعطونا، في كتبهم ولوحاتهم ودراساتهم، كشوفات محرضة بقدر ما هي مثيرة، ومنيرة، للجوانب المجهولة في تلك الغابات البِكر، والمدن الكبيرة، في المساحة وعدد السكان، فنحن نعرف أحياء القاهرة القديمة، وخان الخليلي وقصر الشوق والسكرية، وباب زويلة أي أحياء القاهرة القديمة التي لم نزرها ومنها زقاق المدق وشبرا وبولاق وباب الحديد وغيرها مما كتب عنها في القصص والروايات وعرض في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية مثل بوابة الحلواني والقناطر والأزبكية وجاردن سيتي وغيرها، ونعرف الشيء نفسه تقريباً عن بعض أحياء وشوارع ومواقع باريس ولندن وموسكو الخ.. فأين هي المدونات، القلمية واللونية والازميلية التي تحدثت عن دمشق وجعلت القارئ أو المشاهد في بيروت أو القاهرة أو تونس أو الجزائر يعرف القيمرية والعمارة وقبر عاتكة والشاغور والميدان وباب سريجة والحريقة وسوق الحميدية والقلعة الشهيرة؟

شاميات الشاعر الكبير سعيد عقل، التي غنتها وخلدتها فيروز تحكي عن بردى، وقاسيون والغوطة وكذلك قصائد أحمد شوقي وغيره، التي تتحدث عن جلق وثورتها ونضالها، إلا أن دمشق التي أفاض في الكلام عليها أمثال محمد كرد

علي، في دراساته، والشاعر المرحوم نزار قباني في قصائده لم تزل غير معروفة على نطاق واسع في البلاد العربية والعالم من خلال القصص والروايات والأفلام السينمائية، والمسلسلات التلفزيونية، التي تخطت حدود عاصمة الأمويين.

المخرج السينمائي البولوني فايدا، الذي زارنا يوماً فتن بما لدينا من معالم، واستنتج في ملاحظة لا ينقصها الذكاء أن فنوننا المكتوبة عن دمشق، تناولت سطوح الأشياء والناس، ولم تتعمق وجودهم كما ينبغي، ويسألني الناس والقراء هذا السؤال: وأنت، لماذا لم تكتب عن دمشق، وقد عشت فيها أكثر من نصف قرن حتى الآن؟ وفي الجواب أقول: لا أدري!.



أكره المقص والمشط وسمك القرش!

بالشام أهلي، وبغداد الهوى، وأنا ... بالرقمتين، وبالفسطاط اخواني

وما أظن النوى ترضى بما عصفت ... حتى تشافهني أقصى خراسان

في مهرجان أقيم في بيروت، تكريماً لشاعر العراق الكبير، محمد مهدي الجواهري منذ سنوات خلت، وعقب رحيله عن دنيانا، رقص المنبر والشاعر اللبناني سعيد عقل يلقي قصيدته في تأبين الجواهري.. وشاء حظي أنا الناثر الذي يهوى الشعر، ويطرب له في كل حالاته، أن أتكلم بعد سعيد عقل، والذي يتكلم بعد هذا الشاعر المعجزة، صاحب الشآميات التي صدحت بها فيروز، يتهيب الموقف، تأخذه رعشة من شعور بالتقصير، كالتي تأخذ الفارس، في مزدلف الشوط على مضمار السبق، مهما يكن واثقاً من قدرته على المجاراة!

ومع أنني، في النثر المقدس، أتأنق في الكلم، و أصوغه صياغة هي الشعر بشكل آخر، فقد تقدمت من المنبر على هونٍ، مستشعراً الأسى لأن النثر غير الشعر، ولأنني في نثري لن أبلغ قامة الذي سبقني، وأن المنبر الذي خُلِق للشعر أصلاً، لن يكون هو ذاته مع النثر، مهما يكن الإلقاء موفقاً، أو حتى جميلاً، وإن الذين رتبوا أسماء المتكلمين قد ورطوني توريطاً خبيثاً، هو توريط الرواية في مجال الشعر.

لكن سعيد عقل، بعد انفضاض المهرجان، وضع ذراعه في ذراعي ونحن في طريقنا إلى الخروج من القاعة، وقال لي بصوته المتهدج، ذي النبرة المتميزة المتفردة، «الجواهري، يا حنّا، شاعر كبير، ولكن الليلة كرمه شاعر أكبر!»

فابتسمت لهذه العنجهية السعيدية المحببة، وعندما التقيته في اليوم التالي، جبر خاطري قائلاً: «أمس لم أسمعك بسبب وهن في دَينْتي» وعندما قرأت كلمتك اليوم في الصحف، ارتحت لها... أنت ناثر جيد!.

إنَّ حكايتي مع الشعر والمنبر، تشبه، إلى حد ما حكايتي مع البحر واللجّة، فقد كنت، حتى في الكهولة أزعم أنني أنا البحر، ولم يخيب البحر زعمي، كان عنواناً في الوفاء، وكنت عنواناً في المحبة، إلى أن صرت في الشيخوخة، ولم تعد لجته ملعبي، فاقتصرت المودات بيننا على الوقوف على شاطئه، راضياً مرضياً عارفاً أنّه وحده الذي يعطي، ولا يسأل على عطاياه شكراً من أحد، وكذلك يحترم صمتي فلا يسألني لماذا تكره المقص والمشط وسمك القرش! لقد كانت لي، ذات يوم، هذه الأمنية: أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق، وبسبب من خلّبيّة هذه الأمنية فقد أصبحت أرضى بأن أكون إلى جانب البحر في أيّة مدينة، لكنني أنا صاحب الأمنيات الخلبية، أضعت البحر، عندما لاحت لي زرقته، في مناسبة غير متوقعة، من عائلة كريمة، أشهد أن صدقها هو الصدق، وأن رعونتي هي الرعونة، وكيلا يتعب أحد نفسه، أقول صدقاً إن دائي هذا لا شفاء منه، وإنّي اعتدته في السجون والمنافي، وإنني في الغربة الطويلة تذكرت كثيراً قول أبي حيان التوحيدي «فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة!؟.»

إنني لست جامع أوشابٍ على الشاطئ، ولست ممن يضعون أقدامهم في البحر، ويدعون أنهم عرفوا البحر، ولست في الذين يتأنقون في الكلم لوجه السفسطة، بل من الذين يعتصرون الكلمة، يعشقونها، ينادمونها، ينقبون عنها كما يفعل الصيادون في الماء المتجمد، حتى أعثر عليها، لأنه في شرعي أنَّ للمعنى واحد، كلمة واحدة، إذا لم نجدها علينا أن نتوقف عن الكتابة حتى نعثر عليها وفي سبيل العثور عليها قضيت ليلة كاملة، وفي الغد، وفي طقسي المعروف عندما أكتب وجدت الكلمة الضالة، فوضعتها حيث يجب أن توضع،

ثم خرجت من المكتب إلى الشوارع، يدي في جيب بنطالي، وشفاهي ترسل صفيراً منغماً، لأغنية نسيتها الآن.

الكتابة، إذاً، شرف الكاتب في صدقه والكبرياء وعندما كشفت لكم سر شباب الروح وشيخوخة الجسد، فإن قولي كان هو القول الذي لا ريب فيه، فالروح تبقى شابة، بينما الجسد يخون، وأعترف أنا ابن الثمانين شتاء، أنّ جسدي خانني الآن، إلا أن ولوعي بالشباب، وعتبي على الجمال، بقيا بغير سلوان وبغير صواب، وكم أردّد «ويسأل في الحوادث ذو صواب/ فهل ترك الجمال له صوابا!؟»

نعم! الجمال لا يترك، عند الولوغ به، حتى لمن شاخ، صوابا وكم كان عمر بن أبي ربيعة على حق في قوله: «وذو القلب المصاب وإنْ تعزى/ مشوقٌ حين يلقى العاشقين!»

وأصارح قرائي الأعزاء، أن الرؤى في هذا المجال، مردها إلى الخبرة المكتسبة، لا إلى الشيخوخة التي صرت إليها، وإلى علم النفس الذي لا أدب ولا فن دونه، وإني أناقض بدوي الجبل في قوله « يا من سقانا كؤوس الهجر مترعة/ بكى بساط الهوى لما طويناه» فأنا لا أطوي بساط الهوى، وإذا طويته أعيد فتحه، مادام في الراحة بقايا نار، وفي النفس توق إلى الجمال، وفي اليراعة نزوع إلى النفاذ، وأنَّ الرب الرحيم أدرى بما في السريرة من حدب على البؤساء.

وأن اليراعة في مضمر القلب والحشا «ستتقّي ذكري وتتقّي دمائي/ وستقول الأجيال كان شقياً/ فليقدس في جملة الأشقياء!»

إننا، كما قال شلر في مسرحيته اللصوص نخترق الجحيم بقدمين حافيتين، وعبثاً يحاولون أن يلووا أصابعنا الممسكة بأقلامنا، لأننا صامدون في وطننا الحبيب سورية، ولنا من تاريخنا في الكفاح الطويل، شهادة لا تدحض، وقد جرب المحتلون الفرنسيون اقتلاع شعورنا بالأصابع المدماة فخابوا، لأننا في نصرة الحق متحدون، وكلماتنا التي حارت الدنيا بروعتها» تنبت لنا في كل يوم عزماً جديداً. أصيلاً، على مواصلة الكفاح، وفي فلسطين والعراق معاً، وبالنسبة لجولاننا الذي هو قطعة من كبدنا، تبقى لديّ كلمات محددة مكررة لماذا أكره المقص والمشط

وأسماك القرش، وقد سبحت في المحيط الهادي، خلال عاصفة عاتية، رمت بي، خارج الشبك الحديدي، في مصيف بيتاخو في الصين، وكانت تلك مغامرة حقيقية، دفعت ثمنها جروحاً في صدري وساعدي، ولم أهب الموت، فالموت جبان، والدماء التي تهييج أسماك القرش، أهاجتها على البعد، قبل أن تصل إليَّ، وحتى لو وصلت فإن سمكة سنتياغو التي نهشتها، ولم تبق فيها إلا الهيكل العظمي، لم تكن معي، أو مربوطة إلى قاربي، وأرنست همنغوي الذي تجمعني به جامعة المغامرة نال جائزة نوبل على روايته « العجوز والبحر» أما أنا فقد نقلت إلى المستشفى، مع التحذير المقترن بالتأنيب، على رعونتي التي ينبغي ألاّ تتكرر، وقد بصمت بأصابعي العشرة على التوبة.. لكنني لم أتب، وفي كازينو الأحلام في طرطوس أقدمت في الخامسة و الستين من عمري، على مغامرة أشد، ثم في عتمة الليل، وأنا واهن القوى، تسللت من خيمتي وسرت على طول الشاطئ، باتجاه اللاذقية التي أحب، لأعود، في ليلة رأس السنة وفي مسبح جول جمال، إلى مغامرة النزول إلى البحر، والبرد شديد القسوة، إلى درجة التجمد، والريح قارسة، هوجاء دفعت بي، بعد صراع مرير، إلى رمال الشاطئ الأزرق!

جنون!؟ هذا معروف عني، رغبة في الانتحار؟ هذا مرجح ولكن لماذا يا ربي، لا تقبلني في حظيرتك، أنا الخروف الضال؟! وهل كلمة انفراج، خارج قاموس الكتابة في بلدي، أم أنها دعابة من المقص وحامله؟ وماذا بشأن المتعبين، الذين لم يجدوا الراحة في النداء، بكل بساطة؟ وأي قصاص ينتظرني، إذا تجاوزت حد العوسجة الملتهبة؟ ولماذا ينكرني قومي قبل صياح الديك، وأنا سفيرهم، وفي رواياتي المترجمة، إلى العالم كله؟

هناك تركت نبض قلبي!

شادٍ على الأيك غنّانا فأشجانا

تبارك الشعر ألحاناً وأوزانا

ترنّم البان واخضلّت شمائلهُ

فهل سقى الشعر من صهبائه البانا؟

وفي الجواب أقول: نعم! فالبان يخضل، في عقدة الزنار، حول خصر امرأة، شبيه بالخيزران، في ممشوق رهافته، وأملوديّ إدلاله، رقة وعذوبة.

إنني من هنا، من دمشق وطريقها المستقيم، ومن دمشق التي لها، في القدم السحيق، تاريخ تأبَّى على التأريخ، ولها في الإشعاع الإبداعي، منبر لا أعلى ولاأغلى، ولها، في سبق بناء الدولة، سبق في ذاكرة الزمان أبعث بتحياتي إلى السقيلبية وأهلها، ثم إنَّ دمشق، كانت، وستبقى، قولة الأخطل الكبير، الفارس والمضمار، لأن أهلها «خير من ركب المطايا، وأندى العالمين بطون راح».

نعم! من دمشق، في حسبها والنسب، أبعث، راكعاً على قدمي، تجلة واحتراماً، لتلك المرأة التي، في لباسها الأسود، ولسانها الطلق، وذاكرتها الألقة، أوقفتني على مدخل القاعة، في المدينة الحبيبة، لتنشدني، وأنا على العتبة، باقة من شعرها الدارج، العذب، المنضر، وسط دوي التصفيق، ونثار الزهور، والزغردات التي جن بها الإباء، وتقبلني في مفرق الشعر من الرأس، قائلة، كما لو أنني أتعمد في نهر الأردن المبارك: «أنت هو ابني الحبيب، الذي به سررت» فانحني، من تجلة، لأقبل يديها، وأنهض لألثم رأسها والوجنتين.

من ذا الذي قال، إن محاضرتي، في البلاغة، كانت هي الأبلغ، في التعبير عن الذات، من بلاغة تلك السيدة ذات الثوب الأسود، التي في ردياتها، منوعة، منغمة، مموسقة، رفعت الكلمات صلاة من الأرض إلى السماء؟

طوبى لذكْراك، أيتها التي، بكلماتك باركتني، وطوبى لك، أيتها السيدة المجللة بالسواد، من تقوى لا من حزن، اسمعتني «نشيد الإنشاد» كرمى محبة، وتقدير، ونعمى تأهيل، وتسهيل، نيابة عن كل من السقيلبية، من سمار وندمان، ومعذرة، سيدتي، إذا لم أحفظ اسمك، فأنا لا احفظ أسماء النساء، ولا أحمل في قلبي أو جيبي، قلماً، أو ورقة بيضاء، أو دفتر ذكريات، أو مذكرات بعد أن فعلت ذلك يوماً، ودفعت الثمن غالياً، في أسئلة من لا أهابهم، لكنني أعرف أساليبهم، في التواء القصد والنيات، وفي المحاولات السمجة، للسؤال عن هذا، أو تلك، وأنا أحمل أغلالي، في انتقالي من سجن إلى سجن، أيام الاحتلال الفرنسي، وعهود الاقطاع، وفي المنافي التي تهت بينها، قبل أن أسمع شعر عمر أبو ريشة: «أوقفي الركب يا رمال البيد/ إنه تاه في مداك البعيد».

إنني أدَّعي الصراحة كاملة، وما كان ادّعائي أكذوبة يوماً، فالحديث الشريف يقول: «الكذب رأس المعاصي» وأنا أحفظ الحكمة القائلة: «إذا صدقنا بسرعة كل ما نسمع، وجدنا الكذابين في كل مكان!» لكنني بقلب طيب، أدعُ بعض الأكاذيب تمر على جسري، من ضفة إلى أخرى، متذكراً أبداً دهاء معاوية، الذي قال له أحد وزرائه، بصراحة وجرأة، وهو في مجلسه المعتاد «لقد خدعوك يا أمير المؤمنين» فأجابه مبتسماً: «نحن، أيها الوزير، نريد أن نخدع أحياناً!» والخديعة، في الحرب جائزة، وجائزة أيضاً، في مقاومة العدوان، كما في فلسطين والعراق، حيث تتضرى المعارك هناك.

ولئن كنت مدعياً، معتدا، فذلك من بعض الشيم في طبعي، ومن بعض الجنون في سلوكي، وبعض العنفوان في الصمود للخوف، إذا ما كان، في أيما موقف، وهذا الصمود للخوف هو الشجاعة في تعريفي، وقد خفت، مع رجوة أن يكون خوفي في غير محله، أن تصعد السيدة المجلببة بالسواد، إلى المنبر الذي

أقف عليه، وأن تحاورني شعراً فتهزمني، ويبوخ قولي، مهما يكن أنِقاً، أمام ما تحفظ من شعر دارج، وأمثال، ورديات، سمعت بعضها، قبل أن أتخطى عتبة قاعة المحاضرات!

إلا أن السيدة المفوهة لم تفعلها، ولم أقع لها على أثر بعد ذلك، فقد زفتني، أنا العجوز، زفافاً لائقاً، وعقدت قراني على امرأة مجهولة، وبذلك، كما أقدّر، انتهت مهمتها، فارتفعت إلى أعلى، وصارت، في السحب البيض، سحابة بيضاء، وكان تكريمها، على طريقتها المفضلة، تكريماً لي، نيابة عن جميع من أحببتهم وأحبوني، بإخلاص لا زوغ فيه، وصدق صدوق لا كذب فيه ولا رياء، وهذا ما أدهشني حقاً ولايزال.

إنّ قصتي مع السقيلبية، قصة تروى.. فقد دعوني، قبل سنوات طولٍ، لزيارة هذه البلدة الجميلة، فلم أزرها، وبعد عام أو عامين، كرروا الدعوة، فلم ألبها أيضاً، وبعد مدة غير قصيرة، جاءني بريدياً، إلى وزارة الثقافة، مغلف كبير، تريثت في فتحه حتى الانتهاء من بعض أعمالي المستعجلة، وعندما فتحت المغلف خجلت من نفسي.. كان المغلف يحتوي على عريضة، وقعها الكثرة من أهالي السقيلبية، والمعنى، فيها واضح: إذا كنت لا تأتي بدعوة، فـــ «شرّف» وتعال بعريضة، وطبعاً لم «أتشرف» وأذهب حتى بالعريضة، إلى أن كان هذا العام، وتجددت الدعوة، فذهبت، مع مدير أعمالي جورج اسبر، في سيارة خاصة، يقودها أحد المحامين، أرسلت من السقيلبية إلى دمشق، لنقل «جنابي» إلى البلدة التي سأدهش، من الاستقبال الحافل الذي أعد لي، من كرام رجال وسيدات أهلها، ومن أطفالها الذين يحملون الزهور، بينما أجراس الكنائس تقرع، والورود تهدى والأرز ينثر، على «السلطان عبد الحميد» الذي هو أنا، وهذا السلطان، لا يعرف، إلى الآن، كيف يجزي على الجميل جميلاً.

الرسم بالكلمات المضيئة!

أشهد أني عرفت حبَّ الأمومة، فقد كنت وحيداً لأبوي، وأنجبتني أمي بعد ثلاث بنات، وبعد بكاء وتضرع، ورجوة منها إلى ربها أن يرزقها صبياً، تقر به عيناها، وترد به شماتة الشامتين بها، لأنه بعد ثلاث بنات على التوالي، كانت جدتي لأبي، تعصب رأسها بالسواد كلما كان المولود أنثى!

المهم أني جئت إلى هذه الدنيا عليلاً، هزيلاً، أنوس كشمعة واهنة، معرضة للانطفاء أمام أي هبة ريح مهما تكن بسيطة. إلا أن الله، سبحانه وتعالى، استجاب لدعوات أمي في أن أنجو من الموت، وأن أعيش، وقد لازمها، خوفها، عليَّ من الموت، طوال حياتها، لذلك نذرت النذور، ووفت بها، واعتزمت، هي الخادم في بيوت الناس، إرسالي، دون أخواتي، إلى المدرسة، وأضمرت في نفسها، إذا ما صرت «أفك الحرف» أن تجعل مني كاهناً أو شرطياً، ولا حدّ وسطاً بين الاثنين، إلا إنني لم أحقق أمنيتها، فلما صرت في الشباب، ودخلت السجون بسبب نضالي ضد الاحتلال الفرنسي لسورية، تمنت، المسكينة، لو كنت راعياً، ولم أتعلم القراءة والكتابة، في الصفوف الابتدائية فقط، إذن لسلمت من عذاب السجن والمنافي.

ولقد بقيت على يقين، أن ليس من أم، أحاطت وليدها بالحنان، حتى قرأت كتاب «أمومة وغربة» للكاتبة المبتدئة مريم محي الدين ملاّ، وعندئذ أدركت أن ثمة، في هذا الوجود، حناناً يفوق حنان أمي، وان هناك سيدة تضنيها الغربة، بأكثر مما أضنتني، أنا الرجل المعتد بنفسي، وباحتمالي قسوة الغربة التي طالت وطالت، في المنفى القسري الأخير ثماني سنوات لأقل، دفعة واحدة، إن تأثري بقراءة كتاب «أمومة وغربة» قد فاق تأثري بقراءة أيما كتاب حول الموضوع نفسه، فالأم السيدة مريم، كانت معذبة قبل الإنجاب، الذي تأخر

ست سنوات بعد الزواج، وكانت معذبة خلال الانجاب إلى درجة فقدان الوعي والذاكرة خلال ساعات بعد أنْ ولدت طفلتها، وكانت، أيضاً معذبة عذاب أمي، خوف أن يتخطف الموت ابنتها وهي صغيرة، ولأنها لم تنجب بعدها، فقد تضاعف حنانها، وعذابها، وتضاعفت عنايتها بابنتها، إلى درجة يخشى المرء معها أن تنقلب هذه العناية إلى ضدها، أي ألا تنشأ الفتاة في جو يتيح لشخصيتها أن تنمو باستقلال عن أمها، وفي هذا استلاب، وفيه عاقبة ما أسميه لعنة الحب الأسري في وطننا العربي، وفي الشرق بعامة.

أعود إلى الكتاب المنكور ناقداً، ففيه من الشعر المنثور، أو من قصيدة النثر، ما هو نافل، فلو جاز لي أن أطلب من المؤلفة أن تتخلى عن قصيدة النثر لفعلت، فهي ليست في وارد الشعر، منثوراً، ومنظوماً، ونصيحتي، لو تقبل، أن تتخلى عن الشعر، وتكرّس نفسها للنثر المقدس، الذي تجيده، وتبرع فيه، وتقدم في ثناياه، صوراً مبتكرة، قد لا يجاريها فيه غيرها.

تبدأ، في الفصل الأول من الكتاب، بهذه الإطلالة الحلوة: «كان منزلنا رائعاً، تشع في جنباته شموس حب طويل، ودهاليز سعادة أطول.. كانت الكروم وشجيرات الياسمين تتدلى قطوفه في بيتنا دانية، فتلامس العناقيد وأغصان الياسمين، رأسي، وتمنحني الدفء الكبير أشكالاً وألواناً، وتتفتح الأزهار مع تفتح صباي، حتى أصبحت مثلها رقيقة، جميلة، كالفراشة الوادعة.».

بعد ذلك تتحدث عن نشأتها، وعن المنزل الذي تكونت فيه براءتها واستقامتها، وتعترف أنه لم يكن لها من خيار سوى السير وراء والدها، وتتبع خطواته في كل ما هو مرسوم لها وحولها، وهي إذ تكتب تاريخ سيرتها الذاتية، فلأنه الوحيد المليء بالحب والحنين وحتى الأمل، وهو الوحيد الذي دفع الحبر في قلمها لتدون ذكريات تلك الأيام الحلوة.

إن لعبة النسيان التي ذكرها ناظم حكمت تتكرر هنا. ناظم في السجن لم يكن يعد أيامه، لكنه كان يعرف ان هذه الأيام تمضي من ارتفاع قامات الشجر خارج السجن، ومريم تحاكيه في لعبة النسيان هذه. تقول: «لم أكن أدري بأني لست

وحدي التي تكبر، والتي تنمو بغير أن تفكر بالنمو.. كانت الأشجار التي لا حصر لها، والنهر المتدفق، والنباتات التي تتطاول كلها تنمو معي، تذكرني بأن الأيام تمضي، مع كل نبضة قلب، مع كل رفَّة هدب، برقة، بلطف، وبعنفوان اليفاعة.. وتلك الطبيعة الخلابة، المتحركة، التي عشت فيها، ولمستها بأناملي الغضة، رسمتها بذهني زاهية، ولم أكن يوماً بحاجة لألوان أو فرشاة، كي أخلق من تلك اللوحة البديعة شيئاً جميلاً، سيسكن فؤادي زمناً طويلاً».

فجأة تطرح الكاتبة، وبصراحة وجرأة، هذه الأسئلة: «لماذا أحببت أبي دون أمي؟

لماذا ابتعدت عن أمي كما ابتعدت هي عني؟

وتجيب: إن قسوة قلب الإنسان لا تنبع إلا من ذاته، أو حتى من شخصه، سواء كان حراً أو مستعبداً!».

ويبدو أن والدها كان قوي الشخصية، كريم اليد، شجاع القلب، بعكس أمها تماماً، وكان يغمر أولاده بحنانه، لذلك تصفه بهذه الكلمات التي تنطوي على إعجاب غير محدود «كان أبي كالبركان يحمل في قلبه ووجدانه شيئاً ما، ينبع من دفء سجاياه، لم أدركه في حينه، كان هو العطاء، يخصنا، نحن أولاده، بنداوة كفه، وحلاوة لسانه، ويخصني، أنا بالذات، بعطاءاته الكثيرة، وكنت سعيدة، فعشت طفولة جميلة، حين لم تكن أمي، بالنسبة إلي سوى (أمّ) ككل الأمهات، لها وجه صبوح، تشوبه مسحة من القسوة.»

إن الأنثى، فتاة كانت أم امرأة، تفتنها بالرجل شمائله الحلوة، وهذه قاعدة، قد يكون لها بعض الاستثناءات، وقد عبرت، في معظم رواياتي، عن هذه القاعدة، عبر أبطالها الشعبيين، الذين كانوا في رجولتهم، عنوان الرجولة المقدامة، الخيرة، الكريمة، لذلك كانوا غالباً محبوبين.

استطيع، إذن، أن أفهم حبّ الكاتبة، لأبيها أكثر من أمها، مادامت صفاته على النحو الذي ذكرت، فالمرأة حساسة، بل مرهفة الإحساس، لا تطيق، بل تكره، الرجل عديم الشخصية، منحط المكانة الاجتماعية، وتكره،

بصورة أشد، الرجل الكذوب، البخيل، المتبجح، الحشري فيما لا يعنيه من مملكة المرأة في بيتها، وفي مطبخها خصوصاً، المصاب بالغيرة المرضية، الذي لا يرى في زوجته سوى آلة للطبخ والنفخ والإنجاب، والذي يهمل زوجته بسبب من مشاغله، ويتخذها، أحيانا، وسيلة (لإنجاح) أعماله، وقد عبر ألبرتو مورافيا عن هذه الخسة، في روايته الاحتقار».

وماذا بعد؟ تزوجت الكاتبة، وكان زواجها، كما تعترف هي، ناجحاً، وقد وجدت في رجلها سجايا والدها، ومن هنا حبها له، لكنها تبقى قلقة لأنها لم تنجب.. سنوات مضت وهي لا تنجب، إلا أن السماء كافأتها على صبرها، حين منحتها بركتها، فإذا بها حامل، تتابع، كما تقول: «نمو كائن بداخلي، يقبع في أعماقي، ينتظر تنفسّي ليتنفس، وأكلي ليأكل، ويتغذى بغذائي، ويسمع دقات قلبي ليطرب بها.. رباه ما أعظم هذا التكوين!

بعد ولادتها، وما قاست خلالها، تطلق على المولودة الأنثى اسم «اوديل» وهو اسم إحدى الأميرات الفرنسيات، التي خطرت لها من مطالعاتها للكتب التي تحبها، ولها بها ولع يصل حد النهم، وكما كانت ولوعاً في الإنجاب، كانت ولوعاً في حب وطنها، في حب سورية، ودمشق خصوصاً، موطنها الذي تحمله في غربتها، وتستفيض في الكلام عن هذه الغربة، حتى كأن كلامها عنها صلاة.

إنني أكتب مقالاً قصيراً عن كتاب أمومة وغربة «للكاتبة مريم محي الدين ملاّ» مقالاً وليس دراسة، فهذه من اختصاص غيري، وألاحظ أن هذا الكتاب بحاجة إلى غسل من أخطاء اللغة، وهذا ما يفعله أكثر الكتاب، قبل دفع كتبهم للنشر، وهذا ما سوف تفعله هي أيضاً في الجزء الثاني من ذكرياتها كما قالت وأحسب أنّها، في هذا الجزء، ستكون قد تمرست في صناعة الحرف، وصار لها أسلوبها المميز، وصوتها المفرد، ولغتها الخاصة، الأكثر أناقة وجمالاً، والأبهى في الخيال، والتخييل، والصور المبتكرة، القادرة عليها، والمتمكنة في رسمها، إذا صقلت موهبتها، فقد قال تشيكوف: «الموهبة هي العمل!» وفي هذه العبارة الجم من الدلالة. كاتبة مبتدئة؟ ما هَمّ، كلنا كنا في المبتدئين، لكن بداية هذه الكاتبة تبشر، إذا ما ثابرت، بالنجاح المأمول، فهل تفعل!؟

إنّ الإبداع، حسب الشاعر سعيد عقل، بين الأرض والسماء كلام، والذين يبدعون هم الكلام الذي يرن في الفضاءات، رنين الذهب في المعصم الجميل.

إبراهيم ناجي، في قصيدة الأطلال يقول: « فتعلم كيف تنسى!» ترى النسيان يؤاتي!؟ ما أظن ثم لماذا؟. وكيف؟ وأين السبيل؟

من وضعك، سيدتي الغريرة في دربي؟ أي قدر سرى بي إليك؟ أي كلام لا يحكى فيضمر أزهر على شفتيك، خلال أيامي الأربعة إلى جانبك؟

لم أفق من غفوة الكرى، حين أنت حلمٌ في خاطري، تحقق طهراً، في يقظتي، وحين المودات، وميض نيزك، أضاء فانطفأ، ولايزال منه، في راحتي، قبس نار، وقد يبقى، ومن شرف الأنوثة أن يبقى، ومن أريحية الرجولة أن يدوم، وماكنت ممن يدعي ما ليس فيه، فقد عرفت من شموخي، ما يجعل بيني وبين الانثى، هوة لا تردم، لأنني هكذا خلقت وهكذا نشأت، وهكذا سأموت.

بسيط في كل شيء، ناثر شاعر حتى في بساطتي، عزوف عن اليد البيضاء إلا ان تكون يدي، فإن شئت صداقتي، تكون هي هديتي إليك، ومن طبعي الإمساك عن سكب هداياي، حتى في صحون من النجمات، وأنت النجمة التي فيها أودعت بعض هديتي، واثقاً انك ستحرصين عليها.

يكفي، ذات يوم، أن تسألي التاريخ عني، ويكفي ذات يوم، أن تسألك أوديل، وهي تقرأ إحدى رواياتي: هل تعرفين هذا الكاتب يا أمي؟ عندئذ، وربما أكون أنا قدمت بماذا تجيبينها؟ قولي لها، دون تنميق: «نعم أعرفه.. كان صديقي»!

وهذا يكفي، شريطة ألا تخالي أنّني منديل للزينة، للعنق أو الجيب، أو للتكارم، عندما لايكون هذا المنديل أصيلاً.

المشاغل عندي، وحولي، ركام، رغم هذا وعدت فوفيت، كلمتي هي الكلمة، إنها لك، فازهي بها، ما شاء لك الزهو، وتتلمذي كما ينبغي، لأنك في أول الطريق، ونحن أدرى وقد سألنا بنجد أطويل طريقنا أم يطول؟ إنه يطول، وفي الكفاح، لأجل الحق والخير والجمال، لأجل العدالة الاجتماعية، لابد من النضال الطويل.

باخرة وثلاثة قباطنة!

في أحد بلداننا العربية في الوطن العربي الكبير عناية كبرى بالثقافة واهتمام فائق بها من قبل قائد هذا البلد.

الذي أحدث سابقة فريدة نادرة مشكورة بإهداء وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة مع مبلغ من المال لكل مبدع في بلده ولم تكن هذه السابقة معروفة قبله وليست في حدود علمي معروفة حتى الآن بعده فلكل بلد عربي طريقته في تكريم المبدعين، إنما منح الأوسمة من الدرجة الممتازة مع جائزة مالية بصورة مستمرة متتابعة سنة بعد أخرى في حفل حاشد بهيج ظل من عطاءات ونعميات هذا البلد وحده دون سائر البلاد العربية وربما بلدان العالم الثالث التي من حواليه.

لقد عمل كاتب هذه السطور بحاراً على أحد المراكب الشراعية منذ ستين عاماً ومنذ أن عشق ملكة البحر أو أخذته لوثتها، وهو يغزل البحر على أنامله مفتوناً باللجة الزرقاء مغامراً من أجلها لا في البحر الأبيض المتوسط وحده بل في بحار عديدة ومنها المحيط الهادئ. في مصيف بيتاخو في الصين الشعبية حيث كان هناك في طلب الرغيف لا طلب العلم وكان من باب المجاملة أو الإكرام أو التقدير يدعى خبيراً مع خبراء من كل بلاد العالم ماعدا اسرائيل وكلهم جاؤوا من الجهات الأربع لدنيانا، لمساعدة هذه الدولة الاشتراكية الفتية صاحبة المسيرة الكبرى التي قادها ماوتسي تونغ بعد أن هزم شاي كي تشيك، وحقق استقلال الصين التام لأول مرة في التاريخ الحديث أو التاريخ المعروف والمعترف به.

وفي واحدة من أعتى العواصف التي عرفها المحيط الهادئ أو المحيط المجنون حسب وصفي، غامر كاتب هذه الكلمات وتحدى حراس البحر من

الصينيين الذين أغلقوا المسبح المسوّر بالشبك الحديدي احتراساً من أسماك القرش فانفلت وحده، وحده تماماً من رقابة الحراس وألقى نفسه في عاصفة المحيط العتية التي حملته أمواجها وألقته خارج الشبك في وضع بالغ الصعوبة لأنه لا يستطيع العودة الى داخل الشبك غير المأمون أيضاً أو القدرة على البقاء في نقطة محددة يستطيع أي زورق الوصول إليها لإنقاذه من الموت المؤكد أو الانتحار المضمر في اللاشعور أو في السريرة وما تنطوي عليه من خبث اللاشعور خلاصاً من هذه الغربة التي طالت كثيراً حتى فضل الموت عليها.

لقد نجوت بإعجوبة في زمن تماهت وباخت فيه الأعاجيب حتى كأنها لم تكن أصلاً، وقصة هذه النجاة مسرودة في روايتي «المغامرة الأخيرة» فمن شاء معرفة تفاصيلها فليعد إليها مشكوراً، أما بالنسبة إلي فإن مرد النجاة يعود الى أنني كنت المنقذ وزورق الإنقاذ معاً وهذا من بعض دروس البحر وبعض قصة الباخرة والقباطنة الثلاثة في المجال الثقافي عندنا.

إنني أعرف نائب السيد الرئيس للشؤون الثقافية الدكتورة نجاح العطار وكفاءتها في مجال الثقافة وخبرتها كوزيرة للثقافة على مدى ربع قرن، وقد استغرب الأستاذ محمد حسنين هيكل ذلك وعده من المآخذ التي يتجمد فيه الزمن وهذا غير جائز عرفاً، وأعرف الأستاذ رياض نعسان آغا وزير الثقافة ومدى ضلاعته في الكلام وفي الخطابة وفي الشأن الثقافي كما أعرف ثقافته التي تكاد تكون موسوعية وحسن إدارته لشؤون الوزارة ولإرضاء المثقفين وأمزجتهم المتنوعة المتفاوتة بسبب من أنهم مبدعون والفرادة امتياز لهم، لأنها توأم العبقرية، ولشد ما كتبت وتكلمت وأشدت بسورية التي هي منجم إبداع قديماً وحديثاً ومنبر للإشعاع الفكري. أما السيدة الروائية كوليت خوري فإنها من عائلة الثقافة والوطنية أصيلتان فيها ولها إبداعها الخاص المتميز وتشغل وظيفة مستشارة للشؤون الثقافية في الوقت الحاضر. وقد تكون هذه المزجة الثقافية إغناء للثقافة باعتبار الثقافة خط دفاعنا الأول في الوقت الحاضر وإثباتاً لحضورنا الثقافي في العالم، كما لهذا العالم

حضوره الثقافي عندنا إلا أن سفينة الثقافة تكاد تترنح ولا أقول تتوه لأن لها قباطنة ثلاثة وهي تبحر في الزمن الصعب حتى لا أقول الرديء.

إنني مثقف ومجتهد ومن اجتهد فأصاب له أجران ومن أخطأ له أجر واحد، وأرغب صادقاً في أن أكون على كفاء وهذا الأجر الواحد إلا أنني كبحار وخبير بالبحر في حالتيه: الوداعة والشراسة أخشى أن تجنح سفينة الثقافة أو تتحير أو تتباطأ في الاندفاع الى أمام على النحو الذي نريد ونتمنى ونؤكد أنّه ضروري لنا في زمن تنافس الحضارات ولا أقول تتصارع مع أن تنافسها أو حتى لو صح تصارعها فإنه في المآل ومهما تكن النيات بين طيب وخبث فإنه إثراء لسهرها المتدفق انطلاقاً من أن كل ثروات الأرض الى نقصان، أما ثروة الثقافة التي هي الى ازدياد دائم.

إنّ لكل سفينة قبطاناً واحداً ولكل مركب شراعي ريساً واحداً ولكل قطار مسؤولاً واحداً وهذا قانون إلا إذا كان هذا القانون قد صار متخلفاً في المدى اللامحدود لثورة المعلوماتية.

هذه وجهة نظر ووجهات النظر حتى في تباينها تبقى أفضل من العطالة وتحميل وزر هذه العطالة للمسؤولين في بلد كان سباقاً الى التعددية السياسية والاقتصادية والحزبية والثقافية وغيرها.

ولكوني مغرماً بالأمثال الشعبية والمأثورات الشعبية فأنني أورد هذا المثل الذي أؤمن به إيماناً ناتجاً عن تجربة وهو أي المثل بسيط لكنه محق بليغ في حقيقته وبلاغته، يقول: «المركب الذي عليه ريسان يغرق» والحمد لله إن مركب ثقافتنا لم يغرق، وعليه ثلاثة رياس إنما لا ينطلق بقوة لا يرن كالناقوس في المحافل الثقافية العربية والعالمية، فلماذا؟

هذا هو السؤال الذي أطرحه بسبب من أن الثقافة العربية من إنتاج المبدعين السوريين ومنهم الأعزاء الثلاثة الذين ذكرت بخير إلا أن الاندفاع لا يزال بطيئاً لمركبه!

صاح شاعرنا الكبير الذي نفاخر به العالم العربي والدنيا.

ما للسفينة لم ترفع مراسيها؟

ألم تهيئ لها الأقدار ربانا؟

قال ربانا ولم يقل ربابنة وهذا من البدهيات لكنه يذكر فيشكر لأنه جاء في مكانه وزمانه يوم كان الاستعمار الفرنسي يجثم على صدورنا.

أضاف بدوي الجبل، وهذا لقبه الذي أطلقه عليه العيسى صاحب جريدة ألف باء إذا لم تخن الذاكرة، أما اسمه الحقيقي فهو «محمد سليمان الأحمد» وقد زرت قبره في السلاطة رحمات الله عليه.

ثم يضيف البدوي مخاطباً السفينة:

شقي العواصف والظلماء سائرةً باسم الله مجرانا ومرسانا

ويختم قصيدته الشماتة بهذا البيت الذي تحققت نبوءته..

يا من يدلّ علينا في كتائبه

نظَارِ تطلعْ على الدنيا سرايانا

وطلعت هذه السرايا فأجلت الاستعمار الفرنسي وطلعت سرايا القائد الكبير المرحوم حافظ الأسد فكادت تهزم اسرائيل هزيمة محققة لولا أن السادات أراد هذه الحرب تحريكاً لا تحريراً.

إنّ سفينة الجلاء الذي حققته سورية قبل البلاد العربية كلها، كان يقودها قبطان واحد هو الشعب السوري الباسل، صاحب «الثورات والهبوات الحمر» وسفينة حرب تشرين خطط لها ونفذها قبطان واحد: اسمه حافظ الأسد.

ومرة أخرى: هذا الكلام كله للتنبيه لا للتجريح وحسبي الله وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

حب الكتب.. والأبناء!

كثيراً ما يسألونني كيف صرت كاتباً، ومتى فكرت في الكتابة، وفي أي من أعوام عمري بدأت بها؟ وهذه الأسئلة المفترض أنها معروفة،.

بسبب أنني أجبت عنها مراراً، تأتي في سياق استغراب هو في موضعه تماماً، لكوني لم أتجاوز، في دراستي المرحلة الابتدائية، فأنا من مدينة اسكندرونة، في اللواء العربي السليب ولم تكن في هذه المدينة إلا مدرسة ابتدائية واحدة، اسمها «المدرسة الرشدية» وعلى من يريد الدراسة بعد المرحلة الابتدائية أن يطلبها في حلب، فكيف أنا الفقير فقراً أسود، أن أذهب إلى حلب، واللقمة في مدينتي بالكاد أحصل عليها.

ومع أنني من أنصار المرأة، وقد كرستها كتاباتي بهية، وطالبت بإنصافها فإن أمي الخادم في بيوت الناس رحمها الله، رغبت رغبة شديدة بإدخالي إلى مدرسة تبشيرية انجيلية في اسكندرونة لأتعلم شيئاً من اللغة الانكليزية، لكنني رفضت دخول هذه المدرسة لا لكرهي التعلم، أو حاجتي إلى العمل لأساعد عائلتي، بل لأن مديرة هذه المدرسة امرأة.. فتأملوا!

ربما كانت هذه ذريعةً، تعلةً، حجةً لا أكثر، فالحقيقة الكامنة في اللاشعور، تخفت تحتها، أو في ثناياها قصدية مغايرة مردها إلى الفقر الذي كنت فيه والجوع والعري والحرمان الذي أكابده، وضرورة أن أعمل مهما يكن نوع العمل كي أساعد عائلتي ونفسي، ولم أجد عملاً أنا الصبي إلا أجيراً عند مؤجر دراجات، وهكذا انتقلت بصفة أجير من عمل إلى عمل حتى صرت أجير حلاق، وتعلمت هذه المهنة ومارستها، قبل أن أنتقل منها إلى الصحافة، وبصفة أجير بادئ الأمر.

كنت كالحديدة تحت مطرقة الحداد، الحديدة التي ألقى بها الزمن في نار التجارب الكاوية، ثم تطرقت، تشكلت اجتازت المعبر البارد أضاعت طفولتها كما قلت سابقاً في الشقاء وشبابها في السياسة وتابعت خلال ذلك كله المطالعة بنهم شديد، الأمر الذي أفادها في كتابة الرسائل للجيران وفي كتابة العرائض للحكومة تطالب بإصلاح هذا الرصيف وترفيت هذا الطريق ومناصرة للذين كانوا يجاهدون سراً وعلناً لتحقيق العدالة الاجتماعية.

كان الخروج إلى العالم أحد هواجسي، وبدايتي فيه توطدت في البحرية الفرنسية في سورية؛ يتساءل كونديرا قائلاً: ما هو الزمن الانساني؟ الزمن الانساني بالنسبة لهذا الكاتب الذي يغلب التشاؤم على أكثر ما يكتب، يمكن تحديده بثلاثة نماذج أساسية تبعاً للجانب المسيطر من الزمن بالنسبة لكل إنسان مع نفي وجود رياضيات وجودية، إنه يؤمن بالمصادفات، في جانبها العلمي، مع أن المصادفة بنت الضرورة، ويلعب القدر أو يشغل حيزاً كبيراً في وقوعها.

توماس مان يعتقد ويقدر الزوالية أكثر من أي شيء آخر، لكنّ الزوالية قابلية الحياة للفساد والتلف، ولأنها كذلك فإن الأمر محزن حقاً، وهذا موضع تساؤل لديه يجيب عنه: «الزوالية روح الوجود بالذات تسبغ القيمة والكرامة والاهتمام على الحياة، الزوالية تخلق الزمن، والزمن هو الجوهر، الزمن، بالقوة على الأقل، هو الهبة الأسمى والأكثر نفعاً، الزمن يتطابق مع كل شيء خلاق وفعال، وكل تقدم نحو هدف أرفع).

هنا تتجلى التفاؤلية بالزمن، فلولا أن الزمن دولاب له قابلية التبديل والتغيير لتجمدت الأحداث، ومع تجمدها يتجمد كل ما ينتج عنها تماماً، إذن سكون وتغييب كامل للحركة، وهي التي أثبت العلم أنها قانون وجودي تدفع إلى أمام مبدلة الأحوال، مؤدية مع كل يوم يمر إلى اكتشاف جديد نجد مقياسه في القرن العشرين الماضي ما بين بدايته والنهاية، وكم في نهايته من فتوحات هي ثورة في عالم الالكترونيات وقفزة بغير قياس في المعلوماتية.

هانز ميرهوف، في كتابه «الزمن في الأدب» يقف إلى جانب هذه التفاؤلية أيضاً يعتبر الزمن مولد الأشياء كلها والإمكانية الدائمة للخلق والجدة والنمو.

إن النظر إلى الزمن من هذه الزاوية يرينا إياه عنصراً خلاقاً ومنتجاً، وهو الينبوع الدائم لعمل الأشياء والخبرات والذات وتحسينها، وهو حسب الاصطلاح لأرسطو طاليس الشرط الدائم لتحويل الصيرورة إلى كينونة، والقوة إلى فعل والنقص إلى كمال، ويصبح اتجاه الزمن تلك الحالة التي تتعلق فيها بالاعتقاد بتحقيق الآمال، بفرحة الخلق والتقدم وبالجهد والكد كوسيلة لتحصيل السعادة الشخصية والخلاص.

عليَّ، كروائي أن أعترف أن كل هذه الآراء حول الزمن قد تحصلت لي بعد كتابة معظم رواياتي، لكنني الآن لا أجد تعارضاً بين نظرة أبطالي الإيجابية وبين النظرة الإيجابية إلى الزمن، إنهم مستمرون في النشاط والكد، وكلٌّ من الكد المستمر والنشاط الدائم هو طريق لمجابهة التضمينات السلبية لتقدم الزمن التصاعدي نحو النهاية، نحو الموت.

لا أستطيع الجزم أنَّ توافق نظرة شخصيات رواياتي مع صيرورة الزمن وما يملكونه من إيمان نضالي ومن حماسة وشجاعة أي من قدرة على عدم الخوف من الحياة والزمن والموت قد وضع يدي على سبب حب القراء لهذه الشخصيات، لكن أولئك القراء قد فتحوا على أشياء كنت لا أراها.

وإذا كان الزمن لا يتبقع على جسوم أبطالي فلأنهم لا يدعون له وقتاً كي يفعل إنهم يعيشونه بجدٍّ، يمتصونه، يحولونه إلى هدف إلى قضية إلى بناء، ويتحلون معه إلى بناة، إلى هدافين، إلى أصحاب قضية، لنأخذ الخياط في رواية «الشمس في يوم غائم» إنه يدق الأرض بنت الكلب النائمة حسب تعبيره ليوقظها، وامرأة القبو تنشد الانتقام من الشر والقهر وتريد أن يكون لها حبيبها الذي ينام معها على السرير ذي الأعمدة النحاسية، والفتى هذا التنين الصغير يسعى لقتل التنين الكبير رمز الاستغلال والبطش، وحتى زكريا المرسنلي هذا الوحش الذي يجد حقيقته الانسانية في الغابة يعمل في صيد

السمك، ويبني كوخاً للشتاء، ويحب، ويعود إلى المدينة لقتل الحوت أي لقتل الشر ومن هنا فانّ الزمن من خلال العمل لا يكون محايداً بين الشر والخير، بل هو مع الخير، العمل نفسه خير، طموح، هدف، مستقبل، وفي الصراع الدائر بين العدالة والظلم ستنتصر العدالة بغير شك، سينتصر الخير في مجرى الزمن، ولهذا فانّ الزمن غير محايد تماماً كما هو غير دائري أيضاً إنه نهر يمضي إلى أمام، وفي النهر لا يعود الماء نفسه مرتين، كذلك الزمن لا يعود ذاته والتاريخ لا يعيد نفسه بكل ظرفه ونمطيته، هناك التغيير دائماً، هناك التبدل، هناك التقدم في الزمن والتاريخ على السواء، والبطل الروائي الذي يعي هذا أو يعيشه بحسه المستقبلي وبغير تعارض مع السيرورة فإنه يتفلّت بذاته من الضغط المخيف للزمن، والعالم الاجتماعي من حوله، بفعل العمل والانتاج والخلق والانجاز.

البضاعة الرديئة هي أنا

قررت أن أهرف بما لا أعرف، لأنني البضاعة الرديئة التي طردت البضاعة الجيدة من السوق، وماذا أفعل غير ذلك؟ هل أبيع الترمس؟ منذ خمسين عاماً وضعت دمي في كفي ونزلت إلى ميدان الكفاح.. الكفاح؟ لا التجارة بالكفاح كما يفعل غيري، كان شاعرنا الكبير محمد مهدي الجواهري يناديني «الدكتور حنا» وقد شرحت له، بصبر وأناة، أنني لست دكتوراً ولا من يحزنون، وأن بضاعتي في سوق الشهادات لا تتعدى السرتفيكا كما كان الناس يطلقون على الشهادة الابتدائية هذا الاسم، وكما كانت والدتي عليها الرحمة تظن أنّ السرتفيكا هي نهاية المطاف في العلم والتعلم، ولما شمرت عن ساعديّ النحيلين، ونزلت إلى بازار السياسة، ضد الاستعمار الفرنسي أولاً، وضد ثعلبية الإقطاع ثانياً، وضد الذين، وهم كثر، يعتبرون أن الكومنستو وباء أصفر ثالثاً، بكت المرحومة لأنها أرسلتني إلى المدرسة، وأين؟! في جامعة جورج تاون مثلاً، ولما حصلت على السرتفيكا نذرت أن أكون كاهناً أو شرطياً، فلم أكن لا هذا ولا ذاك، وهذا ما جعلها تندم لأنها أرسلتني إلى أوكسفورد، وأقسمت ندامة لأنها لم تجعل مني راعياً، فأريح وأستريح، ودقت باكية على صدرها لأنني كنت أنتقل من سجن إلى سجن وفي اللاذقية وحلب ودمشق، وصرت الآن، في شيخوختي أنتقل من مشفى إلى آخر، و«الكلبشات» تبري معصميّ الناحلين!.

باختصار شديد، ناضلت ما وسعت طاقتي، لأجل «الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض» فخاب نضالي إلا قليلاً، وفي الأربعين من عمري، قلت

للسياسة «أنت طالق بالثلاثة» وغادرت اللاذقية شبه منفي، أنا الحلاق في حارة القلعة، وعاشق البحر الذي تمنى، وهو غارق في خيبته، أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق، وهذا من الجنون والداعي معروف بقوله الثابت «أنا نصف مجنون نصف عاقل، وأحب نصفي المجنون أكثر».

وأثمر دعاء أمي عليَّ إثماراً حنظلياً، فوقعت في بيتي المعلق على طرف جبل، في منطقة «مسبق الصنع» وكانت الفدية هذه المرة باهظة، فقد شلت رجلي اليمنى فقال طبيب إنه تمزق أربطة، وقال آخر إنه ضياع المفصل، وقال ثالث «التهاب أعصاب» وصرت أمشي على آلة حديدية بغيضة اسمها «الوركر» وفي أرذل العمر، أقسمت أن أستغني عن «الوركر» هذا وأمشي مشية السلحفاة وهي تسابق الأرنب.

إنني لا أحب الميلودراما بطبعي لذلك اكتفي بما هرفت به، وما اقترفت من إثم بحق الروائيين الشباب لأنهم يقولون جهاراً نهاراً، إنني سددت الطريق عليهم، وكي أرعوي، أتوب إلى ربي، أستنفر الروائيين الشباب أردد هذا البيت من الشعر، كصلاة يومية:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايـــا أن يكـــنّ أمانيـــا!

الصيد الأول والأخير في حياتي

إنني أعرف جميع موبقات العالم في حياتي، من الروليت إلى البكرا، وهي الأخطر بين ألعاب القمار، إلى البوكر اللعبة الألذ والأكثر إغراء وجاذبية، لأنها تعطي اللاعب الفراسة، والمقدرة النفسية للاعب.

كل هذه الألعاب أعرفها، لكنني لم أدمن، و لم أرتهن إلى واحدة منها، أما صيد السمك بالقصبة والسنارة، فلا صبر لي عليه، ولا صبر على صيد عصفور التين، في زمن نضوج ثمرة التين صيفاً.

إنّ حظي، في كل هذه الأشكال عن الصيد، صفر مع الرحمة، والمرة الوحيدة التي نجحت فيها باصطياد عصفور كانت في طفولتي، حين اشترت لي أمي، رحمها الله، آلة من أسلاك حديدية، أضع فيها الطعم، وأطمرها بالتراب، لاصطياد عصفور الدوري، الأخبث والأتفه بين العصافير كلها.

فقد وضعت آلة الصيد هذه، تحت شجرة زيتون، وفيها الطعم، وانتظرت طويلاً، دون طائل، وبعد أن ذهبت لتناول الغداء مما تيسر رجعت فإذا بعصفور قد وقع في الفخ، فكدت أطير من الفرح، وكان هذا العصفور المسكين هو صيدي الأول والأخير في حياتي التي نيفت على الثامنة والثمانين الآن.

تسألونني: وبعد؟ وأجيبكم: لا قبل ولا بعد، فقد فرض علي حظي أن أشتغل بالسياسة، وأين!؟ في منطقة كسب وما جاورها من بيوت متفرقة وكل سكانها من الأرمن الأقحاح، الذين طلب مني أحد الأصدقاء في اللاذقية أن أكتب عنهم رواية، فشمرت عن ساعدي، وأنجزت، خلال شهور، رواية الفم الكرزي لأن بطلة الرواية اسمها الحركي بيرانيك، واسمي جواد، أوفدوني إلى

هناك لأقود هذه المنظمة، سراً في الليالي القارسة البرد، بذريعة تعليم الأطفال الأرمن اللغة العربية.

اعترف. فشلت في الاصطياد، وفي صيد العصافير، ونجحت في صيد البشر إلى ما فيه خير وطني وشعبي، وكان إيفادي إلى منطقة كسب، وعمري أقل من العشرين، هو الامتحان الأول في حياتي الكفاحية، التي أتقنتها مع الأيام، فتحولت من صياد لعصافير الدوري، إلى صياد للمناضلين الأكفاء، الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه، فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر هذا الموت بفارغ الصبر مثل جنابي.

رواية الفم الكرزي، ترجمت إلى اللغة الأرمنية، ولم يكن صيد الفتاة الأرمنية، ذات الفم الكرزي واسمها بيرانيك، هو الصيد الثاني في زمن اليفاعة فقط، بل كان المدخل إلى عالم السياسة.

لقد تمرست في السياسة، كانت أسهل، أحياناً، وأصعب أحياناً أخرى، من اصطياد عصفور الدوري، لكنها، أي السياسة، لابد أن يكون لها هدف، ومن الأهداف النبيلة، وقد برعت فيها، غير هيابٍ ولا وجل، وفي الأربعين من عمري، وبعد السجون، وما فيها من رهبة، وعذاب، وتعذيب، مرقت من بابها الضيق، إلى باب أضيق، هو باب الكتابة الأدبية، وهذه لها حديث آخر، إذا كانت هناك فسحة في العمر بعد.

إنني الآن، رهين المحبسين بيتي، ورجلي اليمنى التي أمشي عليها مشية الوحدة ونص، دون أن أرعوي، أو أترك القلم، إن وطني الذي كرمني مشكوراً، لايزال يتطلب مني متابعة الكفاح.

الروايـة.. تجربـة وحواراً

أنا لا أملك يداً سحرية تقطف النجوم، وأصابعي التي هي أغصان شجرة مرجانية منسية في قاع البحر الأحمر، لا تورق كزهرة الثلج، في الفضاء الحليبي الرحب، وحروفي منذورة لدمي الذي نزف في مواقع خطواتي على درب الشقاء الطويل، الشقاء الماجد والممجد، لأنّه صاغني صياغة حبة الرمل، التي، في أعماق خليجنا العربي، تتحول إلى لؤلؤة في جوف محّارة عندمية اللون.

إنّه الألم الذي باركه الفريد دي موسيه، والعشق الذي نفذ إلى سره شاعرنا المتنبي، والقلق المميت، والمحيي، الذي لازمني، في الحب كما في الكتابة، فأبقاني معلقاً في فضاء الأمل والخيبة، لكنه، القلق، تبارك ثلاثاً، جعلني اضطرب، مثل النورس في ريح العاصفة المجنونة، ومنذ وسمتني النار، في جبيني المتقد، ظلت جذوتها تشع وتخبو، بين رماد ورماد، بعضه للتوهج، للاحتراق، وبعضه للشروق فجراً، وللغروب غسقاً، وأنا أغذ السير في طريق، لا أدري أهو طويل أو يطول، لكنه، في كل حال، طريق المعاناة التي اكتويت بها، ظنا منِّي أنها أخيراً الدواء، فإذا بي مع الركب في تيه العمر، فلا نكوص، ولا وصول، ولا ري لظمأ السراب الذي فديته، وافتديه، دون أن أبلغه، ودون أن أملّ من الترحال في طلبه، ودون أن يمل هو من الابتعاد، كلما أحسست أنني دنوت منه.

هكذا ترون، أن بعض القول لا يحكى فيضمر، مع أنه ليس ثمة في حياتي المضطربة، بين رجاء وقنوط، أيُّ اضمار، فسيرتي ورقة بيضاء وكلماتها غير المسطورة، تناديكم، ألا تتبعوني على خيط الهاجرة، أو شعب الجليد، فهناك الموت

الذي ينفذ عبر المسام، ويبقى تأرجحاً بين سكرة حب، وسكرة هجر، سكرة يقظة، وسكرة احتضار، ثم لا فناء، بل إحساس به يلازمني وأنا أمرق من أحداق التجارب، تجربة بعد أخرى.

سأفترض أنكم قرأتموني، أو أن بعضكم، مشكوراً، قرأني، لذلك لا أفصل في معاناتي وتجاربي، وإن كنت أدعوكم، إذا ما أردتم أن تكونوا مبدعين حقيقيين، أن تتذوقوا ثمرة الخير والشر، فالشجرة المباركة التي أغرت حواء وآدم بأكل تفاحتها، قد كانت البدء، ولن تكون النهاية، فليس ثمة نهاية، إنّ رحلة التجارب، تتبت لكم، كل يوم، ألف عوسجة ملتهبة، وألف حسرة مدمرة، وألف إغراء بفرحة القلب، فكونوا في المجربين، وفي الغالبين، وفي الواثبين على الأذى، حتى لو لم يكن لكم من هذه الوثبة سوى إرضاء العلى، وكسب الخبرة، التي بغيرها، مدماة، مفجعة، مسندسة، مخضّبة، لن تبلغوا ما تريدون من إشعال شموع الإبداع، على اسم الحرف، الكلمة، اللوحة، الإزميل، القوس، الوتر، أشكالاً للعطاء، تزهر، تثمر، حين هي منعقدة، منضفرة على وعد الإزهار والإثمار، وهما تاج الشوك وتاج الغار، ولابد لرأس المبدع أن يتوج بهما معاً، وإلا أضاع العمر في ثنايا غمامة صيف، تمطر ولا تمطر، لا لأنها عقيمة، بل لأنها لم تكتسب تجربة، تحولها إلى ماء، كما تحول، في الأعجوبة، الماء إلى خمر.

مطر! مطر! مطر! هذا هو غيث السماء ومنحتها، وتجربة، تجربة، هذه نعمى الإبداع ومكافأته. إذاً جربوا، عانوا، ترحلوا، أقيموا، وبكلمة، عيشوا بين الناس وفي صفحات الكتب، فالمعرفة لا تتحصل إلا منهما معاً، ومن تلك الملاحظات الدقيقة، المتميزة، المفردة، التي تلتقطها عينٌ واحدة، من زوايا مختلفة، وتحتفظ بها الذاكرة، وتحفظها، قولةُ تشيكوف، في دولاب المأكولات، فأنتم لا تعرفون متى تحتاجونها، ومتى تستيقظ هي في ذواتكم المبدعة، فترتفع من قاع البئر المهجور في نفوسكم، إلى أسنة أقلامكم، التي ترسمون بها تجاربكم قصائد وقصصا وروايات.

هذا ما فعلته أنا. أو هذا ما أرادت لي الحياة أن أفعله، وقد ألقيت بنفسي في بحر التجارب الجائر، وما أزال هناك، أغامر، أحيا، أتألم، أبحث عن الألم لم أقف على حافة الخطر، أعيش الحياة، لأن العيش شيء جميل يا أصدقائي، كما قال ناظم حكمت، ولأنه كذلك، فقد خلق العيش لذات نفسه، فالحياة جديرة بأن نحياها كرمى لها، لا كي نذهب إليها، وفي جيوبنا فخاخ لاصطياد أجناسنا الأدبية، وأشكالنا الفنية، فهذه الطرائد تأتي تالياً. طيور التجارب تحط يوما على دوحة الذاكرة، وتبني أعشاشها بين أصابع الكف، وتنطلق في فضاءات التأمل، وتحوم في آفاق التفكير، وتنضج في دواخلنا، نضوجاً صحياً، متناغماً، وحين تكتمل عدتها من النضج والتخمر، تصبح نبيذاً معتقاً، نشرب منه، ونسقي الآخر، القارئ، شراباً عذباً، يتطلبه، ويبحث عنه، ويجد صورته فيه، وهمومه في خطوطه ومشكلاته في صبواته، ثم لا تجاوز في ضربات الريشة التي نرسم بها، وبالكلمات التي ننقشها، بوحاً هو النجوى في قصيدة، وتوقاً هو مدمى الشوق في قصة، وما لما هو الكون في رواية، ومنظراً جميلاً هو المدى اللامتناهي في لوحة، ونغما حلواً، منساباً، موحيا، هو الإيحاء في لحن ينداح نغمات إلى اتساع أبداً، وهو الطرب في أغنية تحلق بنا عالياً، وهو الدانوب الأزرق يحملنا على أجنحة النشوة كما في معزوفة شتراوس، أو فانتازيا مخملية أرجوانية كما في قوس شوبان.

قلت إنني أعفيكم من تفاصيل سيرة حياتي، المعيشة والمكتوبة على السواء، فأنتم تعرفونها، أو ستعرفونها، لكنني أحذركم من محاكاتها. ليكن لكم صوتكم الخاص، وأسلوبكم المفرد، وكلمتكم المتميزة، التي تنقبون عنها، كما قال بابلونيرودا، عبر فجوة في الجليد، فعل الصياد في المياه المتجلدة، فهو يفتح ثغرة فيها، ويلقي بصنارته، وينتظر اصطياد السمكة، هذه التي هي هنا الكلمة. وكما أن الأسماك لا تلتقط طعم الصنانير بسهولة، فكذلك الكلمات لا تستجيب لطالبيها بسهولة. إنها، أحياناً، تبتعد تنأى، تحرن، تعاكس، تشاكس، وفي هذه الحال علينا أن نصبر عليها، ونصابر لأجلها، فعلى الصياد الماهر، لأنه ليس هناك إلا كلمة واحدة، لتأدية معنى واحد. ابحثوا إذاً عن هذه الكلمة، عنها بالذات وليس عن

غيرها، وستجدونها، تبتكرونها، تشتقونها، تلتقطونها من صندوق الحروف، فعل عمال المطابع في الماضي، أو تضربونها على آلة التنضيد فعل المنضدين في الوقت الراهن. وعندما تتحصل الكلمات الملائمة لكم، تكونون قد أمسكتم بمفردة مبتكرة، لصورة مبتكرة، فليس أقتل للأدب من الكلمات الجاهزة، والصور الجاهزة، الرؤى المتهرئة، والأحداث المتكررة، والتشبيهات المسبوقة، والنعوت الملحوقة، وكل ما يجعل القطعة الأدبية نسيجاً بساطياً عفت رسماته ونقوشه وشاهت منمنماته لفرط ما وطأتها قدم الزمان.

لقد حاولت دائماً أن أكون أنا وليس غيري. أن يكون لي صوتي المتميز، وحديثي المتميز، وكلمتي المتميزة، وصورتي غير المألوفة، ومن أجل ذلك وقفتُ نفسي على اكتشاف المناطق المجهولة في المواضيع التي أتخذها مادة لأعمالي، ومنذ البدء كان، نداء اللجة، هذا الاسطوري الحارق، يصيح بي منددا، أيها البحار، المنذور لقاع المحيطات ماذا صانع أنت بالبحر الذي تحب؟

ولقد سمعت نداء اللجة، وارتعدت له، واستجبت لإغوائه، ومضيت للقائه، كما يمضي الحبيب إلى لقاء حبيبه، غير هياب أو متردد، وهذا ما تجدونه في روايتي، الشراع والعاصفة حيث ينزل محمد بن زهدي الطروسي البحر في مطاوي الظلمة ليطارد العاصفة، التي كانت تطارد، بدورها البحارة فوق مركب الرحموني، هذا الذي وفَّى الرياسة حقها، والرجولة حقها، وقوانين اللجة الثائرة حقها أيضاً.

هكذا ترون أنني مولعٌ بما هو خارق، مشيحٌ عما هو عادي. إنني أكره العادية. أقتلها، وأدعوكم لقتلها، فالخارق هو البرق، هو النيزك، هو حمحمة الموجة تدفع بالموجة، وفي مطاويها، تضطرب المراكب، والسفن، وحيوات الرجال، وكذلك صلواتهم وابتهالاتهم وأدعيتهم، هذه التي ينسونها وهم على الأرض، ويذكرونها وهم في البحر، والهاوية تفتح شدقيها لتبتلعهم، فتستجيب لهم السماء حيناً، وتغضي في أكثر الأحيان.

اسمحوا لي، اليوم، أن أكون مجنوناً، فأنا أجهل لغة العقلاء، واسمحوا لي اليوم أن أعود بحاراً، كما كنت، فالبحار بيرق على سارية مركب، يعرف أنَّ من يدخل البحر مفقود، ومن يخرج منه موجود، والبيرق، راية اليابسة المهداة إلى الماء تكون، هي وريس المركب، آخر من يبتلعهم اليم.

دعوني، إذاً، أسألكم: هل عرفتم هذه التجربة يوماً؟ هل واجهتم الخطر، وعشتم على حافته؟ وهل المغامرة في قلوبكم، أم هي قشرة من القشور الطحلبية، أو الصدفية، التي تغلف هذه القلوب، وتحول بينها وبين أن تفنى، مرة وإلى الأبد، في مغامرة الحياة، التي تعطى لنا ذات مساء، أو ذات صباح، ويكون علينا، بعد ذلك، أن نقول لها، في لحظة الانخطاف: وداعاً! لأننا في الشجعان حيينا، وفي الشجعان متنا، وكنا على هذا النحو في الأمناء لرسالة الوجود، في جبروته، وسيرورته معاً؟

إنَّ معاناتي، وأنا بين الهدب والهدب من الفاجعة، ليست هي المعاناة الوحيدة، المتجلية في المتبدأ والخبر من تجربتي الروائية التي أتحدث عن بعض فصولها، إليكم: سئل مكسيم غوركي وهو يعمل حمالا على نهر الفولغا: هل قرأت الاقتصاد؟ أجاب: «إنه منقوش على ظهري» وأنا أقول، لنفوسكم الكريمة: «التجارب منقوشة على جلدي» لكن التجربة مادة خام، تتطلب الصانع الماهر ليصوغ منها عقد زبرجد لعنق أبيض، ينكشف عنه فستان أسود، فيكون منه التضاد، الذي به وحده يعرف الحسن.

بعد معاناة التجربة تأتي معاناة الكتابة. الحدث جاهز، إنه النطفة الإبداعية الأولى. لكن الورقة البيضاء على المكتب، مساحة أفعوانيه تنظر إليَّ أبداً بعيون باردة، مخيفة. هنا الصراع! بين الكاتب والورقة البيضاء يقوم الصراع. وحين أغلق الباب من ورائي، وأوقد شموعي، وأتطيب، غالية تعطر الدنيا بالشميم المخدر، يكون علي أن أذهب في المكتب وأجيء، كأنني عريس في ليلة دخلته، تدوي من حوله الدفوف، وتنطلق الزغاريد، وهو مشغول بهم الامتحان الصعب الذي ينتظره. إنه أمام بكارة الموجة العذراء، وعليه أن يثبت أنه فارس، أو يترجل

عن حصانه الأبيض، أمام التي حلمت به طويلاً، فارساً يأتي على حصان أبيض. الورقة البيضاء عروسي، والفارس القادم على حصان أبيض هو أنا، وفي كل ليلة يتكرر الخوف، حين يتكرر الامتحان.

أخيراً، وكما الفرس أمام لعبة الحواجز، أثب على موضوعي، أقارب الورقة البيضاء، وأبدأ الرسم بالكلمات، والسيكارة مشتعلة، وفنجان من القهوة يجيء، وفنجان آخر في الطريق، والسيكارة تشتعل من أختها والليل يمضي، والتوتر يشتد والسم يجري مجرى الدم في العروق، وعرق بارد على الجبين. إنها لحظة الانخطاف الرهيبة، وعلى الفارس المتعب، المثخن بجراح حراب غير مرئية أن يخرج من مستنقع الموت، أو يمضي مع الشوط حتى آخره. وقد تعلمت، بعد مِرانٍ طويل، وممارسة صعبة أن أمضي مع الشوط، فلا أتوقف مع الفتكة الغادرة، بل أمعن حتى أبلغ المنطلق السهل، ولدي، بعد ما أقوله، وعندئذ أنهض عن مكتبي، والفجر يتلامح.

لماذا أفعل ذلك؟ الجواب بسيط، حين يمسك القلم عن الاسترسال، في النقطة الميسرة، لا يجد مشقة عند الامتحان في الليلة التالية، في استئناف استرساله، وهذا ما يجعل الورقة البيضاء المخيفة، أقلَّ إخافة، وبذلك يتكامل الخلق، بما هو الكاتب خالق أدبي، عليه أن ينمي السياق، وينمي الشخوص، وينهي الحكاية، على النحو الذي أرادته الحكاية، دون صراخ أو افتعال، فأقتل ما يقتل الإبداعَ هو الاسقاط والتعسف والصراخ والافتعال، هذه الأمور التي أوصيت نفسي وأوصيكم، باجتنابها، لا تسقطوا أفكاركم، لا تتعسفوا في فرض حواراتكم، لا تصنعوا الكلمات التي تحمل ايديولوجيتكم على ألسنة شخوصكم القصصية والروائية. احترموا، وإلى حد التشدد، مشاعر شخصياتكم، امنحوها حياتها لا حياتكم، عبروا عن ذاتها لاعن ذواتكم، وبذلك تنفخون فيها الحياة، فتأتي من لحم ودم، لا من حبر وورق.

بعد ذلك تأتي التجربة الثالثة، الأصعب بين التجارب كلها. إنها المحاكمة! أفكاركم، في القصيدة والقصة، والرواية، والمسرحية، وكل الأجناس الأدبية والفنية، توضع، بشكل ما، أمام محكمة الضمير، وهي محكمة

عادلة، تنتصب في الرأس، وقامتها في الصدر، والمبدع هو المتهم دائماً، والذين أبدعهم هم المتهمون دائماً، وعليه أن يحاور، وأن يحاور، وأن يسأل، ويجيب، سواء بالنسبة للذين كتب عنهم، أو بالنسبة لمن لم يكتب عنهم بعد، أي الذين ينتظرون دورهم للخروج إلى النور.

أذكر أنني، ذات عام، رغبت في الهرب من ضجيج المدينة، والاستقالة من الكتابة، والإقامة في كوخ ما، على الشاطئ، لأكون جار البحر. وقد بلغت رغبتي هذه سيدة، عن طريق أحد الأصدقاء، فهتفت إلي قائلة:

- هل صحيح ما سمعت؟

قلت:

- صحيح يا سيدتي

قالت:

- قصري، على البحر، تحت تصرفك، هناك يمكن أن تعمل، بهدوء

قلت:

- أنا لا أريد أن أعمل، أريد أن أدخل النرفانا

قالت ضاحكة:

- بحار ونرفانا؟ متى تقلع عن الهوى والجنون؟

قلت:

- أنا أبداً باحث عن الهوى والجنون، ولكن على طريقتي.

قالت:

- وما هي طريقتك؟

قلت:

- أن أفكر، أن أتأمل، لا أن أكتب، إذا ما ذهبت إلى قصرك الجميل اللعين ذاك

قالت ضاحكة:

- تفكر بماذا؟ وتتأمل ماذا أيها المجنون الطريف؟

قلت:

- أنا، يا سيدتي، لست طريفاً أو مجنوناً، أنا أريد أن أنظر في داخلي، وأتأمل ما حولي.

قالت:

- وماذا في داخلك؟ أية عوالم غريبة تريد أن تكتشف؟ أم هذا سر؟

قلت:

- نعم هو سر.. وعزلتي، في قصرك، سر، فإذا أفشيته، لن أذهب إلى هذا القصر أبداً.

ولم تستطع سيدتي الجميلة أن تكتم السر وأنا مثلكم، ربما لا أحب من يفشي الأسرار، لقد أفشت سري فرفضت الذهاب إلى قصرها ورحت أبحث عن طريقة أخرى للراحة، والبعد والنسيان وقد اهتديت إلى ما كنت أنشد دون أن أخبر أحدا وفي أحد أيام الشتاء وكان شتاء قاسياً مثلجاً قصدت مصيف كسب الذي تعزله الثلوج في الشتاء عن الناس عزلاً تاماً.

هناك استأجرت بيتاً ضائعاً بين الجبال، مسيجاً بالبياض، محاطاً بالثلج من جهاته الأربع وحملت معي إليه المعلبات وزجاجات الشراب، وكاسيتات ومسجلاً، واشترطت أن يكون في البيت حطب، بل كثير من الحطب، واستجاب صاحب البيت لشرطي ووعدني ألا يخبر أحداً بمكان وجودي ولا يزورني هو نفسه ولا يقطع علي خلوتي لأي شأن من الشؤون.

مضى اليوم الأول على خير ما تمضي عليه أيام الانفراد بالذات شربت أكلت نعمت بالموسيقا الهادئة، وكنت في مجلسي أمام النار، ألقي في الموقد حطبة بعد أخرى وأستمتع بالسكينة تأخذني إليها، وترحل معي إلى الامداء البعيدة، حيث الجمال البعدي وحيث لا جمال إلا في البعد وكل ما هو بعيد جميل دائماً.

في اليوم الثالث حدثت تلك الحادثة الرهيبة التي لا بد أن تحدث لكل مبدع يوماً وخاصة الروائي والقاص والمسرحي وكل من أعطي له أن يدخل مع مخلوقاته الأدبية في حوارات تلامحت صور في النار ثم استقرت في دماغي،

شخصيات رأت الحياة أو تطالب في أن ترى الحياة ممارسة لحق طبيعي هو حقها الذي لا جدال فيه.

أنتم يا سادتي رأيتم إلى المجنون وهو يهيم ويتخبط ويركض حاسباً أنه في المركز، يتخلص من علته ناسياً أن علته تركض معه لأنها تسكنه ولا خلاص منها إلا بالشفاء، وكما تعلمون فإن المجانين والفنانين والمحبين قلما يشفون، فهم مرضى على نحو ما ومرضهم قد يكون قابلاً للشفاء أو لا يكون لكنه قدرهم وخلاصهم في آن.

حسناً! أنا كانت علتي في رأسي، وقد أغراني الهرب إلى قصر السيدة لو تم بالخلاص من المخلوقات التي تسكن رأسي، وقام في وهمي أن الاختباء في بيت منعزل بين الجبال والثلوج سيريحني من طرقات قبضة نحاسية تضرب كالمطرقة على الصدغين من هذا الرأس، لكنني كنت واهماً وكنت مجنوناً وقد أضعت عمري كله بين الوهم والجنون، لأنه مكتوب إن بالألم يحيا المبدع وبه يموت أيضاً.

كفى استرسالاً أنتم على شوق أو نفاد صبر أو لا مبالاة أمام حادثتي الرهيبة، وأنا لا أتحدث إليكم بل أفكر بصوت عال أمامكم، أن ما حدث في ذلك البيت المهجور قد كان رهيباً فألسنة اللهب، التي تتعالى من النار في الموقد، شرعت على غفلة مني تصنع لي تلك المفاجأة المذهلة إذ هي في ارتفاعها اللهبي كانت تتفيرق شعلاً وتتصاعد أعلى فأعلى ثم تتفتح كالبراعم الجهنمية في شجرة ملعونة أنواعاً وألوناً من زهر العالم السفلي، ومن كل زهرة يتشكل مخلوق ثم ينفصل عن اللهب بعد أن يتجسد حياً ويقف في الغرفة من حولي هذه حقائق وليست تهيؤات لم أكن قد فقدت عقلي بعد، ولم أكن قد صرت توشيحة في سحابة بيضاء تستسلم للريح وتنساق أمامها ثم تتبدد بفعلها، كنت عاقلاً جداً وواعياً جداً ويقظاً جداً لكنني كنت خائفاً جداً لأن ألسنة اللهب جميعها ارتفعت وتبرعمت وأورقت ثم أزهرت مخلوقات بشرية، هي ذاتها المخلوقات التي كانت في رأسي قبل أن أغادر المدينة وقبل أن أهرب منها إليها.

امتلأت الغرفة بتلك المخلوقات تحلقت حولي حاصرتني سدت علي منافذ النجاة، وطفقت تتكلم بأصوات ذات نبرات مختلفة لكنها مروعة كانت مريم السوداء إحدى بطلات روايتي (المصابيح الزرق) أو المتكلمين. قالت:

- جئت لمقاضاتك على ما ارتكبت من ذنب بحقي فقد رسمتني قبيحة شوهاء وبالغت في تشويهي.

قلت:

- أنا لم أذنب بحقك يا مريم، وهذا كتابي شاهدي

قال الطروسي، بطل «الشراع والعاصفة»:

- وأنا أيضاً أتهمك

قلت:

- بماذا تتهمني يا ريس، بل يا سيد الرياس

قال:

- أبقيتني، في روايتك، دون زواج دون أسرة أو ولد حكمت علي بالعقم.

وفي هذه اللحظة، انشقت صفوف مخلوقاتي وبرز لي إنسان بحر وغابة، طويل الشعر يعتمر طاقة صوفية، ومن أسماله البالية، ونظراته الحارقة، تتداح تهاويل مخيفة صاح بي:

- أنت مجرم أيها الهارب من غابة وحشية إلى غابة وحشية، وقد حانت ساعة الدينونة، أنا زكريا المرسنلي بطل روايتك «الياطر»

قلت مرتعشاً من فرط رعب أمام اتهامه:

- بم أسأت إليك يا زكريا؟

قال:

- صورتني نصف وحش ونصف إنسان، وحولتني إلى ضبع في غابة، ثم لم تكمل قصتي ثمانية عشر عاماً وأنا أنتظر أن تكمل قصتي وها أنا عمري يكاد ينقضي وما أزال مطارداً منتظراً.

قلت: وأنا أنوء تحت وطأة اتهام تتوفر له كل الأدلة الدامغة:

- هذا ذنب أعترف به يا زكريا، لكنني سأصلح الخطأ، سأكتب بقية قصتك في الجزء الثاني من الياطر.

تقدم نحوي بكل هيكله الفيلي الضخم، وخطف حطبة مشتعلة من الموقد وصرخ:

أنت كاذب وسأحرقك.

لكن صالح حزوم البحار الذي نزل إلى الباخرة الفرنسية الجانحة في مدينة اسكندرونة، وغرق فيها ولم يعثر أحد على جثته بعد ذلك، انتزع الحطبة المشتعلة من يد المرسنلي، وقال بصوته الرجولي الهادئ والواثق:

كفى عربدة! نحن هنا للتظلم وليس للانتقام، سنقيم محكمة وستكون فيها يا زكريا المحضر تنادي على أسماء المدعين والشهود.

قال ذلك وأشار بيده، فإذا قوس محكمة ينصب وقفص اتهام يقام على جانبي المحكمة مقاعد للمدعين ومقاعد للمحلفين، ورأيت فوق قوس المحكمة أبو فارس بطل المصابيح الزرق، وقام بمهمة النائب العام امرأة تفرست بها جيداً فإذا هي كاترين الحلوة بطلة ثلاثية البحر: حكاية بحار و«الدقل» و«المرفأ البعيد» وتقدم مني شرطيان هما من أبطال روايتي «نهاية رجل شجاع» فرفعاني عنوة واقتاداني إلى داخل قفص الاتهام، ووقفا عند بابه حارسين كي لا أهرب.

طلب القاضي أبو فارس من كاتب المحكمة الرجل الصغير القميء المتعلم في روايتي «الشمس في يوم غائم» أن يتلو قرار الاتهام، فتلاه كان قراراً طويلاً جداً وقد تلاه ونحن جميعاً جلوس، وأنا من قفص الاتهام أنظر بعينين مبللتين بماء الحسرة على عمر أنفقته في إعطاء الحياة لهؤلاء المتجمهرين في المحكمة من الذين كتبت عنهم والذين لم أكتب عنهم والذين كنت دقيقاً أميناً في رسمهم ولم أقترف بحقهم أي ذنب.

بعد قراءة قرار الاتهام والمواد القانونية المطلوب تجريمي بها، صاح القاضي:

- أين محامي الادعاء؟

تقدمت امرأة فارعة القامة رمحاوية العينين حلوة السمرة كنت قد فكرت أن أتخذها بطلة لروايتي التي لم تكتب وعنوانها «امرأة الدهور»، وقالت لرئيس المحكمة بنبرة جازمة:

أنا هي محامية الادعاء

صاح القاضي:

أين محامي الدفاع؟

فتقدمت امرأة بيضاء البشرة ذات جمال أسطوري هي جنية القمر في روايتي «الربيع والخريف»، وقالت: أنا هي محامية الدفاع يا سيدي

كنت، خلال كل هذه الإجراءات الشكلية، التي نص عليها قانون أصول المحاكمات، والتي عرفت منها أنني أحاكم أمام محكمة جنائية، وحتى أثناء قراءة الاتهام الطويل، أحدق في الوجوه، واتفرس في القسمات، وأحاول أن أتعرف على الجميع: على الذين يتهمونني، والذين يحاكمونني، والذين نهضوا بمهمة المحلفين، ومهمة المدعين، وأتساءل، بشك ديكارتي، عما إذا كنت أعرف هذه الوجوه كلها، وعما إذا كنت أنا الذي رسمتها حقاً، ومنحتها الحياة حقاً، أو وعدت برسمها ومنحها الحياة ولم أفعل، وقد أدهشني هذا العدد الكبير، المزدحم في قاعة المحكمة، من الذين كانوا شخصيات رواياتي، أو الذين لم يكونوا بعد، لأنهم ينتظرون دورهم وقد فرغ صبرهم، وكلت سواعدهم وهم يرجمونني بأحجار، هي مطارق في الصدغين، حاولت عبثاً الهروب منها، أو الإفلات من ملاحقتها، في تلك المطاردة العنيفة، السريعة، التي كانت لامرئ القيس، من أصحاب معلقاتنا المشهورة.

استمرت المحاكمة من الصباح إلى المساء... ثم رفعت الجلسة للمذاكرة، ودخل الملحفون القاعة المخصصة لهم للتداول، ورحت، خلال ذلك كله، وأنا انتظر الحكم بالبراءة، أحاول رسم ابتسامة ديمونية كما في مسرحية عطيل، طالباً الرحمة والرأفة، لكن كل من كان حولي، كور راحتيه، ذات الأصابع المتشنجة والأظافر المسنونة، ومدها نحوي ليخنقني، كما خنق عطيل ديمونته البريئة. أخيراً صاح المحضر زكريا المرسنلي، بصوت جهوري:

محكمة!

وقف كل من في القاعة. وقفت بدوري دلف إلى القاعة رئيس المحكمة وتلاه المحلفون وبعد أن علا صوت مطرقة القاضي ثلاث مرات سأل المحلفين:

هل هذا المتهم، حنا مينه، أبوه سليم، وأمه مريانا مذنب أم لا فأجابت الأكثرية:

مذنب

عندئذ نطق القاضي بالحكم، وهو الإعدام مع الأشغال الشاقة ومع وقف التنفيذ، إلى أن أقوم بأداء ما يجب علي من عمل شاق وهو مواصلة الكتابة.

هكذا، سيداتي سادتي، ترونني الآن بينكم أمارس الأشغال الشاقة التي هي الكتابة، وانتظر منكم أنتم أيضاً أن تصدروا حكمكم علي، وآمل ألا يكون حكمكم بالإعدام مرة ثانية، فالإعدام في المرة الأولى يكفي، وكل ما أرجوه أن تنفذوا الحكم بأسرع ما يمكن كي أتخلص من الأشغال الشاقة التي هي كتابة الرواية أو كتابة السيرة الذاتية التي حبرتها بدمي، ومازالت أواصل، وأنا في الحالين الجلاد والضحية.

ختام حكايتي مع دمشق القديمة!

حين تكون الحبيبة وهماً، ينقلب الوهم إلى عزاء، شقي أنا وقد أقدس في جملة الأشقياء وهم كثر في هذه الدنيا، والسؤال نفسه يتكرر: «لماذا لم تكتب رواية عن دمشق؟».

والجواب محرج حيناً، مراوغ حيناً آخر والخليون يومئون بيديهم، وبطرف اللواحظ العشاق، وفي تطوافي عبر أحياء دمشق القديمة، لم أكن خلياً ولم أكن عاشقاً، كنت واهماً، أنتظر حبيبتي التي تأتي مع الوهم، لتكون بطلة حكايتي الوهمية، وهذه الحبيبة لا تأتي، حتى في خيالي الجانح إلى الجنون، في بلد ناسه عقلاء، والمصيبة أنهم عقلاء، وأنا وحدي بينهم المجنون، أسعى وراء السراب، لأفديه وأغليه، والفداء والإغلاء، لا يبلغان مبلغ اقناع هذا السراب، بأن يتعطف، على نحو ما، فيخرج لي من التماعه الخادع، حبيبة التماعية، أدنو منها فتبتعد، وأبتعد عنها فتدنو، في لعبة الظن الذي يسكنني، ويغريني بيقين الوصول إليها.

خمسون سنة مضت، والبحث جار لا يزال، فالحكاية، بغير بطلة، لا حكاية، وفي هذا جواب للسائلين، المنتظرين حكايتي دون طائل، وهذه الخمسون، من السنوات، تقطرت عبر كتلة الزمن السائل، قطرات خمسين، شارات للخريف خمسين، علامات للاصفرار خمسين، والورق المبرقع بالشحوب، لما يتساقط بعد، مع أنني كصاحب الأناشيد، أقوم في الليل وأطوف باحثاً عن حبيبتي، وعلى رجاء لقائها، يتمهل خريفي، تتماسك أوراقي والحراس الذين أسأل، يقولون مرت من هنا، وهنا، وأمشي، ثم أمشي، وأدخل شارعاً، وأخرج من شارع، وأعاود السؤال ويعاودون الجواب، والطيف السرابي، لا يتجسد امرأة، والمرأة السرابية ما كانت

طيفاً لكنني حتى عن الطيف أبحث، وأسأله استعطفه أن يلم بي، ولو في رقاد، وأنصب له، قولة شاعر شركاً في الرقاد لكنه ينفر يقظة ومناماً ودروب دمشق أزقتها المحددة بالسور المجللة بوشاح التاريخ المعرشة على جدرانها وعلى بيوتها الطينية، أغصان الياسمين، ذات الأزهار البيضاء كالثلج، المزدانة في صحونها بالفل وبرك الماء ذات النوافير، ومصاطب الراحة، يسلمني واحدها للآخر، وآخرها لما بعده، وحبيبتي لا تبين لا تدرك فكأنها حقيقة الوهم وكأنها الظن في مدى الوهم، وكأنني، في الظل اللاحق، بي هنيهة بعد أخرى السابق لي أرتمي قتيل فياف ولا رمل، وأتوسل سراباً ولا صحراء، وأنقب عن أثر ما تكشف عن مثله أرض، ولا عرف صنوه سليمان، في مجد أمجاده.

خمسون سنة انتظار، خمسون سنة أمل، وأعرف مذاق الانتظار، ولهفة تحقق الأمل، والخيبة توقعاً، والخل مكافأة واليدين المصلوبتين، والخشبة على الظهر، والتاج الشوكي، والنكران عند صياح الديك، وجرار الماء التي تنتظر الأعجوبة لتصير خمراً، وعرس قانا الذي انفرط عقده، ومجزرة قانا الرهيبة على يد الاسرائيليين السفاحين.

إنّ الكلام على الماضي قد صار حاضراً، تداخل الزمن، قطعت شجرة التين المصابة بالعقم، آلاف النيازك تساقطت، كفي التهبت، أصابعي بترت، والأمس، عندما كنت أبحث عن حبيبتي في أزقة دمشق القديمة صار اليوم أنه الجنون، عاقلٌ ومجنون، أنا الحكاية التي يسألونني عنها لما تكتمل وقد لا تكتمل أبداً، لأنني لا أعرف دمشق فهل تعرف أنت يا سيدي دمشق التي أرغب في حكاية حكايتها!؟

قال جورج لوكاتش: الرواية- باعتبارها حكاية ضخمة- باعتبارها المحكي بالنسبة للكلية الاجتماعية، تمثل الشكل الموازي للملحمة وقال م، خرابتشنكو «الفكر الغني دون خيال، عقيم بمقدار ما الخيال عقيم دون الواقع».

أنا لدي الخيال، لدي الواقع، وحكايتي ضخمة، إنّما المحكي عنها غائبة، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع حتى الآن أن أنجز الحكاية التي يسألونني: متى تنجزها؟

«الصمت موت، والقول موت، قلها ومت» هذا كلام يعطي المشروعية للشجاعة، شرط أن يكون هناك ما يقال، ما يحكى، ما يتوازى والتضحية، إذا كانت هذه التضحية تنتج عملاً إبداعياً، والمبدع أساساً منذور لمثل هذا المصير، في سبيل الجهر بالحقيقة ومن أجل قضية شريفة، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر لولدها عبد الله بن الزبير، وقد دخل عليها، في اليوم الذي قتل فيه، يشكو إليها خذلان الناس إياه في مواجهة الحجاج: إن كنت على حق إليه تدعو فامض لما أنت ماض إليه فقد قتل أصحابك عليه، وان كنت رأيت أصحابك وهنوا، فضعفت نيتك، فليس هذا فعل الأحرار كم خلودك في الدنيا، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل.

لكن المسألة في مصير المبدع، إذا هو جهر بالمسكوت عنه، لا تتحدد بالموت وحده، وإنما في أن يجد الطريقة الكفيلة بمعالجة هذا المسكوت عنه، في عمل إبداعي تتوفر له عوامل المكان والزمان والحدث، أي أن يعرف الأشياء في مظانها، ويملك بعد ذلك القدرة على هذه المعالجة الابداعية، ليكون للمحكي عنه، مقومات الحكاية في شموليتها، وفي المقدمة عناصر البطولة، ومقدمة المقدمة الحبيبة المفقودة، لأنها لم تأت، وقد لا تأتي رغم البحث الطويل عنها.

وحيداً، إذاً أمشي في أحياء دمشق القديمة وأدور في أزقتها على أمل اللقاء بالتي ستكون تاج الحكاية، فالمطلوب مني أن أروي قصتها، وجواباً على السؤال الدائم: لماذا لم تكتب رواية عن دمشق؟ ومتى تكتبها؟ أفكر ثم أقول: أنني سأكتب روأية عن دمشق، عندما أعرف دمشق جيداً، ولهذا باكراً أو متأخراً، أبحث عما فاتني، ساعياً في الدروب والأزقة، بحثاً عن هذا الانسان، عن هذه البيئة، عن الذين في القاع من هذه البيئة، عن العالم السفلي الذي يعيشون فيه، وفي شروره يتخبطون!

ماذا أفعل؟ كيف أشرح نفسي؟ وهل يقتنع أحد، إذا قلت أنني أعرف جيداً شارع أبو رمانة، وبعده شارع المالكي، إلا أن قلمي لا يؤاتي، للكتابة عنهما، إنه منذور للبحر، للغابة، للجبل، للثلج، للمناطق غير المكتشفة بعد، للعيش على حافة

الخطر، لمواجهة الموت في الخطر، لإنفاذ وصية أسماء بنت أبي بكر، قبل أن أعرف هذه الوصية لابنها عبد الله بن الزبير، للقول عما لا يقال، مخافة أن أصمت، وفي الصمت انطفاء للشعلة المتوهجة داخلي، وفيه أيضاً، انزياح عما يرضي الله، ويرضيني.

آه يا دمشق، يا مدينتي التي في مركز دائرتها سر التاريخ، يا مليكتي التي أضعت أمام عرشها الجليل قدرتي على النطق، أنني أحبك، وبسبب من حبك، لا أتكلم عليه كيلا أسلمه إلى برودة الكلمات، ووحشة الليل إذا ليّل، وفأس الحطاب في جذع شجرة مزهرة، احتفالاً بقدوم الربيع.

آه يا دمشق.. ما أحوجنا إلى الجنون!

هل صحيح أنني لا أدري، لماذا لم أكتب عن دمشق رواية؟ الجواب بين نعم ولا، ففي ذاتي تبرير، ولكن إلام يرتكز؟ وفي مزاجي تعليل، لكنه غير مقنع، أغلب الظن،.

والسؤال تكرر، وقد حرت في الإجابة عنه، وبحثت عن الأسباب ولم أركن إلى واحد منها، فهل كانت زيارتي لحي القيمرية القديم مفتاحاً لقفل على شفتي؟

كرة أخرى أحاول مقاربة الحقيقة، ومرة أخرى أقول: أنا لا أعرف دمشق بما يكفي، فهل تعرفها أنت أيها السائل الملحاح؟ ثمة شك ويقين، وهذا يحدث مع الروائي الذي ينزع، في معالجة الحدث، إلى الأمانة فيه، فأنا منذ ثلاثة وخمسين عاماً في دمشق، أنا من سكانها، ثم لا أعرفها، لأنني أعيش على هامشها، وقلبي لا يدق مع قلبها، في الوجيب المتصاعد، هناك، في الأعماق.. إنني سائح، زائر، مستأجر، وبيت أبي لم يكن فيها، ولم يكن لي في قاعها بيت كذلك.. مخلوعاً من تربتي صرت، وزهرة فيء على حافة نافذة في الطابق الثالث، تتكرم علي سيدة المنزل ببعض الماء، وبعض السماد والهواء، وفي الشتاء تنقلني إلى الداخل، تضعني على قاعدة للزينة، تعرضني على ضيوفها للفرجة، تظهر أمامي بثياب نومها، اسمع من مكاني تنهداتها، اسمع اهتزاز نوابض سريرها، أعرف التفاصيل الدقيقة لحياتها، وهذا كل شيء، هذا هو عالمي، أنا زهرة الفيء المدللة، في الطابق الثالث بشارع المالكي، أو شارع «أبو رمانة»، أو حي القصور، أو حي التجارة، أو الأحياء التي يسكنها السادة، بينما نشأتي، وفقري، وعالمي الذي أعرفه جيداً، هو

أكواخ المساكين، البيوت الطينية للعبيد، وعن هؤلاء، الذين يستحقون الطوبى، كتبت، ورسمت بالقلم لوحاتهم التي لا حد لبؤسها، ولا حد لشهامتها.

في اللاذقية، بجوار البحر، كنت شيئاً آخر، زهرة أخرى هناك، في قاع المدينة كنت، وهنا، على السطح صرت، هناك كنت زهرة متوحشة، غجرية، في حديقة غير مسيجة، تلفحها الشمس، تعصف بها الريح، يهطل عليها المطر، وهناك، في اللاذقية، عاملاً كنت مع عمال المرفأ، صياداً مع الصائدين في البحر، ناطوراً لكروم الزيتون، جامعاً لحباتها، حاصداً للسنابل، معفراً للحبات الضائعات بين القصيل منها، مواطناً عرف كل الأحياء، عاش فيها، خبر ناسها، سبر أغوار حياتهم وتعاساتهم وآمالهم، وحمل همومهم التي هي همومه، وكتب حولها، عن معرفة، وخبرة، ومعايشة، ونزول إلى عالمهم السفلي، حيث جهنم التي ينبت فيها الشوك والعوسج، وتشتعل النار المطهرة من الخطايا والآثام، لافحة جلودهم السمراء، حارقة وجوههم الصفراء من تعب وشقاء وجوع، غارسة في نظراتهم، المتوثبة في حدقاتهم، كل حقد الدنيا اللاهية عما يكابدون، وكل كره الكون للأرض، ابنة الكلب، التي لا تريد أن تستيقظ، مع أنهم يدقون عليها بخبطات أقدامهم، ذات الكعوب الحديدية!

نعم! هناك على الساحل، كنت حوتاً في بحر، أما هنا، في المدينة الكبرى، فقد صرت سمكة صغيرة في بركة ماء للزينة، والفارق الكبير هذا، قطع أصابعي، أحالني إلى كاتب يمسك القلم في راحته المستوية، بينما النار تحرق حنجرتي التي بحّ صراخها، من ألم ينهش ما بين الضلوع وشغاف القلب، وفي كرنفال المحرومين استشعر الغصة في حلقي، مقاوماً أشباح الأقزام الساخرة، معانداً، وبقسوة، كل محاولات الناظرين إليّ من شرفاتهم العالية، الراغبين في تحويلي إلى مهرج في هذا الكرنفال.

من ولد في البحر، في البحر يموت، ومن ألوى شكيمة الريح العاصفة، يطارد العاصفة غير هياب، ومن ألقت به عذابات أيام التشرد، حديدة في نار، بهذه النار يتفولذ، ومن بترت يمينه النيازك وهو يتصيدها، قادر أن يتصيد

النيازك باليسرى، ومن عاش في الغابات، ذئباً بين الذئاب، لن يتحول إلى حمل تجعله الذئاب وليمة في رقصة انتصارها، والنشوة في الموت على اسم الحق، لاتزال نشوته الكبرى.

تسألونني لماذا لا أكتب عن دمشق؟ أنا لا أعرف دمشق بعد يا سادتي، فهل تعرفونها أنتم؟ إليكم، يامن ولدتم في قاع المدينة، وهجرتموها إلى بلكوناتها المتسامقة، أوجه كلماتي، لا لتعودوا إلى هذا القاع، ولكن لتتذكروه من حين إلى حين، فتنبض قلوبكم مع قلوب المغروزين في أوحاله، وتتقاطع أحاسيسكم مع آهات المعذبين فيه، وبذلك تتخلصون من غربتكم البائسة، الزائفة، نتيجة العطالة والبلادة والاسترخاء في أسرتكم الوثيرة، التي سئمت استلقاءكم عليها، وأنتم توهمون أنفسكم، في أنكم، على هذه الحال، ستتسقطون مطارف الإبداع، من فضاءات الغمام الشارد.

أنا في حي القيمرية وأزقتها أدور، وهذه الأزقة ليست للسيارات بل للأقدام، وفي غابة البيوت العتيقة، المتشابكة، نداء المجهول، وعلى ظهري تتبقع النظرات المتساقطة من «شناشيل ابنة الشلبي» السيابية، وها أنا أعرفها، أنا زائر في أحيائها، مسافر في أزقتها، أنا طفل يمشي، يتعلم أن يمشي، ويكتشف، ويدق الأبواب، لا طلباً للصدقة، بل هو أذن للدخول، لرؤية ما وراء الموصدات من الجدران، للجلوس على المصاطب، وإمتاع النظر بالنوافير، وقطف النارنج والليمون حبات من كريات صفر وزرق، والتعطر بشميم الياسمين.

دمشق «يا مدينتي العجوز، يا مدينتي الطفلة، ما أروعك عجوزاً وطفلة.. لست سائحاً، ولا كميرات تصوير مدلات من كتفي، أنا مواطن، ساكن في الجهة الأخرى، جاء اليوم إلى أحيائك العُتّق، مستذكراً «طيب ما كان بين الدور والطرق» مستدرجاً نداوة الظل بعد لفح الهاجرة.. وأعود، تقولين؟ وعد؟ ومن بات يصدق الوعود؟! قولي: من بات يصدق الوعود؟! قليلون جداً، أولئك الذين يعدون، ويفون بوعودهم، فالطيبون لا يزالون شقائق

نعمان، أرجوانية اللون، يزهرون مع الربيع، والربيع يعود دائماً، أجل! الربيع يعود دائماً، فلا قنوط «من رحمة المطر»!

لو كان لي حبيبة لجئت معها، لعدت إليك ويدي بيدها، ولو كان لدي مزمار، لأنشدتك المزامير، وأسمعتك حلاوات نشيد الأناشيد، وقرأت قصيدة «الشناشيل»، ورويت للتي معي حكايا القوافل والخانات، وأحاديث السمر والسمار، حتى بعد أن مر الزمان بالسامر الحلو «ففرق الشمل سماراً وندمانا» وأغضينا على الذل، في بلد المسجد الأقصى، «فتأنق الذل حتى صار غفرانا» وما برح، في الساح، ميامين، لا يغضون على الذل، وهيهات أن يغضوا، أو ينتصر الذي من أجله يفادون، وسينتصر ولو بعد مئة عام، وماهي المئة عام في عمر الزمن؟ وما هو الزمن إن لم يكن حكاية تاريخ طويل؟

إننا على وثوق، وبهذا الوثوق سأعود، إلا أن حبيبتي قد لا تأتي، ولماذا تأتي؟ ستقول: إنه جنون! آه يا مدينتي، آه يا مدننا، ما أحوجنا إلى الجنون، قليلاً من الجنون، قليلاً من الجنون!

أنا هو الخروف الضال!

لست مصاباً بمرض الزهيمر (خرف الشيخوخة) لكنني أنسى أين وضعت هذه القصة أو تلك الرواية، وبلغ بي الأمر حداً لا يُصدق، فقد نسيت اسم زوجتي، ودخلت المحكمة لتصحيح الاسم، فابتسم القاضي وقال لي ممازحاً:

- هل ينسى الرجل اسم زوجته، وأنت الكاتب الألْمعي؟

أجبته:

- الكاتب الألمعي هذه تحتاج إلى مدقق حسابات يكون مشهوراً في بلدنا سورية، أما اسم الزوجة فهو الذي ينسى يا سيدي القاضي.

ابتسم القاضي وقال في دعابة محببة:

- هذا صحيح في الحياة الزوجية، غير أن القانون لايعترف به، بل يعاقب عليه!.

قلت مقاطعاً:

- إذا كان العقاب سجناً، فهذا هو المرتجى، لأنني تعبت من الكتابة التي أكلت حروفها لساني، ومنذ سنوات وأنا أنادي: خذوني إلى السجن أرجوكم!

- ولماذا هذا التمني غير المألوف وغير المنطقي؟

- لأنني ملول بطبعي.. وقد مللت النوم مع نفسي!

- تنام مع نفسك!؟

- نعم سيدي القاضي، مع نفسي!

- ولك زوجة. كما تقول!

- لي زوجة وهذه حالي.. فقد كنت خريج سجون وأنا الآن خريج مشافٍ..

- إذاً أنت عاجز!.

- معاذ الله.. إنني أبحث عن الآخر، الأخرى، وأنا من أنصار يونغ الذي خالف معلمه فرويد، وهذا كل ما عندي.

حكم علي القاضي بأخف العقوبات ١٢,٥ ليرة سورية، وقال لي تدفعها متى تشاء، فأنت معروف بالأريحية، وهذا الحكم أريحي أيضاً. لا تنسَ اسم زوجتك مرة أخرى!.

إنّ الدافع إلى كل هذه الرغرغة، المضحكة المبكية، هو التالي:

نشرت في جريدة «تشرين» مقالاً عنوانه «هل تعرف دمشق يا سيدي، وفيه بعض الخواطر عن مدينة الإشعاع الفكري، وعندما قرأت المقال منشوراً لم أكن راضياً عنه، لكن مديرة أعمالي جاءتني فجأة بكراس، عليه صورتي وأنا في خريف العمر، وقالت لي:

- انظر! في هذا الكراس تتحدث عن دمشق، وهذا هو الحديث الأصلي وليس الذي نشر!.

المصادفة خير من الميعاد، وبعدد لا يحصى من المرات، لذلك أعتذر للقراء الكرام عن هذا الإزدواج، وأنشر النص الأصلي، وفيه الكثير من الحب لمدينة الطريق المستقيم دمشقنا الذي عجز المؤرخون عن تحديد بنيانها الشعري، والشرعي، والإبداعي، وكل ما يقال عنها أنها محروسة بقاسيون، منورة بالغوطة، مشهورة بنهر بردى، وبشعر سيد عقل الذي تغنّت به فيروز، وعرف بالشّاميات الماجدة والخالدة معاً.

إن تصحيح الخطأ أصعب بكثير من إبقاء الخطأ على ما هو عليه، وقد فكرت طويلاً في الموضوع، وتذكرت حكاية والخروف الضال. وملخصها أن راعياً شرد من قطيعه خروف، فترك القطيع وراح يبحث عن الخروف الضال، ولما سئل عن هذه المغامرة الطائشة أجاب: الخروف الضال هو الأثمن عندي لأنه كانَ ضالاً فوجد، وصار قول الراعي هذا من الصلوات على الميت، لأنه خروف مقدّس، ينفع في رجاء الموت والحياة، لأنه مكتوب من آمن بي سيحيا ولو مات.





القسم الثالث

في الكتابة الأدبية والروائية


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الكلمة وتأثيرها.. حتى في هذا الزمن!

بدءاً ..أنا مع الدراما ومع مشجعيها الغيورين عليها، لأنها صناعة تعتاش منها عائلات يزيد تعدادها على نصف مليون أو أكثر وقد ازدحمت عندنا الشاشات الصغيرة، من فضائية وأرضية، بالمسلسلات في شهر رمضان الكريم الفائت، واحتار المشاهدون في أمرهم، وتباينت أذواقهم، وتفاوتت درجات اهتمامهم بهذا المسلسل أو ذاك، إلى درجة أن بعضهم كاد يلتصق بالمقعد الذي يجلس عليه، أو الفراش الوثير الذي يستلقي عليه ليلاً، ومنه يتابع هذا السيل الآتي من مشاهد ملونة، مزركشة، لوقائع من حياتنا تارة، وبعيدة عن وقائع هذه الحياة طوراً، كأنما قامت قيامة الدراما التلفزيونية في هذا الشهر الفضيل، وباتت تخشى أن يفوتها الركب، أو يجرفها الزحام، فتفوت الفرصة السانحة، ويتأخر كل شيء إلى رمضان القادم، فتخسر الشركة المنتجة، أو يتهرب المخرجون المحترفون، أو يلوب الممثلون في طلب الأجور، أو يأنفون من الدخول في متاهات «الشط والمط» لفكرة صغيرة، بائسة، مجترّة، مكررة، يراد لها على الطريقة المكسيكية، أن تكون مسلسلاً في خمسين أو ستين حلقة، يتناسل بعضها من بعض بطريقة فجة، بائخة، مثيرة للشفقة، أو بطريقة كوميدية تعيسة قوامها التهريج الرخيص الذي يمجه الذوق السليم!.

إنَّ التاريخ العربي المجيد والحافل، قد أصبح في نظر بعض كتّاب السيناريو، منهبة لكل ناهب، ومشغلة لكل من ليس له شغل، وشاة ذبيحة، أو ناقة معقورة، أو بقرة بيضاء، يعملون فيها سكاكينهم، أو سواطيرهم، تجريحاً، وتمزيقاً،

وتجريداً للحم عن العظم، وفق رغبة «السفاحين الأباة» لا رغبة التاريخ الذي يجب احترامه، وصيانته من الأذى، والنأي بها عن التشويه، والحرص عليه من التبديل والتعديل، حتى أصبح هذا التاريخ يصيح: «وامعتصماه!» ولا من يسمع، أو يستجيب، لأن الصيحة لامست الرؤوس لكنها لم تلامس النخوة، ولهذا فإن الكثرة المطلقة من المشاهدين، رغبوا عن المسلسلات التاريخية، التي قوامها بعض الخيول، وبعض الرايات، وبعض الكتل البشرية من حملة السيوف، المقعقعة في منازلات مصطنعة، أو متحركة آلياً وفق إرادة المخرج، وفي متناول الكاميرات المحمولة، وفي فضاء من دخان النيران، أو مثار الغبار، كي يبدو كل شيء حقيقياً مئة بالمئة، مع أنه وهم في وهم، كما قال الممثل صباح عبيد لجريدة «تشرين»!

هناك استثناءات طبعاً، وهناك التزامات بوقائع التاريخ من قبل بعض الأدباء الذين يعرفون التاريخ جيداً، ويستطيعون نقله من الكلمة الى الصورة بأمانة، إلا أن هذا البعض ضاع في زحمة الدراما التاريخية، المعجوقة بالخيل، المزدلفة بفرسان، يلوّحون بسيوفهم، في فضاء من الرمل وكثبانه، دون أن تكون لهم مهارة الفروسية، في تجليها الأصيل، وكل واحد منهم يظن نفسه عنترة، ويكابر في ظنه، ويخاتل في جدله، ويتشوّف على الناس المشاهدين، الذين يحسب أنَّ في مقدوره الضحك على لحاهم!

الأنجح، في رأيي، هي الدراما الاجتماعية، التي كانت سيدة الشاشة، في عجقة العروض الرمضانية، مثل «أميرة في عابدين» للكاتب أسامة أنور عكاشة، و«أبناء القهر» للكاتب هاني السعدي، وإخراج مروان بركات، و«العطار وسبع بنات» التي لعب الدور الرئيسي فيها الممثل الكبير نور الشريف، و«الفصول الأربعة» و«أين قلبي» ليسرى ومحمود قابيل وغيرها.

إنَّ وزارة الصحة في سورية، عيّت في الكلام على مرض الإيدز وخطره، إلا أن القليل جداً كان عدد المهتمين بإرشادات وزارة الصحة، فلما عُرض مسلسل «أبناء القهر» وأدى فيه الممثل ميلاد يوسف، دور «نور» المريض بالإيدز، هرع الناس كما أخبرني أحد الأطباء، إلى إجراء الفحوصات في سورية ولبنان والبلاد

العربية الأخرى، التي شاهد فيها الناس هذا المسلسل الناجح، ومن هنا ينبغي التقاط العبرة، مما تفعله الكلمة الصادقة ومدى تأثيرها على المشاهدين، في الدراما الاجتماعية التي ضمرت في السنوات الأخيرة، لطغيان الدراما التاريخية عليها، وقد انسحب بعض كبار الممثلين اعتذاراً عن المشاركة في الدراما التاريخية لدورة رمضان ٢٠٠٢، رافضين تجارة الوهم، والسماسرة الذين يهيمنون على الفن ويبيعون الوهم للمشاهدين! إضافة إلى أن بعض الذين يكتبون سيناريوهات المسلسلات التاريخية من السذاجة في الفهم التاريخي، ومن الجنف في قراءة الوقائع، ثم معالجتها بشكل مفيد للمشاهدين راهناً، بحيث تؤكد كل هذه السلبيات مقولة «الوهم وبيع الوهم فيها!».

ولقد أغامر، أو لا أبالي، بما قد يثار من غمز ولمز، إن ذكرتُ أنَّ الكاتب والقصصي المعروف حسن.م يوسف، قد أجاد في نقل الكلمة إلى صورة مرئية، حين تولى كتابة سيناريو «نهاية رجل شجاع» عن رواية اجتماعية لي بهذا الاسم، تدور أحداثها في مرفأ مدينة اللاذقية، قامت «شركة الشام للأعمال الفنية» بتحويلها إلى مسلسل ضخم، كان، باعتراف العاملين في الوسط الفني، والمشاهدين جميعاً، بداية نهوض الدراما في سورية، قصّةً وإخراجاً وتمثيلاً، وقد عرض في الفضائيات والأرضيات لعدد كبير من التلفزيونات العربية وغير العربية، ولا يزال يعرض حتى بعد مضي عشرة أعوام على إنتاجه، لأنه قدّم للمشاهد حدثاً جديداً، حدثاً فريداً، أثار تساؤلات لا عدد لها، عما إذا كان المرفأ عندنا بهذا الشكل، وكانت الإجابات: نعم، المرفأ بهذا الشكل، وكل المرافئ بهذا الشكل تقريباً، من مرسين إلى اسكندرونة في اللواء العربي السليب، إلى اللاذقية، إلى بيروت والاسكندرية إلى المرافئ الأخرى في كل بلاد العالم.

إنّ التماثل، هنا، في الجوهر، في هيكلية المرافئ والعاملين فيها، لا في الإدارات والأنظمة والقوانين والأجور والخصائص، ففي كل مرفأ ورديّات عمل وعمال ورؤساء عمال لضبط التشغيل، إلا أن فيها، أو في أكثرها، «ذئاب مرافئ» يتعاطون سراً، وفي حالات نادرة علناً، التهريب في الاتجاهين: براً وبحراً، كما

يقومون بأعمال نهب وسرقة وسمسرة واتِّجار بالعملات، وهناك، أيضاً، فتيان المرافئ الذين يتكلمون، ولو بقدر ضئيل، لغات أجنبية متعددة، في مقدمتها اللغة الانكليزية ودور هؤلاء إرشاد البحارة إلى الخمارات والنوادي الليلية وبيوت الدعارة والصيارفة والبنوك، وخدمات متنوعة، في رأسها تدفير المسروقات، أي إيصالها الى تجار صغار، يتمركز عملهم في بيع ما يصلهم من بضائع مسروقة إلى غيرهم، ومن غيرهم إلى الناس الذين يحترفون استهلاكها أو بيعها بالمفرق بعد شرائها بالجملة، وأخطر ما في المرافئ تكتلات من يعملون فيها، والانقسامات التي تحدث بينهم، والوشاة والنمامون والمستزلمون لهذا الطرف أو ذاك، و«البلطجية» و«القبضايات» والقتلة وباعة السلاح، وفي جو كهذا لا تستطيع إدارة أي مرفأ، أو عناصر الحراسة لديها، أو رجال الشرطة ومخافرهم، أن يحولوا بين «ذئاب المرفأ» والمعارك التي تنشب بينهم، والممنوعات التي تُتداول، والمنهوبات وتدفيرها، والحذوفات التي يذهب ضحيتها رجال من كل الكتل!

إن مرفأ اللاذقية، الذي كان يديره «الختيار» قبل قيام شركة المرفأ، يختلف طبعاً عن المرافئ الأخرى، العربية والعالمية، لكنه من حيث الجوهر، أو جو المرافئ العام، له نفس الشكل، نفس المحتوى، ماعدا وجود الخمارات ونساء المرافئ المفقود، لذلك لا ينزل البحارة، عادة، من سفنهم إلى المدينة، ومقولة «نهاية رجل شجاع» بسيطة، مختصرة، مفادها أن الشجاع وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وعليه أن ينضم إلى نقابة وهذا أفضل، أو تكون له كتلة وهذا أسوأ، أو يركب رأسه كما فعل مفيد الوحش في الرواية والمسلسل، فيدفع حياته ثمناً مجاناً!.

بقيت ملاحظة: هي أنه لا بد، عندنا كما في العالم، من الاستناد إلى الأدب لنجاح الدراما، وسبب هبوط مستوى الدراما السورية، أنّها فرَمت التاريخ، أو استرخاص السيناريوهات التي يفبركها كتبة عاجزون، ولئن فشل مسلسل مأخوذ عن رواية جيدة، فإن هذا الفشل يعود إلى الشح في التمويل، أو الاسترخاص بالاعتماد على ممثلين من الكومبارس، أو النقص في الدعاية، أو احتكار العرض، وحصره في تلفزيون واحد!

لنأخذ مصر مثلاً، فإن الأعمال الدرامية من أفلام ومسلسلات فيها تستند إلى أعمال أدبية غالباً، حتى لم يبق شيء مما كتبه إحسان عبد القدوس، أو نجيب محفوظ، أو يحيى حقي، أو توفيق الحكيم، إلا واقتبست أفلاماً ومسلسلات، نجح معظمها نجاحاً كبيراً، أو جيداً، أو مقبولاً، من منطلق معرفة قيمة هذه الروايات أو القصص ومدى فائدتها، أو نفعها في تحويلها إلى أعمال فنية.

ومن غير الممكن، في صدق التعبير، ألا أعترف أن ثمة أفلاماً ومسلسلات سورية قد نجحت، دون اعتمادها على أي نص أدبي مكتوب أو مشهور، إلا أن القضية التي فيها الاستفتاء، تبقى أوفر حظاً في النجاح الدرامي المأخوذ عن عمل أدبي، لهذا القاص، أو هذا الروائي، أو هذا السينارست الأصيل، وهم موجودون في سورية، وبعدد غير قليل.



التحليل ... والسادة المحللون!

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه أن حرفه الأدب، وتبسيطاً حرفة الفقر - كما كان أسلافنا يقولون عنها مباشرة أو مداورة لم تدركني كما أدركت سواي لأنني فقير حقاً وصدقاً منذ أبصرت النور ...

والفقر في دقة التمييز فقران: فقر أسود عرفته موجعاً لا باكياً في طفولتي وفقر أبيض كماهي حالي اليوم أي مستورة من الناحية المالية - حسب المصطلح الدارج أو المصطلح الذي أنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا! - مبدعه وصاحبه إلا أنني على شيء من حياء في ادعائه كما كان جرير على حياء في زيارة قبر زوجته فنّفس من قهره بهذا البيت :

«لولا الحياء لهاجني استعبار / ولزرت قبرك والحبيب يزار»...

ولأنكم أو أكثركم ممن يعرفون كثيراً أو قليلاً عن حياتي فإنني أعفيكم توفيراً لوقتكم ووقتي معاً من الدخول في تفصيل ما أسلفت من شأن حرفة الأدب التي أدركتني وأنا في الأربعين من عمري، أضطرب كالنورس في يوم عاصف أو يوم «عبوس قمطرير» في مطبات ريح عتيّة تشيل بي إلى فوق وتحط بي إلى تحت دون أن تبلغ ما تريد من تكسير جناحي كما فعلت مع صاحب «الأجنحة المتكسرة» الذي كان متمرداً في لبنان ونسي بسبب «مجرى العبير من نهديك!» تمرده في أمريكا دون أو قبل أن يصنع بيدراً من الحلمات كما فعل العبقري الآخر نزار قباني هذا الذي كان وسيبقى ظاهرة من الصعب أن تتكرر، فالمجد ملك العبقرية وحدها لا ملك جبار ولا سفاح والعبقريان: جبران خليل جبران ونزار قباني من غرس مزرعة اسمها الشام، وفي الشام يطرب الحجر دون أن تلامسه خمرة النواسي!

إن البصم - في حدود رأيي - عدو التحليل وقد تفاخر كرومر، آن الاستعمار الإنكليزي بلاطة من رصاص على صدر مصر، بأنه لعب دوراً خبيثاً عندما كان مسؤولاً عن التعليم فيها لأنه نجح بجعل التعليم بصماً لا تحليلاً وهذا البصم إذا ما كان سائداً في هذا البلد العربي أو ذاك حتى يومنا هذا ينبغي التخلص منه شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة، لأنها من المستحيلات والصديق وزير التربية في سورية قد يكون منتبهاً الى هذا الخطر أو عليه أن يوليه ما استطاع من الانتباه اللازم.

كاتب هذه السطور ليس مربياً ولا يستطيع أن يكونه لكنه سياسي نظرياً وعمليا، وقد أفاد في طلب العلم من مصادر كثيرة بينها النوم تحت الجسور وهو مشرد وملاحق في جنيف وزوريخ... كما أفاد، وهو مستقر نسبياً في الصين وليس عيباً إذا كنت صريحاً ولن أخدش حياء أحد إذا كنت صديق الحقيقة بقدر أكبر، فذكرت إنني تعلمت من امرأة قوادة بمثل ما تعلمت من دكان الحلاقة... دع عنك ما تعلمته في صغري من تنقلي أجيراً بين بيت وقصر وكوخ وقن، ومن وقوفي متسولاً على باب مقبرة أرمنية في مدينتي اسكندرونة طلباً للصدقة.

المرأة القوادة علمتني هذه الحكمة: «الرجل لا تذله إلا شهوته فلا تدع شهوتك تذلك» ودكان الحلاقة على باب ثكنة علمتني الصبر على المكاره في تهرب الزبائن وهم من الجنود من دفع الشهرية حين كانت الحلاقة مشاهرة لانقداً بالكف، وكنت أرغب في الهروب من هذه المهنة إلى أن عاد أحد هؤلاء الزبائن من العلمين فقطع الحبل الذي كان يربطني بها!

يومها لم تكن مهنة المحللين معروفة بعد وشاء الحظ «لا تقل شئناً فإنَّ الحظ شاء» أن يمتد بي العمر الى أرذله فإذا أنا إمّا مع عتاريس أباة، كماة يجارون في الخطابة وفي الضرب على طاولة الحوار سواء كان الموضوع المطروح للحوار من اختصاصهم أم لا... فالصمت أمام التلفاز غير وارد وبقدر ما يرتفع صوت المحاور مقاطعاً مشاغباً مشاكساً يحسب نفسه أنه انتصر على محاوره مهما كان المحاور الآخر عليماً أو جاهلاً بالموضوع.

الذي يخطر في بالي، وأنا أتابع فروسية السادة المتحاورين، لماذا لا يقترب أحد منهم من أيّة مسألة مسكوت عنها أو تثير إشكالاً لهذه الدولة العربية أو تلك، إذا ما تطرق إليها الحوار ولو تلميحاً؟

إنّ إعجابي ببعض المحللين غير قليل والإصغاء الى ما عندهم من قول فيه اقتراب من الحقائق المسكوت عنها يدفعني إلى الثناء المشكور على هذا الاقتراب وحتى النفاذ إلى لب المسألة أو الجهر بها علناً أو ملاحقة موضوعها بكل دقائقه وتفصيلاته، دون خوف أو حذر أن يقع هذا المحاور الكريم في ورطة يحاسب عليها حساباً عسيراً بعد ذلك، فالعرب كل العرب في بلدانهم واقطاعاتهم يعيشون غالباً على رد الفعل وليس الفعل، وهذا موقف غير لائق في السياسة، بل هو ضار أشدّ الضرر لكنه واقع نحياه منذ أجيال مع الأسف فهذا العدو أو ذاك يقوم بالفعل ونقوم نحن برد الفعل والارتهان هذا في التعاطي السياسي للفعل ورد الفعل ضار بنا بل هو خطير علينا أبلغ الخطر لأنه يضعنا في خانة العجز وللإنصاف فإنّ علي أن أكون منصفاً فلكل قاعدة استثناء وقد كان لنا في الفعل، سواء حرب تشرين، ودحر العدوان الثلاثي وتأميم القناة وغيرها، مواقف فاعلة جعلنا الأعداء من إسرائيل إلى حلفائها، يضطرون إلى الرضوخ لرد الفعل أمام الفعل الذي كنا نحن أصحابه وهكذا مراراً قمنا بالفعل لا رد الفعل كما العادة.

ومع كل ما سلف فإنني أسأل لأعرف ليس إلا: لماذا يسكت السادة المحللون عندنا عن الإشارة مجرد الاشارة إلى هذه النقطة الصغيرة الكبيرة في الممارسة السياسية العربية!؟ ولماذا العنتريات وليس بين هؤلاء المحللين المبجلين من عنترة واحد؟ ولماذا هذه الغوغائيات التي ننجر إليها كما يريد أصحاب بعض الفضائيات فنتشاتم ونتشاجر ونكاد نتضارب بالأيدي وأصحاب هذه الفضائية أو تلك يفركون أيديهم؟

للحق أقول: إن الوقوف على منصة رد الفعل وحده معروف ومؤقت ولو تحققت للعرب وحدتهم الفعلية لبادروا للفعل ووضعوا أعداءنا في مواقف رد الفعل عنوة واقتداراً إلا أنّ هذه الوحدة المنشودة لاتزال مسحوبة على المستقبل، إن لم نقل إنها في مطاوي الغيب لاتزال.

جوائز نعم.. ولكن بغير شروط نافلة!

من يفعــل الخيــر لا يعــدم جوازيــه

لا يــذهب العــرف بــين الله والنــاس

ليست دمشق مدينة الطريق المستقيم فقط، وليست، أيضاً المدينة التي غزلت التاريخ على أناملها، بل هي التي، في ثوب عرسها الأبيض، خبأت ألف تفاحة، لألف آدم وحواء، والأفعى المباركة، الحكيمة والوديعة، تدلت، بين غصن وغصن، من شجرة الخير والشر، وفي عينيها توق إلى الرفث يستعلن في نظراتها الباردة، المدركة أن التاريخ يبدأ مع الجنس، قاهر الموت هذا، الذي دونه، لم يكن نسل، ولم ينشطر النسل إلى ذراري، انشطار الجزء إلى جزيئات لاتُرى إلا بالمجهر، وعنها أخذنا علم انشطار الذرة، إلى ما لا يحصى من الذرات، التي تعود، بدورها لتنشطر كل ذرة منها إلى مالا يُعدّ من الذرات، في متواليات هندسية لانهاية لها.

ما أريد قوله، خارج هذه البدهيات، هو أن دمشق يتيمة الأبوين، تشمخ، في يتمها، على التاريخ نفسه، لأنها كانت قبله، وتتيه على الدنيا بأنها، وحدها، المدينة التي استعصت على التأريخ، والمؤرخين، وعلماء الآثار، في الشرق والغرب، وأربع رياح الأرض!

وشموخ دمشق له سند من حق، وله ارتكاز على واقع، يتجليان في المعطى الإبداعي، الذي، في القديم، كان منبراً للاشعاع، ولايزال، في الراهن، منبراً لهذا الاشعاع، فمن داريا كان البحتري، ومن المعرة كان أبو العلاء، ومن حمص كان

ديك الجن، وغيرهم وغيرهم، وفي الراهن كان بدوي الجبل من السلاطة، وعمر أبو ريشة من حلب، ووصفي قرنفلي من الميماس، وغيرهم وغيرهم، والعطاء الابداعي، برعاية الرئيس بشار الأسد، يتواصل، فقد منح، في الدورة الأولى، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة لنخبة من المبدعين العرب السوريين، وتابع، في الدورة الثانية، منح هذا الوسام لنخبة أخرى، من المبدعين الآخرين، حتى أصبحت هذه الرعاية الكريمة، للثقافة والمثقفين، سُنّةً غير مسبوقة، وربما غير ملحوقة أيضاً، وإنني كمثقف من هذا الوطن، أرغب، صادقاً، أن أجزيه الشكر جزيلاً، جميلاً، أصيلاً، وأن أُثمّن فعل يده البيضاء، ذا النقش على لوح سيناء، وجدار عاصمة الأمويين.

قلت إنَّ دمشق مدينة الطريق المستقيم، وأنّ التاريخ بدأ مع التفاحة، بإغراء من الأفعى الحكيمة، وأنّ آدم وحواء اقتسما هذه الثمرة، وهبطا إلى الأرض حيث الكفاح قانون الحياة، في البر والبحر معاً، وأزيد أنّ دمشق العريقة بالنسب، المرجوّة في الحسب، ستبقى كما العهد بها، ثابتة في مبدئيتها، راسخة في ثوابتها، حانية حنو الأم على الإنسان، في وطنه العربي الكبير، وفي ماهو أبعد مدى، وأنأى أفقاً وأنقاً، وأوسع في رمال البيد مجالاً.

إنّ الجوائز الثقافية، في الوطن العربي، لا تُتخم من تمنح له، بل تشعره بأنه مبدع، وأن من حق المبدعين أن تُبلّ شفاههم من ظمأ، وتُستر جسومهم من عري، وتُسد بطون ذويهم من سغب، وتكتم الآه في حلوقهم من أسى، وهذا حسبهم، إدراكاً منهم أنه ليس في الامكان، أكثر مما كان، وأن التشبه بأمثالهم، في الغرب والأميركيتين، ضرب من المستحيل، لأن الكلمة، حتى في أناقتها، وروعة مضمونها، شبه مجانية هنا، وسبيكة من ذهب هناك، رغم أن السوية الفنية عندنا، في كل الأجناس الأدبية والفنية، لاتقل نفحاً للطيب عما لديهم.

لقد كانت جائزة الملك فيصل، طيب الله ثراه، أولى الجوائز، لكنها تقتصر على من يجيد مبتغاها، في اللون الذي هي وقف عليه، وكان الأجدى، لو أن مداها

إلى اتساع، واستجابتها إلى الإنفتاح أرحب، وتغير أهدافها، مع تغيّر الزمن، إلى سماحة تخرج بها من إطارها إلى ماهو أوفر تطابقاً مع روح العصر، إلا إذا كانت هناك وصية، والوصية ملزمة، غير أن باب الاجتهاد وارد، والإجتهاد، في الخير، يزيد الخير خيراً.

ثم هناك جائزة الإنسان الكريم، والشاعر الرقيق، المرحوم سلطان العويس، وهذه تكاد تنافس جائزة نوبل، في مداها غير المحدود، وشروطها المطلقة، ونَصَفَة القائمين عليها، ونزاهتهم، وسعيهم الدؤوب إلى إعلاء شأنها، وتشييد مركز باسمها، مخصص.. في طوابقه، وأركانه، لجمع ما تيسر من تذكارات الذين فازوا بها!

ثم هناك جائزة البابطين للشعر، وجوائز أخرى، صغيرة، وفيرة، تنتشر كالطلع في الربيع، ملقحة الزهر ليتحول إلى ثمر، وفي هذا كله دلالة على أن الإهتمام بالابداع والمبدعين، قد استيقظ من «رقدة العدم» وأنه بشارة، في منقار حمامة، إلى الذين في الفلك، وقد حاصرهم الطوفان، في سفينتهم الراسية على جبل أرارات!

لقد صاح جان بول سارتر، وحرب فرنسا متضريّةٌ في الجزائر، والقتلى من الجانبين، يموتون في عبثية من جانب المحتلين الفرنسيين، وفي جدية وشرف من قبل الثوار الجزائريين، صاح: «يا لعارنا في الجزائر!» فطلب المتطرفون من ضباط الجيش الفرنسي اعتقال جان بول سارتر، فنظر إليهم الجنرال ديغول، وكان رئيساً للجمهورية الفرنسية، نظرة اشفاق على جهلهم، وقال لهم قولته الشهيرة: «وهل اعتقل فرنسا كلها!؟».

نعم! جان بول سارتر، بما هو مفكر وكاتب، كان فرنسا كلها، والمبدعون العرب، بما هم مفكرون وكتاب، كانوا ولايزالون، الوطن العربي كله، وقد آن لهذا الوطن وحكامه، أن يعوا هذه الحقيقة، وأن يرخوا قبضاتهم التي تكاد تخنق مبدعيهم، حتى لا يرتفع منسوب النقمة، أكثر مما هو مرتفع، فتكون النازلة أشدّ وقعاً على الجميع!

جاء في التوارة «من بيت أبي أُضرب!» والمبدعون العرب، الصادقون في إبداعهم، المفادون لأجل وطنهم وشعبهم، لا يرغبون أن يأتي يوم، يقولون فيه «من بيوت آبائنا نُضرب» وعندئذٍ نخسر واجباتنا الحضارية أمام العالم.

جوائز؟ وما نفعها إذا كانت مقننة، محددة، مؤطرة بشروط، غايتها الاستيعاب، والاستزلام، ومنع المبدعين العرب من الاستئناف ضد ما هو كائن، في سبيل الأفضل الذي سيكون!؟

لا! الجوائز المشروطة مرفوضة ثلاثاً، ومن الخير أن الجوائز التي ذكرتها، والتي فاتني أن أنكرها، أكرم، وأنبل من هذا الاثم، الذي اعترف، في حدود علمي، أنه لم يرتكب، ولن يرتكب أبداً، وإلا كانت، كما قال الجامعة: «باطل الاباطيل باطل!» وضاع العُرف بين الله والناس!



القلم الشريف!

قلمـــــي لاتكـــــن كالغانيــــاتِ للذي عنـــده الفلـــوس تـــؤاتي

كن، حيث يجب أن تكون، وأنت أدرى أين تكون، ففي مدّعى الشوق، مدّعى صبابة، والصبابة قناديل ضياء، من الأعالي تتدلى، لتنير للسالكين في الظلمة، طريقهم إلى النور، في الصراع المحتدم، أزلاً أبداً، بين الظلمة والنور، في الزوايا الأربع من دنيانا، ونحن، في الارتفاع على الشدائد، خير من يعلم كيف يرتفع على الشدائد، وفي الرياح التي يسوقها أمامه، رهوة كانت شبوباً، ثم لا ندور مع أي إعصار، بل نروض الإعصار، فالإنسان، في قوته التي طالما روّضت الطبيعة، براً وبحراً، وعادت الطبيعة، في الاستئناف الجدلي، لتروضه، في البر والبحر معاً، هذا الإنسان، الذي يصدح بفخر، ماجداً ممجداً، هو من يروّض الإعصار، ويتعدّى، فيروض الأعاصير، في كل أشكالها وحالاتها، طبيعية كانت أم اجتماعية، وبذلك يحقق ذاته، يُرضى العلى، في وثبته على الأذى «غَلَبَ الواثبُ أم لم يغلب» قولة الشاعر الكبير عمر أبو ريشة، والوثبة، الجامحة، تتكرّر، تكررها الطبيعة، يكررها المجتمع، ويكررها، أيضاً، الإنسان الذي لايُقهر، عندما يحدد هدفه، ويطلب، نشداناً لتحقق هذا الهدف، ما يتسق ومجرى التاريخ، هذا الذي لايعود إلى وراء أبداً.

إن طَلَبَةَ الإنسان، جزء البشرية ككل، هي طلبةُ البشرية ككل، والأدب الصادق، لايكون، في صدقه، إلا تقدمياً، إلا متنامياً، إلا متعاظماً، ككرة الثلج، التي تكبر أبداً، وهو، الأدب، باعتباره ثقافة من الثقافة، مَنْ يلبّي طَلَبَةَ الإنسان الاجتماعية، حين تكون، في تحليلها الموصوف، في الظرف الموصوف، على

وفاق مع هذا الظرف، في العدالة الاجتماعية المنشورة؛ والبشرية لاتطلب، في اصغائها لنداء أبنائها، إلا الخير والسعادة وبعض الرفاه، وبعض الإنصاف لهؤلاء الأبناء، ومن هنا يكون، ولابد أن يكون، التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي، مهما يطل الزمن.

الإنسان، إذن، هو المبتدأ والخبر، وهو الكفاح والفرح، وفي كل كفاح فرح، لأنه، الإنسان، ليس في العقدة ولن يكون، وفي نزال الأحداث يصنع التاريخ، ولو سئل التاريخ من أعطاه الوقد والوقود، ومَن مدّ ناره التي بها، كالقطار، يندفع إلى أمام، لأجاب الأقلام الشريفة، هذه التي تصوغ الكلمة، والكلمة كانت بدءاً، وكان دورها، حتى في هذا البدء، أن تصوغ وجدان الإنسان، وجدان المناضل، وجدان الفرد والجماعة، في نضالهما للتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي، وتصوغ، إضافة إلى ذلك، وجدانات الذين يصنعون أدوات هذا النضال، وبذلك تكون الكلمة مقاتلة على كل الجبهات، حين تعرف واجبها، وتؤديه بأمانة.

قلت إنَّ الإنسان لايخشى الإعصار، مهما يكن عتياً، ويروض هذا الإعصار، مهما يكن عنيفاً غضوباً، وماذا يبتغي الإنسان، أو نبتغي نحن البشر، في هذا الترويض؟ في الجواب أقول: الخير والحق والجمال!

ذلك أن اليراعة، منافحةً، منضدةً، منعقدةً على صلابةٍ وعزمٍ، ثائرةً على كل منكرة، إذا دنى الضمير عن روع هذه المنكرة، قادرةٌ، وافية، في شروفها والغالية، على ردع هذه المنكرة، في القول والفعل معاً، وأن اللسان، في الصمت المميت، عندما الخطر يتهدد الأوطان والشعوب. والذي يؤثر العافية، أو يُربط بسلك نحاسي، أو يتلهّى بالتفاهات، لايكون لسان الشرفاء من الناس، واليد، إذا كانت مغلولة إلى الرقبة، في وقت عليها أن تتحرك، أن تضرب، أن تقاتل، ليست يد المفادين من الناس أيضاً، والقلب، في أضعف الإيمان، إن لم يكن جسوراً في مقاومة الشر، حتى في أضعف الإيمان هذا، فإنه ليس قلب الذين كتب عليهم القتل والقتال في سبيل الحق.

وأعيذ الضمير واللسان واليد العربية، أن تكون، جميعاً، إلا في النقع المثار، نصرة للأخوة العرب في فلسطين الجريحة، الذبيحة، المبقورة بمدية السفّاح شارون ومن معه، ومن يقف وراءه، أعيذهم من السكوت، والعالم، من حولهم، بأكثريته يرفع الصوت مستنكراً، شاجباً، مديناً الفظائع التي ترتكب، بحق الأطفال والشيوخ والعزّل، ناهيك بالشباب والرجال من الاحتلال الأميركي للعراق الذي هو أعتى في وحشيته وإجرامه!



"الشراع والعاصفة"... سردية تتسق والمضمون!

ليست السردية وحدها، بل اللغة معها، تمران بمراحل مختلفة، وبسلاسل ثقافية لا تبقى هي ذاتها، وإنما تنتهي تدريجياً سلسلة، لتولد تدريجياً سلسلة أخرى، ويكون، بين هذه السلاسل، قطع، ويكون وصل، حيث يحمل رحم السلسلة القديمة، جنين السلسلة الجديدة، التي تفرض نفسها، وتنتصر، مهما تكن المعارضة لها قوية، وذات نفوذ وسلطة واسعين، فمبدأ التغيير، وانتصار الجديد على القديم، لهما نسب مع سنّة التبديل، ولن تجد لسنة التبديل تبديلاً.

لقد دارت معركة في ثلاثينيات هذا القرن، بين أنصار القصة والرومان – كما كانت تسمى الرواية – وبين معارضيهما، وكانت ذروة هذه المعارضة، التي توسلت كل طرائق الاتهام والتجني، تتمثل بعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي – وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة (الرسالة) وكانت قمة التأييد، للقصة والرواية، تتمثل بكرم ملحم كرم، ومارون عبود، ومحمد لاشين، في لبنان ومصر والبلاد العربية الأخرى، وكان من البدهي أن يتغلب أنصار القصة والرواية، على معارضيهما، وان تنقطع سلسلة ثقافية قديمة، تقوم على البلاغة والسجع والإنشاء، وتنشأ سلسلة ثقافية جديدة، تقوم على نصر المفردة الجديدة، أي الكلام الخالي من البلاغة والسجع والإنشاء وتستخدم الكلام الذي يناسب القصة والرواية وهو كلام فصيح، إلا أنّه كلام الناس العاديين، من أبطال القصص والروايات، ولم تلبث هذه السلسلة الثقافية أن صارت قديمة بدورها، مخلية الساحة لسلسلة ثقافية جديدة، هي السلسلة التي امتدت من الأربعينيات حتى أيامنا هذه، وأضحى لزاماً، الآن أنْ تنشأ سلسلة ثقافية جديدة وفق ناموس التغيير والتبديل لان الكتابة باللغة القديمة المرتكزة

على العبارات الجاهزة مثل (أكل الدهر عليه وشرب) و(مزقه شذر مذر) و(عاد بخفي حنين) هذه الكليشيهات المبنية على رمل القواميس، الخالية من التحليل، لم تعد صالحة لزمننا الذي يتطلب لغة جديدة، ذات أسلوبية جديدة تقوم على التحليل وعلى المفردة غير القاموسية بإطلاق... إلخ...

إن سردية رواية (الشراع والعاصفة) كانت بنت مرحلتها ظاهرياً، لكنها في المضمر، كانت بنت هذا الوقت وما يليه، مادام الكلام على البحر - وأدبنا العربي القديم والحديث خال منه تقريباً! - يعدُّ جديداً في مفرداته وتعبيراته، فقبل (الشراع والعاصفة) لم تكن ثمة رواية بحرية، رغم أن العرب جميعاً يعيشون على شواطئ البحار وكل ما كان في القديم نتف من حكايات بحرية سندبادية.

وكل ما كان في الجديد قصص قصيرة، تتحدث عن الصيادين وتخوم البحر التي لا تتعداها، إلى أن صدرت (الشراع والعاصفة): فكانت ملحمة البحر، أو قصيدة البحر، كما سماها النقاد، وقد نُحت بطلها محمد بن زهدي الطروسي (من أندر المعادن) حسب تعبير الناقد الكبير المرحوم غالي شكري، في كتابه (الرواية العربية في رحلة العذاب).

إنني لست في صدد تلخيص هذه الرواية، فالروائي لا يلخص روايته أو يحللها، ومن شاء أن يقرأها ملخصة، وبدقة، فليقرأ كتاب (شخصيات روائية – نماذج مختارة) لمؤلفه فتحي عبد الحافظ، الصادر عن (دار غريب) للطباعة في القاهرة، عام ١٩٩٨، وسيجد مع التلخيص تعليقات على كل فصل، يكفي أن أشير إليها كما سيجد في ملخصُ كل فصل، الصدقية الضرورية، لإثبات أن سردية هذه الرواية، سردية راهنة، ذات إضافة مستقبلية، ذلك أن سردية (الشراع والعاصفة) تبدو عادية، في القراءة الاطلاعية، وهذه السردية العادية يتوفر لها شرطان، يجعلانها في غير العادية، حتى بالنسبة للقراءة لأجل المطالعة وهذان الشرطان هما: الإيقاع والتشويق، ففي الإيقاع يظهر السرد رهواً حيناً متوتراً حيناً، هادئاً تارة، هادراً طوراً، وفق نمو السياق الروائي، دونما تعسف أو افتعال أو صراخ، هذه الآفات التي تقتل الإبداع لأنها قبلاً تقتل سويته الفنية، أما التشويق فإنه يشد

القارئ إلى ما يقرأ، يأخذه إليه، كما الفيلم السينمائي الجيد، ويروضه ما أن تبدأ أحداث الصراع مع البحر، خلال العاصفة التي تنبثق من الصمت جاعلة المركب أو السفينة مثل طاسة مفرغة، مدورة يلهو بها الموج قبل أن تغيبها اللجة في القاع، أو تكتب لها النجاة بشكل ما، خارق غير مألوف وغير مسبوق أيضاً.

وحتى مع استعمال واو العطف، تبقى السردية في هذه الرواية مغايرة للسردية في الروايات المجايلة لها، ومرد ذلك إلى أن رشاقة السرد أو شاعريته، تخفف كثيراً من أثر واو العطف هذه، لكن علي ان أشير إلى أن هذه الواو لم تعد صالحة الآن مع تطور السردية، في القصة والرواية والمسرحية والمقالة، وحلول الطقس البرقي، الذي تنتفي منه أحرف العطف، لأنها تتجانف مع الجملة القصيرة، المتدافعة، التي تلعب فيها الفواصل والنقاط وعلامات التعجب والاستفهام، دوراً مميزاً يتلاءم تماماً مع السلسلة الثقافية الجديدة.

الانتحار صمتاً![*]

أنا لست بكاتب مقدمات، ولا أعرف حتى كيف تكتب. نقص! هو هذا، إلاّ أنه جزء من كل. أرفض أن أجرّح نفسي، مع أن هذا يطيب لي، وعندما يعتادني الحنين، في لجاجة الذكريات، إلى أن احتضن دمائي المهدورة في التراب، لا أحصل إلا على كف مخضبة بالنجيع، أطبعها، فعل الزير سالم، على باب المجهول، لتكون علامة، على أنني في الرجال حييت، وفيهم، ومعهم، أموت، قبل أن يعرف المركب، في مصطخب الموج، أن اللجة غايتي، وأنه هو نفسه فرسي ونعشي في آن.

نعم! أنا لست كاتب مقدمات، والسبب بسيط: تنقصني المعرفة والبرودة. لا أعرف، في الكلام على الكلام، أن أكتب، ولا أستطيع، في صبر أيوب، أن أنزع دودة عن جرحه المدمى، كي أتقن بعضاً من لا مبالاته، هو المختار للتجربة، المنذور للألم، الذي ضجّ به الألم، فأصبح أسطورة خارج التاريخ، خارج المكان والزمان، كما لا أعرف، في الانفعال، أن أهدأ، فدمعتي تسبق نقطة حبري، وهذا ما ينأى بي عن برودة يحتاجها التحليل والتقييم.

وعندما، في لحظة مشاعر ملتهبة، قال لي سعيدي، رفيق عمري: «أكتب يا حنا، لآخر كتاب لي، كلمات للوداع» انحبس الصوت في حلقي. دنا البعيد البعيد لعينيّ، رؤى للذكريات، وتهاويل لأمس غبر، كان فيه سعيد وكنت، زهرة ولونها، فكرة ورجعها، صداقة وعروتها، ننام على حلم مشترك، ونستيقظ على حلم هو نبض الشرايين، والآمال كبار كبار، لا

(*) مقدمة الكتاب «عزف منفر لزمار الحي» للمرحوم سعيد حورانية.

نريدها، لا هو ولا أنا، صغيرة في أيما موقف، حتى ولو كانت الخيبة زلزالاً، وكان المرض وحشاً يكشر عن ناب كفحمة الليل، ما دام كلانا، في زحمة الخطب، يلقى الشدة بابتسام، وينتضي الحق سيفاً، في عريه بريق ينير الطريق لمن بعدنا، وهم الأمل عصياً على الأخذ، من يمين أو يسار.

بدءاً تهيبت، ترددت، تدافعتني الأحاسيس، تناهبتني الغصص، قلت في النفس: «لا! ليس هذا، يا صديق، هو الآخر في كتبك، وليس هذا، هو الالتماعة الأخيرة في عينيك، والمرض، على قسوته، لن يبلغ أن يكون نسراً، ينهش منك الكبد، فالعمر، في التوق الوثوق إلى الحياة، إلى تطاول نريده، ونريده، فلماذا كلمات الوداع إذن؟» ثم وجدت أن الواجب يقتضي، والصوت في الحرف نداء أخوة، أن يمتزج حرفانا، ويتقاطعا، مرة أخرى، في الأولى كان هو المنادي، وفي الأخرى أكون أنا التلبية، وفي هذا كفاء في المبادرة، على اسم غد أفضل نشدناه ولمّا نزل.

في أوائل الخمسينات، طلع سعيد حورانية في القصة، طلوع صبح من أصباح نيسان، في نداوته شبق بياني، يعانق سكرة في الفكر، وفي سطوعه تترامى ظلال، في عناقها والنسغ، أفياء تغري المتعبين في التماس الراحة كما عند قديس، وتبهج النفوس كما لو أن اشراقاً تبدى لها، مبشراً بالجميل من الأيام المقبلات.

كان عنوان المجموعة القصصية الأولى «وفي الناس المسرة»، وقد بهرنا هذا العنوان الدَّال، الحامل إلى المكتئبين مسرات الدنى، فقبسنا من مسرته فرحاً بمجيء الابن الحبيب، الابن الذي سيظل، في عطائه، وفي توقفه عن العطاء معاً، وفياً للرسالة التي يحملها: صنع المسرات للناس.

أعرف أن قبله لم تكن، ثمة مهنة اسمها مهنة «صنع المسرات للناس». هذه حرفة جديدة، ما عرفها الأقدمون ولا المحدثون، وجاء الابن الذي به سررنا ليدشن بها عهداً جديداً، عهداً منذوراً للتضحية، بغير حدٍّ ولا قياس. وكجميع المبشرين بمستقبل أفضل، يلقى العنت في السرى، والهاجرة في رائعة النهار، فلا يبالي بذاك ولا هذه، ويمضي قدماً، شجاعاً، مجابهاً، متحدياً، من سجن إلى سجن، ومن

ملاحقة إلى أخرى، ويكون الطراد على صيد النفوس، هو السبق المجلّي، على الأصيل من الأفراس، ويسبق، كما شأنه أبداً، في أن يكون، في طراده، نجمة مجرة تهدي السائرين في الظلمة، ولأنه كذلك، في شموخه والإباء، فقد استبيحت حريته، من دوننا جميعاً، وطوق بالخسيس من التهم، ليكون الطائر الطليق رهن محبس من نوع خاص: الافتراء النذل.

هنا أيضاً، ينتصر على الخفافيش التي تخاف النور، يخرج لها في الضوء، ترزه عيناه السوداوان، فتغدو المسامير حقلاً يجوسه غير هياب، ومن قدميه، في تيهِ البيد الأشد إحراقاً، ينز الدم في المواطئ بفعل رمل زجاجي يستعيد أصله، ويغدو القبض عليه، بعد تفلته من كل الفخاخ، قضية بذاتها: يبقى أو يرحل، ويقرر أنْ يبقى، لكنهم يرغمونه على سفر قسري، بحثاً عن الحرية واللقمة، ولا مندوحة، وهكذا يرحل، وفي الذات توق إلى العودة، إلا أنَّ رحيله يطول، ومع تطاوله يقع في دوامة نهر الغربة، ويكون بعدها، غرق هو الذبول، بالنسبة لغرسةٍ اقتلعت من أرضها، وزرعت في مناخ جليدي، يروح يجمد النسغ فيها صبراً، تحت وطأة ثلج يتكاثف، شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، حتى يغتال الزمهرير الاقحوانة العندمية، فترجع إلينا هي وليست هي، الماهية ذاتها، اللون ذاته، لكن نية الإزهار، على اسم القيامة المرتجاة، تفقد أهم مقوماتها: القدرة على العطاء، بعد أنْ أصيبت الثقة بالكلمة بنكسة لا برء منها.

ونفهم، نحن أصدقاءه، ولكن تدريجياً، أن الروح المتمردة تجرحت ولا مناص، وبعد ذلك، وبحكم الملاحظة، نتفهم الواقع الجديد على مدى السنوات، ويئن «سريره الذي لا يئن» في قلوبنا هذه المرة، أسفاً وحسرة والتياعاً على قلم تلبّسه الغمد عنوة، وإنْ كانت هناك اشراقات، كالشمس في الشتاء، تفج الغيم دون قدرة على تبديده، ويبقى الربيع، موعداً، إلا أنّ الربيع يبقى في سفر، هيهات يرجع منه، وسعيدنا، رفيقنا، زميلنا، أملنا، لن يرجع إلا برجوع ربيعه الذي انطوى، مرة وإلى الأبد.

هنا، في هذا التحول، تحدث حالة استبدال، هي الندرة النادرة تماماً، هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة، إلا أنه يظل استثناء، وفي تاريخ الأدب غير شاهد على وقوع هذه الفاجعة، هنا وهناك وهنالك، ومن جديد يكون لنا، في سورية، كما كان للفرنسيين في فرنسا، رامبو الذي يهجر أروع مغانيه: الشعر! ومثله يهجر سعيد ابهى مرابعه: القصة، والعطاء، في الحالين، يوفى مقتصداً، منحسراً، تاركاً وراءه دوياً كالذي تحدث عنه المتنبي، وشأن أصابعنا، في تداول السمع تقطار أسى، لأن هذا هو المكتوب في اللوح.

غير أن ثمة افتراقاً. رامبو تخطفته التجارة، وسعيد تخطفته الوظيفة، وما كان من هذا بد، لمواصلة العيش، في أدنى، وأقسى، درجات القناعة، دونما تطابق في الشبه إلا في حالين: الأولى موت رامبو المبكر، والثانية مرض سعيد المتأخر، وفي هاتين معاً تراجيديا غريبة، لحياة غريبة، هانت عند رامبو، وتنكَّبت الهون عند سعيد، فالاستبدال، عند قاصنا، كان إمعاناً في تمرد الروح، ومع التمرد رغبة مضمرة في تعجل النهاية، من خلال الإمعان في الصمت، والإمعان، بدرجة أكبر، في ارهاق الجسد، كأنما ليجعله مطواعاً لتقبُّل الواقع الذي صار إليه، وهذا الواقع، أكبر الظن، بل أصدقه، هو الانتحار صمتاً، احتجاجاً على بؤس الحياة، وعلى انعدام رحمتها، ويأسا من رؤية العدالة الاجتماعية تفيء على المسكونة.

قد يكون هذا جنوحاً في التأويل، إلا أنه لا يجانب الحقيقة إلا قليلاً، فإرتفاع منسوب الاحتجاج، في النقمة على ما هو فاسد في هذا العالم، غدا ارتفاعاً في منسوب النقمة على المساوىء والمباذل، حيثما وقع البصر، وبسبب من أن النقمة نار تحرق ناراً، والاحتجاج، في الصمت تخصيصاً، يقود إلى اكتئاب غير معلن، فإن إغراء الانتحار الذاتي، على صخرة هذا الاحتجاج، يصبح سبيلاً إلى موت بطيء، مسرطن.

إذن انكفاء سعيد احتجاج، وصمته احتجاج، ومرضه احتجاج، وفي رفضه للواقع، وصولاً إلى واقع أفضل، ظل هو هو، ذلك الثائر الذي كان، في الموقف والكلمة، إلا أن ثورته يحدها جدار من رصاص، فترتد إلى الداخل، وتمور في

الحنايا، من غير نقمة على الناس، كما هي عادة الآخرين، وفي بعد عن الشكوى هي لديه عيب في الشيم، ودونما عتب على القدر، لأنه كان يعرف قدره، وقد مشى إليه غير هياب، في صراع غير متكافئ، بين من أعد المشرفية، وبين من طعن بها غدراً، متخفياً، متسللاً. مخترقاً اللحم إلى العظم، كيلا يدع لنا أملاً في النجاة، هذه التي نستمسك بها، حرصاً على بقائه، ويسخر هو منها، بلا مبالاة كاملة، أخذاً بالمطلق من الأمر، كي يكون هو صاحبه، لا أحد سواه، وكي يظل يقرر ما يريد، رافضاً أي تقرير نيابة عنه، من أي كان، وعن أي جهة صدر.

ونسأل: ما هو هذا الذي قرره؟ وما هو هذا الذي اختاره؟ وقد نناقشه حقه في هذا التقرير والاختيار المرفوضين، لو لم يكن صمته احتجاجاً مضمراً، تشبث به طويلاً ولا يزال، لا عن ضيق بالحياة بل منازلة لها، كي يختصر زمن الغباء، وينجو منه، ربما دون أن يدري، مقتاً وازدراء. هذا ما يسمونه فعلاً وجودياً يمارس حريته في الأمر المطلق، وتكون ممارسته تتويجاً إرادياً لحق الذات في أن تقرر، لاتجاه الصمت وحده، ولا إزاء الاحتجاج المترتب عليه كذلك، وإنما حيال المصير الكبير، الذي في حدِّ الحدِّ منه، وعيٌ كاملٌ بما يؤول إليه الصمت الاحتجاجي، الصمت العنيد في امتلاك حق الرفض وإلى النهاية.

وعلى طول الرحلة، بين القول والسكوت، كان يبدو باسماً، مشرقاً، مقبلاً على الحياة، يعب منها بغير حساب، حتى ليضرب به المثل في صخب المرح، ولذع النكتة، ويحار جليسه في توقد بديهته التي لا أسرع منها إلى الرد، وبعنف، حين يتطلب الموقف ذلك، كما يحار في جسارته جهراً بما يعتقد، دونما إيثار لأية سلامة.

هذا التشكل النفسي، والاعتداد الساعدي، جعلاه محبوباً ومرهوباً في آن. أنت تحبه حتى عندما يسخر منك، وتبقى تحبه حتى وهو يقارب الشتيمة الموجهة إليك، وتحسب حسابه إذا غضب، وإذا جمح من إثارة استفزازية، وإذا دخل معك في عراك فعلي، محطماً إياك ومن حولك، لأنه، في اللحظة التالية، أو في اليوم الذي يلي، يبحث عنك ليعانقك عناقاً حقيقياً، أخوياً، حاراً، فيه كل صدق المودات،

انطلاقاً من نفس لا تحمل الحقد، ولا طاقة لها عليه، ورغبة في نسيان نزوة مضت وانقضت، وعاد بعدها صفاء الماء إلى صفائه، ونقاء السريرة إلى طهرها. وقد حدث، وهو مغترب في بيروت لأسباب قاهرة، أن كان في مجلس وخالفه أحد أصدقائه في الرأي تحدياً، ودونما وجه حق، فقلب المائدة عليه، وكتب لي عن ذلك وأنا في الصين، مزمجراً متوعداً، ثم كتب في رسالة ثانية يقول: صالحت فلاناً، وقبلته، لأنني تأكدت أن الولد، في تلك الواقعة، لم يكن منحرفاً، بل كان أرعن.

ليس معنى هذا أنه لا يتقبل النقد، أو يضار من النقاش، أو يضيق بحرية الرأي، وإنما يسؤوه أن يماري أحد في الحق، أو يكابر بما هو محسوس، مع احترام للآخر، حين يكون هذا الأخر جديراً بالاحترام، لسعة ثقافته، وعمق معارفه، هاتين الميزتين اللتين يحرص عليهما الحرص كله، ويجلهما غير مقتصد، لأنهما ميزتاه هو بالذات، إضافة إلى تجربة رحبة، ومعرفة بالبيئات التي يكتب عنها، وطبائع الناس في هذه البيئات، ومعاناة ترتكز على العيش والرؤية، تتجلى، أكثر ما تتجلى، في مجموعتيه القصصيتين: «شتاءٌ قاسٍ آخر» و«سنتان وتحترق الغابة» فأنت إذ تقرأ بعض قصص هاتين المجموعتين، تدهش لهذا الكشف للمحيط، سواء كان جبلاً أو صحراء، مدينة أو قرية، فهو، هنا، يكتب عن أشياء عرفها معرفة معاينة ومعايشة، ونقلها إليك كواقع مركب، فيه ابتكار فني، وتناول للنطفة، في الحدث والشخصيات، تناولا أولياً، خامياً، يخلقه، وينفخ الروح فيه، إبداع عبقري، يتجلى في المعالجة القصصية التي يجيد، ويتمرأى في الإنماء الطبيعي للسياق والشخصيات، بعيداً عن القسر أو الافتعال، سواء في السرد أو الحوار.

من أجل ذلك كله، حين ولدت محاولاته القصصية الأولى، في بداية الخمسينات، ولدت عملاقة، وبسرعة أزاحت الأقاصيص الحكائية، والمحاولات الرومانسية، وكل المآسي الاجتماعية الميلودرامية جانباً، كاشفة عن اللغو فيها، والضحالة في خيالها والفقر في مادتها، والانحطاط في درجة ملاحظتها، وعن الانشائية وقصر النظر والتخييل في بنائها، فلما واصل سعيد عطاءه القصصي، في

مجموعاته الثلاث التالية، أثبت أنه قاص بارع وبإمتياز، وأنه من مؤسسي القصة القصيرة في سورية، إن لم نقل أنه مؤسسها الأول، وكل من جاء بعده تتلمذ عليه، في القصة الواقعية، ذات المهاد الاجتماعي الرومانتيكي، الشاعري، المتين في عبارته، المشرق في نسجه، والمبتكر في صورته بشكل غير مسبوق، ولكم كتب إلي بعض القصاصين الشباب، والكثرة من القراء، يتساءلون عن صمت هذا المؤسس، ويأسفون له، ويقدمون إهداءاتهم إليه بالعبارات التالية: «إلى المعلم» «إلى المؤسس» «إلى الرائد» «إلى الذي ننتظر أن ينتفض فينفض عنه ركام الصمت» غير أن سعيد لم يعد إلى الكلام عبر القصة، ولم يستجب للنداءات، فقد طوى جناحيه، إلا أنه قاوم لكي يظل في القمة حتى دونهما، ومن هنا كانت مأساته، في طرفيها المتباعدين: التوقف عن التحليق، والإصرار على البقاء في النقطة التي بلغها من تحليقه السابق.

هل كتب، بعد ذلك، وخلال العشرين من الأعوام المنصرمات؟ بلى! تخلى عن صمته في فترات متباعدة، قدم لمعاً نثرية، حارقة جارحة، مبدعة كالعهد بها، ولم يعط، كمحاولة طويلة، سوى مقابلة واحدة، نشرت في مجلة «دراسات اشتراكية» ويضمها هذا الكتاب، وهي من أروع ما قرأت من مقابلات صحفية في اللغة العربية، وكان، أثناء ذلك، فرحاً جداً، حتى لتخاله في نشوة فردوسية، إلا أن فرحة كان ستارة لكآبته التي انتهى إليها.

لا، ليس باكراً بعد أن نقرأ دراسات نقدية عنه، دراسات موسعة، معمقة، شاملة لنتاجه القليل ولكن الرائع. لقد تأخرت جداً أمثال هذه الدراسات، لكنها ستكتب يوماً، حين يصير لدينا دارسون ونقاد، يواكبون الإبداع، ولا يتخلفون عنه هذا التخلف الفاضح. وإلى أن يقوم اليعازر من بين النتاج، بعيداً عن تصنيفات يرغب عنها سعيد رغبة أكيدة.

إنه، في حقيقته، قاصٌ واقعي، وبدرجة تقدم شهادة عظمى لمجد الواقعية الفنية، الجديدة، المتجددة، وما عدا ذلك فإنه من العسف أن ننسبه إلى التعبيرية كما فعل هذا أو ذاك، أو إلى السيكولوجية كما لا حظ آخرون، فهو قاص استوعب في

قصصه كل المدارس، إنما على مهاد واقعي، وقد قال ديستويفسكي عام ١٨٦٣ «يطلقون علي خطأ صفة الكاتب السيكولوجي، بينما أنا، في الحقيقة، واقعي بأسمى ما تعنيه الكلمة، إذ إنني أصور أغوار النفس البشرية العميقة» وهذا قول ينسرح على كثيرين، ومنهم كبار السورياليين الذين تحولوا إلى الواقعية، في تاريخ الأدب العالمي، تحولاً تدريجياً، وفاخروا بذلك.

حسبي أن أقول: سعيد في صمته أبلغ منا في كلامنا. نظراته المعبرة، من خلال الصمت، تحكم على بؤس الحياة حكماً قاسياً وعادلاً، حكماً لم نستطعه نحن، بهذه البلاغة، بهذه الرحابة، وبهذه القدرة على الإدانة التي واتته مطواعة. إن حياته قصة بذاتها، قصة لا بد أن تكتب، كما كتبت قصة صنوه في الصمت المبكر رامبو، فقد تأثر سعيد بكل الكتاب الإنسانيين الكبار، وبفطرته، هو المحب، أحب الإنسانية حباً ملأ عليه عقله ووعيه وشعوره، ولأنه أصر على أن يترجم هذا الحب إلى فعل تغييري بغير طائل، فقد وضع قلمه في محبرة التأمل واكتفى بذلك، ناسياً، أو متناسياً، أن التغيير الاجتماعي لا يأتي بالسرعة التي نريد، وأن مكر التاريخ المعروف، قد جعل الآن هذا التغيير المنشود في أدراج المستقبل البعيد جداً، وفي حال كهذه، يتضاعف ثلاثاً ألم الكاتب المرهف، فمشكلة كاتب بهذه الصفة، لا تماثلها، في الألم، مشكلة أخرى، لهذا كان على الكاتب ألاّ يدع الأحزان تقهره، وألاّ يقع، كما يرى توماس مان، في «خطأ عظيم، حين يظن أن في مقدوره أن يقطف ورقة صغيرة واحدة من شجرة الفن، شجرة النار، دون أن يدفع حياته ثمناً لها» وها هو سعيد يتقدم مفادياً ليدفع حياته ثمناً لفنه، وإنها لمفاداة تدعو إلى الإعجاب.

لا تسألوني، إذن، إلى أي حد بلغ سعيد، الآن، في صمته، أو في مرضه الصمتي، فلطالما حاولت، وهو سليم، معافى، موار بالنشاط، أن أقرأ في عينيه موعد مغادرة هذا الصمت، فكان يكتشف محاولتي بلماحته ويرد علي حتى دون أن أتكلم: «دع عنك هذه المحاولة ياحناي!» وقد أقلعت، مع الأيام، عن هذه المحاولة فعلاً.

هذا الكتاب الذي رغب هو أن استهله بهذه الكلمات، يجمع بين دفتيه التماعاته المنتزعة من صمته، ومع أن الروائي مثلي يعرف، أو يجب أن يعرف. أنّ الشفاء، في عرف الأطباء، كثيراً ما يتترن بفعلِ الإرادة، فإن شعوراً ما يخالجني بأن سعيد سيشفى، بفعل الإرادة ودونها، ولئن توقف الشفاء على إرادة الحياة، فإنه يملك من هذه الإرادة أكثر مما نملك جميعاً، وفي عالم يقدم فيه الطب كل يوم فتحاً جديداً، فإن الفتح الطبي المتوقع، سيحمل إليه الدواء المرتجى، ما دام مرضه، الآن، ليس خطيراً، وليس سريعاً، وإنه سيبقى بيننا إلى زمن طويل، يكتب فيه، أيضاً، ذكريات، وخواطر، وحتى قصصاً جميلاً، وهذا ما أنا على ثقة منه.

هل كان علي أن اتجنب أشياء قد تسيئ إلى مشاعره؟ ربما، إلا أن الواجب يقتضيني أن أقول الحقيقة، وأن يقرأ هو هذه الحقيقة، لعله يقلع عن صمته، وتالياً عن انتحاره صمتاً، وفي هذا رجائي ورجاء زملائه وقرائه ومحبيه في الجهات الأربع من كرتنا الأرضية الخضراء، التي، في أيامنا هذه، تميل إلى جعلنا في المحبطين، وفي البائسين، لكننا لن نيأس، وسنظل نردد، ومن الصميم «مباركة هي الحياة» حياتنا، حتى في مدلهم الغاشيات من فوقنا ومن حولنا.

نعم .. نحن في الزمن الأعور!

إحدى بناتي لها كلمة لا تحيد عنها، فكلما سألتها عن الوضع المالي، اجابتني «مستورة!» والسترة، هنا، هي حال الكتّاب في الوطن العربي الكبير. ومنذ قلت في العام ١٩٨٢. كما هو مدوّن في كتابي حوارات وأحاديث، إنّ الرواية ستكون ديوان العرب في القرن الحادي والعشرين، أقبل تسعون بالمئة على الأقل من الكتاب العرب، على كتابة الرواية، وحسب بعضهم أنني، وأنا في ارذل العمر «اخرّف» لكن النبوءة، وأنا اتابع ما ينشر في الشرق والغرب، تحققت في أواخر القرن العشرين، وحسب دار الآداب في بيروت، فإن الكاتبين الأكثر انتشاراً هما المرحوم نزار قباني وحنا مينة، إلى أن تفضلت إحدى المجلات المصرية قائلة: «هذه النبوءة قالها أحد الكتاب المصريين في القرن الثامن عشر» فتأملوا! ولكن من فضول الكلام أن نتحدث، في هذا الزمن الأعور، عن أناس عور، يريدون صياغة أسئلتهم العوراء، بشكل اتهام، هم فيه القضاة، والمثقفون العرب في قفص الاتهام، فلماذا؟ وهل يحسبون أننا نملك أصابع من خشب، بينما أصابعهم من حرير القز!؟

مهزلة! محققون عور نصبوا أنفسهم، للتحقيق مع متهمين مفترضين، عور كالمحققين أنفسهم، الذين يحسبون أن الادانة جاهزة، وما عليهم، في شبهة الوهم، سوى النطق بهذا الحكم: المثقفون العرب، بين الوريد والوريد من الدم النازف، في فلسطين الجريحة، والعراق المحتل، يتلّهون بالكلام على الورد الذي تزّين ألواناً ليفتننا، ولكن «أيحلف الورد أنّا ما فتناه؟»

لا أيها السادة المبجلون، المثقفون العرب ليسوا بالمتهمين العور، الذين، مع الأسف، يحقق معهم أناس عور. وفي الغزل الجميل، الأنيق، بالورد الذي يفتتنا، يبسطون راحاتهم للنعميات التي في جلوة الأمس، تفكُّ ولو قليلاً من خناق الأمس الذي يكاد يقضي علينا، ونحن نشهد هذا العجز العربي، وهذا اللف والدوران العربيين، وهذه الاتهامات المتهافتة، التي صار لها، في المنطق الأميركي، قانون محاسبة يحتاج، هو نفسه، الى قانون محاسبة وإلى تسويغ مفتقد، كي ينهض على أقدام من لحم ودم، وليس على أقدام من كرتون أو فخار، لأن الإرهاب، وهو اللبان الذي علكته أمريكا حتى التلف، لا ينام على وسائدنا، بل على وسائد من يهدمون البيوت على رؤوس أصحابها في فلسطين، ويقتلون الأطفال، ويحسرون الستر عن النساء، وينتهكون حرمة العتبات المقدسة في العراق.

عمر فاخوري، في كتابه الحقيقة اللبنانية، يقول: سأل تلميذ معلمه:

«ماهي أمنيتك يا معلمي!؟» يفتح المعلم عينيه الناعستين، وهو يفيء إلى ظلِّ شجرة وارفة، ويرد على تلميذه قائلاً: «أن آكل وأنام» ثم يضيف «ولكن هذا سؤال لا يسأل يا معلمي!».

المثقفون العرب، أيها المتذاكون الأفاضل، لا يضيقون بالأسئلة مثل معلم عمر فاخوري، ولا يرون، حتى في الأحلام، ما هو عصي على الكلام عليه في اليقظة، ولا يبصرون الأشياء، في حقيقتها، من بين الأصابع، ولا تفوتهم، حتى والسهام في أكبادهم، أن ثمة في الحياة، جراح أحبة عليهم أن يبلسموها، ويدركون أنهم إذا لم يرقوا، إلى ما لا يرقى ، على قدم، تقطعت بهم السبل، وعجزوا عن قطف النجوم بأيديهم السحرية ، من المجرات التي تضيء دروب الأفلاك في دورانها، وأنهم اذا ارتكنوا، كالقعدة، في زوايا السكون، أساؤوا إلى قانون الحركة، وإذا كفوا عن صياغة الأحلام سقطوا في العدم، وإذا لم يستأنفوا ضد ما هو كائن، في سبيل ما سوف يكون، انحطمت

أقلامهم، وتبدل حبرها الذي من ذهب إلى حبر من ماء آسن، وإذا تغذوا بأوراق التوت، على موائد السادة، كان مصيرهم التشرنق كدود القز، وإذا فقدوا شجاعة القلب، تحولت الثريات التي في الجانب الأيسر من الجسم، إلى شحم منه الورم الذي عابه المتنبي في ابن خالويه.

ويسألون، في خبث مراوغ: ماذا يفعل المثقفون ، والنار تكوي سلاميات المناضلين، في لفح الهاجرة؟ ونجيبهم: من الذي أبقى القضية الفلسطينية حية، طوال سبعين عاماً تقريباً، في مواجهة القوتين العاتيتين: الصهيونية والامبريالية؟ من بالكلمة، أشعل فتيل البركان، تتلظى بحممه الأرض تحت أقدام المعتدين في جنين ورفح وبلاد الرافدين؟ ومن صاغ وجدان صانع الرصاصة، ومطلقها، في صدور الذين استباحوا، بكل أنواع أسلحتهم، الأرض العربية، في الماضي والحاضر؟ إنّ دور المثقف أنْ يطرح القضايا طرحاً صحيحاً، كما قال تشيكوف، لا أنْ يغيّر، والتغيير يكون من وثبات الجماهير على الأذى اللاحق بالأوطان والشعوب، لا من الحرارة، حتى ولو كانت جهنمية اللظى، على سنن الكتاب فقط.

شأن الكاتب أن يصوغ وجدان المحارب، وبالحروب على الأعداء، كما كان الأمر في «حرب تشرين» تتحرر الأوطان، شريطة أن تكون هذه الحروب تحريراً كما أرادها «الراحل الكبير» حافظ الأسد، لا تحريكاً كما قال وفعل أنور السادات. إننا، الآن في الزمن الرديء، والزمن الرديء ينجب ناساً أردياء، وهذا هو الواقع، وفيه لا تنفع الأقوال بل الأفعال، والأفعال في سفر طويل مادام ميثاق الدفاع العربي المشترك، لم يكن دفاعاً مشتركاً، حتى في تفكير الجزر العربية المتباعدة، المتنافرة، المتعادية، وعبثاً تتعالى الأصوات، وتبح الحناجر في شوارع هذه الجزر، من قبل الشباب العربي الذي ملّ هذا الخنوع، أو بكلمة ألطف، هذا التردد، في وحدة الموقف، التي دونها، حقيقة لا مجازاً، لا يمكن دحر العدوان الإسرائيلي على غزة أو غيرها.

«لا يلام الذئب في عدوانه، إن يكُ الراعي عدوَّ الغنم » وحتى ولو لم يكن الرعاة العرب، في جزرهم المتنافرة، المتعادية، أعداء غنمهم، فإن فرقتهم هي التي تحول بينهم وبين التصدي الواحد، الموحّد، ضد الإجرام الإسرائيلي على غزة، وضد الضغوط والضاغطين على سورية، لا باعتبارها من دول الجوار، أو من الدول التي تجبه العيون الحمر، إسرائيلية وأميركية، عليها، بل من الدول الصامدة لكل افتراء، ولكل «الفبركات» الكاذبة، عن وجود أثر نووي في هذه المحافظة أو تلك من محافظاتها، ولأن سورية، وهذا معروف ومعترف به، تتمسك حتى النهاية، بالمبادئ الشريفة، الثابتة، التي لا تحيد عنها، وهي مبادئ مستمدة من تاريخها، ومن لهيب ثوراتها لا ضد الاستعمار الفرنسي وحده، بل ضد كل أشكال التحرش بها، لكونها أول بلد عربي استقل، وأول بلد عربي أجلى الفاتحين عن أرضه، حتى قيل «عز الشرق أوله دمشق» وقيل «شآم ما المجد، أنت المجد لم يغبِ».

ملاحظات نافلة
حول سيرة «إلى هبى» لإلهام منصور

الحقيقة ليست احتكاراً، فزمن الكلمة المعصومة صار لغة قديمة. الحوار المفتوح إذن، وإلى أبعد حد، لا لأن المتغيرات العالمية فرضت ذلك، بل لأنه من شرف الكتابة، إذا ما أردنا، ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين، أن نسهم في كسر السلسلة الثقافية السائدة. على نحو ما كسرت في عشرينات وثلاثينات هذا القرن، يوم كان مصطفى صادق الرافعي، يدافع، بنزق يدعو إلى الرثاء، عن البلاغة المقامية، وكان عباس محمود العقاد، يتهم القصة بأنها وسيلة لنشر الشيوعية –والعياذ بالله- ويبرر أحمد حسن الزيات، صاحب الرسالة، في نوع من المداراة، نفسه أمام قرائه العرب، قائلاً إنني لا أنشر القصة أو الرواية لأنهما ينبوان عن الأدب الرفيع، الذي يتطلبه الذوق الرفيع، الخاص بهذه المجلة الثقافية الرفيعة!.

المعطى الجديد، في الثقافة العربية الراهنة، هو النزوع إلى كسر أحكامها الجاهزة، وفق معايير فات، ويفوت كل يوم، عليها الزمن، حين تستند، وخاصة بعد المتغيرات الدولية الراهنة، إلى اصدار أحكام الاعدام على الواقعية، باعتبارها الوجه الآخر للاشتراكية، وتقيم أمسيات التعزية، من أجل راحة روح التاريخ الذي انتهى، والمقصود، تاريخ نمط واحد من الاشتراكية اغتالته أخطاؤه، فلم يبق إلا تاريخ الرأسمالية السرمدي، هذا الذي انبثقت سرمديتها الآن، وبات من الواجب علينا تقبله كمسلمة، وإلا بتنا في الزنادقة، وباتت كلمة ايديولوجية مؤشراً، كشاخصات السير على الطرق، على عقلية قديمة، عفنة، على أصحابها أن يتخلوا

عنها، وأن يبرأوا إلى الله منها، وإلا هيل التراب عليهم وعليها، برفش حراثة تُنبت لنا، بين فترة وأخرى، مقولات غايتها الوحيدة إلغاء الفكر العلمي، وتسفيه حقائق مستنبطة منه، تقول بأن العدالة الاجتماعية هي حلم البشرية، أزلاً وأبداً، ولا بد لها من الانتصار، على البعيد من الزمن، لأنها وسياق هذا الزمن المستقبلي على اتساق، ولسنا، نحن دعاتها، على عجلة من أمرنا في توقع هذا الانتصار.

لايفهم من كلامي أنني ضد التحديث الثقافي، وضد التجريبية، أو ضد الابتكار، بل ضد مستنقع الموت الذي يريدون، يأساً واحباطاً، أن يغرقونا فيه، منطلقين في ذلك من تضليلات تزعم أن كل أسس التفكير المادي، والجدلية العلمية، قد انهارت، وأن علينا أن نفتح صفحة جديدة، تقطع مع الصفحة القديمة، وتنفيها، وأن الثقافة العربية القائمة هي سبب التردي العربي، ولا رجاء فيها، وأن النهضة التنويرية وهم منبوذ، محال أن نمدد خيوطه، وأن نعمل لنهضة تنورية هي استطالت له، وأن العقل العربي عدم، أو هو في درجة الصفر، هذه التي علينا الانطلاق منها لتشكيل عقل عربي جديد، يزيح كل مفاهيمنا السابقة، وخاصة الفكر المادي، ويحل العبثية، واللاايديولوجية، واللغو الشيئي، مكانها.

قد لا تكون هذه التمهيدية ضرورية، وفي وسع القارئ تجاوزها أو حذفها، لولا أنني في صدد التنويه بكتاب قرأته مؤخراً، أفلت من فخ التشيء واللغو، واستطاع أن يطوع الفكر لغايته السردية ذات الانسياب العذب، في روايته لسيرة ذاتية، تدور حول الحرب الأهلية اللبنانية، وما أحدثته من شروخ روحية واجتماعية في هذا البلد الذي كان، وسيظل، مركزاً للاشعاع الفكري.

هذا الكتاب هو «إلى هبى» وهو سيرة أولى، لكاتبة تريد أن تقدم نفسها، وبتواضع غير قليل، من خلال سيرتها، في فترة زمنية معينة، تكتب ذاتها عفوياً وقصدياً معاً، فهي سيرة رجل وامرأة، تفرق بينهما الحرب. وحين يلتقيان، يكون الفراق، قاتل الحب، قد قتل حبهما، وهنا العفوية، أو الحدث البسيط، إلا أن الوجه الآخر لهذه العفوية هو القصدية التي تهدف إلى تعرية وفضح المجتمع البورجوازي ومواقفه، ومباذله، واستغلاله للدمار الذي نزل بلبنان جراء حربه

الأهلية، التي هي الأطول بين الحروب الأهلية في النصف الثاني من هذا القرن، وفي الوطن العربي كله.

تبدأ السيرة بداية دائرية، وفي هذا اجتراء فني، فالتدوير في القص يحتاج إلى مهارة وتمرس، والكاتبة تجتاز هذا الامتحان الصعب، في عملها الأول، بنجاح لايخلو من هنات، ناشئة عن نقص في حرفية الكتابة الروائية السيروية، وهذا طبيعي، إذا ما قسنا هذه الهنات بالتخبيصات التي وقعنا فيها نحن جيل التجريب في الرواية والقصة، في الأربعينات والخمسينات من قرننا هذا.

«انتهى التمرد في لبنان وبدأت مسيرة الوفاق، هذا كان العنوان البارز في الصحيفة اللبنانية التي وصلتنا ذلك اليوم. ما كدت أقرأ هذا العنوان حتى حضرت صورتها أمامي. حاولت قراءة التفاصيل واذا بالصورة تتوضح أكثر فأكثر لتملأ صفحة الجريدة كلها. أغمضت عيني، فلاحقني وجهها. لم أعد أرى سواه. أصبح ذاكرتي كلها».

أتوقف عند هذا المطلع لأسباب عدة: التخييل، اقتصاد الكلمات، الإيقاع، التشويق، نقاوة اللغة، التظهير النفسي، الرسم الموفق لحالة إنسانية اغترابية. وسنجد، في السيرة كلها. هذه المقومات الإبداعية التي لا غنى عنها لأيّما كاتب أو كاتبة، يطمح، أو تطمح، إلى قول نفسها روائياً، من خلال سيرة ذاتية.

بعد ذلك يعود هذا المتخيِّل للبحث عن الوجه الذي تخيله. إنه الآن في لبنان. عمر في لبنان، وهذا اسم البطل، والبحث يبدأ من كليّة الآداب التي تعرَّف في باحتها إلى الحبيبة البطلة هبى، ووصف هذا التصرف شيّق، إلى درجة تغري بالقراءة من أول صفحة في السيرة إلى آخرها، وقد قرأ صديق ناقد، ذو خبرة بارعة في النقد، الكتاب في ليلة واحدة كما أخبرني صباح اليوم التالي، موجزاً كلمة بعبارة واحدة: «هذه الكاتبة ذات موهبة واضحة». وقد سقت رأيه بأمانة، لأني أشك في قدرتي على التذوق، لكنني لا أشك أبداً في قدرته على الحكم النقدي النزيه، المتشدد في نزاهته، وهذه الاشارة، أو الاحالة إلى حكم الناقد، ليست مجانية، ولم أوردها طلباً لدعم رأيي في أن الكاتبة موهوبة، فهذا مفروغ منه، إنما

لأوكد أن رواية تُقرأ في ليلة واحدة، هي رواية يتوفر لها عنصران أساسيان في التوصيل إلى القارئ: الايقاع والتشويق، ومن غرابة أن النقد الأدبي في لبنان، تجاهل «إلى هبى» أو حاول الازراء بها، لأن كاتبتها السيدة إلهام منصور، جديدة على دنيا الكتابة، ولقلبكم الكريم أقول، إنني عندما قرأت الرواية – السيرة هذه، لم أكن أعرف الكاتبة، إلا معرفة عابرة، ولم يكن يعنيني من أمرها شيء، وإن كانت الرواية، بعد القراءة، قد عنتني بأشياء، هي بعض ما ذكرت، مضافاً إليها الطاقة الفكرية المهمة، التي تتوفر لمن درسوا الفلسفة، وأفادوا منها إفادة كبرى في أعمالهم الأدبية، مثل أستاذنا الكبير نجيب محفوظ، فالفلسفة، تحصيلاً وتدريساً، تعطي المتمكن منها، في عمله الأدبي، مادة فكرية مطاوعة، إذا ما عرف كيف يستخدمها، وإلهام منصور أفادت من ثقافتها الفلسفية في عملها الذي نحن في صدده، وأجادت استخدامها.

ولأنّ الأعمال الأدبية لا تُلخص، فإنني أرغب عن تلخيص هذه السيرة أيضاً. اكتفي بالاشارة إلى أن المرافعة حول المرأة، في هذه السيرة، مرافعة جميلة وموفقة، وهي في السياق الروائي وليست من خارجه، وتوترها السردي المتموسق، يعطيها قوة جذب، توفر لها المتعة والمعرفة، أما قضية الوفاق اللبناني، فسردها متعمد، مقحم، وغير مقنع، ويفتقر إلى التشويق، وكان الأفضل أن يكون في قالب حواري بدلاً من القالب السردي، ما دام المتحاوران من المثقفين، وأما الفصل السابع من هذه السيرة، فإنّ سرديته مبررة، وتالياً قراءته، لكن المنولوج الداخلي هنا، كان هو الأصح، لو أخذت به الكاتبة، فإذا لم تستسغ مثل هذا المونولوج، فإن النقاش، بين البطل والبطلة، كان يفي بالغرض، ويوفر التشويق اللازم، خاصة أنه لم يكن هناك شخص ثالث، فالقراءة التي يقوم بها البطل، أو السرد الذي تتدفع فيه البطلة، فيه وقف للسياق الذي كان منساباً، نامياً، في الفصل السابق، وكان يمكن أن يبقى كذلك في هذا الفصل، الذي هو امتداد له، وذلك بقليل من الحرفية الكتابية، في مجال القص الروائي.

تبقى هناك ملاحظتان: عمق التحليل النفسي في مجمل السيرة، ونموذجه في الصفحة ١٤٧، ورفض الرخص الجنسي، أو إدانته، كما في الصفحة ١٥٠، والنأي عن التشبيهات الجنسية المقززة، التي تحسب هذه الكاتبة، أو ذاك الكاتب، أنه من الجرأة.

إن كتاب «إلى هبى» اذا استثنينا ذكر موت الأب في آخره، كتاب سيرة جديد في أسلوبه، وفي سرده وحواره، وفي هذا الفكر الواضح، الذي يجانب الإسقاط والوعظ والافتعال، فهو يقول ما يريده بالدلالة وليس بالصراخ، والحدث فيه ينمو مع نمو السياق، في وحدة تتكامل، أو تسعى إلى التكامل، دون حشد للأحداث الجانبية، التي تلوي عنق الخط الرئيسي، في تفرعها إلى خط، أو خطوط جانبية، تشوه العمل، وتفقده وحدة الصيرورة التي انسجامها شرط في الرواية، وفي القصة، والمسرحية، والأجناس الأدبية المماثلة.

قالت لنا سيرة «إلى هبى» كلاماً واضحاً: الفراق يقتل الحب، ومن العبث إحياء الذي قُتل أو مات. وإن البورجوازية اللبنانية، حين كان الشعب اللبناني يحترق في جحيم معاناته، كانت تمارس كل لذاذتها، من الحب ، إلى المقامرة، إلى الربح غير الحلال، في كلِّ أشكاله، وهو الذي وفر لها، دون أن يُذكر بالاسم، كل وسائل هذه اللذاذات، وإن الناس يرون القذى بعين الفقير، ولا يرون الخشبة في عيون المترفين، فالثراء مباحَةٌ لكلِّ شيء، وستَّارة لكل شيء، والجنس الذي هو فضيحة للمرأة الفقيرة، المرجومة بأحجار فاضيحها المضللين، هو لا فضيحة في الدور والقصور، لأن شرف الفقير هو المحصور وحده في نقطة معينة من الجسد، ومن العار مقاربة هذه النقطة، وطوبى للدودة الوحيدة، إضافة إلى أفكار أخرى، لا تقل، في انسيابها الفني، عما ذكرت، الأمر الذي يؤكد حقيقة لا يزال يكابر حولها المكابرون، وهي أن الايديولوجيا لا يخلو منها عمل ابداعي، والمسألة، بعد، تتوقف على كيفية استخدام الفكر الايديولوجي، من ضمن النسيج، أو هو ملصق عليه إلصاقاً.

كذلك أكدت سيرة «إلى هبى» أن الواقعية لا تجانف الإبداع، بل هي تغنيه، حين تكون صادرة عن الذات الابداعية، وأن السلسلة الثقافية التي كانت تشرنق الفكر، قد انقطعت الآن، وبدأت سلسلة ثقافية جديدة، قوامها الانفتاح على كل التيارات الفكرية، والدخول معها في حوار مفتوح ورحب إلى أقصى مدى.

إنني لست ناقداً أدبياً، إنما أنا قارئ متذوق، وتذوقه ليس معصوماً، فهو خاضع للخطأ والصواب، ولست أدري أكنت على خطأ أو صواب في الملاحظات التي سقتها، غير أنني آخذ على النقاد، في لبنان وسورية والوطن العربي كله، قصورهم في مضمار السبق، الذي يتبارى في شوطه الإبداع مع النقد الابداعي ، والمسافة الطويلة التي صارت تفصل بينهما.



مع المعرفة .. الوقت والصبر!

كان فلوبير، مؤلف الرائعة الشهيرة «مدام بوفاري» ينصح موباسان، أفضل قصاصي القرن التاسع عشر، بالصبر، ويعنفه عند نفاذ صبره قائلاً: «أنت قاص رائع، فتعلم كيف تلجم نفاذ صبرك!» ذلك أن فلوبير، الذي كان يكتب بتأن، وله أعمال روائية قليلة، كان معروفاُ بصبره الطويل، وكان يجمع، في ذاته الابداعية، بين المعرفة والوقت والصبر، مشكلاً مع بلزاك وستاندال، ثلاثياً، أعطى القرن التاسع عشر أفضل الروايات، وبهذا الثلاثي عرف هذا القرن، واشتهر أدبياً، وقد تفوّق الثلاثة في كتابة الرواية، بفضل تخصصهم بها.

صحيح، كما قلت سابقاً، إن هناك أدباء عظاماً، في العربية وسائر اللغات، عملوا على عدة أجناس أدبية متشابهة، مثل الرواية والمسرحية، أو الرواية والقصة القصيرة، أو مثل المقالة والقصة، لكنهم، جميعاً، أو معظمهم على الأقل، اشتهروا بجنس أدبي واحد، أعطوه جهدهم، معرفتهم، ووقتهم وصبرهم، وكانت الأجناس الأدبية الأخرى، بالنسبة إليهم، عارضة، او مساعدة في التعبير عن ذواتهم الابداعية.

وإذا ما تكلمت على تجربتي الروائية، فإنني ملت، منذ البداية، إلى العمل في جنس أدبي واحد هو الرواية، وسأبقى كذلك ما دمت قادراً على الكتابة، لأن الرواية، التي انقطعت إليها منذ العام ١٩٤٥، أي قبل ما يزيد على نصف قرن، بخلاف الأجناس الأدبية الأخرى، ذات كنز يزداد ولاينقص، وشرطها المتابعة الدائمة، والوقت لاكتساب التجربة، الحياتية والنظرية، أي التجربة التي تتحقق من العيش بين الناس، والتجربة التي

تتحصل من مطالعة الكتب، مع كل ما في التجربتين من معاناة، ليكون الروائي ذا ثقافة شمولية، والصبر الواجب في الحالتين، حالة اكتساب التجربة وحالة تأديتها فنياً، ومن هنا فإن الرواية التي هي عالم قائم بذاته، ومتجدد بذاته، تحتاج إلى حياة كاملة، قائمة بذاتها، تهدم البناء القديم، وتبنى معماراً هندسياً جديداً، وفق التصور الحدثي، الذي غايته الاستئناف ضد ما هو راهن، في سبيل الوصول إلى ما هو مستقبلي، في النظرة والفعل، وبشكل مستمر.

بعيدٌ عن ذهني، بل مرفوض القول، إن الأجناس الأدبية الأخرى لاتحتاج إلى التخصص، وإلى المعرفة الشاملة، قدر الإمكان، مع هذا التخصص. لنأخذ الشاعر ناظم حكمت مثلاً، فقد تخصص، واشتهر بالشعر، مع أنه كان يرسم، وكان يكتب الرواية أحياناً، ومع ذلك استشعر جهلاً حقيقياً، هو الذي كان يقرأ، كما جاء في رسائله إلى كمال طاهر، خمسة عشر كتاباً في الشهر الواحد، على مدى سجنه الطويل، الذي دام عشرين عاماً دفعة واحدة.

لقد كتب ناظم حكمت إلى صديقه كمال، السجين الآخر في القضية نفسها، وهي تحريض رجال الأسطول التركي، وكان هذا تهمة ملفقة، كتب في العام ١٩٤٧ يقول:

ذعرت من جهلي الضخم، وكدت أبكي من الغضب الشديد. لقد فهمت، الآن، إلى أي حد كنت جاهلاً.. ليس لدي عن الطبيعة إلا معلومات عامة فلسفية، فمعلوماتي عن النباتات والحيوانات والمعادن والفيزيولوجية والفيزياء والكيمياء، ومجموعة أخرى من الأشياء، لاتتجاوز معلومات الهمجي.. إنني أعرف القوانين العامة الجدلية لهذه الطبيعة التي تدهشني، والتي أحبها بعمق، لكنني لا أعرف شيئاً عن القوانين الحاوية والحياة الحقيقية لهذه الطبيعة».. «كيف تجرأت أن أكتب القصائد دون أن أعرف جيداً، وبعمق، الطبيعة والناس؟ إن ما يجب أن أفعله الآن هو ألا أترك عزيمتي للفتور، وأن أطلب كمية كبيرة من الكتب، وأحاول أن أثقف نفسي قليلاً، أثقفها قبل أن أكتب أية قصيدة جديدة».

هذا النص الاعترافي، قد كان للعمل وليس لغسل الوجدان، ثم العودة إلى الكسل من جديد. ناظم قال وفعل، لادراكه أن جميع الأجناس الأدبية تحتاج إلى معرفة دقيقة معمقة، فإذا كانت الحال هذه، تتعلق بالشعر، وهو، كما معروف، انخطاف مع الومضة الشعورية واللاشعورية في آن، فكيف الحال مع الرواية؟ هذه التي تحتاج إلى التجربة، الخبرة، المعاناة اللاقصدية، فن البناء المعماري، وفوق كل ذلك، إلى اطلاع واسع على أشياء الوجود: الكون والحياة معاً!؟.

إنّ الرواية، في كل مدارسها، ما قبل الحداثوية وما بعدها، تحتاج، بأكثر من غيرها بكثير، إلى المعرفة الشاملة، إلى التجارب وممارسات عديدة ومتنوعة، إلى «دولاب محفوظات» كما يقول تشيكوف، الذي جرب القصة القصيرة فكان بها معلماً لاحد لمعلمتيه، وكتب الرواية بنجاح، إلا أنه تخصص في القصة، وامتلك لأجلها المعرفة والوقت والصبر.

«دولاب محفوظات» تشيكوف لم يكن للزينة، أو الادعائية الفارغة، كان، كما قال، دولاب محفوظات نضع فيه كل أصناف المعلبات إلى وقت الحاجة والضرورة، ولايقتصر على أيام الشباب، أو على المعرفة المقصورة على حيّ أو بلد، أي البيئة التي نعيش فيها وحدها، إنما نحتاج إلى معرفة البيئات الأخرى، الأحياء والمدن الأخرى، ومعرفة الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع، وقبل ذلك معرفة جيدة بالتراث، وقراءات دائمة، متأنية، واعية، في الرواية العربية والعالمية، منذ نشوء الرواية وإلى يومنا الذي نكتب فيه كل رواية جديدة، كي يقف الروائي على كل جديد، كل مبتكر، كل مستحدث، في فن الرواية، بما يواكب العصر الذي نحن فيه، والأيام التي نشتغل فيها على رواية ذات حدث ومدلول، مع الإلمام بكيفية تناول الحدث، والقضايا التي يطرحها، وصور الناس المنعكسة فيها.

هاجس المغامرة، التجربة، المعاناة، يسكنني بلا انقطاع، فقد شغفت بمعاينة الأشياء، ملاحظتها، تقليب أحجارها على كل الوجوه، لمعرفة الظاهر

والمستتر، ثم التطواف في الشوارع الخلفية للمدن، في الأزقة والأحياء الشعبية، واتقان لهجات، فوارق في النظر إلى الأمور الراهنة، كيفية تقبلها، بيأس أم رجاء، بنقد أم تقبل باستسلام للراهن منها، وبعد التعرف إلى المدن والبلدات، التعرف إلى ضواحيها، والسفر بحقيبة أو دونها، بغية العمل أم لغاية التشرد، ركوب السيارات، والشاحنات، والقطارات، والطائرات، والسفن، الابحار دون خوف، السباحة نحو اللجج، وخلال العواصف، دون إلقاء النفس في التهلكة، ودون الخوف من التهلكة بقدر المستطاع .

قد تقولون: هذا ينطبق عليك! وأجيبكم: ينطبق عليكم أيضاً!.



الثقافة رغبة .. أو لا تكون !

ناظم حكمت أوصى ابنه محمد: «كن في دنياك كأنك في بيت أبيك، لا كمستأجر عابر للبيت».

هذه الكلمات قد لاتكون، تحديداً، هي نفس كلمات ناظم، إلا أن المعنى هو ذاته، فالشعر، حيث يصير نثراً، تُلوى رقبته، وإني لمذنب، حين ألوي كلمات هذا الشاعر الكبير، في نثر أردته تعبيراً عن حقيقة كبيرة، هي أن نستشعر دائماً، أننا لسنا، في دنيانا، وخلال عمرنا، بمستأجرين، ومن الرحّل في الناس، وإنما أن نعيش عمرنا كأننا في بيت أبينا، وأن نعمر هذا البيت، نجعله أجمل وأفضل، صامداً في وجه نائبات الحياة.

هذه ثقافة من الثقافة، ولطالما تلقينا، بامتنان، مائدتها العامرة من هذا الشاعر أو غيره، غير أن التلقّي، هنا، لم يكن مباشراً، لم يكن فجاً، لم يكن وعظاً، كان امثولة كبيرة، في ألفاظ قليلة، مؤداها ألا نمر في دنيانا مرور الكرام، بل أن نعيشها بعمق، لمجرد أنها دنيانا، بيت أبينا، وما يتطلبه بيت الأب من إقامة، وعمل، ونزوع نحو الأفضل، لنتركه لأولادنا من بعدنا، عامراً كما تركه لنا أباؤنا، ونضيف إليه إعماراً ماوسعنا ذلك.

هكذا يكون التثقيف، نصيحة شعرية، يكون قولاً مأثوراً، يكون مثلاً طيباً، ويكون، في المحصلة، نافذاً ومفيداً، كالشجرة المباركة، التي تزهر، وتورق، وتعطي ثمراً لذيذاً، نتذوقه لشهية، ورغبة في المزيد، عاملين على غرس أشجار مماثلة، لنا ولغيرنا.

لقد قلت، أكثر من مرة، إن الثقافة تجتنى من الكتب والناس، وأن اجتناءها من الناس هو الأرسخ في الذهن، والأبرز في التعاطي، والأقوم في التمثل، لأنه ناتج تجربة، وما في التجارب من معاناة، مبهظة أحياناً، مفيدة في كل حين، لاتتأتى لنا إلا من العيش بين الناس، ومعرفة مشاكلهم، أوجاعهم، حاجاتهم، وتطلعاتهم إلى الأرقى أبداً.

ساقني إلى هذا الكلام، الذي أرجو أن تكون فيه متعة ومعرفة، أنني حين كنت لاجئاً وعاملاً في الصين، تعرفت، ذات يوم، برجل من أميركا اللاتينية، أحمق قليلاً، لذلك كان يصطحب معه زوجته، وكتابين، واحد له والآخر لها، ويفرض عليها أن تقرأ مادام هو يقرأ. وقد أقسمت لي الزوجة المسكينة، أنها تفتح الكتاب فلا تقرأ شيئاً، لانعدام الرغبة في القراءة حين تكون قسرية، وإذا هي قرأت لاتفهم، وأنها تخفي ذلك عن زوجها كيلا يشتجرا.

وذات ليلة صيف، وفي الصين يهطل المطر مدراراً صيفاً، صادف أن كانا في مقهى على سطح الطابق السادس، وكانوا يسمونه «الروف» كما اعتادوا بالانكليزية، وكان الزوج والزوجة في مقعدين طولانيين للراحة، يفتحان كتابيهما كالعادة، ليتثــقفا بالاساطير الصينية، وإذا بمطر صبيب يهطل، فيتراكض الناس إلى الداخل، وتهم الزوجة بالنهوض، فيطلب منها زوجها أن تبقى، وأن تثابر على القراءة، وتهم ثانية فيزجرها ثانية، إلى أن تصيح به:

ألا تحس بالمطر الذي يبللنا؟

طوى الزوج كتابه بحركة بطيئة، وقال لها واعظاً:

البروليتاريا لا تخشى البلل!!!

فاحتدت الزوجة وإجابته:

لكنها تخشى قلة الذوق على الأقل!

وقد ضحكت عندما روت لي الزوجة هذه الحادثة، وقلت لها مازحاً:

هذا هو ثمن الثقافة .. بالقوة!

إن هذه الحادثة تصلح لقصة قصيرة، وإذا وجد الروائي الحاذق فقد يصنع منها رواية، رغم أنني، ولعله اعتقاد خاطئ، لا أميل إلى تكون الزوجة بطلة رواية، أو الأصح، أن تكون زوجتي بطلة روايتي، أو أن يكون أولادي أبطالاً في إحدى رواياتي، إذا لم تكن الزوجة، وغالباً لاتكون، صالحة لهذه البطولة، أو كان أولادي، غير صالحين ليلعبوا دور الأبطال، وليست سوى الأثرة، أي الحب العائلي، هو الدافع إلى ذلك، ولاتعجبوا إذا ملَّت أفئدتكم الكريمة، أنني ناديت، ولازلت أنادي، بتخليص الأولاد من لعنة الحب العائلي.

لقد حشر، ذلك الزوج البليد، المطر بالبروليتاريا، قل حنّط المطر، وحنّط البروليتاريا، وحنط الفلسفة الماركسية، وهذا ما أدى إلى تحنيط النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي السابق، وهذا التحنيط، أو الجمود العقائدي، قد كان موجوداً في الصين أيضاً قبل التخلص منه، منذ عقد من الزمن أو أقل، ولشد ما صورت بشاعة هذا الجمود في ثلاثيتي عن الصين: «حدث في بيتاخو، عروس الموجة السوداء، المغامرة الأخيرة » وانكرته انكاراً!

إنني لم أكتب عن زوجتي في أي من رواياتي الثلاثين، الصادرة حتى الآن، لا لأنها غير ملائمة فحسب، وإنما لأنها لاتثير قوة التخييل في ذاتي، وقد قال خرابتشكنو، في كتابه «الذات الإبداعية» أن «الفكر الفني دون خيال عقيم، بمقدار ما الخيال عقيم دون واقع، وفي انتقاء الأبطال لابد من مراعاة هذا الشرط، كي يكون البطل قادراً على بعث الخيال فينا، والا كان الواقع فقيراً، بائساً، لاعبق فيه ولا نغم!»

كثيراً ما يسألني بعض النساء، كما تفعل زوجتي، هذا السؤال:

متى تكتب عني؟ ومتى أكون إحدى بطلات رواياتك؟ وماذا ستقول عني؟

أو إنَّ بعض النساء، لمجرد تعارف طويل أو قصير، يحذرنني من باب الاغراء:

لا تكتب عني .. إياك أن تفعل!

وأنا لا أفعل، فلا الترهيب ولا الترغيب يفيدان في كتابة الرواية، وفي انتقاء بطلاتها أو ابطالها خصوصاً، ومن المستحيل أن أتناول شخصية جاهزة تلبية لطلب أو واجب.. أفضل، في هذه الحال، أن ارسم غجرية على قدّيسة، من أفراد عائلتي، أومن النساء اللواتي هن في الوقع من حولي، لكنهن لا يبعثن أي خيال في ذاتي، لأنهن عاديات.

السبب: أنني أكره العادية، اقتلوا العادية.



الرومانسية.. وتجربة في أدب الرسائل!

العزيزة رندة!

من حقِ قرائنا، أن نصارحهم، فلسفياً، في أمور أجازها الشرع لذلك أرغب في الكتابة إليكِ، ولا أدري كيف أكتب، وماذا أقول، لأنني في غاية التوتر العصبي، أنشد النوم فلا أنام، وأحلم «بالراحة» فلا ارتاح، رغم أن الاتصال بيننا، ليلة أمس، قد خفف كثيراً من ألمي، فتنكرت قول الأخطل الصغير، بشارة الخوري: «أين التي كانت تقول له، ضع رأسك الواهي على كبدي؟» وقد وجدت، أخيراً، هذا الكبد، في صديقة أربكتني، قليلاً، صداقتها، خشية أن أثقل عليها، هي الحسّاسة جداً، المسئولة جداً، عن الكبير والصغير في تدبير شؤون عائلتها، ثم الإصغاء إلي، ليلاً ونهاراً، دون أن تمل هذا الإصغاء، بل تجد اللحظات المؤاتية، كي تبث أشواقها، إلى صديقها المجهول، مع الإصرار على أن يبقى مجهولاً، وهذا، في رأيي ذروة الرومانسية التي نفتقدها هذه الأيام.

أن اهتف إليك، في جنوني المعروف، بعد منتصف الليل، أو في هنيهات نومك، بعد تعب النهار، فهذا لا يفعله إلا محب مع حبيبته، وأنتِ، في شعرك المنثور، العذب، الجميل، مَن يقتصد في الكلمات، مَن يعرف أن يقول ولا يقول، إلى الحبيب المرتجى، الذي يفوق، في شمائله، الزوج الذي كان، والنُعْميات التي كانت معه، قبل أن يرحل، في عربة الموت، إلى سدرة المنتهى، حيث الرجاء في أن تكون الجنّة مثواه، وأن تكون الصَبّوة، في نقاء

القلب، من حظ التي أحبته، ولا ترضى، بأية حال، إلا أن يكون الزوج الآتي من الغيب، في مستوى رجولة المرحوم زوجها، وأريحيته، كرمه، وقدرته على أن تبلغ في عناقه والشَيمِ النشوة الروحية، مرة، ومرة، ومرات، وهذا من حقها، في فتوّتها، جمالها، وتوق روحها المجّرحة إلى الروح الأخرى، على اسم النبي الكريم الذي تنزّل في وحيه: «إن الزبد يذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» وفي الأرض الشريعة السمحاء.

إنني أفهم، وأتفهّم، مثل هذه الأمور، وأبارك، ثلاثاً، نداء الرغبة الزوجية، في الجسد الفتّي، الناضح أنوثة، وجمالاً، ودلالاً، وبغير ذلك، أكون، فيما ادّعيه من علم النفس، على جهل في علم النفس، وباطل الأباطيل أن يكون ثمة خطأ، فالاستقراء، طوال ساعات، وفي صبر منكِ أحسدك عليه، بلغت أن اسبر أغوار نفسك، وإن أكون على يقين، أنّك تبحثين عن الأفضل، في الآتي، ومن كل النواحي، وهذا الآتي، في يفاعته، يزري بكل شهرةٍ، لأي عجوز، مهما يبلغ من الانتشار، في أربع جهات الأرض.

أعرف تماماً أن بلوغ ذروة النشوة له طرائق عديدة، وأنَّ العجوز، بعد الاكتشاف المذهل لمداواة العْجز، يعيد ترميم ما تهدم من الجسد، والعناق، في المحبة المتبادلة، له حرارته، له وقعه الطيب في النفس، والمسألة، في ممارستي الطب النفسي، يتوقف على تهيئة المرأة، هذا الكائن الرائع، التهيئة اللازمة، الضرورية، قبل أي وصال جسدي، ومعرفة استعمال الكلمات، بالنعومة البالغة، وعدم القذف بسرعة، آفة هذا العصر، واعتبار الأخرى، مساوية للآخر، وهذا الآخر هو الفاعل، والأخرى هي المنفصلة، وأنها، بعد الوصال، تظل في حال نشوة خمسين ثانية أو أكثر، وعلى الرجل إلا يدير ظهره لها بعد الاسترخاء، وينام، لأنه بلغ مأربه، وأنجز مهمته الزوجية، كأي حيوان في هذه الدنيا.

إن الرجل لا يُقاس بالفحولة وحدها، والاّ كانَ أجير الفرّان، مع كل الاحترام له، أوفى من هذه الناحية، فالمرأة، في دقة نظرها، وبعده اللازم، تكره الرجل

الكذوب، البخيل، المتبجّح، مخصيّ الشخصية واهن الإرادة، خوّاف، نذل، زاني، غيرته مرضية، فالغيرة حارسة الحب، لكنها، في الغيرة غير المبررة، مرض نفسي، تقتل في المرأة أنوثتها المتفتحة، تجعلها آلة، إنجاب وطبخ ونفخ، كما في جواري السلطان عبد الحميد، وما أدراك ما هو عذاب هؤلاء الجواري!

إن لي في الحب، الذي لم أعرفه يوماً، لأنني أضعت طفولتي في الشقاء، وشبابي في السياسة، فلسفةً كاملةً، وقد سئل أحد أساتذة الجامعة، عن تعريفه للحب، فثرثر طويلاً، دون أن يفي السؤال حقه، دون أن يدرك، ببساطة، أنَّ الحب مرض لذيذ، سعيد من ابتلي به، وأقلُّ سعادة من شفي منه بسرعة، وإن نابغتنا الجاحظ، ذم الرجل «بطيء الإفاقة، سريع الإراقة» وأنه، في أحيان غير قليلة، يطلب الضيّق، بعد أن تكون المرأة، بسبب الإنجاب، قد اتسعت، ومن هنا منشأ اللواطيّة، ومن فجاجة الرجل، وغلظته، كان السحاقُ، وكانت اللذة في شذوذها، بين امرأة وأخرى!

أطلت عليك، أيتها الصديقة التي بغير كلام، تقول لي، وأنا المعذّب: «ضعْ رأسك الواهي على كبدي» ولأنها تضحّي، حتى بعد منتصف الليالي، كي تواسي روحي المجرّحة، فإنني أضحي، كفاء صبرها، بأي التزام منها تجاهي، ولم يكن هناك التزام أصلاً، كان هناك عطف، استلطاف، علي، في المقابل، أنْ أشكره، أنْ أتعلم منه، إلاّ أبالغ في عطاء دون مقابل، وأنت، عطيتِ، وتعطين دون مقابل، فالشهرة وحدها لا تكفي، وهذا ما خرجت به، في تعذيبك بأسئلتي، من نتائج هي في محلها تماماً: أنت، وهذا من لبّ الصواب، بحاجة إلى رجل يكون في مستوى رجلك الذي رحل، ورجاء المؤمنين لا يخيب إلى الأبد، وستجدين هذا الذي سيأتي، ما دمت في غرّة الصبا، وغرة البيان، والأبيات الشعرية، المعبرة جداً، سأحتفظ بها كذكرى منك، مدى الحياة.

لا أقول وداعاً، بل إلى لقاء في أي مكان وزمان تشائين، والله يحفظك ويرعاك مع العائلة الكريمة، يا أيتها المعروفة المجهولة في آن!

التمثال

هبط ثلاث درجات وتوقف. خطر له أن يعود. عاد. صعد درجة ورفع قدمه ليضعها على الأخرى. لم يفعل. توقف مرة أخرى. استدار. استند إلى الجدار. رفع رأسه إلى السماء. ابتسم للسماء: شكراً. النجوم بعيدة. تراها، إذا تحدثت، تسمع؟

أيتها النجوم البعيدة! هذا المساء، هذه الساعة، انشق حجاب الهيكل. لم تقع ظلمة على الأرض ولكن انشق حجاب الهيكل. لقد صلبت ما أنا الذي لم أخطئ في حق الآلهة، ولم أذنب في حق البشر، صلبت. ومنذ اليوم، صرت حاملاً صلبي، صرت حاملاً نيري، وسائراً به في موكب الظمأ الذي لا يرتوي، لأن خوفي على صليبي هو صليبي.

هذا المساء، وكيد صديق، ارتفعت يد على مطرق بابي. أناملها، الشموع الخمسُ، البيض، أناملها، طرقت بابي. فتحت لها، لأميرتي، للتي من بلاد ميشكين(١)، أميرتي. لم تطأ قدماها بلاد ميشكين، ولكنها في قبعتها السنجابية، قد كانت منها ولم تطأها. لم أجد عربتها الثلجية على الباب، ولكنها بعربة ثلجية جاءت. وبيديها أمسكت اللجام، وهزت السوط، وساقت الخيل، واجتازت الغابة.

انحنيت لها، لحبيبتي، وحامله الشموع معي. من الصحراء هي، وليس في الصحراء غابة. ومن الأبنوس الأبيض هي، وليس في الصحراء أبنوس أبيض. ومن بلد السراب، وترتدي قبعة من الفرو الأصهب. يا أنا كرانينا،

---

(١) بطل رواية «الأبله» لدوستوفسكي.

قلت لها، أكرميني، يا حبيبتي، بدخول بيتي، ولا تخلعي عنك قبعتك المزدانة بالثلج، فأنا كنت أحلم، قبل أن آتي هذا العالمٌ بقبعتك المزدانة بالثلج. كنت أشتهي أميرة من بلاد ميشكين، قلبها مثل ميشكين، وها أنت، يا أميرتي، يا حبيبتي، فأكرميني بدخول بيتي.

تقدمنها على طول الرواق، إلى غرفتي. ليست كبيرة غرفتي، ولكنها مزدانة بكل ما يليق بأميرتي، ومن الصدر، على قاعدته، خرج بوذا من نضاله وانحنى لزائرتي، وتبعته بقيّة التماثيل. ومن مجامر الفخور، فاح الند الذي من بلاد السند، وتفرّع، في النار، خشب الصندل، وغالية من بلاد نجد، انسكبت على الأرض، وسجادة من خراسان، صافحت القدمين، وتقدمت «كوشي بين»[1] التي من بلاد الصين، بإبريق فيه ماء الورد، ومن صدري أخرجت منديلي، ومسحت به أنامل حبيبتي.

وقفنا، كلانا، على البساط الذي جلبته من بلاد الدانوب، ليكون مداسا لحبيبتي. لم تتكلم. النار في الموقد، وحاملة الشموع على المنضدة، ومجامر البخور على الرفوف، والتماثيل على الجوانب، وأنا وهي، في الوسط، يرنو أحدنا إلى الآخر، وقلبه يخفق، وعينه تتملّى، ولسانه يقول، ولا يقول.

كانت تبتسم. أميرة من بلاد ميشكين تبتسم. وفي ثوبها الطويل الأسود، كان جسم أبنوسي أبيض. لو تحولت، في وقفتها تلك، إلى تمثال! آه يا نجمتي، شقي من يرغب أن يتحول حبيبه إلى تمثال، ولكن ذلك لو صار، مرة لو صار، لكان تمثالا بلا مثال، من صنع الأكبر الأكبر، ولاحتفظت به قربي، في غرفتي، في سريري، ومسحتُ عليه بيدي، كالمجوسي للصخر على باب المغارة، إذ الطفل في مزود البقر، بشارة خلاص للبشر.

ومن كمّيها المؤطرين، أخرجت كفين موردين وأخذت يدي، وهمست، كوسوسة الذهب، في أذني:

---

(١) قديسة بوذية.

- حبيبي!

وسمعت صوتي يجيب:

- حبيبي! يا حبيبي!

وكان عناق. وشيء، كالرؤيا، حدث، وغمغمة، كالطلِّ، همت:

- حبيبي! يا حبيبي! يا حبيبي.

وجدت ذراعي حول خصر أميرتي، وشفتي على عنقها، وأذني على فمها، وكلمات لا تنسى، وثوب أسود، يلف جذعا أبنوسيا أبيض، والكف على الظهر، والرأس على الكتف، و«فالس» أزرق، ونحن ندور، والأشياء، من حولنا، تدور، ومجامر البخور، ونار فيها خشب الصندل.

آه يا نجمتي البعيدة، في الصين قابلت رجلاً، كان يشرب، وينظر باتجاه واحد. كل يوم كان يجلس في مكان واحد، وينظر باتجاه واحد. وفي ذلك الاتجاه كانت امرأة من «لاهور»، فارعة، سمراء، بلون الخبز على المذبح، جميلة كصورة على المذبح، تلف جسمها بـــــ«الساري»[1]، وكان الرجل ينظر إليها ويحلم، وفي حلمه رآها تدور على نفسها، ومع كل دورة تنحل لفة من «الساري» بدءاً من الرقبة إلى الساقين، ويسقط الساري شلواً على القدمين، ويبقى الجسم عارياً، منتصباً، كما هو، قبل أن يكون الساري، وقبل أن تكون الثياب، وكما هي، مع مرآتها، وبيتها موصد الأبواب.

ما سألته عن حلمه، تحقق أم ظل أمنية. اللاهورية والساري، والقدري الجاري، ومعجزة الباري، تبارك الباري.

وسنوات من العمر انفضت ومسافات من الأرض انطوت، وها أنا في بلدي، بين أهلي وعشيرتي؛ ها أنا في غرفتي، ومعي أميرتي، وعلى رفي مجمرتي، ومن خلل الدخان أرى ثوباً ينحل، من أعلى إلى أسفل ينشق، وتسقط قطعة ثم قطعة ثم قطعة، ومن داخلها جسم يبرز، أبيض كالمرمر،

---

(١) قماش حريري تلف به المرأة الهندية والباكستانية جسمها بغير خياطة.

حيٌّ، دافئ، رخص، أملس، في صدره شامة، عليها علامة، وفي خصره تجويف، وحول سرته استدارة، رغيف صنع بمهارة، وساقان وكتفان، وضباب، وأنا والجسم والغرفة في ضباب، وانجلى الضباب، وتحركت، على الباب، المركبة الثلجية، ورفعت التي من بلاد ميشكين سوطها، واندفعت أفراسها، وبقيت وحيداً، مصلوباً، لا أدري ما أفعل، ولمن أقول، وماذا أقول.

سمعت، يا نجمتي، قصتي؟

لم تجب النجمة. النجوم تسمع ولا تتكلم. قد لا تسمع ولا تتكلم. هبط الدرج وضغط بأصبعه على الجرس. تعالت أصوات من الداخل:

- إنه هو! أخيراً جاء..

وقالت امرأة:

- لكنه حزين!

وقال رجل:

- بل هو فرح.

وقال شاب:

- لا حزين ولا فرح.. إنه يحلم.

وقالت فتاة:

- هل يستيقظ من حلم.

وقال آخرون:

- بل هو حاضر غائب، كأنه أضاع شيئاً.

وقال غيرهم:

- بل كأنه يخشى أن يضيع شيئاً.

واستمرت التعليقات وهو ساكت. رويدا رويدا خفت الضوضاء، خفت وتلاشت، وحلت سكينة ثقيلة، بددها الشاب بابتسامة وهو يقول:

- لقد حزرتم.. فلنشرب إذن، ولتكن ليلتنا عظيمة، نصنع فيها وليمة.

في بيته صنع وليمة. من خزائنه أخرج خموراً وعطوراً ونقوداً. سفح الخمرة سفحاً، ونثر العطر نثراً، والنقود الفضية، كأوراق الحور الفضية، كان لها التماع في الجو، ورنين على البلاط، وانهمارٌ من النوافذ، والشموع اتقدت، والمخابئ فتحت، وكل غال لديه صار رخيصاً، والصحبُ، من حوله، اندهشوا، وقال بعضهم لبعض: «جُن صديقنا» وبلغه ما قالوا، فغادرهم، وراح يطوف في شوارع المدينة.

كان، كما قالوا، فرحاً، حزيناً، حالماً، مستيقظاً من حلمه. كان حاضراً، غائباً، يعيش اللحظات التي عاشها والتي يخاف، بعد، أن لا يعيشها. استعاد، في الرؤى، وهماً كان حقيقة. بسط كفيّهِ. حدق في كفيه. تصورهما على الكتفين، تلامسان مرمراً أبيض – تقبضان على جسم أبيض، وتنحدران على الصدر، وتحتويان علامة، في رأسها شامة، ويقترب الفم، ويرتعش الفم، الطفل لم يكبر «آه يا طفلي الذي لم يكبر!» والحلمة سكرة، ولا تذوب السكرة، ما أحلى السكرة.. ويدها تداعب الشعر «انتظرتني طويلاً؟» «طويلاً جداً» «وأحببتني كثيراً؟» «كثيراً جداً» «من أنتَ؟» «من أنتِ؟» «ومن أين جئت؟» «ومن أين جئت؟» «رياح ساقتني» «ورياح سافتني»... اللاهورية والساري، والقدر الجاري، ومعجزة الباري، تبارك الباري، تبارك الباري.

تحدّرت الكف على الخصر. رقيقة أنيقة، مشدودة قماشه الخصر. خط منحني. رسم بيكار، من الإبط يبدأ، يتجوّف، يستطيل ويتجوّف، ثم يبرز، ويستدير، على مشارف الفخذ يستدير، ومثله، من الجانب الآخر، خصر آخر، وتحتهما، على الحقوين، كلثمة وربيب.. ولثمت.. كيف لثمت؟ من أين؟ ولماذا الزمن، أحياناً، لازمن؟ رفّة هدب، وينقضي..

لو مرة عاد، لو مرة عدت، لو صار الجسم تمثالاً، شقيٌ من يرغب أن يصير حبيبه تمثالاً، وأنا شقي، أنا أرغب.

رجعت إلى بيتي. سألتني، على العتبة، صاحبة تخلفت عن الصحب:

- حزينٌ أم فرح أنت؟

- لا أدري.

- عاقل أم مجنون أنت؟

- لا أدري.

- حاضر أم غائب أنت؟

- لا أدري.

- وماذا، إذن، تدري؟

- امرأة كأنها من بلاد ميشكين جاءت إلي.

- وما يقلقك إذن؟

- ألا تجيء، بعد.

- لسوف تجيء.

- ولن تبقى.

- لسوف تبقى.

- العمر لا يبقى.

- العمر يبقى.

- الحب لا يبقى.

قالت مشفقة:

- ألهذا أنت حزين؟

أحنيت رأسي ولم أجب. كان هذا سرّ عذابي. كان يبدو مستحيلاً، وكنت أعلم إنه مستحيل، وأكرهه لأنه مستحيل.

وأشارت الصاحبة، إلى غرفتي، وناري وبخوري، وخموري، وعطوري وقالت:

- لأجلها، كل هذا؟

وأجبتها:

- تكرمة!

- وإنْ ترجع؟

- تعاد التكرمةُ.

- وألا ترجع؟

تفرست فيها. كان خبث في عينيها. خبث في وجهها ويديها، فأشحت بنظري عنها، وأغلقت بابي دونها.. وهربت: لقد قتلتني!

- ألا ترجع؟

ما أفظع طرح الأسئلة قبل أوانها؟

- ألا ترجع:

ويأتي يوم ولا ترجع؟

جلست قرب المدفأة. أغمضت عيني. أصغيت إلى قيثارة في مكان ما، في زمن ما، ورأيتها، هي بعينها، مقبلة، باسمة، وجوقة من حولها تترنم:

«كالسوسنة، بين الشوك، كذلك حبيبتي بين النساء».

«ما أجمل رجليك يا لنعلين يا بنت الكريم؟ دوائر فخذيك مثل الحلي، صنعة يدي صنَاعٍ. سرتك كأس لا يعوزها شراب. بطنك رغيف مسيج بالسوسن... عيناك كالبرك في حشبون. رأسك مكلل بالخصل. ملك أسر بالخصل.. ملك أسر بالخصل».

* * *

نمت على المقعد.. ومع شروق الشمس أفقت.

آه يا سيداتي وسادتي، لماذا أفقت!؟

* * *

المثقفون العرب قاوموا بالكلمة

فيا أصحاب المكتبات ودور النشر، ويا صديقي الذي يعتب على الزمان، قل للجميع إنَّ المثقفين العرب ما لانوا، ولا استكانو، وأن من الظلم أن تلقى على عواتقهم تبعات غيرهم، ومن الإجحاف أن تنبري هذه الصحيفة أو تلك، في هذا البلد العربي أو ذاك، لتسأل هذا السؤال الممل، من كثرة تداوله وتكراره، عما فعله المثقفون العرب، لأجل هذه القضية العربيّة أو ضد هذه الغزوة البربرية، أو ذاك الاجتياح التتري، أو ذياك الزحف التيمورلنكي.

قل لهم إنَّ المثقف العربي، وهو محاصر بالدوائر الحمراء، قد مرق من بين الدوائر الحمراء، فكان حرباً على الفساد والمفسدين، وكان حربة في جنوب الظلم والظالمين، وكان لحرية الرأي نصيراً، ولحق الخلاف والاختلاف معيناً، وقد بذل، من أجل الديمقراطية ما في وسعه، وفوق ما في وسعه، لأن الحرية أثمن من الخبز، لأن الحريات كلها، في الوطن العربي الكبير كله، لا تكفي لكاتب عربي واحد، إذا ما أراد قول الحقيقة، دون غمغمة أو جمجمة، ودون قناع، في زمن الأقنعة هذا.

قل لهم إنَّ المثقف العربي، قد عرف السجون، وذاق مرارة المنافي، وضحّى بالرغيف الذي يحتاجه، من أجل كلمة الصدق التي يحتاجها أكثر، وهذا حسبه، وهذا فخره، لأن المقاومة، في شرعتها، هي قدرنا وشرفنا، وقد رفعنا مشعلها طويلاً، لنخرج من ظلمة الغابة إلى نور السهب، ولا بد أن نخرج، مهما يطل المسير، أو يعنت وعر الطريق!

قل لهم، أخيراً، ما شئت، أو ما شاء الضمير، فكل أمر له في حينه خطب، ولن نقنط إذا رأينا الكأس فارغة يوماً، ففي كل عام ينضج التفاح.

إننا، كما قال فريدريش شلّر، في مسرحية «اللصوص» نخترق الجحيم بقدمين حافيتين، ونراهن على الفدوى بأنامل بترها القمع، وعبثاً يحاولون أن يلووا أصابعنا الممسكة بأقلامنا، لأننا صامدون للألم، حتى وشعورنا تقتلع بالأظافر المدمّاة، من قبل الذين يخافون نفاذ كلماتنا إلى ما تحت جلودهم المترهلة، من شدة التخمة المنهوبة من أفواه أطفالنا الجياع!

أمّا بالنسبة لي، فإنني لستُ جامعَ أوشابٍ على الشاطئِ، ولستُ ممن يضعونَ أقدامَهم في البحر، ويّدعونَ أنّهم عّرِفوا البحرَ، ولستُ في الذين يتأنقون في الّكّلمِ لوجه السفْسَطة، بل الذين يعتصرونَ الكلمة، يعشقَونها، ينادمونها، ينقّبونَ عنها، كما يفعلُ الصيادون في الماءِ المتجّمد، حتى أعثرَ عليها، لأنه، في شرْعي، أن للمعنى الواحد، كلمةً واحدةً، إذا لم نَجْدها علينا أنْ نتوقّفَ عن الكتابة حتى نعثرَ عليها، وفي سبيلِ العثورِ عليها، قضيتُ ليلةً كاملةً، وفي الغَدِ، وفي طقسي المعروف عندما أكتبُ، وجدتُ الكلمةَ الضالةَ، فوضعتُها حيثُ يجبُ أن توضعَ، ثم خرجتُ من المكتبِ إلى الشوارعِ، يدي في جيبِ بنطالي، وشفاهي ترسلُ صفيراً منَغّماً، لأغنية نسيتُها الآن.

الكتابة، إذن، شرفُ الكاتبِ، في صدْقِه والكبرياءِ، وعندما كشفْتُ لكم، سرَّ شبابِ الروحِ وشيخوخةِ الجسد، فإن قولي كان هو القول الذي لا ريب فيه، فالروح تبقى شابةً، بينما الجسدُ يخونُ، وأعترف، أنا ابن الثمانين شتاءً، أنَّ جسدي خانني الآن، إلا أن ولوعي بالشباب، وعتبي على الجمال، بقيا بغير نقصان، ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي الذي قال:

سلوا قلبي غداة سـلا وتابـا	**لعلَّ على الجمـال لـهُ عِتابـا**
ويُسأل في الحوادث ذو صوابٍ	**فهل ترك الجمالُ لـه صـوابا**

وكَنتُ إذا سألت القلــب يومــاً تولى الدمعُ عن قلبي الجوابــا

ولي بين الــضلوع دمٌ ولحــمٌ هما الواهي الذي ثكل الــشبابا

ثم سلوا الأخطل الصغير بشارة الخوري الذي قال في ألفية المتنبي العظيم:

طلبـــــتُ بالــــــشِّعرِ دون الــــــشّعرِ منزلــــــةً

فـــــشاءَ ربُّــــــك ألاّ يحقــــــقَ الأَربــــــا

المعرفة والواقعية.. والرواية!

إذا كانت المعرفة ضرورة بالنسبة للأجناس الأدبية والفنية، فإنها ضرورة مضاعفة بالنسبة للجنس الروائي. هنا تتعانق التجربة بالمعاناة بالهندسة المعمارية، فكاتب الرواية ينبغي، كما عند الجاحظ، أن يكون ملاحظاً، والملاحظة لابد أن تكون دقيقة، واعية، شاملة، تبدأ بالبيئة في كل فضاءاتها، وتتجاوزها إلى المدينة في كل مناحيها وفي قاعها خصوصاً، حيث تجد، في هذا القاع، ترسبات المدينة، طروحاتها، مشاكلها، همومها، تطلعاتها، أحداثها، نماذجها الحياتية والبشرية، وتتعلم كيف تتعامل، مع ذاتها أولاً، ومع غيرها ثانياً، ومع الشعب والوطن ثالثاً.

كان تشيكوف، سيد القصة القصيرة بغير منازع، يوصي الكتاب الناشئين، أن يركبوا الدرجة الثالثة من القطار، ففي هذه الدرجة قاع القار، كما هي الحال مع قاع المدينة، وفي القاعين أخلاط من البشر، هم بغية القاص، اذا ما أراد أن يكتب قصة واقعية، نقدية، حقيقية، يرى القراء فيها صورهم، وصور واقعهم، وكذلك صور حياتهم الشقية، وصراعاتهم مع مثل هذه الحياة، بكل تلاوينها، بكل غرائبها، بكل تعطيبها في العيش المشترك، بدءاً باللقمة وانتهاء بخفقة القلب!.

المعرفة، في قاع المدينة، مساوية للمعرفة في قاع الدرجة الثالثة للقطار، فاذا أردنا التعميم، نجد أن القيعان، في كل أشكال العمران، ريفاً وحضراً، تقدم للملاحظ الجيد، صنوفاً من الغرائب والعجائب، والأديب والفنان، هما المقصودان بوجوب البحث، في مزابل القيعان، عن اللقى، مادية

ومعنوية، شريطة أن ينقبوا فيها، أن يبحثوا، دون الأكمام البيض للقمصان المنشّاة، بأيديهم المجرحة، المدماة، من شدة ما عانوا، أو جربوا، خلال ملاحظاتهم وتنقيباتهم، عن الحدث، عن الأحداث، عن الوقائع، وما فيها من رجوة، مرة كانت أم حلوة.

فاذا أنفوا عن ذلك، إذا سدو، بالقطن، أنوفهم وآذانهم، اذا توخوا الحذر خوف العواقب، إذا هابوا المغامرة في التجارب، يكون عليهم أن يبحثوا عن مواد إبداعهم في الغرف المغلقة، من خلال التجريد، ومن خلال تركيب الفكرة على الحدث، لا تركيب الحدث على الفكرة، وهو ماينبغي، وإلا وقعوا في الزيف، وأضاعوا الصدق وما فيه من حرارة المعاناة.

بالنسبة لي، وهذا ما لا أريده لغيري، اضطرني الفقر الأسود، إلى النبش في المزابل، بين الكلاب والقطط، نبشاً واقعياً لا مجازياً، وفي مزابل حقيقية لا خلّبية، عن شيء ينتفع به، بيعاً إلى تجار الخردة، من الملعقة إلى الشوكة إلى القطعة النحاسية، من صحن عتيق مثقوب إلى طنجرة مهرمشة، مكسرة، موروثة عن جد بعد جَد، إلى ثوب بالٍ نستر به عرينا.

أرغب ألا أُفهم خطأً، فليس المعدمون هم الذين يبدعون فقط، هناك مبدعون مترفون مثل الشاعر المرحوم نزار قباني، الذي قال لمنتقديه: «كيف تريدونني أن أكتب عن الفقر والفقراء، وأنا عشت طفولتي على الشوكولاته!» كأنما الترف ينفي العلاقات الإنسانية والاجتماعية، وهناك نجيب محفوظ، أحد مؤسسي الرواية العربية، وقد درس الفلسفة في الجامعة، ولم يكن معوزاً، لكنه كان إنسانا طلع من قلب الشعب العربي المصري، وهناك، إلى جانب هذا كله، أطفال بحثوا مثلي في المزابل، ولم يكتب لهم أن يمشوا على الطريق الذي مشيت فيه، والمسألة، بعد، ليست للتفاخر، وإنما لذكر التجارب التي مررت بها، والتي منها استمديت واقعيتي، هذه التي يدعي، بعض قصيري النظر، أنّها «تهمة» وهي علامة مجيدة، من بعض علامات نجاحي الكبير كروائي.

الواقعية!؟ نعم! ولمَ لا؟ واقعية على سن الرمح، كما قال الناقد سمير سعد، وواقعية تتداح لتشمل الماضي، والحاضر، وكذلك المستقبل، هذا البعد الذي كان عيباً في أكثر الواقعيات الأخرى.

إن الرواية واقعية بطبعها، فهي ليست بنت لحظتها، ولست بصدد تبيان، أو تأكيد، أنّ الواقع في أساس كل إبداع، حين ينقلب، في المعالجة الإبداعية، إلى واقع فني، إنما أيأسر إلى تصحيح فكرة خاطئة، هي الزعم أن كل ما يكتب عن الماضي، لابد أن يكون ماضوي التفكير، وقد قال الناقد المصري الكبير، الدكتور صلاح فضل، في كتابه «منهج الواقعية في الإبداع الأدبي» إن خيوط الواقع لا تتكون من الماضي فحسب، الماضي الذي يسبق لحظة تاريخية محددة، ويصوغها بشكل خاص وإنما من الأجنة التي مازالت تضطرب في عالم الغيب، وإن لم تكن مرئية بالوضوح الكافي.

ولكي نتقن التعاطي مع الماضي يحسن أن نفهم الحاضر جيداً، ونستشرف البعد الثالث، المستقبلي، والإتقان في التعاطي مع الأزمنة الثلاثة، يرتكز ولابد أن يرتكز على المعرفة مقترنة بالخبرة، بالتجربة، بالمعاناة، بدقة الملاحظة، بمعرفة البيئة بعمق، ومعرفة الوطن، والعالم، والشعب، بعمق أكثر، وتحصيل المعرفة، من الناس والكتب، نصية صارت في المسلمات، ولن أكرر الكلام عليها، غير أنني أشدد على معرفة التراث، كي نعرف المعاصرة، وأن نطلع، ولو بشكل غير معمق، على الفلسفة، والتاريخ، وعلم العمران، وعلم الاقتصاد، وأن نمتلك مفهوماً ناضجاً عن الكون، مفهوماً لا غنى عنه كي نفهم المادية، في جدليتها ومثاليتها، أي إنّ مسار هذا الكون، في أنظمته الخمسة، وفي اتساق السير مع المستقبل، ولأجل هذا المستقبل، من خلال فهم واقعية الحياة التي وحدها، القوانين، تدرأ خطانا عن التخبط في سيرها إلى أمام.

أما الواقعية، وأنا أستند في الكلام عليها على كتاب صلاح فضل، فإن ديستويفسكي قال بشأنها، عام ١٨٦٢ «يطلقون علي خطأ صفة الكاتب

السيكولوجي، بينما أنا في حقيقة الأمر واقعي بأسمى ما تعنيه هذه الكلمة، إذ أنني أصور أغوار النفس البشرية».

وفي عام ١٩١٣، كتب الناقد الفرنسي ببير مارتينو «الطبيعة هي مبدأ زولا، وتقتضي عرضاً علمياً للأدب والفلسفة كمادية محددة.. أما الواقعية فهي ذلك التيار الزاخر الذي يجرف في مساره كثيراً من الايديولوجيات والفلسفات، والذي اغتسل بمائه معظم كبار الكتاب العالميين في القرنين الأخيرين».

ويرى هاري ليفين، رأياً أشد تحديداً، حين يؤكد: «لم توجد، على الإطلاق، مدرسة أدبية سوى الواقعية، إذ لم يكن أحد على تمام الوعي بعمله مثلما كان الكتّاب الواقعيون، جاء هذا في كتابه عن «الواقعية الفرنسية» .

معرفة؟ نعم! وشاملة بالنسبة للروائي.

واقعية؟ أجل! ولكن كيف؟ هذه هي المشكلة!.

أكره الحذلقة المثالية.. والشّهرة أيضاً!

أحمامة تبكي على الصيف المُودِّع أم علينا !؟

كنا الملوك على الشباب وكانت الدنيا لدينا

كنا الغصون الخضر في كفّ الملاحة والتوينا

إنّا بنينا للشباب، ولم يدُمْ ما قد بنينا

يا فائت الأيام، تسألك المدامع أين أينا!؟

الشهرة جهنم، وأنا هارب من جهنم إلى جهنم، حتى في الثمانين التي بُلِّغتها، وعبثاً أحاول اقناع الصحافة والنساء، أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنني أنشد الراحة، في مكان بعيد بعيد، لا يعرفني فيه أحد، وهذا المكان، بدءاً ، كان فندق معلولا، وفيه استسلمت إلى كسل ملوكي، في العام الأول، فلم أكتب حرفاً، ولم أفتح التلفاز حتى لا أرى المحنة الكارثية، التي يكتوي بنارها إخوتي في فلسطين، حين الصدر العاري، في الانتفاضة الباسلة، يتحدى إجرام شارون ومن قبله، منذ ثلاث ونيف من السنين، دون خشية من طائرات الفانتوم، أو حوامات الأباتشي، أو الدبابات المجنزرة ، أو المصفحات الممترسة، أو تهديم البيوت، أو تجريف الأرض، أو إقامة الجدار العازل، أو القصف من البرِّ والبحر والجو، على نحو لم تشهده الحرب العالمية الثانية نفسها!

لا بأس «الحياة عقيدة وجهاد» وهذا شعار يترجمه الفعل لا القول، ربما قبل أن يسمع به، ترجيحاً، المنتفضون وما يعانون من تدمير وخراب وموت وسجن، ودون وقفة عربية واحدة، موحدة، لنصرة هؤلاء المقاومين، بضراوة، الاحتلال

الاسرائيلي، ومعه الاسناد المتواصل من أميركا، بالسلاح، والمال، والفيتو في مجلس الأمن، والحيلولة دون قرارات الأمم المتحدة والتنفيذ، والهزء، نعم الهزء، من هذه القرارات التي مصيرها التراكم والتجميد، والإمعان، حتى الوقاحة، في السر والعلن، بتجاهل المواثيق الدولية ذات الصفة الإلزامية! وذات ضحى، رن الهاتف في غرفتي، رغم توصيتي المشددة، بمنع الاتصال بي من خارج الفندق، وكانت المتكلمة صحفيّة مصرية، مندوبة مجلة «نصف الدنيا»، المكلفة بإجراء مقابلات مع الأدباء في سورية، وقد بادرتني بسؤال مباغت:

هل صحيح أنك تكره النساء، مع أن المعروف عنك مناصرتك للمرأة والوقوف معها؟

أجبت:

إني اكره النساء الصحفيات فقط، وقد هربت إلى هنا للراحة، والخلاص من المقابلات الصحفية، سواء كان طالب المقابلة ذكراً أو انثى، لذلك أعتذر من «نصف الدنيا» ومن الدنيا كلها، وآمل أن يقبل اعتذاري، وتركي وشأني، فأنا هنا لأفكر، لا لأكتب، وهذه عادتي المعروفة، وهي السبب في ابتعادي عن دمشق، وفي شهور الصيف خصوصاً، لأننا، في هذا الوطن العربي الكبير، نحتاج الى التفكير، وإلى ترتيب افكارنا حين تسنح الفرصة، ونحتاج، أيضاً، إلى النظر في داخلنا، بعد أن نظرنا طويلاً جداً إلى خارج هذا الداخل، ولم نفكر حتى في العهدين، الاموي والعباسي، بانشاء استثمارة زراعية، فصرنا خارج التاريخ ، حسب مقولة فوزي منصور، وهو مفكر وكاتب باللغة الفرنسية، لأنه في اغترابه الطويل، لا يحسن الكتابة باللغة العربية، حتى كادت الفرانكوفونية تبتلعه، كما ابتلع الحوت يونس، حسب الاسطورة المعروفة.. أمّا الاستثمارة الزراعية الكبرى، لو صارت، لكان لها شأن كبير، في تطورنا الزراعي، وفي الانتقال إلى رأسمالية زراعية، ندخل بعدها العصر الزراعي مباشرة.

هذه أفكار جديدة، حديثة، لم أسمع بمثلها من قبل، وقد دونت كل الذي قلته، وصار لدي ما أناقشك به، لأننا. نحن العرب، علينا أن نحذر ما يقوله

الفرانكوفونيون، ومقولة فوزي منصور هذه، من أن العرب كانوا خارج التاريخ، غير صحيحة بتاتاً، وتحتاج الى مناقشة ودحض، إذا لم أقل فضح، لأنها نتاج الاستشراق ، وكان عليك أن تقرأ كتاب الاستشراق لإدوار سعيد، حتى تعرف التلفيقات، والافتراءات التي تنهمر كالبرد على رؤوسنا، من هؤلاء المستشرقين والفرنكوفونيين، بغية النيل من أصالتنا العربية، ومن حضارتنا التي انتقلت إلى أوروبا من الأندلس.. إنني أرغب في مناقشة كل هذه القضايا معك، حيث تقيم، في فندق معلولا، فانتظرني!

لم انتظرها، لا هرباً من مناقشتها، أو الحوار المتبادل معها، وإنما لأن أختي العزيزة، قدسية ياخور مينه، كانت في طريقها من اللاذقية إلى دمشق، وكان علي أن أسرع لاستقبالها في المستشفى الفرنسي، حيث ستعالج من التهاب الكبد.

في اليوم الثاني أو الثالث، طرق باب بيتي في برزه مسبق الصنع، وكانت موفدة مجلة «نصف الدنيا» هي الطارقة، دون موعد مسبق، لعلمها أنني لن أعطي أيّ موعد، لأي أحد، وأنا في الحال التي عليها، من قلق على صحة أختي الوحيدة الباقية، والتي من فرط ودّ ومحبة أسميتها «أمي الصغيرة» في إهداء إحدى رواياتي إليها.

كانت موفدة مجلة «نصف الدنيا» جميلة، والجمال يشفع لصاحبه، ولم تكن السيدة الموفدة عصبية أو نزقة، كانت هادئة، واثقة، ومن أنصار حرية الرأي، وحق الاختلاف، والرأي والرأي الآخر، وهذا دليل على أنّها امرأة حضارية، مثقفة، واسعة الاطلاع. وكان سؤالها الأول حول هربي من الصحافة والنساء، وبخلي في إجراء المقابلات الصحفية، وكرهي للشهرة التي أعتبرها جهنم الحمراء. وأجبتها، بهدوء على كل هذه الاسئلة، مؤكداً أنّي نصير المرأة في كل ما أكتب، وأن أفضل الرجال هم الذين يأتون ليقفوا الى جانب النساء، وأن الرئيس الراحل حافظ الأسد، قد أنصف المرأة، في خطابه المشهور بمناسبة عام المرأة، فقال عنها إنها ناضلت بنفسها، وبأبيها وأخيها وزوجها، في سبيل الاستقلال الوطني، والتقدم الاجتماعي، وإن خطابه يعد فتحاً فلسفياً في هذا المجال، وليس

لدي ما أضيفه على هذا الخطاب الجامع المانع، وبإمكانك الاطلاع عليه في أرشيف مكتبة الأسد.

قالت الصحفية، بكثير من اللباقة والكياسة:

سأطّلع على هذا الخطاب، وأحصل على نسخة منه، لكن ماذا بشأنك أنت، وما تزعمه من هرب بسبب الصحافة والنساء، وهل تقصد النساء الصحفيات فقط، أم النساء بعامة!؟ فإذا قلت لي «النساء الصحفيات فقط» أجبتك : «أنت مخطئ، فالصحفية، هذه الأيام، هي الأقدر على المحاورة، في المقابلة التي تجريها، سواء مع الرجل أو المرأة، غير أنك تغالط في هذه المسألة، على طريقة: «خالف تعرف!» والشهرة التي تقول إنها جهنم، وإنك كمشهور تعيش في جهنم، قول ينطوي على خبث، واعذرني على صراحتي، لأنه ما من كاتب إلا ويرغب في مزيد من الشهرة!»

قلت :

هذا صحيح بالنسبة للكاتب العاقل، إلا انه لا ينطبق على السلوك المزاجي، بالنسبة لكاتب مجنون!

وهل الذي قلته عن الفرنكوفوني فوزي منصور، وما يزعمه من أنّ العرب خارج التاريخ، من العقل أم من الجنون؟

من العقل طبعاً، ولا بأس، يا سيدتي، إذا تركنا جانباً تقديس التراث، أو الأخذ بكل ما قاله الطبري، فالتاريخ العربي، قديماً وحديثاً، بحاجة إلى اعادة كتابة.. ألست من رأيي؟ ولماذا نرفض مقولة اقتصادية، ما دام الاقتصاد فن فهم السياسة؟

أنا من رأيك إلى حدًّ ما.. لكنني ضدك وضد فوزي منصور، من أنَّ العرب كانوا خارج التاريخ.. أنت روائي ولست بمؤرخ، أو حتى باحث، أو دارس للتراث، كي يحق لك أن تحكم في شأن ليس من اختصاصك!

نظرت إليها نظرة لا ينقصها الاشفاق وقلت:

أنا روائي كما تقولين، وعلى الروائي أن يكون على موعد مع المغامرة، أن يعيش على حافة الخطر، أن يكتشف المناطق المجهولة، أن يعرف جيداً البيئة التي

يكتب عنها، لكن عليه، قبل ذلك، أو بعده، أن يمتلك معلمية الكتابة، وهذه لا تتأتى إلا من موسوعية الثقافة!

قالت:

اسمح لي، إذن، أن اقول إنك مغرور، حتى وأنت في الشيخوخة!

قلت:

هذا صحيح، إلاّ أنّ الغرور فيه الاعتداد، وأنا معتد بالمعنى الطيب للكلمة، لكنني، من حين لحين، أتحسّر على ملوكية الشباب يا سيدتي!

قالت سيدتي الصحفية:

العرب ما كانوا يوماً خارج التاريخ، ولن يكونوا أبداً ، والاستثمارة الزراعية الواسعة لا علاقة لها بهذه الكينونة، فالمعول عليه، في مثل هذه الأمور هو الروح، هو الأخلاق، وقد قال أحمد شوقي: «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا».

وبعد!؟

هل تسخر من أمير الشعراء؟

وأدعو إلى جمع تواقيع ضد هذا البيت من الشعر، فالأمم تنهض أو تسقط نتيجة الاقتصاد، وليس نتيجة الأخلاق، مادام الانسان ابن تاريخه الاجتماعي، وهو يتخلق بهذا التاريخ، في العهود الخمسة التي مرت على البشرية، أي إنَّ أخلاق الإنسان في العهد الاقطاعي، غيرها في العهد الرأسمالي، وقد كان حافظ إبراهيم ألصق بالوطن والشعب من أحمد شوقي، وعبر عن نصرة الوطن والشعب بأصدق مما عبر أحمد شوقي.. أما كوني ملكاً على الشباب فهذا من الموضوعية وليس المثالية. لقد كنت، في شبابي، غير ما أنا عليه في كهولتي، كنت على عرش الشباب، وها أنا أنزل عن هذا العرش، لذلك أهرب من الصحافة، وأهرب من النساء الصحفيات خصوصاً ودائماً، دون أن اتخلى مقدار ذرة عن احترام المرأة ومناصرتها..

أضفت: الحديث، كما أرى، انتهى، وبصدر رحب أتقبل آراءك، ويبدو لي أنّك تضعين الاقتصاد خارج اهتماماتك، بينما أضعه أنا في قلب اهتماماتي، وانطلاقاً من هذه النقطة فإنَّ الكولونيالية انتهى دورها بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنّنا، بعد جلاء القوات الاجنبية، لم نستقل، لأننا لا نزال مرتبطين بالمركز الرأسمالي العالمي، أي تابعين له اقتصادياً، وهذا هو السبب في عدم اكتمال النهضة العربية في عشرينات القرن العشرين، وسبب تخلفنا راهناً، ولا أمل في الاستقلال الحقيقي، الا بالاستقلال الاقتصادي. وأحسب أن المسؤولين العرب غير قادرين على فك هذا الارتباط، أو أنهم لا يريدونه، أو لا يعملون له عملاً دؤوباً، لغاية في نفس يعقوب، كما يقول المثل!



محمد الماغوط.. واليراع المنضّر

أجملُ من عينيــك، حبِّــي لعينيــك

فـــإن غنّيـــت، غنّـــى الوجـــودْ

كنت ببالي فاشتممت الــشذى فيـــه

تُـــرى، كنـــت ببـــال الـــورودْ؟

إنما الشذى، في اندياحه والغالية، في المعجز من القصيد يكون، وهذا الشذى، في الكلمة الجامحة، المتوفزة، النافذة، في الكلمة النصل، التي في حدّها الحد، يتضوّع، يتصاعد، يتعالى، بين أرض وسماء، في شعر عبقر، وما عبقر، في وادي الإلهام، إلاّ هِبَةُ سماءٍ، لمن أوتي أن يرقى إلى مستواها، ويتجاوز، عنوة وبغير إشفاق، على الذين أَضرت بهم، وبنا، الشفقة الرعناء!

إن الشاعر، الذي في جنون الشجاعة، يغزل الشعر لفحاً مجنوناً، وفي المبضع. الأصيل الأصيل، الجارح الجارح، يفقأ الدمامل النتنة، المدوّدة، ثم يعطي في ترف اللفظ، لأَنق اللفظ جمالاً فتاكاً، ويعطيه، كذلك راحة حنوناً، ملساء، منداة بالأريحية والعزاء، بها يمسح على القلوب الكليمة من أسى، حاملاً إليها في القنوط رجاءً، وفي الإظلام نوراً، وفي اليأس أملاً، وللبدء، من وجع الفاقة والمرض، موعداً في اللامنظور من الزمن، إلى أن يصير موعداً منظوراً في الزمن، آتياً لا ريب فيه، في القريب أو البعيد من الأعوام والعقود، إنّ هذا الشاعر، شاعرنا، تصرخ، في قافيته المدماة، المجنحة، الكبرياء قائلة: أنا هنا! رجوة حق، في طلاب حق، غلاباً يؤخذ، وغلاباً يزهو، وهذه الصرخة،

المتضرّمة، المدوّية، المجلجلة، المنضرة، العنيفة، الغضوبُ، هي صرخة شاعرنا الكبير، الحبيب: محمد الماغوط، وستستمر هذه الصرخة، ما استمر عطاء الشاعر، وهذا العطاء سيستمر، مع الدعاء في أن تكون العافية في بردتِه، والصحة النفسية في جوارحه، والنار الكاوية في عزمته، ما دام المثل العربي يقول: آخر الدواء الكي، والكي آخر ما تبقى لنا من دواء.

أما العين، في لحظها والدلِّ، فإنها عين المرأة الأسطورة، عين الِزا لدى أراغون، وعين الزا المجهولة، المعلومة، لدى الماغوط، والشاعر وحده، مَن نفذ، كالمتنبي الرائع، إلى سرها المخفي، في الريش المجنّح النسر، المحلق عالياً عالياً، ومن عليائه ينقض على فريسته، انقضاض الشاعر النابه على فكرته، التي هو مالكها، سيدها، مروضها في أغراضه الشعرية.

عبوس هو الماغوط، ضحوك هو الماغوط، حاضر البديهة، لاذع النكتة، فجائي الالتفاتة، وفي التفاتته السابرة بعمق، الجارحة حتى العظم، مدِّعي شوق، أصيل أصيل، شديد شديد، سائغ سائغ، تنز منه الرغبة الشهّاء، كما في زئير الأسد، نداءً إلى وليمة حب، في الغابة العذراء، على شرف لبوته التي في ملغميها الحياة والموت معاً!

إنني، يا إخوتي القراء، لا أملك يداً سحرية تقطف النجوم، وأصابعي التي أخذتُها من اللجة، وشفتاي المأخوذة من زبد الموجة المصطخبة، هي أصابع إنسان يكون حيث تكون المغامرة، وما هذه الأصابع إلا أغصان شجرة مرجانية، منسية في قاع البحر الأحمر، لا تورق كزهرة الثلج، في الفضاء الحليبي الرحب، وشفتاي قد تقْرب الإثم «لكن ليس ترتكب» وحروفي منذورة للحرق، في اللهب القدسي، ولساني هو الآهُ في صوت المغني، يردد في فلاة القهر: «يا شعب، يا شعبي، وبعض القول لا يُحكى فيضمر».

نعم! بعض القول، في الهتفة الحرّى، آه من ألم، وفي هذا الألم لي شراكة مع شاعرنا الماغوط، الذي هذا النثر المقدس، بعض تكريم له، بعض احتفاءٍ به، وربما، أقول ربما، أنساهُ يسيراً مما به، إلا إنه، التكريم، لن ينسيه،

ولن ينسيني، رَعَف الطفولة شقاءً، ورعف الشباب سجناً، ورعف الكدح لأجل الرغيف زؤاناً، ورعف الكأس شراباً، للتمويه، في هذا الزمن المموّه بالأضاليل، تسّاقط برداً، في غير سلام، على رؤوسنا، الأضاليل التي هي سكب إشفاق، وهل نملك سواه؟ على إخوتنا المفادين، في فلسطين الجريحة، الذبيحة بمدية باترة، من السلاح الحديث، الموهوب لسفاح أشر، يُقال له شارون، ويُقال لمن وراءه، سيد سند، مفرد أحد، بسبب من استفراده بدنيانا المعذبة به، وبأمثاله من المقنعين بالإرهاب، والإرهاب هُمُ، ونية العدوان، وحتى العدوان، هُمُ، على العراق وشعبه الشقيق، بذريعة امتلاك سلاح التدمير الشامل، وسلاح التدمير الشامل في إسرائيل وحدها، هذه الربيبة الشمطاء، المدججة بالسلاح حتى العنق، والمالكة للسلاح النووي الرهيب، رغم السيد البرادعي الذي يتهم إيران، ويستقوي عليها، لأن بوش يريد ذلك! ما همّ، يا صديقي الشاعر، الخطرُ!؟ يراعنا الخطرُ، صبرنا الخطرُ والمدى، بعد، قصير، وأنت الذي تحرك قيثارته روح إلهام، قَولةُ أولائك الديسمبريين المنفيين، في «بيت الموتى»، للشاعر العظيم بوشكين، «لتأتينّك الفرحة بعد الجهمة خَلَلَ قفل ومفتاح، ويأتينّك الإبداع، شعراً ونثراً، في موكب الوطن الذي أعطيته، بشجاعة لا تردد فيها، وسخاء لا شح فيه، وأمثولة لا منكرة فيها، أعظم ما يُعطى، وهو الفن، ذوب القلب، وعصارة الوجدان، بينما هم، المنفيون، يضحكون من القياصرة من وراء القضبان!».

إنني في عناق الحرف، وعلى اسمه الماجد الممجد، أعانقك، لوحدتك، حَدِبا على صحتك، واثقاً، والعزم في الإرادة مضاء، إنك ستعطينا من شجنك سلوة، ومن قبسك ناراً، فدمت عزيزاً علينا، نكبر بك، كي تكبر بنا، فوق ما أنت كبير، وفي هذا كفاء في القول، يصدر من قلب أخ، إلى قلب أخيه، وسلام عليك في كل أحوالك، وسلام على المفادين، الناذرين أنفسهم للموت، في فلسطين والعراق، والجهات الأربع من دنيانا!

سقراط شرب السم، امتثالاً للقانون، وأي قانون هذا الذي يقتل فلاسفته؟ وأي قانون هذا الذي يسجن الكبار من مبدعيه؟ وأي قانون، في دول اللاقانون، هذه التي ترمي المجدلية بالحجارة؟ وأي عرف، يذهب بدداً، من أن العرف لا يضيع بين الله والناس؟ وأية تضحية، في موكب اللاأضاحي، حين الحرف، شعراً ونثراً، تسفيه الريح السموم، وليس من صوت ينادي «أوقفي الركب يا رمال البيد، إنه تاه في مداك البعيد»؟

إنني أفضّل سقراط على أفلاطون، وأفضّل أرسطو على سقراط، وأرفض، في الوقت نفسه، صنيع سقراط وهو يتجرع السمّ امتثالاً لقانون جائر، يدوس بنعليه في المكان غير المقدس، على الفكر الفلسفي، وعلى المبدعين، في الفلسفة وغيرها، دون أن يرعى حرمة الإبداع، التي هي، وحدها، باقية، وما عداها إلى زوال، وبعد هذا يُقدم لنا، في طاعة القانون، سقراط مثلاً يُحتذى، مع أن تجرعه السم، باطل الأباطيل باطل، وقد زال ذلك القانون، وبقي سقراط، وبقيت فعلته عيباً، في تاريخ الإغريق كلّه، وفي كل مثل يضرب به لإقناعنا، عبثاً، أن علينا، كما سقراط، أن ننصاع لكل قانون، مهما يكن جائراً!

إننا لن نغضي على الذل، حتى لو تأنّق الذل قولة بدوي الجبل، ولن نبكي أباً، فعتابنا «ثاراتنا الحمر، أحقاداً وأضغانا» وبوش الذي يريد أرض العراق ليثبت أقدامه في أفغانستان، وبترول العراق ليسيطر على بترول العرب، لن يهنأ بهما، وإذا كان قد زج بكل قوته العسكرية في المعركة مع بلد صغير، متواضع السّلاح، فماذا أبقى لمواجهة الكتلة الأوروبية التي تنضفر أحلابها في وقتنا الحاضر؟

سلاح الدمار الشامل غير موجود، كما أثبت المفتشون، وأثبتت وقائع الحرب العدوانية، وزيفُ التحريرِ المدعى، هو استعمار حاصل، في غير إدعاء، وأسلحة الدمار الشامل هي أسلحة أميركا وبريطانيا لا أسلحة العراق، بل الخزعبلات الأخرى، عن الديمقراطية والرفاه و«عطايا» الغزو للشعب

العراقي المستباح، مفضوحة ومرفوضة، وقبل رامسفيلد كذب غوبلز، فذرت الرياح أكاذيبه وأدين كمجرم حرب، وهذا مصير أولئك الذين لم يعتبروا بمصيره البائس!

رامسفيلد وجنرلاته مستعجلون، يلحون على مضاعفة القصف والتدمير وقتل الشعب العراقي، قتلاً عمداً مسرعاً، لكن بوش في وادٍ آخر، وادي المساءلة لا التاريخية، التي يعرف أنها ستظل تلاحق سلالته، بل المساءلة الشعبية الأميركية أولاً، ومساءلة الدنيا ثانياً، ومساءلة الموتى والأحياء ثالثاً، لذلك يبدو، في بعض طـلّاته التلفزيونية المتكاثرة، مهموماً، عاجزاً، سادراً، تاركاً لوزير دفاعه رامسفيلد حرية الثرثرة، وقلب الحقائق، واختراع التمويهات، وابتكار الانتصارات السريعة، في الوصول إلى السيطرة، على هذه المدنية أو تلك، ثم التراجع عما قال، والادعاء أنه لم يقل، أو لا يتذكر أنّه قال، إن الفلوّجة والرمادي والموصل في إينما العراقيون يذبحون بسكاكين مرتزقته، ويُقتلون برصاص الموساد، والانتشار الواسع لأعضائه في العراق.

إن القانون الإغريقي، الذي خضع له سقراط، فشرب السم ومات، لا أعرفه لأنني كاتب ولست رجل قانون، إلاّ إنه أرحم من قانون بوش ورامسفيلد وكوندا رايسا، والطغمة الأميركية التي غزت العراق الشقيق، ومهما يكن الفارق، فإن النتيجة هي الموت، والشعب العراقي يأبى الخضوع لأميركا وقانونها، لذلك يقاوم، أما سقراط فإنه خضع للقانون الإغريقي وشرب السم فمات، وبدا المعتدون، في كل مكان، غير سعيدين لأن الشعوب لا تخضع لقوانينهم مثل سقراط.

أيّها الشاعر الصديق، يا صاحب القلم النافذ الطعنة كالحربة، والكلمة التي منها المشرفّية. اعذرني إذا جنحت عن الأصول، فأنت أكثر مني كرهاً للأصول، لأننا، كلانا، نرغب في اختراق المألوف وقتله!

محاورة طريفة.. وتعليق محذلق

ذات يوم، قبل عامين أو أكثر، أخذني ابن أختي المرحوم أنطوان ياخور، إلى بستان الخوري، البعيد عن اللاذقية، والضائع، مثلي، في متاهة بين الأدغال والأشجار، حيث لا يعرفني أحد، وأرغب عن معرفة أحد، لأني، في جنوني، ذهبت إلى هناك لأستريح، لا من عناء الحرف الذي قرض ذاكرتي، ولا من الكلمة، في أنقها والتجلّي، وما أكلت من لساني، بل في حالين من التخفّي، بعيداً عن الحب الذي لم أعرفه في حياتي، وعن شراب التفاح الذي لم أثمل، مرة في العمر، من رحيقه.

لكن النادل جاءني قائلاً: «هناك ضيفان يريدان التعرف إليك، إذا لم يكن لديك مانع!؟» وقبل أن أجيب بنعم أو لا، كان الضيفان قد وصلا إلي: الدكتور زهير وحرمه السيدة ريم حبيب، وكانا لطيفين جداً، الدكتور زهير المورّد الوجه، حلو الشمائل والكاتبة ريم التي ينام السحر بين الهدب والهدب من عينيها، في ظلال رموش سوداء، وعنق حنطي اللون، يكسبه الثوب المنفرج عنه، جمالاً خاصاً!

لم أكن لطيفاً معهما، وسأبقى كذلك في لقائي بهما مرات ومرات، دون أن أعرف السبب في هذا الجفاء الذي لا مبرر له، سوى الرغبة في الابتعاد عن الناس، خلال انعتاقي من أغلال الحرف الذي هو «شعرة لا تنقطع» بيني وبين الناس جميعاً!

لاحظت السيدة ريم جفائي، فكتبت على بطاقة تعريف هذه العبارة: «كل ما أتمناه أن أشبهك إلى حد السرقة، وتشبهني فتغدو فاضحاً!» وقد أسرتني هذه العبارة

الموجزة، التي هي في الإضمار، إِضمارٌ غيرُ معهودٍ، ومع ذلك بقيت فظاً، على غير عادتي، مع السيدة ريم وزوجها، خلال زياراتي المتتابعة إلى اللاذقية، وعبثاً حاولا الوصول إلي، في معتكفي الذي لذت به، هرباً من الكتّاب والكاتبات، في فندق الكازينو، ورعاية مديره العام الأستاذ علي غدير، الصديق الذي كان يعجب من نزواتي، ومن إقبالي النهم على شراب التفاح، دون أن أثمل مرة واحدة، ودون أن أبوح بما يعذبني مرة واحدة، ودون أن أعرف، لماذا أنا حزين مرة واحدة أيضاً!

وفي زيارتي الأخيرة إلى اللاذقية، وبعد طول صبر وانزعاج من سلوكي الأرعن هذا، أعطتني السيدة ريم بعض الأوراق، كي أبدي رأياً فيها، ومن غير أن أقرأ ما كتَبتْ، وفي اتصال هاتفي، قلت لها: «أنت غير كاتبة يا سيدتي، فلا تعذبني وتعذبي نفسك!» وكان هذا من الضجر، والحمق الشيطاني!

إن أسوأ الأمراض النفسية، هو جهل المريض الداء النفسي الذي يعذبه ويدفعه إلى درجة الخروج عن المألوف في سكونه، لأنه لا يعرف ما يريد، أو يعرف، وينكر ما يعرف، في خبث اللاشعور!

الله! يا الله، لماذا عاقبتني فجعلتني لا أعرف ماذا أريد؟ ولماذا هذا الذي لا أعرفه، والذي هو سبب شقائي، معلوم مجهول في آن!؟ وكيف السبيل، وأنا أفضّل يونغ على أستاذه فرويد، لوقف هذا التعذيب النفسي الفرويدي، الذي أجيد تحليله، وأفشل في التغلب عليه، بسبب من أنني شاعري الهوى ولا هوى، متّهم بأنني قليل النزوات، جامد الرحمة، كاتمها والسهم في كبدي؟

لكنني هذه الليلة، قرأتُ، هادئاً، ما كتبته السيدة ريم في الأوراق التي أعطتني إياها، فوجدتها صالحة للنشر، وها أنا أنشرها دون إدخال أي تعديل عليها:

من يجني الثمار؟

لموسم في أوجه، حتى إنَّ الثمر يتساقط على الأرض، وهو يملأ كل الأرض خصوبة، ووسط القرص الدائري الأبيض، ثمة كرزة صغيرة، لم يقطفها أحد، لأنها ليست مباحة لأحد، وربما ليس هناك من يجتني.

الثمر يتساقط على الأرض، وهو يملأ كل الأرض، وليس ثمة من يجتني! لكن تحت حبة الكرز، تبوح لك التفاحتان بالسر العظيم، بأنفة ودون كلمات. لكنك تعرف ما معنى أن تنضج الثمرة في تشرين، وتبقى حتى آب، دون قطاف!

ما زالت المواسم تتراكض في هضبتها البيضاء، تتدافع في أديم خصب بالحياة. ينمُّ عن اختمار سنابل القمح الذهبي، وهي الآن، على أهبة الاعتراف، تتوي ذلك حقاً، لكنَّ هذا لن ينفعها بشيء.

فالمواسم تتراكض، وهي أصبحتْ مثقلة بالثمار. وحتى الآن لم يقطفها أحد بعد، لأنها ليست مباحة لأحد، وربما ليس هناك من يجني الثمر! وقد بدأتْ المرأة تعاني، والقلق يتابع غزوه، وهي تفتح كل نوافذها لتوغّله العنيد، حتى أنها توشك أن تبكي عليه، ومنه. وكلما نضجت ثمرة من حبة كرز أو تفاح، كانت تقطفها بحذر، ثم تمسكها بيدها، وتقف هناك، على الناصية، منتظرة، بدوم الانتظار، طول يوم، على أمل أن يأتي عابر ما، أن، تراه حتى تقول له عن طيب خاطر: «إنّها لك» ينطفئ اليوم، وتنام العصافير، ويغوص الحلم، ولم يأتِ أحد.

تهمهم قائلة: «ماذا يعني هذا؟ إنه لا شيء!»

الأيام تتوالد كما الثمار، ومن كان سيأتي اليوم يمكنه أن يأتي غداً، لا فرق!

تمدُّ يدها مرة أخرى، وتتحسَّسُ بأصابعها ثمارها، تتجاوز مرغمة حدود الهزيمة، معلَّلة نفسها بأملٍ يقول لها بأنها ما زالت تملك الوقت.

لكن ماذا لو نفد الوقت، وهي تفكرِّ، وتخيفها أفكارها!؟

تزحف منسلة من سريرها إلى المرآة قبالتها، لتبحث عن عمرها، ثم تضع يدها حول رقبتها متخفية، كي لا تعرف لها عمراً، لكن في صقيع جلدها، تشتم رائحة عمرها، في أحراج روحها تشتم رائحة عمرها، وفي الأسفل منجم للخراب، يخبرها بأنها تعانق الأربعين!

هلعة تنتفض، تجسُّ ثمارها، وتعانق وسادتها الذابلة، ودمع أسود يبحر في عينيها الحزينتين، وسياطُ الذكرى تعيدها إلى الوراء، قليلاً إلى الوراء، تعود كثيراً

إلى الوراء، لا تبالي بخط الرجعة، ولا بذلك الشقاء، ولا برياحه الجائعة، تركض بسرعة إلى الوراء، متهالكة تصل إلى شجرة كان ينتظرها

هو جالساً تحتها كل مساء.

يناديها فتظاهر بأنها لا تسمعه، يقول لها:

«لقد حان وقت القطاف يا صغيرتي»

وكانت تجيبه بخجلٍ: «لكني لم أنضج بعد.»

«حين نضجت الكرزة الصغيرة، لم يقطفها أحد، لأنها غير مباحة لأحد. وربما لم يعد هناك من يجتني!

ريم حبيب

حاشية: إن الأربعين عمر مبهظ للمرأة، من ناحية الأنوثة، لكنه ليس كذلك من ناحية الكتابة، غير أن ريم حبيب وأمثالها، يستعجلن الأمور، لذلك تكون الفكرة، أحياناً، جيدة، والمواقف غير مشبعة، وهذا ما حدث مع ريم، في الإيماء دون الإفصاح، مع أن الإفصاح ممكن جداً، ومعبرٌ جداً، دون تهتّك، كما هي الحال مع الكاتبات المبتدئات، اللواتي يحسبن أن الشهرة تأتي مع الكلمات الجنسية بأسرع مما تأتي دونها!

لست بالواعظ، ولا أطيق الوعظ والوعّاظ، إلا أن بعض الملاحظات مفيدة، فالاجتراء على الجنس ممكن، وهو دارج هذه الأيام إلا أن معالجته، ممكنة دون كلمات فاضحة!

إن الإيماء، في كلمات ريم، يتخفّى جيداً، غير أن نفاد الصبر، في الحرمان، مستقبلاً غير خافية، وهي تتعجل الأمور، وتطرح الفكرة الجيدة في إيماءات مبتسرة، عليها أن تتجنبها مستقبلاً.

التصعيد بين نزار قباني والياس أبو شبكة

إنَّ الـــذين غـــدوا بلبّــك غـــادروا   وشلاً بعينــك مـــا يـــزال معينـــاً

غيّضن من عبراتهن وقلـــن لـــي: ماذا لقيـــت مـــن الهـــوى ولقينـــا

بعيداً عن التناص وأخواته، وعن قاسم أمين وموقفه من المرأة، أجد أن التصعيد كان أحد المرتكزات، بل المرتكز الأساس، في شعر نزار قباني وإلياس أبو شبكة، مع الفارق الكبير بينهما في المسائل الأخرى، السياسيّة والاجتماعية والنشأة البيئية بين هذين العبقريين، وهذا الأمر يؤكد أن الأغراض الشعرية التي أرغب في الكلام عليها، وتدور حول المرأة، في مذاق حلو، شفيف، رائع، حتى في الاختلاف بينهما، من حيث استخدام الحَرفِ المقدس، في وصف المرأة التي هي كالإبداع، بل الإبداع نفسه، في استعصائه على الوصف والتوصيف، مهماً كالتفتّن محيطياً في السعة، دقيقاً في الارتفاع نحو المجرة، لوضع الأنثى في إطار معين من ذهب، كونها هي الذهب، وهي التي في الإبداع موضوع الإبداع، أزلاً أبداً، والتحية لعنترة العبسي الذي قال: (هل غادر الشعراء من متردّم؟!) وتبين، ومن زمن المعلقات حتى اليوم، أن الشعراء قبله وبعده، غادروا الكثير الكثير، ولولا ذلك ما كان نزار قباني، وما كان إلياس أبو شبكة، وما كان صاحب الشآميات التي تغنّت بها فيروز، فطربنا حتى السكر، بالقصيد، وبالصوت معاً ولمَّا نزل، وسيبقى ذلك الطرب إلى ذرارينا، وإلى مدى، هو الأبعد من الظن!.

قال إلياس أبو شبكة:

سئمت من الأحـــلام فـــي جـــسدٍ   ملَّ العفـــافَ بـــألوان مـــن الألـــمِ

وقال نزار قباني:

خلعت أثوابها عنها فمـــا اكترثـــت كأنها يئست مني ومـــن خطـــري

من حيث العمر، لم يعمّر هذان الشاعران مثل زهير بن أبي سلمى، ولم يسأم كلاهما المرض، خبيثاً أو غير خبيث، ولم يبلغا، مثل ابنتي التي ماتت بالسرطان وهي مراهقة، أن يكونا حمامتين زرقاوين في السحب، لكنهما تعجلا في الرحيل فقط لا غير، لأنهما، وهنا النقطة المركزية، عاشا الحب تصعيداً، واعترفا بذلك، شعراً ونثراً، غير هيّابين في إعلان الحقيقة التي لها طعم الحقيقة، بعد أن أدركا أن الحياة قاسية، شقية، ولذلك قال أبو شبكة يخاطب المرأة : (قولي له (أي لطفلها) هذه الأيام مهزلة وليس إلا لمن ينتشي بها الغلب!).

إنَّ (الكف) في علم النفس هو الارتخاء، أو فقدان القدرة على الولوج الحقيقي، بحيث ترضى الأنثى، زوجة كانت أم عشيقة، ونزار كان شجاعاً في اعترافه (خلعت أثوابها عنها فما اكترثت كأنها يئست مني ومن خطري) وربما كان في الخمسين عندما قال: (لا تقنطي أبداً من رحمة المطر، فقد أحبك في الخمسين من عمري) أي كان تواقاً إلى أنثاه، لكنه عاجز عن وصالها، فماذا يفعل؟ لاشيء طبعاً، ومن الجائز أن يكون هذا الواقع، الذي أفصح عنه في شعره، قد جرى مع غيره وليس معه بالذات، غير أن الأمر، في الحالين، يبقى تصعيداً، وكم من رجال، في البيئة الشرقية والعربية تخصيصاً، يصعّدون أشواقهم من الحرمان، أو بسببه، وكم من شباب يحلّون عقدهم الجنسية على ركبة هذه المرأة أو تلك، إذا ما صار وانكشفت هذه الركبة البضّة لهم!؟.

لست في وارد الكلام على الكبت، وما يعاني منه الرجال والنساء، ففي كتب علم النفس المترجمة إلى اللغة العربية، صفحات لا عد لها عن هذا الموضوع، وما أشرت إليه تلميحاً أو تصريحاً يكفي، لأن القصد من هذه المقالة، محدودة الحجم، وفي جريدة يومية، أن أقارب موضوع التصعيد عند شاعرين كبيرين، مشهورين، رحلا عنّا إلى الملأ الأعلى، فخسر الإبداع العربي في رحيلهما المبكر، كنزاً ثميناً.

يبقى أن هذين الشاعرين، قد فتحا لنا الباب المرصود، منذ زمن بعيد في تاريخنا الحديث، فدخلنا المغارة على عجب ولا عجب، لأن الأشياء طبيعية تماماً، فالباري تعالى عندما خلق آدم، وجد المعادلة ناقصة، فنسل، كما في سِفْر التكوين، حواء من ضلع آدم، وبذلك كان التناسل والتكاثر، وكانت الذراري التي نحن منها حتى الآن، وغداً وبعده!.

يقول الجامعة في سفره: (الحزن خير من الضحك، لأنه كآبة الوجه يصلح القلب) فشكراً يا سيدي (الجامعة) على هذه النصيحة، لأننا قُتلنا كآبة، فالفرح عندنا، وفي كل عالمنا الثالث، قصير جداً، والحزن طويل جدّاً جدّاً، وكلمة (أمان) زادنا اليومي، وقد بشمنا منها، وما (تفنى العناقيد) ولعل الحزن، وهذا شبه مؤكد، يسهم في بلية التصعيد، ومن الحرمان، والكبت، وخيمة السترة التي نتفيؤها خوفاً من الشمس، ما يدعونا إلى التمرد على المألوفات الكثيرة في حياتنا، ومن العادية التي علينا أن نقتلها، والنصائح والمواعظ التي تكاد تموت غرقاً في مستنقعها، وقد كان إلياس أبو شبكة على حق حين قال عن أيامنا هذه (إنها مهزلة) وقال للمرأة:

ولا تخافي عزولاً فالعزول مضى،/ والعصر سكران، يا أخت الشقا، تعبُ

ونحن جميعاً، سكارى من الشقاء، والتعب، والعزّال، والأعداء، والضغوط، والافتراءات، إلاّ أن سورية ولها تاريخ في النضال، صامدة لكل هذا، وقادرة على صدِّ كل هذا، وإنَّ الاستعمار الفرنسي كان يصب كل بلاياه، وكل أسلحته، وكل رصاصه، كنا ننشد:

الشام لا ترتجع ولو مالت عليها جبال

ورصاص زخّ المطر مالت عليها جبال

والشام، يا إخوتي، لا ترتجع ولو كان الرصاص مطراً وجبالاً.

هذا القصيد الشعبي، الصادق، الذي نبت من شجاعة، وثبات، وصمود سورية، فيه عبرة للآخرين، كل الآخرين، الذين يظنون أنّ قعقعة أسلحتهم، في كل صنوفها، تجعلنا نشيل من أرجلنا التي أثبتناها في الصلب من النقع وقلنا لها: (من تحت أخمصك الحشر).

إنَّ سورية ليست منبراً للقلم وحده، بل للسيف معه، ومن عناق القلم والسيف، في كل ديارنا، كان الشرر الذي أشعل الثورات حمراً حتى (جلونا الفاتحين) وجنت بالإباء الزغاريد وكان في السبق، لنا السبق في إجلاء المستعمرين، واستقلت سورية قبل البلاد العربية كلها مشرقاً ومغرباً، هذه الهبوة تصعيداً، تعيدنا إلى التصعيد صبابة، فالشعر يشيل بأشواق الرجولة، حقيقة أو مجازاً، وأفترض، اجتهاداً، أن نزار قباني وإلياس أبو شبكة قد صعّدا في بعض، كي لا أقول في كلٍّ، ما تغزلا به شعراً بالمرأة فلم تكن هناك بيادر حلمات ولا لظاك في جسمي وثأري في فمي، وإنما كان هناك حرمان، أو بعض حرمان، تستر بالإشفاق حينا (وحق طفلك لم أشمت بامرأة / زلّت بها قدم أو غرّها ذهب)، وبالتباهي حينا آخر (فاستمتعي بالحضارات التي بقيت على شفاهي، فإني آخر الحضر) وهذا ليس عيباً، أو مذمة، أو مدحاً أو قدحاً، بل إنه انبثاق حرمان، في عالم محروم، الجنس فيه كائن، وممارس، ولكن ليس بطريقة قويمة، صحية، صائبة في كل حالاتها.

يبقى أن شعر نزار قباني وإلياس أبو شبكة، هو الشهد في التذوق، والسحر في البيان، والسكرة في فم الطفل، والعذاب في الفكر الذي صاغاه شعراً، وصلاة، وقرباناً، وعذاباً:

اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب

واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب

لكننا نحن المبدعين العرب لا نريح ولا نستريح، ولا نقضم التفاحة المباركة، ولا نعرف سر الأفعى مع حواء، ولا سبب رسمها على واجهات الصيدليات، وليس عندنا محميات للأفاعي، ولا اختصاصيون في استقطار سمِّها، بل نردد بغباء:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها / عند التقلّب في أنيابها العطب

أو

إن في الحسن يا دليلة أفعى / كم سمعنا فحيحها في سرير!

لأن السرير،في الحرمان الذي نعانيه،هو المبتدأ والخبر، ثم نقطة على السطر.

خراسان.. ليست آخر الدنيا!

بالشَّام أهلي، وبغداد الهـــوى، وأنـــا

بـــالرقميّن، وبالفـــسطاط إخـــواني

وما أظن النوى ترضى بما عـــصفت

حتـــى تـــشافهني أقـــصى خراســـانِ

في مهرجان أقيم في بيروت، تكريماً لشاعر العراق الكبير، محمد مهدي الجواهري، منذ سنوات خلت، وعقب رحيله عن دنيانا، رقص المنبر والشاعر اللبناني سعيد عقل يلقي قصيدته في تأبين الجواهري.. وشاء حظي، أنا الناثر الذي يهوى الشعر، ويطرب له في كل حالاته، إن أتكلم بعد سعيد، والذي يتكلم بعد هذا الشاعر المعجزة، صاحب الشاميات التي صدحت بها فيروز، يتهيب الموقف، تأخذه رعشة من شعور بالتقصير، كالتي تأخذ الفارس، في مزدلفة الشوط على مضمار السبق، مهما يكن واثقاً من قدرته على المجازة!

لقد كان الشاعر يظن أنّ خراسان وآخر الدنيا، مع أنها، هذه الأيام، ونحن في قرية كبيرة هي كل دنيانا، على مرمى حجر منا، غير أنّ العلم يتقدم، والدنيا معه تتقدم، أي إنّ مقولة الحركة التي تنفي السكون هي المقولة الثابتة علمياً وتاريخياً.

إن المسألة، هنا، أنّ أحداً لا يستطيع، حتى لو قدر للمعجزة أنْ تكون حقيقة، وهي ليست كذلك على كل حال، إن يوقف تقدم العلم، وها هو عصر المعلوماتية

يؤكد ذلك، إلا أن تقدم العلم، الخارج عن إرادة البشر، يحمل معه، ككل شيء، السلب والإيجاب، أو الإيجاب قبل السلب إذا توخينا الدقة، ومن الإيجاب في ثورة المعلوماتية هي أنَّ الأزرار الكهربائية صارت تقوم مقام الإنسان، لذلك بدأت البطالة الرهيبة تقرع علينا الأبواب في كل أنحاء البلدان الصناعية. إلا أن مسألة الشعر والنثر لها حكاية أخرى!

ومع أنّني، في النثر المقدس، أتأنق في الكلم، وأصوغه صياغة هي الشعر بشكل آخر، فقد تقدمت من المنبر على هونٍ، مستشعراً الأسى لأن النثر غير الشعر، ولأنني، في نثري، لن أبلغ قامة الذي سبقني، وإنَّ المنبر الذي خلق للشعر أصلاً، لن يكون هو ذاته مع النثر، مهما يكن الإلقاء موفقاً، أو حتى جميلاً، وإنّ الذين رتبوا أسماء المتكلمين قد ورّطوني توريطاً خبيثاً، هو توريط الرواية في مجال الشعر.

لكن سعيد عقل، بعد انفضاض المهرجان، وضع ذراعه في ذراعي ونحن في طريقنا إلى الخروج من القاعة، وقال لي بصوته المتهّدج، ذي النبرة المتميزة المتفرّدة: «الجواهري، يا حنّا، شاعر كبير، ولكنْ الليلة كرّمه شاعر أكبر!» فابتسمت لهذه العنجهية السعيدية المحبّبة، وعندما التقيته في اليوم التالي، جبر خاطري قائلاً: «أمس لم أسمعك بسبب وهن في «دَيْنتي» وعندما قرأت كلمتك اليوم في الصحف، ارتحت لها.. أنت ناثر جيد!».

إن حكايتي مع الشعر والمنبر، تشبه، إلى حد ما، حكايتي مع البحر واللجة، فقد كنت، حتى في الكهولة، أزعم أنْي أنا البحر، ولم يخّيب البحر زعمي، كان عنواناً في الوفاء، وكنت عنواناً في المحبة، إلى أن صرت في الشيخوخة، ولم تعد لجته ملعبي، فاقتصرت المودّات بيننا على الوقوف على شاطئه، راضياً مرضياً، عارفاً أنّه وحدة الذي يعطي، ولا يسأل على عطاياه شكراً من أحد، وكذلك يحترم صمتي فلا يسألني لماذا تكره المقص والمشط وسمك القرش!

لقد كانت لي، ذات يوم، هذه الأمنية: «أنّ تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق» وبسبب من خلّبية هذه الأمنية، فقد أصبحت أرضى بأن أكون إلى جانب البحر في أية مدينة، لكنني، أنا صاحب الأمنيات الخلّبية، أضعت البحر، عندما لاحت لي زرقته، في مناسبة غير متوقعة، من عائلة كريمة، أشهد أن صدقها هو الصدق، وأنّ رعونتي هي الرعونة، وكيلا يتعب أحد نفسه، أقول صادقاً إنّ دائي هذا لا شفاء منه، وإنيّ اعتبرته، في السجون والمنافي، وإنني، في الغربة الطويلة تذكرت كثيراً قول أبي حيان التوحيدي «فَقْد الأحبّة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعتْ الغربة وفقْد الأحبة!؟».



نزار قباني يعترف..
والحق الحقيقة معه هذه المرة فقط

لست بالناقد، ولن أكونه في أي يوم، مما تبقى من أيامي وآمل أن تكون قليلة، لا يأساً بل حباً وأرغب أن تراعى وصيتي بدقة ما فيها، وهذا ما أنا على شك منه!

زهير بن أبي سلمى قال: «يئست تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم» وكاتب هذه السطور تجاوز الثمانين شتاء ولم ييأس، ولن ييأس حتى وهو يلعب، أي يكتب في الوقت الضائع أو الوقت المستقطع، حسب تعابير حكام كرة القدم، وما همّ فاللعب هو اللعب إلا أن الكتابة لعب أسوأ، أرذل، أبغض. أكرهها وغير ميالٍ للانعتاق منها، ففي السريرة غير ما في الكلمات على الورق، وفي خبث اللاشعور غير ما في الشعور الذي يظهره أحدنا للآخر، الأخرى، الجماعة، دفعة واحدة، وخبث اللاشعور هذا من اختراعي، من إضافاتي لعلم النفس، وقد يكون ورد عند فرويد أو عند تلميذه يونغ لكن بصيغة مغايرة أو تعبير آخر أو ملامسة من بعيد والله يعلم أو الضالون يعلمون ومع علمهم يهزؤون بي، وهذا من حقهم وهذا يثبت أنني نصف مجنون وهذا صحيح أيضاً فالكتابة هي الرذيلة الكبرى، أو الفضيلة الكبرى ولا خلاص منهما سوى بالموت، والبلية أنني لا أموت فـــ «لكل أجل كتاب»، ودفتر أجلي ضاع لا أدري أين، وبردى الذي قال أحمد شوقي إنه صفق له، لم يصفق لي أبداً، عذراً أو نكاية، ولم يصفق لنزار قباني قطعاً لأنه ليس حلمة نهد، في الطفولة أو استواء الرجولة، وإلا كان بردى هذا إحدى حلمات النساء التي صنع منها بيدراً شاعرنا الكبير، العزيز الراحل.

إن التعبير في شطرة شعر، عن بيدر الحلمات جميل جميل، ولن نتوقف لنسأل أهذا صحيح أم لا، ولسنا في وارد ما قاله أسلافنا عن «أعذب الشعر أكذبه» فالكذب في كل حالاته مرفوض، ومستقبح عند العجائز من أمثالي، إلا أن الصدق بغير كذب دلالة ناقصة، وكذلك الحياة والموت، والخير والشر، والرجل والمرأة، فالتلازم هنا ضرورة لازبة، وإلا ما كانت مقولة «نفي النفي» الفلسفية وهي بسيطة جداً، فالحياة تنفي الموت، ويأتي الموت فينفي الحياة، ثم تأتي الحياة فتنفي الموت لأن الحياة باقية، وهي الغالبة في صراع هذه الثنائية، وقد كان نزار قباني مع الحياة لا لأنّ البشر جميعاً معها وإنما لأن الشعر والابداع في كل أجناسه مع الحياة، مع التناسل والتكاثر بغية تتابع الذراري، ومن هذا الواقع سواء أكان عفوياً أم قصدياً فإنّ كلام نزار قباني عن المرأة كان فعلاً موضوعياً ينطوي على الحقيقة الكبرى، حقيقة الوجود الانساني بأسره:

إنّ صاحب قصيدة «أيظن»، التي احتفت بها قاهرة المعز، احتفاء أوسع مما كان يقدر نزار نفسه، والذي عجب لماذا كانوا يقولون أين صاحب «أيظن»، ومتى يأتي صاحب «أيظن»، وبأي شيء مشغول صاحب «أيظن»، وكل هذا كان لأن القصيدة نفسها كانت جديرة به، فقد كشفت حتى الأعماق عن السر الذي كانت تخفيه الأنثى عن الذكر، السر الذي فيه شوق هذه الأنثى إلى الذكر، والحياء الاجتماعي كان يحول بينها وبين أن تظهره، فجاء الشاعر وعبر عنه بل عراه، وصاح بقبيلة الرجال انعموا بهذه العاطفة، تمتعوا بها، إلا أنه نسي أن يقول لهم: لا تجحدوها فجحدوها وبأشد قسوة من كل تقديراتنا نحن مجمع الذكور، وفي هذه النقطة كانت الدلالة ناقصة. وكان نزار قباني مخطئاً وقلما اعترف بخطئه وعندما اعترف ظل هو الرجل السيد والمرأة هي الأنثى المسودة لأنه تكلم بلسانها، دون أن يفسح لها أن تقول ما تريده بلسانها هي ومباشرة بغير غمغمة أو جمجمة!

هل هذا من الأنانية يا غصن الياسمين أبداً الياسمين وفي دمشق خصوصاً نفح طيب يعطر الدنيا ويتعطر بها، يدل كما طير الهدهد الذي تقدم موكب سليمان

الحكيم ليدل على منابع الماء فالياسمين بفوحه الندي العابق بالشذى يصيح بالركب من أية جهة تهادى مروراً بغوطتنا، أنا هنا أنا.

أنا الياسمين الفائح كالنحل، لا بالشهد عسلاً ذهبي اللون، بل بالبياض ناصعاً الذي في عريشته في الغوطة، وفي كل منزل، يرش الهوى طيباً بالرمش، في جفن المجدلية، أو ليل عفراء العرب، في شعرها الذي افتتن به صاحب نشيد الأناشيد.

من نزار القصيد، ومن فيروز الغناء:

لا تـسألوني مـا اسـمه حبيبـي أخشى علـيكم ضـوعة الطيـوب

والله لـو بحـت بـأي حـرفٍ تكـدّس الليلـك فـي الـدروب

صاحب أيظن؟ بنى للمرأة قصراً في بيض السحب، وسليمان الحكيم جعل من بلاط قصره هالة مائية، كي ترفع زائرته الملكة بلقيس، صاحبة سد مأرب في اليمن، ما تجر من ذيول التيه في ثيابها خوف البلل، فلم تنخدع بلقيس، ولم تكشف عن ساقيها الجميلتين، رجوة سليمان أن يرى إلى جمالها الأخاذ.

إذاً المرأة كانت، وستبقى، جوهرة الحياة، جنتها وجحيمها معاً، ونزار قباني، كان على صواب، وحق، وصحوة، وإدراك عميق، في أن يكشف الستر عن جمال المرأة جسداً، ساقاً، هامة، عنقاً، نهداً، يكشفها للآخرين، وليس له وحده، لأنه هو كان، كما صرح، شعراً ونثراً، عاجزاً عن التمتع بكل هذا البهاء، دون أن يحدد تاريخ هذا العجز، في أية مرحلة من عمره، لأن ذلك كان غير مهم بالنسبة إليه، وإن أفصح عنه في قصيدته الرائعة التي سماها «قصة قصيرة» وفيها يعلن عن البياض في شعره وفي قلبه:

يقول في هذه القصيدة مخاطباً المرأة:

لا تقنطي أبداً من رحمة المطر

فقد أحبك في الخمسين من عمري

وقد أحبك وبياض الثلج

في قلبي وفي شعري

وقد أحبك حين الصيف غادرنا

فالأرض من بعده تبكي على القمر

فاستمتعي بالحضارات التي بقيت

على شفاهي، فإني آخر الحضر

ثم يقول للمرأة التي معه:

قرأت عليها أشعاري فما

اكترثت لتجريدي ولا صوري

ويضيف:

قلت لها قومي سأمنحك

ما في البحر من دررِ

إلى أن يصل إلى البيت الأخير:

خلعت أثوابها عنها فما اكترثت

كأنها يئست مني ومن خطري

فاجعة! أن الرجولة، بالنسبة للرجل، عزيزة كنور العين، فإذا انطفأت انطفأ، أصبح لا شيء، لذلك يماري فيها، يخفيها، لا يتحدث عنها، أما نزار قباني، هذا العبقري، فقد امتلك الجرأة ليعلن إنّني فقدت القدرة على ممارسة الجنس، لذلك لم تعد المرأة تكترث بي، أو بشعري، أو تجريدي، أو صوري، أو دراري البحر الذي وعدتها أن آتيها بها. المرأة تريد الرجل، وهذا حقها، وهي صادقة في طلب هذا الحق، إلا أن الشاعر، وهنا نقص الدلالة، لم يدعها تقول ذلك بنفسها، بلسانها، بل قال ذلك هو، كعادته مع كل النساء اللواتي تحدث عنهن.

إلياس أبو شبكة وسعيد عقل.. وذاكرتي!

يا رفاقي بكيتُ فيكم شبابي كلُّ عيشٍ بعد الشباب فُضول

أقول لأهلي إنني، بعد الثمانين، ألعب في الوقت الضائع، أو في الوقت المستقطع، حسب تعبير الحكام في كرة القدم، وكل ما أخربشه على الورق، بعد الآن، للتسلية أو للعِند، لأن الأطباء وكلهم أعزاء أجمعوا مرة ومرة ومرات أنني مرهق، وأن علي ان استريح راحة كاملة، في اضرابٍ حتى عن الكلام، بعد أن رفضت عمري كله هذه النغمة النشاز، التي اسمها (الإضراب عن الطعام).

إنني أفهم الدافع المرير، الأليم، الذي يلجأ إليه السجناء وثوباً على الأذى أو دفعاً له، في السجون التي، ظلماً وعدواناً، يحشرون فيها، وفي سجون إسرائيل الباغية خصوصاً، لكنني في السجون التي عرفتها وهي كثيرة إنما غير طويلة أيام الاستعمار الفرنسي، والاقطاع، وحكم المشير عامر، في الإقليم الشمالي طيب الذكر، وسنوات مكافحة الشيوعية المريرة، على الطالع والنازل وكلما دق الكوز بالجرة، كما يقول المثل، في هذه السجون كنت مرتاحاً نوعاً ما!

لقد كنت في شبابي واستواء رجولتي، خريج سجون، وصرت الآن خريج مشاف، لكنني لا أموت، ولا أفسح مجالاً للذين يؤاتيهم حظ الموت، أي إنني أسد الطريق على هؤلاء وعلى كتاب الرواية التي في استقراء ما هو عندنا، وعند غيرنا أيضاً، تنبأت، كما هو مثبت في كتاب أحاديث وحوارات معي، ألفه الناقد اللبناني محمد دكروب، قلت إنَّ الرواية ستكون ديوان العرب في القرن الواحد والعشرين، فصارت ديوان العرب في القرن العشرين، وقامت عليَّ الدنيا ولم تقعد،

لأنني أسأت الأدب في هذه النبوءة، وأنزلت تاج الشعر عن صلعة هذا أو ذاك ممن دفعتهم الغيرة، أو الحماسة الفردية ما دمنا في العصر الزراعي بعد، الى شتمي، ثم دار دولاب الزمن، والرحمة على والدي الذي أورثني هذه المقولة: (الدهر دولاب، لا عمك ولا خالك!) وتسابق الجميع الى رشقي بعطر الياسمين الدمشقي لأن البنوءة تأكدت صحتها وصارت هذه المقولة (مهوى قلوب العذارى) فتحول الكتبة ذكوراً وإناثاً الى كتابة الرواية هذه التي دربتها بشكل واسع حمداً لله، نستطيع في رحابته، أن نمشي أو نرقص أيضاً كلنا ورحمة الله على تحية كريوكا، فقد أخذنا عنها هذا الفن أي الرقص الشرقي، والرحمة أيضاً على سامية جمال، التي جاءت بعدها ولم تكن أقل منها شهرة وتحية لأحد الدخلاء من إخوتنا الكتاب في مصر، لأنه بعد قرنين اكتشف أنَّ أحد كتاب بحر النيل، هو الذي كان صاحب مقولة (الرواية ديوان العرب) في القرن التاسع عشر لا حنا مينه، الذي رجم بالحجارة وهو يتعاطى كتابة الرواية في دمشق!

(اللت والعجن) ليسا مهنتي فلا آخذ ولا أعطي، وقيلة الرواية (ديوان العرب) سرقتها، كما سرقت أشياء كثيرة غيرها، وهذا هو السبب في دخولي السجن، وليس الاستعمار الفرنسي أو جناب المرحوم المشير عامر، والي الإقليم الشمالي.

إن الحلاق الذي كنته، في حي القلعة في اللاذقية لقط من مهنته الحلاقة جوهرها، وهو (طقُّ الحنك) كما يقولون في جزر القمر، إحدى دولنا العربية، المشهورة، وإثباتاً لهذه الصفة الذميمة عند الحلاقين طق الداعي حكنه، وهو يتكلم عن شاعر اسمه إلياس أبو شبكة في لبنان ومن ذوق مكايل في بيروت، توأم دمشق، وقد ابتعت من كتب ودواوين هذا الشاعر عدداً لا بأس به، وزعتها على الصحب في اللاذقية، والشام مدينة الطريق المستقيم، والمسألة ان الياس أبو شبكة مات بداء السرطان وهو في السادسة والأربعين من عمره، ولم يزره سعيد عقل، وكلما كنت في بيروت، أيام زمنها الجميل الغارب، زرت سعيداً وأثرت حفيظته بقولي:

- أخطأت لأنك لم تزر الياس أبو شبكة وهو في المستشفى!

فيرد علي سعيد عقل، بصوته المتهدج، وعنجهيته المحبوبة:

- الياس يا حنا ادّعى أنه عبقري، وأنت تعرف والعالم كله يعرف أنَّ في لبنان عبقرياً واحداً اسمه سعيد عقل.. لا تتكرزني، ولا تكن ثقيل الظل، مثل حكامنا، (ولك شو هالبضاعة)؟!..

- أضاف:

- لو كان الأمر بيدي، كنت جعلت لبنان غنياً ببيع الماء وحده، ينابيع لبنان ومغاراته المشهورة، وأرز الرب الذي استعان سليمان الحكيم بخشبه لبناء الهيكل في القدس، هذه وغيرها تكفي.. وعلى (فوقه) أي على فكرة تعرف أن لامارتين الشاعر الفرنسي الشهير في القرن التاسع عشر زار لبنان..

قاطعته:

- زار سورية أنت الصادق، وقبلها زار بلغاريا وله منزل فيها، وعن بحيرتها إذا لم تخن الذاكرة كتب قصيدته المشهورة (البحيرة) التي ترجمت شعراً الى اللغة العربية.

- ومن الذي ترجمها؟! أنا أعرف كل هذا لكن الذاكرة لم تعد قوية كما كانت في الشباب.

- ترجمها اللبناني الدكتور نقولا فياض! هل تريد سماع بعض الأبيات من ترجمتها الى العربية..

- فوقني (ذكرّني)

- أنشدته هذه الأبيات التي علقت بالذهن:

أهكذا تنقضي دوماً أمانينا

نطوي الحياة وليل الموت يطوينا

تمضي بنا سفن الأعمار ماخرة

بحر الوجود، ولا نُلقي مراسينا

بحيرة الحب، حياك الحيا

فكم كانت مياهك بالنجوى تحيينّا

قد كنت أرجو ختام العام يجمعنا

واليوم، للدهر لا يرجى تلاقينا

أضفت:

أنشدت هذه الأبيات لابن اللاذقية الكبير، البار، عالم الآثار جبرائيل سعادة فقال لي هذه الكلمات بالحرف:

(أنا أكتب باللغة الفرنسية كما تعرف، لكن اللغة العربية أجمل)

صاح سعيد عقل:

يحرس دينك يا حنا، أنا أوافق المرحوم جبرائيل سعادة الذي أعرفه تماماً، وكان يزورني كلما جاء الى بيروت، نعم أوافقه: اللغة العربية أجمل.. أجمل لماذا؟ لأن سعيد عقل يحبها وهي تحبه.. أم لك رأي آخر..

لا ليس لي رأي آخر، لكن اللغة العربية تحبني أنا أيضاً، وربما أكثر منك!

صاح سعيد وهو يخبط بكفه على ركبتي:

-لا يا حنا لا!! هذه نكرزة حتى لا أقول «تفشير».. أنت تنشد الشعر بشكل جيد، هل درست التجويد؟

- لا! لم أدرس التجويد.. كنت وأنا طفل في فقر أسود.. أما الآن فأنا في فقر أبيض، أي مستورة كما تقول ابنتي أمل..

زارني سعيد عقل وقال:

- فقر أسود، وفقر أبيض، أحسنت والله.. هذه لم تخطر على بالي!!

لو كنت لبنانياً يا حنا، كنت منحتك جائزتي..

- أنا، باختصار شديد، سوري، وأعتز لأنني سوري، ومن نبت أرضها الطيبة.. - مفهوم! مفهوم.. سورية ولبنان توأم، لكن اعتزازك هذا يعجبني، هل سمعت بشآمياتي.. شعر سعيد عقل وغناء فيروز باقيان على الدهر.. وأنت يا بني غير قليل.. زرني كلما زرت بيروت.. ولم أزره، لأنني لم أزر بيروت منذ عقد من الزمن!

أبو حيان.. وعناء الفكر!

كان أبو حيان التوحيدي يسمي مسألته مع الفقر «ملكة المسائل» والجواب عليها «أمير الأجوبة» ويرى أن «الغريب من هو في غربته غريب» لماذا؟.

أغلب الظن لأنه لم يسافر إلى الدنيا مثلما سافرت وفي سفري الطويل «أنا الجناح الذي يزهو به السفر» كنت أحاول، في ذاتي، أن أهرب من ذاتي، ظناً مني أنَّ في الهرب من الذات، أجد خلاصي من دودة الفكر التي تلوب في دماغي، منقبة عن المستور فيه، وعن المسكوت عنه، لتظهرهما إلى الناس، فوق كل ما عرف الناس عني في رواياتي.

إنني، عند نفسي، صفحة بيضاء، لكنني، في خبث اللاشعور، لست كذلك، وقد حملت صليبي على كتفي منذ ستين عاماً، ولم أجد من يصلبني عليه، انتقاماً من نشداني للراحة، في غير أوان الراحة، وغير موضعها أيضاً، فالكاتب مطالب بالكتابة، ولشدما بتّ أكره الكتابة، هذه المهنة الحزينة والمفرحة، والتي لا انفكاك من أسرها سوى بالموت، وهذا، لسوء الحظ لا يؤاتي، حتى بت أخاف ألا أموت!

أعيش «على قلق كأن الريح تحتي» وأبارك هذا القلق ثلاثاً، وألعن الطمأنينة ثلاثاً، وبينهما تظل دودة الفكر القارضة تحفر في دماغي، والفكر، كما تعلمون رهيب، وعند كل غروب أردد: «اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب/ واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب» إلا أن النفس تأبى أن تستريح، لأن دودة الفكر تأبى أن تستريح!

الإشكالية، هنا، في البعد عن الحبر والورق، رغم أننا نحتاجهما في ردع كل منكرة، «إذا ونى الضمير عن ردع هذه المنكرة»، لذلك قلت: في

سنوات خلت من عمري، لسيدة قدمت لي بيتها على البحر، لأكتب فيه شتاء: «إنني، يا سيدتي، إذا قبلت عرضك، وسكنت بيتك، فإنني، فيه، سأفكر دون أن أكتب، فأنا هارب من التفكير، لذلك أشكرك، وأعتذر إليك» وقبلت السيدة زوبورا استور، كما هو واضح من إهدائي في رواية «الفم الكرزي» اعتذاري، مع الشك في عقلي، وهو شك مبرر تماماً.

هذه الإشكالية، في البعد عن الحبر والورق، أو الرغبة في ذلك، تكررت معي في زيارتي الأخيرة لإمارة أبو ظبي، حيث زارني رجل له في القانون مكرمة، وفي الدفاع عن العدالة مكرمة أكبر، هو الأستاذ محمود رضا العظمة، وزوجته الفنانة التشكيلية السيدة عطاف نصري العظمة، اللذان أكرماني بغير حدود، وأثنيا على أدبي بغير حدود أيضاً، وعرضا علي الإقامة في شقة الضيوف التي يملكانها على البحر، فاعتذرت مرة أخرى!

لم أقل لهما سبب الاعتذار، وفي بيتهما المترف إلى حد لا يصدق، تحدث الزوج إلي عن الوطن، عن دمشق مدينته، التي عشت فيها حتى الآن، اثنين وخمسين عاماً، ولم أكتب عنها اثنتين وخمسين كلمة، سوى مقطوعة «هل تعرف دمشق يا سيدي؟» وهذه، في المعالجة، تحولت إلى قصة طويلة، لا علاقة لها بدمشق أصلاً، ولم أقل للسيدة الفنانة، التي تلطفت، وهي تتقد حماسة، باطلاعي على لوحاتها، وما فيها من فن نابض بالتأثر، وبالمشاركة الوجدانية، مع كفاح إخوتنا في فلسطين، وفيها إلى هذا، صرخة مدوية، لا لضرب العراق!

إن العرض الصادق، في أن أقيم ما شئت، في بيت ضيافتهما على البحر، كان أخوياً، حميمياً، فيه إلحاح مسربل باللطف، إلا أن هذا الإلحاح في الدعوة، قوبل مني بإلحاح في الاعتذار، لأنني لو سكنت بيتهما لن أكتب، بل سأفكر، وأنا هارب من التفكير، وهذا ما لم أقله، كيلا يشكا في سلامة عقلي، كما شكت قبلهما تلك السيدة بجنوني.

ما فعلته، في غرفتي بالفندق، أنني كتبت لهما رسالة، قلت فيها: «أن نندم على الصمت، أفضل من أن نندم على الكلام، وهذه كلمة تعلمتها من غيري، وقد

اقترفت، في بيتكما المترف، خطأ الكلام الذي ندمت عليه، لأنه، كما يخيل إلي، كان نافلاً في بعضه، وكان عليّ أن أصغي أكثر مما أتكلم، لو أن الموعظة البوذية نفعتني وأنا مشرد في الصين، فلغة القانون فن من الفن، وكان علي أن أستوعب حقيقتها، ونغم الفرشاة، في إبداعات السيدة الفنانة، كان جديراً بالإصغاء إليه، لأنه يقول ولا يقول، وفيه ما يتذوق بغير قول، ويتناغم مع المشاعر دون فضول في اللفظ، مهما يكن عذباً طلياً.

«إنني، عند نفسي، أنف في الكبرياء كإنسان، وتأبى شمائل الإنسان في الوفاء، إلا أن تكون على وفاء أكبر، وهذا ليس بمستطاعي، لكوني، الآن، في فقر أبيض، وفي طفولتي، عندما كنت عارياً حافياً جائعاً، كنت في فقر أسود، وفي الحالين لا أبلغ «أن أجزي على الجميل جميلاً!» لذلك أحس، أمام الصدق، والعفوية، والتلقائية، والحميمية، أنني مدين ولست بدائن، وهذا إثم لا أقترفه، ففي البساطة ولدت، وعليها نشأت، وفي موكبها أرحل، وهذا قدري، الذي في ثناياه طموحي، وإني على كفاء مع هذا الطموح، فالدنيا ابتهالات بكلماتي، وهذا حسبي، وهذا صلحي مع هذه الدنيا بالنسبة لشخصي، وهذا خصامي معها من أجل غيري: الفقراء، البؤساء، والمعذبون في الأرض».

أضفت: «ترى لو علمتم»، أن الذي كان في بيتكم خريج سجون، لا خريج جامعات، وأنه، في شقاء الغربة، كان خريج المنافي، لا نزيل فنادق، من أي درجة كانت، وأنه، في سبيل الوطن والشعب، قد عرف التعذيب أيام «الانتداب» الفرنسي حتى ازرقت منه العيون في بياضها، لا الجسم وحده في سمرته، ترى لو علمتم ذلك، أما كان موقفكم مني قد تغير!؟ ما أظن، لأنكم في الأريحية «أندى العالمين بطون راح» وفي الوطنية تأتون في مقدم الركب، إلا أن الاحتياط واجب، تفادياً للانجراف مع العاطفة، أو للانزياح عن خط العقل، وبسبب من أنني أؤثر أن أبقى حيث أنا، على أديم النضال بالقلم، بعد أن ناضلت طويلاً بالجسد، أداءً لواجب، لا منة فيه، ولا تعب معه، وكما قال صديقي الشاعر شوقي بغدادي: «وطني أحبك لا ليرفعني حبي، ولكن تغلب الشيم».

«بحار أنا، والبحار الصادق، في شرف اللجة، وعلى اسمها، يجهد كي يمحو من ذاكرته، من تاريخه، لحظة كان فيها جباناً، ولن أزعم أنني كنت في الشجاعة رباناً، وأنني، في عواصف الدهر، بحراً وبراً، كنت الذي لا يخاف.. بلى! خفت، غير أنني صمدت لخوفي، تغلبت عليه، وهذه هي الشجاعة في قاموسي، وقد عشت، عمري كله، مع المغامرة على موعد، فحيث تكون هي، أكون أنا، ورأيت الموت ولم أهبه، فالموت جبان لمن ينذر له نفسه، وها هي الثمانون تضفي على مشارفها، والموت الذي أسعى إليه يفر مني.

«أقول هذا حتى لا أخدعكم في شيء، حتى لا أذأب كما يذأب الذين في تطلعهم إلى ما في أيدي غيرهم، ينافقون، ويفخرون في نفاقهم، دون أن يرف لهم جفن، وحتى تغلقوا بابكم في وجهي، أنا خريج السجون، شريد المنافي، معتذراً عن الإقامة في بيت ضيافتكم، لأنني، فيه، لن أكتب، بل سأفكر، والتفكير مهنة شاقة لو تعلمون..

هل أستطيع الهرب من دودة التفكير التي في دماغي تقولون؟ وما قيمة الحياة بغير تفكير في شؤونها وشجونها؟ ولماذا كنا، وكان الفكر، إذا ما كان دأبنا السعي لإعدامه؟ ولماذا نقنط إذا رأينا الكأس فارغة، مادام «في كل عام ينضج العنب؟» ولماذا أهرب من البحر إلى البحر، في عبثية لا طائل تحتها؟

في الجواب أقول: إنني لا أسكن إلا في بيت أبي، وأبي ليس له بيت على البحر، أو في الرياح الأربع، وهذا هو السبب في اعتذاراتي لمن عرضوا استضافتي مشكورين، ويكفيني، من مكافآت السماء، أن أتملى عناقيد نجومها وهي تتدلى، مشعة وبهية!».

ذكريات وشيء من التاريخ!

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تفشت بين الأدباء التقدميين، أو الذين يدّعون التقدم، موجة من الانتشاء بالنصر على النازية والفاشية، استعلنت في كتابات أطلقوا عليها اسم الواقعية، وهي من الواقعية كمدرسة للتعبير الأدبي الخلاق، بريئة تماماً، كونها واقعية مسطحة، مباشرة، فجة، تقريرية، لا روح فيها ولا اختلاجة جارحة، تمتّ إلى أدب الواقعية بأية صلة، محشوة بالشعارات البائخة، والمدائح السقيمة، والألفاظ التي تبدأ وتنتهي بتسقيط الاستعمار، بريطانياً وفرنسياً في ذلك الوقت، وتعييش الجدانوفية الستالينية، تحت ستار «أن الأدب كان مسؤولاً!» ومسؤولية الأدب العربي، آنذاك محاربة الامبريالية بإطلاق مدافع الشتم عليها بقنابل من عفن، وسماجة وجلافة ومناصرة التقدم بقنابل مماثلة، ومحبة الشعب الجوفاء، دونما التفات إلى السوية الفنية كي يكون الأدب أدباً إبداعياً، يعطي دلالته من قلب الحدث لا من خارجه ويقدم المتعة والفائدة للقارئ على نحو ما هو فني يصدر عن الذات الابداعية، في عملية الالتزام التي نادى بها جان بول سارتر، وذاعت في الأوساط الأدبية التقدمية، عربياً ودولياً، أو فهم الواقع وكيفية ما سمي بالانعكاس، كمقولة نظرية تبقى صحيحة، لولا التشويه الذي لحق بها، وأدى إلى نوع من الميكانيكية، في انعكاس الواقع، الذي هو كل شيء، في الذات وصيرورته، في الصدور عنها، واقعاً فنياً مقابل أدب الرومانسية، الذي مثله عبد الحليم عبد الله، في مصر وتجلى في أدبه وفي روايته «شجرة اللبلاب» خصوصاً، دون أي محتوى له هدف أصيل.

إن الرومانسية تظل في التعبير الأدبي ضرورية إلا أنها ذات شقين: يأسوي وثوروي، وكانت الرومانسية الشائعة في النصف الأول من القرن العشرين، رومانسية سوداء، دون أي أفق مفتوح على طيف من بياض، ولم تلبث، هذه الرومانسية النائمة، أن أخذت بالتلاشي، أمام فجر الواقعية الرومانتيكية الذي بزغ مع «زقاق المدق» لنجيب محفوظ، و«الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي، و«المصابيح الزرق» لحنا مينه، وبعد ذلك تلألأت أنوار هذه الواقعية الرومانتيكية في ما تلاها من إنتاج روائي إبداعي، في مصر وسورية وسائر البلدان العربية.

وفي العام ١٩٥١، وبمبادرة من أبرز الكتاب السوريين، صدر بيان في دمشق، يحمل توقيع «رابطة الكتاب السوريين» يبشر بولادة أدب جديد، شعاره السلم والحرية والانفتاح على سائر المدارس الأدبية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وقد ضمت هذه الرابطة، من بين من ضمت، سعيد حورانية، أحد مؤسسي القصة القصيرة في سورية، والشاعر شوقي بغدادي، والأخوين مواهب وحسيب كيالي، والشاعر المرحوم وصفي قرنفلي، صاحب قصيدة: «يا شعبُ، يا شعبي، وبعض القول لا يُحكى فيضمر» والكاتب اللامع المرحوم وصفي البني، وحنا مينه صاحب رواية «الشراع والعاصفة» والمرحوم إحسان سركيس المتخصص في الدراسات الأدبية، العميقة بمضمونها التاريخي والإنساني، وغيرهم، مثل القاص صلاح دهني، والمؤرخ نبيه العاقل إلخ..

إلا أن هذه الرابطة، لم تبق سوريّة الحد والحدود، بل انداحت دوائرها إلى الوطن العربي كله، ففي شهر أيلول، من العام ١٩٥٤، عقدت هذه الرابطة مؤتمرها الأول في دمشق، وكان مؤتمراً للأدباء العرب فريداً من نوعه، جمعت له التبرعات من كل المثقفين، ومن كل محبي الأدب، وأخلى أعضاؤها بيوتهم لاستضافة المدعوين، الذين وفدوا، بعدد كبير من لبنان، متنوع العبقريات، متنوع الإبداعات، وفي المقدمة شيخ الأدباء المرحوم مارون عبود، والعلامة العارف عبد الله العلايلي، والمفكر الشهيد، صاحب موسوعة «النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» حسين مروة، والناقد والكاتب المعروف محمد دكروب،

وآخرون، وحضر من مصر يوسف إدريس، تشيكوف العرب، مع قصته الشهيرة «الطابور» التي سجن من أجلها بعد عودته إلى مصر، ومعه الكاتب المصري الذي كان يعيش في المنفى أسعد حليم، ومن العراق الشاعر الكبير المرحوم عبد الوهاب البياتي، ومعه كوكبة من كتاب العراق، ومن الأردن الدكتوران عبد الرحمن شقير ونبيه رشيدات، ومن البلاد العربية أسماء لامعة في دنيا الإبداع، وفي هذا المؤتمر تحولت «رابطة الكتاب السوريين» إلى «رابطة الكتاب العرب» وانتخب الشاعر والقاص شوقي بغدادي أميناً عاماً لها، وأصدرت الرابطة الجديدة، في ختام مؤتمرها هذا، قرارات وتوصيات بالغة الأهمية، نبهت الحكام العرب آنذاك، إلى أثرها وخطرها، في احتضان المبدعين العرب، فبادروا، في العام نفسه، إلى عقد المؤتمر الأول، الرسمي، للكتاب العرب، في مصيف «بيت مري» في لبنان، الذي صار، منذئذ مؤتمراً سنوياً رسمياً مستمراً حتى الآن.

إن التاريخ الأدبي في سورية، وفي الوطن العربي، سيحتفظ، في صفحاته البيض، بالوقائع الرائعة، الكاملة، لهذه الرابطة، وأحسب أن هناك دراسات وضعت، أو هي في طريق الوضع، عن هذه الرابطة، وثمة عدد خاص من مجلة «الثقافة الوطنية» اللبنانية، عن مؤتمر «رابطة الكتاب العرب» هذا، فيه كل الوثائق لمن يرغب في الإطّلاع عليها، أو الدراسة حولها.

هكذا شدا بنا الشادي على الإيك والبان معاً، ففي الشدو تنتصر أغانينا، وتخضر مراعينا، وتأخذ بنا، شبابة الراعي، إلى مغانينا، كفاء ما قدمنا إلى وطننا وشعبنا العربيين.

إنّ الإبداع العربي يبقى، إحدى نعميات من يرغب، في أن تكون الثقافة واجهة حضارية لنا، في كل عواصمنا، وأن يكون لهذه الثقافة حضور في العالم، كما لثقافات العالم حضور لدينا، وعندئذ ندرأ خطر العولمة الثقافية الزاحفة، في غزو مدمر، إلينا.

البيئية والمحلية في الرواية!

أتابع الكتابة عن التجربة الروائية، كما تابعت الكتابة سابقاً عن التجربة القصصية، التي وصلتني حلقاتها مجموعة بين دفتي كتاب (الرياض)، في اخراج أنيق، آمل أن يتلاءم فيه المضمون مع الشكل، حتى يرضى القارئ العزيز عن جهدي المكرس، خالصاً مخلصاً، لإرضائه من خلال أقنوميِّ المتعة والمعرفة.

لقد قلت، وأكرر أنني لست بالمنظّر للرواية أو القصة، أو أي من الأجناس الأدبية الأخرى، فالتنظير، كيلا يكون مطرقة على الرأس، يحتاج إلى التخصص، ولعل التجربة في ممارسة الكتابة، توفر للكاتب ما يقوله للناشئة من الكتاب، وأحسب أن سنوات عمري الطويلة، التي تقضّت في كفاح مع الحرف، لجعله مطاوعاً لإنشاء القصة أو الرواية، قد أمدتني بالتجارب غير المسموح باحتكارها، أو في التقاعس في بسطها، عبر حلقات متتابعة، تجلو إلى حد ما، نوعية هذه التجارب وامكانية إفادة الآخرين منها.

ليس معنى هذا أنني أعتزم انشاء كتاب حول تجربتي الروائية، فهذا المطمح يحتاج إلى الوقت، وكفاء الجهد، وجمع المصادر والمراجع، وهذا متعذر دون التفرغ الكامل ولأنه حتى الآن غير متوفر فإنني أكتب إضافة إلى ما كتبت سابقاً بعض الفصول حول تجربتي الروائية، أنشرها في هذه الصحيفة التي أعتز بالانتساب إلى تحريرها منذ سنوات غير قليلة.

إن جدلاً كثيراً، دار حول البطل الإيجابي، وورقاً غزيراً استهلك في تحديد سماته، وسفح حبر أغزر في تقويم صفاته، دون الوصول إلى نتيجة هي النقطة في آخر السطر.. ذلك أنه ليس من بطل إيجابي، في القصة أو الرواية، خالص

الإيجابية، أو بطل سلبي، خالص السلبية، أو ايديولوجية صافية تمام الصفاء، وإلا أنكرنا امتداد الماضي في الحاضر، وأنكرنا أيضاً تطاول الحاضر إلى المستقبل وأوقفنا دورة الزمن في محاولة عبثية، لا طائل من ورائها، ففي كل كائن حي، (والبطل القصصي أو الروائي يكون حياً أو لا يكون) تتوجد التناقضات، وأخذ التناقض في المعيار يفرض علينا أن نحسب حساب الإيجاب والسلب في هذا البطل، وبهذا وحده يكون بطلاً من لحم ودم، وفق تعريف الأديب اللبناني الكبير المرحوم عمر فاخوري.

أخلص من هذا إلى أن أبطالي، في كل الروايات والقصص التي نشرتها حتى الآن، ليسوا ايجابيين بالمطلق كما يزعم هذا أو ذاك من النقاد، وليسوا سلبيين بالمطلق أيضاً، كما يردد آخرون، إنهم باختصار، أبطال شعبيون، مهاد وجودهم هو المأثور الشعبي الذي يتجلى في أكثر ما كتبت، ومنه، من هذا المأثور الشعبي الشائع، تناولت غالباً أحداث رواياتي بحراً وبراً ومن هذه الروايات التي تجاوزت الثلاثين عداً، استقام لي، كما يعترف معظم النقاد ما أسميه عالمي الروائي وهذا العالم لا يستقيم إلا بالتراكم، فالرواية أو الروايتان أو الثلاث، لا تشكل عالماً روائياً قريباً من التكامل، إلا أن قلتها لا تنتقص من قيمة الروائي أو مكانته، فالطيب الصالح عرف بروايته (موسم الهجرة إلى الشمال) وقديماً، في القرن التاسع عشر، اشتهر فلوبير، الكاتب الفرنسي الفذ بروايته (مدام بوفاري) كما اشتهر مجايله الكاتب الفرنسي الآخر ستاندال، بروايته (الأحمر والأسود) وتشتهر في أيامنا هذه الكاتبة الجزائرية المتفوقة أحلام مستغانمي بروايتها الأولى (ذاكرة الجسد) ويحدث أن يتوقف الكاتب بعد الرواية الأولى، أو الثانية وكل منهما مستمد من الخصوصيات، أي من التجارب الشخصية الخاصة، وبعدها ينقطع هذا الكاتب عن العطاء، إما لأنه ضحل التجارب، أو لانصرافه إلى جنس أدبي أو فني آخر.

ويحدث، وهذا نادر، عند كاتب نادر، صاحب عبقرية، مثل أستاذنا نجيب محفوظ أن يستطيع الروائي وبتكثيف شديد، أن تحيط بعض رواياته،

كالثلاثية المشهورة مثلاً - قصر الشوق، السكرية، بين القصرين بكل ما في مجتمع ما، عبر مدينة أو قرية، على نحو ما فعل محفوظ في ثلاثيته، التي تناولت مدينة القاهرة، المدينة التي استقطبت واستغرقت معظم رواياته، لكنها تمحورت في الثلاثية بشكل شامل ورائع.

أما أنا فقد حرصت، في معظم رواياتي، أن ألتقط أحداثها من المناطق المجهولة في أدبنا العربي، قديمه وحديثه، كالبحر، الغابة، المعركة الحربية، الانسان والموت، الجبل، الثلج، وغير ذلك.. وما التقطته كحدث كان نطفة تخصبت ونمت وكبرت وأوفت من خلال السياق وبتعبير آخر إن هذه النطفة هي عالم فككته وأعدت تركيبه، ولم أتناول هذا العالم جاهزاً، كما لم أتناول أية شخصية جاهزة في أعمالي، ففي هذه الحال ينتفي الابتكار، الاختراع، ينتفي الخيال والتخييل وتصبح الشخصية الروائية أو القصصية، في هذه الحال شخصية فوتوغرافية صورة جامدة باهتة لا خلق فيها أو حياة أو فرادة، وتظل بيئية، لا تخرج عن حاضنة البيئة، لا تبلغ أن يكون لها بعد انساني، خارج إطار بيئتها المحددة تحديداً قسرياً، فلا يوجد عندئذ، القارئ المتفهم لها خارج هذه البيئة، أو المتناغم معها، أو المنجذب إليها بقوة كما هو متوقع، ونادراً ما يقول قارئ رواية كهذه: إنني أعرف هذه الشخصية أو إنها ليست غريبة علي أو عني.

المهم، في موضوع البيئة، ألا نغفل الفارق بين ما هو بيئي ومحلي، فالمحلي، أو ما هو حدث محلي، أغنى، أندى، أرحب مما هو بيئي لأن البيئة تنطوي في المحلية وليس العكس، ونحن نجد في البيئة شخصية نمطية، فردية، لا تعدد لها، ولا تشكل مماثلاً لقوامها، بينما نجد في المحلية شخصية غير نمطية، غير مفردة أو افرادية، تتعدد صفاتها، وتتقاطع شمائلها، ونستطيع بكل سهولة أن نقول إن هذه الشخصية معروفة ولنفرض أنها شخصية حلاق ما، ففي البيئة تمثل شخصية الحلاق حلاقاً واحداً، وفي المحلية تمثل شخصية الحلاق أربعين أو خمسين حلاقاً ومن هنا تعددها، قوامها

الانساني العام، شموليتها في تمثيل الحلاق، كما تمثيل البخيل في مسرحية موليير، التي تقدم نموذجاً تنطوي فيه دنيا من البخلاء، أو في شخصيات البخلاء لدى الجاحظ التي تمثل كل شخصية بخيلة عالماً من البخلاء.

أتذكر، في هذا المقام، قصص (المتشردون) لمكسيم غوركي، فشخصية تشالكاش، لص المرافئ، ليست نمطية، أو أحادية، ويمكن بكل بساطة أن نجد هذه الشخصية في كل لصوص المرافئ، من روسيا إلى فرنسا، ومن اليابان إلى بريطانيا، أي إنّها بكلمة واحدة شخصية عالمية، لها بيئتها، ولكن لها محليتها أيضاً، المحلية التي جعلت منها شخصية عالمية.

وما يقال عن تشالكاش غوركي، ينطبق بصحة وصفية على أحدب نوتردام، أو جان فالجان في البؤساء لفيكتور هوغو، شاعر فرنسا الكبير، وعلى شخصيات كثيرة تزخر بها الرواية العربية والرواية العالمية من أوروبا إلى إفريقيا، ومن آسيا إلى أميركا.

الكاتب قابلة.. وحفار قبور!

كثيراً ما سئلت ما هو هاجسي الأدبي؟ وكثيراً ما أجبت: أن أجرب وأن أتثقف ثم أكتب. إن رأسي مملوء بالأفكار، بالرؤى، وبالشخوص الروائية، التي لا تفتأ تطاردني، طالبة أن أكتب عنها.

أن أخلقها أدبياً، أن أجعلها ترى النور، هي التي عاشت في ظلام دامس، بين طاسة الرأس والدماغ، على شكل هيولي، وحدي قادر، من خلال المعاناة في التجارب، على تجسيدها، على نفخ الروح فيها، لتسعى حية بين الناس. هذا ما يسمونه الهاجس الأدبي، وقد عشت الهواجس في تعددها، تنوعها، تلاوينها، وتهاويلها أيضاً، ورغم أني كتبت الرواية، والقصة القصيرة والمقالة الأدبية، والدراسة في مختلف المواضيع، إلا أن النار لاتزال تشتعل في الراحتين، وتتوهج جذواتها تحت الأظافر، وتنبت، كالفطر البنفسجي على رؤوس الأنامل، وعليها، أيضاً، تتخلق شخوصاً، عبثاً حاولت نسيانها، الإشاحة عنها، الاختباء منها، الهرب إلى الجنة أو جهنم، فراراً من مطارقها التي تدق على الصدغين أبداً، صارخة بي، بأصوات أسمعها وحدي: أكتب، أكتب، أتابع الرسم بالكلمات، سواء بالقلم أو السكين، ولا يهم، بعد ذلك، الصورة التي ترسمنا عليها، فالخير والشر أقنومان، ولا يهم، مرة أخرى، ما إذا كنا إلى الخير أو الشر ننتسب!

هكذا يتحول الهاجس إلى ذهان، إلى الارتهان لمشيئة الحياة والموت، ففي كل يوم ولادة جديدة، وفي كل يوم موت جديد، وهذه سنة الخلق في الكون، إلا أنّ الكاتب عليه أن يكون قابلة وحفار قبور في آن، فما إن تسعده ولادة، ويفرح بالمولود، حتى يحط غراب الموت على كتف هذا أو ذاك من الذين ولدوا، ثم

نشؤوا، ثم هرموا، ثم راحوا يتدافعون نحو مصيرهم المحتوم، راغبين في الارتحال عن دنيانا، بمثلما رغبوا، وبإلحاح، في المجيء إليها، والسبب واضح، يتجلى، أو يستعلن، في الغرائز ومن بينها، وأهمها، غريزة الحياة وغريزة الموت، اللتان تتناوبان في الظهور والاختفاء، ومع ظهورهما والاختفاء، ينفتح عالم رحب بين المهد و اللحد، مسرحه، الذي يعج بالكائنات، خريطة رأس الكاتب، هذا الذي عليه أن يحدد، ويعرف، بدقة، ما يحدد، بين أجلي البزوغ والغروب، أي متى ينبغي أن يكون قابلة ومتى يكون حفار قبور. لأن هذه الشخصية، في هذه الرواية أو القصة، حان أوان استيلادها من رحم الغيب، لتستوي بشراً كامل الصفات، وهذه الشخصية، وفي هذه القصة أو الرواية، عاشت حياتها على النحو المقدر لها، وآن أوان حفر قبر لها وإهالة التراب عليها.

ولا يسلم الكاتب، في هذه المهمة العسيرة، من مساءلة القراء، الذين تتربص أسئلتهم به: كيف؟ ولماذا؟ وبأي حق؟ وما نفع هذه الشخصية أو تلك؟ وما السبب في أنها ولدت على هذا الشكل، وفي هذا الميعاد؟ وما الدافع وراء دورها، أكان طويلاً أم قصيراً؟ ولماذا هي هشة أو صلبة؟ ومن أي معدن قدّت؟ ثم لماذا ماتت في ريعان الصبا؟ وبأي حق قصفت عمرها؟ وما النفع من حياتها بعد أن استوفت، في القص، أغراضها؟ وأي قيمة لحياتها بعد أن شاخت؟

إنّ هذه التساؤلات، المفروض أن تكون لها أجوبة، غير مقصورة على النقاد، الذين يلتقط الصحفيون والدارسون وأصحاب الرسائل الجامعية، أسئلتهم ويوجهونها عن طريق المقابلات الصحفية، أو الرسائل الشخصية، أو المقابلات واللقاءات بل هي تتعداهم إلى القراء، انطلاقاً من تذوقهم لما تكتب، وفهمهم لهذا الذي كتبته، أو حاجتهم لشرح ما قصدته بهذا الرمز، أو هذه الأسطورة، أو ما تبادر إلى ذهنهم من أن كلامك خبيء، أو فيه تورية، أو كان سريعاً يفتقر إلى إشباع الموقف، أو كان متمهلاً يبعث على الملل، أو الغبن الذي أصاب هذا البطل أو هذه البطلة، أو الغنم الذي تحقق لهما بغير مبرر. ومن هي، في الواقع، هذه الشخصية؟ وهل أنت، كمؤلف، هو البطل في هذه الرواية أو هذه القصة؟

لقد سببت لي كاترين الحلوة، بطلة ثلاثية البحر، إرباكاً متواصلاً، بسبب من أنها شخصية ملتبسة، فبعضهم وجد أنها من عالم اليابسة، وأنها امرأة جميلة، أغوت ريّاس البحر، فتزوجتهم بعد غرق حبيبها صالح حزوم، وبعد زواجها منهم قتلتهم الواحد بعد الآخر، وعلقت رؤوسهم، مجازاً، فوق عتبة بيتها، وهذا غير مألوف، إلا أنه ممكن، البعض الآخر رأى أن كاترين الحلوة من عالم الماء، وأنها حورية بحر وقد قتلت أزواجها انتقاماً من الرجال، بعد أن قسا عليها صالح حزوم وطردها من مرسين، وهذا الاختلاف، بين رأي ورأي، فيما يتعلق بكاترين الحلوة، لا بد له من إيضاح، أنا المسؤول عنه، لأني أنا الذي جئت بكاترين الحلوة إلى الوجود، وإنَّ كلمة مني تحسم الموقف، ولأنني لا أملك هذه الكلمة، ولا أعرف، مثل النقاد والقراء، هل هذه المرأة الساحرة من البر أم من البحر، فإنّ الإيضاح ليس مطلوباً مني، كما ليس مطلوباً من الأب أن يفسر للناس: لماذا هذا الولد من أولاده مجنون، ولماذا ذاك عاقل، ولماذا هذه البنت باهرة الجمال، وأختها بالغة الدمامة، إلا أن الأب، في هذا المجال، مجرد إنسان، قد يدرك سبب هذا التباين لدى أولاده، ولا يستطيع تفسيره، أو لا يحسن التعبير عنه لو عرف التفسير، أما الكاتب فإنّه إنسان متميز، يدرك، ويجيد التعبير عن إدراكه، ولا عذر له في أن يقول ما ينبغي أو لا يقوله، إنه برغم كل شيء، يملك الإجابة القاطعة: كاترين الحلوة من الإنس أم من الجن!؟

الإشكال ذاته، ولكن بقدر أكبر من التعقيد، خلقته رواية «مأساة ديمتريو»، الناقد يسأل، انطلاقاً من دراسته النقدية، لماذا هذا الإبهام في شخصية ديمتريو؟ وما معنى أن يصرخ «لا يمكن» وغرفته تضج قائلة: «ممكن! ممكن»؟ وكيف يحترق، ويخرج راكضاً والنار في ثيابه، فراراً من ابتسامة مرسومة على ورقة، يحاول محوها فلا تمَّحي؟ والقراء يسألون: لماذا مات ديمتريو؟ بأي حق تقتله؟ وماذا لو استمتع بحب راجعة، بعد أن التقاها مصادفة؟ وما معنى راجعة؟ هل تؤمن أنت بالتقمص؟ هل دلالة الحدث دعوة إلى هذا الاعتقاد؟

وجوابي هو: لا أعرف! السياق اقتضى أن تعود كاترين الحلوة إلى البحر، والسياق فرض أن يموت ديمتريو، إلا أن هذا الجواب لا يقنع القارئ، ولا يفيد الناقد، وعلي، في مكابدة الهاجس الأدبي، أن أتعذب، وأن أكون القابلة وحفار القبور، وهذا كما يقول الواقع، قدري! وإذا كان من اليسير، بالنسبة للآخرين، أن ينسوا الأسئلة المطروحة عليهم، فإنه ليس من السهل علي أن أنسى هذه الأسئلة، لأنها ملحاحة، تتطلب الأجوبة، ودوري لا أن أشرح ما كتبت، فالشرح يقتل الإبداع، وإنما أن أعيشه، ولهذا يراني الناس أحياناً، ذاهلاً حزيناً، مسكوناً بما لا يدرون، إلا أنني، أنا، أدري، بلى أدري!

وتلك هي بليتي!

بين الكتابة والتنظير!

الأديب، على أي جنس أدبي اشتغل، يبقى أديباً لا ناقداً، يبقى مبدعاً لا منظراً، إلا أن الخلط، في الوطن العربي، لايزال قائماً بين الإبداع والتنظير، فالصحفيون، والقراء، يريدون من الأديب أن يتكلم على هواجسه الأدبية، على تجربته الشعرية أو القصصية أو الروائية، أن ينظر لهذه الأجناس، وأن يصادر دور النقاد والدارسين، وهذا خطأ، ولطالما أعلنت أنه خطأ، إلا أن أحداً لا يقتنع بما أقول، فأضطر، في المقابلات، في اللقاءات، في الرد على رسائل القراء، على أسئلة أصحاب الرسائل الجامعية، على الدارسين، أن أتكلم على هواجسي الأدبية وتجاربي الروائية، مساهماً مضطراً في تعميم هذا الخطأ!

حسناً! سأتكلم على تجربتي الروائية مرغماً، وسأجتهد، ما أمكن في قول الأشياء من وجهة نظر شخصية، لا علاقة لها بالتنظير، وإن قاربته أحياناً، وسأحاول تبسيط الأمور، كيلا أفقد وسيلة التواصل بيني وبين القراء، هذه الوسيلة التي أحرص عليها، وأمارسها، دون خشية من الاتهام بأنني تقليدي، فإذا كان الموضوع تقليدياً، فإني مع الوضوح، ولست مغرماً بما ورائيات الحداثة، وما بعد الحداثة، والكتابة السرية غير المفهومة، لكنها دارجة دون أن يفقه كتابها دلالاتها تماماً.

إنَّ الرواية، بالنسبة لي، تجربة حياتية، مفروضة وليست مقصودة، ومصدر هذه التجربة ما عشته ورأيته، بل أكثر من ذلك، ما عانيته معاناة قاسية وأليمة، دون أن تكون هذه المعاناة، على قسوتها، خالية من الفرح، مادامت تقترن بالكفاح، ففي كل كفاح جانب مفرح يتبدى لي، ويمتلك عليَّ نفسي، حين تترسب الأشياء في قاع الذاكرة، وهناك تروق، تتصفى، فما كان منها كدراً أو نافلاً إلى نسيان، أو ما

يشبه ذلك، وما كان منها مهماً، مبهجاً، ضرورياً، لصيقاً بحيوات الناس، يستيقظ بعد هجوع يطول أو يقصر.. وحين يحدث ذلك، لا أستشعر المرارة، فالحسرة، ههنا، تنتفي، تتحول لدي إلى حاسة، ويغدو ما عانيته كفاحاً، أسر به وأعتز، لأنه الجزء المهم في حياتي، لذلك قلت يوماً: «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين، ففي الكفاح الذي هو قانون البحر والبر، حسب تعبير الريس الطروسي، بطل روايتي «الشراع والعاصفة» ما هو سلبي وما هو إيجابي، ما هو موجع وما هو مريح، وتأتي البهجة حتى في الشقاء، ارتفاعاً عليه، ثم تأتي البسمة، في قلب الشدة، ارتقاءً على الشدة نفسها، وهذا ينتسب إلى نوع من الانتصار على المصاعب والشدائد جميعاً، لأنني، في أعماقي، ودون فلسفة، موقن أن لدى الإنسان مادة للاحتجاج، لكن ليس لديه، أو يجب ألا تكون لديه مادة لليأس، حتى في الزمن الرديء الذي يحياه الإنسان العربي حالياً.

هكذا يأتي التفاؤل مجانباً الحماقة، ففي الحياة، وفي الحياة العربية خصوصاً، ما يستدعي، أو ما يفرض، الإحباط لكنني، أنا، غير محبط، وهذا عائد إلى إيماني، المرتكز على مفهوم مادي للعالم، أنّ الخير إلى بقاء، وأن الشر إلى زوال، في الصراع الناشب من حولنا، وعلى كل الجبهات، وفي كل الأمور دون استثناء.

إنما حذار من الوقوع في السذاجة، أو في الغفلة، أو النوم على الثقة، أو التبسيط، وحذار مرة أخرى، من الاكتفاء باجترار مفاخر الأجداد وبطولات الأسلاف، أو ترداد عبارة «كنّا وكنا!» نعم! كنّا في الماضي، في الأمس، ولكن ماذا بشأن اليوم؟ وماذا بشأن الغد؟ وماذا أعددنا للمستقبل؟ وبأي زاد من المعلوماتية ندخل الألفية الثالثة؟ وأين نحن من ثورة الالكترونيات، في وسيلتيها الرئيستين: الكومبيوتر والانترنت؟

إن جدلية الخير والشر باقية ما بقي الصراع، ما بقي التناقض في قلب الوحدة، ما بقي عالم الشمال الصناعي، الغني، المهيمن، المسيطر على مقدرات الأمم، وما بقي الجنوب الآخذ بالتنمية على استحياء، الراسف في الفقر والجهل والتخلف، المشكوك حتى في نجاح تنميته الحيية، بسبب من العولمة، واقتصاد السوق، وزحف الشركات متعددة الجنسيات، والمنتشر

بمصارفه وأمواله واستثماراته القائمة على عدم التكافؤ، وعلى تحطيم الحواجز الجمركية، هذه التي تحمي أي اقتصاد وطني لأي بلد في الجنوب، والذي يطالب، أقصد الشمال وأميركا خصوصاً، بفتح أبوابه للتجارة العالمية، بحيث يجعل بلداننا مستهلكة لما تنتجه بلدانه، وجعل النهب مشرعاً قانوناً وحسب الأصول، بموجب اتفاقية الغات، وأمثالها من اتفاقات أشد نهماً وسوءاً وتدميراً للبنى الاقتصادية الناشئة في دول العالم الثالث.

وإذا كان الصراع، بين الطرفين النقيضين، أزلياً أبدياً، وكان البقاء للخير نسبياً، والزوال للشر نسبياً أيضاً، فإن علينا أن ندرك أن الحقيقة ذاتها نسبية، ومن أولويات الفهم أن نعي هذه البدهيات، وأن ندع لاطلاق المعطل للجدلية، والنافي للحركة التي هي نفي للسكون، ومع هذه الحركة، إذا ما كانت معتمدة كتأسيس للانطلاق، تتم السيرورة، وترتقي الحقيقة، فلا تبقى هي ذاتها في كل المراحل، مادامت الأنظمة تتعاقب، وتجتاز السياق التاريخي مرحلة بعد أخرى، في الصيرورة التي تمضي بنا على غير إرادة منا، ونمضي نحن معها دون توقف، إنما ليس بتأثير الماوراء فحسب، بل بتأثير من البشر جماعات وأفراداً.

أخلص من هذا إلى شيء ألفتكم إليه، هو التجربة في الثقافة، فالتجربة الثقافية مقترنة أبداً بالتجربة السلوكية، ومن لا يفهم عصره، بعد أن يفهم تاريخه وتراثه، ليس في وسعه أن يفهم العالم من حوله، وليس في وسعه، بقدر أكبر، أن يفهم بيئته نفسها، وعندئذ لا يكون في مقدوره أن يبدع، فالإبداع له شروط، أولها وأهمها أن يعي المبدع شرطه الإنساني، وشرطه التاريخي، وأن يتماهى هذا الوعي مع ذاته الإبداعية، أن يصير هو إياها، وأن يلاحظ، بدقة شديدة، كيف ينعكس كل ذلك في الدوافع التي تحرك الشعوب والأمم، وتالياً الناس الذين منهم أبطاله، وهذا الانعكاس يستخفي في سياق العمل الأدبي والفني، يأتي بدلالة الحدث، لا بالصراخ أو الافتعال، أو التلقين، أو تقويل الإبداع ما يريد أن يقوله هو المؤلف، أدبياً وفنياً!

هل هذا من التنظير؟ ربما لكنه يأتي في السياق، حين الكلام على التجربة الروائية، وهذا السياق سيخلص إلى التجربة وحدها، لذلك للحديث تتمة.

ثقافة ما بعد الحداثة!

تعريفات الثقافة غير محدودة، وبين قوسي هذه التعريفات، الواسع كمتاهة، يجعلنا السادة المنظرون نضيع ونحن نلهث وراء سرابه.

إنهم منظرو ما بعد الحداثة مولعون بالكتابة السرية، وحتى هذه يمكن تظهيرها بسائل ما، أما كتابتهم السرية فإنها لا تتظهر بكل السوائل المعروفة، وحتى الذين يكتبونها لا يستطيعون، غالباً فهمها ويعجزون بشكل مطلق تقريباً عن إيصالها إلينا فلماذا يكتبون؟ ولمن يكتبون؟ وفي حال انعدام أداة التوصيل بين المؤدي والمتلقي كيف يكون التعاطي بينهما؟ وفي وطن يعج بالقضايا الساخنة والهموم الراهنة، والأسئلة التي تبحث عن أجوبة ما نفع كتابة لا تقارب هذه القضايا والهموم، ولا تجيب عن أيّما سؤال ينبض له صدغ القارئ؟

لقد أخذنا بالحداثة، لأن فيها ما يفهم، وكل حديث بما هو جديد، مطلوب دائماً ومرغوب إلى حد رفع القبعات أمامه احتراماً، إلا أنَّ الحداثة كنوع من التجريب في الكتابة، لا تصادر على غيرها حقها في أن تكون متداولة وأن تكون أحد مصادر ما قبل الحداثة، ففي كل معلول علة، وكل أمر له سبب والشيء لا يخرج من لا شيء، وعلى هذه القاعدة المعترف بها فلسفياً حتى من عهد اليونان يمكننا القول إن الحداثة جاءت مما قبلها، وسنفترض أنَّ ما قبلها هو الواقعية، فلماذا يحاول منظرو ما بعد الحداثة أن ينكروا الحداثة ويتنكروا للواقعية ويرفضوا أنّ الواقع كمصدر للعطاء منه كل عطاء؟ وبأي قدرة شيطانية يحسبون أن في وسعهم أنْ يذبحوا هذا الواقع لمجرد أنّه واقع، وأنّه أصل، ومصدر للإبداع؟

إنهم يرفضون الوضوح غير أن الوضوح ليس عيباً في ذاته، فنثر أبي حيان التوحيدي، كان واضحاً ومناظرات طه حسين، في كل ما كتب كانت واضحة وشعر نزار قباني صاحب اللغة الثالثة البسيطة والسهلة كان واضحاً ومن أجل هذا الوضوح خالياً من التبسيط كان نزار الأوسع انتشاراً بين شعراء هذا العصر، ومن أجل وضوحه، وكذلك إشراقه، كان نثر أبي حيان التوحيدي منهلاً ومدرسة للناثرين بعده، ومن أجل الوضوح في الفكر وعمق هذا الفكر وحداثته كان طه حسين وسيبقى، عميداً معتمداً للأدب العربي حتى في الألفية الثالثة التي نحن على عتبتها، وقد كتب نجيب محفوظ الرواية الواقعية، ذات المستوى الفني الأصيل فكان واضحاً في طرحه، واضحاً في فكره، واضحاً بدلالة الحدث أو الأحداث في كل رواياته، ولا استثني التجريبية منها وهذا كان شأن يوسف إدريس الذي يعد في القصة القصيرة تشيكوف العرب، وكذلك عبد الرحمن الشرقاوي وسهيل إدريس وسعيد حورانية وزكريا تامر وجمال الغيطاني ويوسف القعيد وفؤاد كنعان وإلياس خوري وغيرهم الكثير.

يصرخون في وجوهنا، وقد استعاروا فروسيتهم من نخوة ملعونة، واشهروا سيوف المطاط الدبق «هذا وضوح، هذا ليس بأدب وهذا كلام عادي يتداوله العامة من الناس، وهذه إيديولوجيا وقد مضى إلى قاع النسيان عهد الايديولوجيا»! وكرغاء جمل هائج يعلو الزبد الأبيض على ملاغم أفواههم، قائلين بيقينية يشكون همّ أنفسهم فيها: «اقلعوا عن الكتابة توبوا عنها زمانكم ولّى هذا زماننا زمن الكتابة التي لا تتعاطى مع الحقائق لأنه ما من حقيقة ثابتة نسبية كانت أو غير نسبية!» وجوابنا على هؤلاء هو: الطريق واسع، فيه سبيل لكم وسبيل لنا ومن بدهيات الأشياء أن يكون ثمة جديد دائماً ومن بدهياتها أيضاً أن يكون فيها تجدد دائم أبداً ونحن لا نعق نثر أبي حيان التوحيدي إلا أننا نفترق عنه حسب افتراق الزمن، والوضوح الفني هو أدب من الأدب إذا لم نقل إنّه كل أصالة الأدب ونحتكم في أمره إلى القرّاء، ونعلم علم اليقين أن القراء معنا بدليل اقبالهم علينا ودليل سعة انتشارنا بينهم فهؤلاء القراء يريدون، وهم على حق أن يفهموا ما يقرؤون أن يروا

صورهم في هذا الذي يطالعون أن يتلمسوا قضاياهم، مشكلاتهم همومهم في الكلمات، وأن يحسنوا الظن بأنفسهم لأنهم يفهمون حتى ما وراء هذه الكلمات ويسرهم جداً أن يكون الكلام عادياً متداولاً، مفهوماً، في القصص والروايات وقد دارت معركة في مطلع هذا القرن بين العقاد والرافعي والزيات، وبين كرم ملحم كرم ومارون عبود، حول هذه القضية بالذات: قضية كتابة القصة والرواية باللغة العادية المتداولة، وانتصر كرم عبود وغيرهم لأن القصة نتاج سلسلة ثقافية جديدة بعد انقطاع السلسلة الثقافية القديمة واندثر مرة وإلى الأبد أسلوب السجع والبلاغة والتقعر اللغوي ولم يفلح في زمننا هذا الذين رغبوا أن يكتبوا القصة أو الرواية بلغة نحت الكلمات أو اللجوء إلى القواميس وما فيها من سقط الكلام اللغوي أو حاولوا تنميق العبارة، مثل «جفون تسحق الصور» أو «تفرقوا» شذر مذر» ولم يفلح أيضاً الذين استعانوا بالعبارات الجاهزة مثل «أكل الدهر عليه وشرب» أو «عاد بخفي حنين» وغير ذلك فالشخصيات القصصية والروائية لا تتكلم هذه المستحاثات اللغوية وترغب في أن تعبر عن نفسها بالكلام الذي يجعلها تنبض بالحياة وتحيا حياتها هي لا حياة إسلافها رغم أنها لا تعيب حياة هؤلاء الأسلاف وتحترمهم إلا أنها تتمايز عنهم في التعبير وهذا أجدى بالنسبة إليها، وأبقى في حفظ أمثالها ومأثوراتها وأجدى في تجسيدها حية تسعى بين الناس.

ولئن كان الانكفاء على النفس والشغل مقصورين على مكنوناتها وكان هذا الانكفاء مقبولاً والتلهي بلعبة الألفاظ في جلوة هذه المكنونات جائزاً عند غيرنا، في أوروبا وأميركا وبعض البلدان الأخرى فإنه غير مباح وغير مفيد وغير مجد عندنا، لأن الأخطار تحدق بنا والقضايا الوطنية والقومية والاجتماعية تقرع أبوابنا وفي معالجة قضية كالعولمة ووحدة التجارة العالمية واقتصاد السوق وخطر الشركات متعددة الجنسيات وغيرها كثير، يحتاج القارئ العربي منا إلى الفهم إلى الوضوح إلى وسيلة التوصيل بين المؤدي والمتلقي كي يكون هذا المتلقي قادراً على استيعاب ما نؤديه له نحن الكتاب ويكون المشاهد أو المتذوق قادراً أيضاً على ما يريد إيصاله إليه الفنان أو الموسيقي.

وثمة خطر أكبر من هذا كله، هو خطر محو ذاكرتنا العربية وسلب هويتنا الاجتماعية والتاريخية ليسهل على الصهيونية العالمية عن طريق دولتها إسرائيل تهويد العقل العربي، وهذا هو بالذات ما تريده إسرائيل من التطبيع الذي تضعه شرطاً في مفاوضات السلام معها، وإذا كانت ثقافتنا العربية قوية حصينة وكانت ذاكرتنا الوطنية متينة منيعة فإن لدى إسرائيل ومن ورائها أميركا من القوة الاقتصادية ما يجعلها تمتلك مقومات كثيرة لغزو العقل العربي ومحاولة تهويده أي جعله ينسى مجزرة كفر قاسم قديماً ومجزرة قانا حديثاً فلا يتذكر سوى المحرقة اليهودية وكلّنا يذكر أنّ جريدة تشرين السورية تعرضت لحملة ضارية من المسؤولين في أميركا والغرب وإلى الرد المقذع من أجهزة الإعلام الغربية لمجرد أنّ هذه الصحيفة العربية شككت في حقيقة «الهولوكوست» أي المحرقة اليهودية زمن النازية في الحرب العالمية الثانية.

إننا لسنا ضد الحداثة ولسنا حتى ضد ما بعد الحداثة وكل ما نريده ألا يفرضوا علينا باسمهما أن نسلك طريق المعميات، وأن نأخذ بالكتابة السرية التي يأخذون بها، وإلا كنا خارج الإبداع هذا الذي يريدونه حكراً لهم وعليهم فقط لا غير!.

الشباب.. بداية ضياع!؟

بين الحربين العالميتين، في النصف الأول من القرن العشرين، برز الكاتب الأميركي الشهير ارنست همنغواي،.

بروزاً على كفاءته وموهبته الأدبية، وقد اشتهر بأنه كاتب الجيل الضائع، لأن نتائج الحرب العالمية الأولى، رمت جيل الشباب، آنذاك، بالضياع، فلما جاءت الحرب العالمية الثانية، وأنشبت النازية أنيابها بأوروبا والاتحاد السوفياتي، وما تلا ذلك من المآسي، زاد في ضياع الشباب، في أوروبا، كما أميركا، بشكل رئيسي، وفي بعض البلدان الأخرى بشكل ثانوي. وقد نجا الشباب العربي، من آفة الضياع، لأنّ الحربين العالميتين لم تمسه إلا من بعيد، وبشكل طفيف جداً، إضافة إلى القضايا الساخنة، الوطنية والقومية، التي طرحت نفسها على الساحة العربية، وفي مقدمتها قضية فلسطين، وما ألهبت من مشاعر الشبيبة العربية، وشدت من عزائمها شداً قوياً.

اليوم، ونتيجة للتراجع المستمر في الوضع العربي، بدأت مخايل اليأس والضياع تلوح في أفق الشباب العربي، بدلالة ما يعبر عنه الإبداع العربي، أدباً وفناً، ورسائل القراء التي تنشرها الصحافة، أو تصلني، شخصياً، من أكثر قرائي الأعزاء، الأمر الذي جعل المساءلة، حول بدايات هذا الضياع، تبعث على القلق فعلاً.

ففي قصة «ثمل تسكره هلوسات الحكمة» تقدم القاصة مريم كافية من تونس، ما يشبه البانوراما العريضة، الواسعة، لضياع بطل قصتها الذي لا يجد لديه من الثياب ما يستر عورة جسمه، فيتساءل، على نحو فاجع ما إذا كان، نتيجة

البطالة، والفقر، والعوز، والجوع، سيضطر إلى الانحراف، وهو يؤكد، وهنا النقطة الخطيرة اللافتة «ليس لأحدٍ الحق في محاكمتي، لأنني سأجبر الكل على احترام قرفي وبؤسي»

ويظل بطل القصة، الضائع والمحتج معاً، يسير ليلاً في الشوارع إلى أن يصل، بثيابه المتهرئة، التي لا تستر جسمه، إلى البحر، فينظر إلى أعلى، إلى القمر، الذي يناجيه مناجاة الشاكي، دون أن يسمع منه جواباً.

يقول: «ترى كم هي المسافة التي تفصلني عن هذا القمر، فهل يراني كما أراه؟ إنه، كفلك، ربّ عالمه، وأنا أيضاً رب تلك الأسرة المسكينة.. فلماذا لا يهبني ما أخمد به جوعي وجوع عيالي؟ لماذا يتركني ألوب ضائعاً؟ لماذا لا يشفق علي وأنا أثرثر كالمجنون؟!

وفي رسالة من (أ،ي،ب) من بلد مشرقي، تطفح بالاحباط والقنوط، يقول كاتبها: «كان الرفض، هو رفضي لكلِّ شيء حولي، قرفاً من الأوضاع المتردية التي نعيشها في وطننا العربي.. في غياب الوعي، والانصياع لحالة اليأس والاحباط، بعد سلسلة الهزائم التي أنزلت الكرامة منزلة الحضيض.. وقد عشت في ترحال طويل، وغربة روحية مستديمة، في الوطن وبعيداً عنه، وتجرعت كؤوس العذاب كل يوم، باحثاً عمن يفهمني، أو يشاطرني بعض ما أومن به على الأقل، ولكن.. لن أقول لم يكن هناك أحد، بالتأكيد يوجد، ولكن أين هو؟ لقد صرت قانطاً، وبلغ بي الجنون أنني صرت أفتش عن شخوص الروايات وأشباحهم، طالباً القليل من الأمل والعزاء، وبعض الدافع للاستمرار في هذه الحياة».

هذان نموذجان لكثير من القصص والرسائل، أتلقاها وأرد عليها، محاولاً، قدر الإمكان، مسح جراح الشباب، إعطاءه بعض الرجاء، بعض الثقة بالنفس، بالمستقبل، بالحياة الأفضل، دون طائل، لأن الثقافة - والأدب ثقافة من الثقافة- تعيش أزمتها هي الأخرى، وترتبط أزمة الثقافة بأزمة فقدان الرؤية، وفقدان المشروع النهضوي، وفقدان القيادة التي هي رافعة هذا المشروع، وفي ندوة «تحديات المشروع الصهيوني والمواجهة العربية» التي عقدت في القاهرة بمناسبة

الذكرى الثانية والخمسين للنكبة الفلسطينية، أجمع المنتدون على أن الحياة الثقافية العربية، عانت معضلات حقيقية «لأن أزمة الديمقراطية مثلت عاملاً هاماً في تراجع مستوى الحياة الثقافية في الوطن العربي».

وقالت ورقة عمل مقدمة إلى الندوة، في تفسير ظاهرة تراجع المستوى الثقافي مايلي بالحرف: «من نافل القول إن الثقافة في أي مجتمع ماهي إلا جزء من كل، وبالتالي فإن الانحسار والأزمات السياسية والاقتصادية والإيديولوجية كان من المحتم أن تعكس نفسها على المجال الثقافي. ومن البديهي القول إن الإنتاج، والإبداع الثقافي، يتوقف على مستوى تطور الديمقراطية وعمقها في المجتمع، فإذا غابت هذه الديمقراطية انحسر الإبداع، وتقوقعت الثقافة، وهذا هو اليوم، حال الكثيرين من المثقفين العرب»

إنَّ الإبداع لا يكون إبداعاً حقيقياً، متجلياً، مزدهراً، إلاّ مع الصدق، والمثقفون العرب، الذين يكتبون بصدق، لا يستطيعون، بأي حال إغفال الواقع السيئ، المأزوم، للمجتمع العربي، لذلك تأتي نتاجاتهم، غالباً، حاملة هموم الناس، طارحة قضاياهم، مبرزة صورهم، وعرض هذه الهموم والقضايا والصور، يقدم صورة قاتمة عن الواقع المعيش، وفي أساس هذا الواقع مشكلات الشباب العربي، من بطالة، وغلاء، وبؤس، هذه الآفات التي يبحث هذا الشباب عن حل لها فلا يجد، وعندئذ يخون البؤس هيبته، ويقتل براعم الأمل في نفوسه، ويوماً بعد يوم ينزلق الشباب إلى مهاوي اليأس والضياع.

كان المخرج المسرحي الرائع، المرحوم فواز الساجر، يسأل وهو يسير في الطريق أحياناً: «إلى أين أنت ذاهب؟» فيجيب وهو يبتسم: «إلى الكاتب الفلاني لأخذ جرعة من التفاؤل» وهذا الكاتب الذي كان يوزع جرعات التفاؤل، غدا الآن بحاجة، هو نفسه، إلى من يعطيه جرعة تفاؤل، ليس لأنه أضحى في المتشائمين، إلا أنه، في قراءته لوقائع المجتمع العربي الراهن، بحاجة إلى من يعطيه جرعة التفاؤل هذه!

ذلك أن الكاتب نبت أرضه، نبت وطنه، نبت مجتمعه، وهذا النبت تصوحه، في أيامنا هذه، كثير من الريح السموم، فهو لا يستطيع أن يكون متفائلاً حين يقرأ قصصاً كثيراً، يتساءل أبطالها: «لماذا نحن في العاطلين عن العمل؟» أو «لماذا لا يهبنا الزمن ما نخمد به صراخ الجوع؟» أو «لماذا يتركنا الدهر إلى اللوبان ضائعين؟».

ولا يستطيع أن يكون متفائلاً، حين يكتب إليه أحدهم قائلاً: «لقد صرت قانطاً، وبلغ بي الجنون أنني صرت أفتش عن أحد يفهم مأساتي، وأنني، في هذه المأساة، التي تسلمني إلى الضياع، أبحث عن قليل من الأمل والعزاء!»

مع ذلك، ورغم كل قتامة اللوحة، يبقى التفاؤل غير الأحمق مطلوباً، فنحن في زمن نحتاج فيه إلى رؤية صائبة، وإلى منهاج سديد، وإلى قيادة تؤمن، وتعمل، بحسب هذه الرؤية، ووفق هذا المنهاج، إلى أن يتحقق تقويم الاعوجاج في المسيرة، وتنبت زهرة الثلج في جبل صنين، كما نبتت، فجأة، في جنوب لبنان!.

الشعر والرواية.. مرة أخرى!

قال أبو الطيب المتنبي يوماً: «أنا وأبو تمام حكيمان.. والشاعر البحتري!»، وهذا الاعتراف، من أضخم وأمجد الشعراء العرب، لا ينفي أنه كان أشعر أهل زمانه،.

وحتى أهل زماننا نحن أيضاً، إنما فيه اعتراف أن شعره تخالطه الحكمة، وأنَّ الأمر ليس كذلك مع البحتري، الذي يأتي شعره خالصاً لوجه الشعر وحده، في أغراضه المختلفة.

لقد امتلك المتنبي الجرأة ليعترف بالحقيقة الموضوعية، بينما يكابر، بعض الشعراء، أو بعض الغيورين على الشعر، في أنه كجنس أدبي، قد تراجع قليلاً، وتقدمت الرواية قليلاً، ليس عندنا وحدنا، بل في العالم كله أيضاً، والاعتراف بهذه الحقيقة الموضوعية، قد صار عاماً اليوم، ولست وحدي من يقول إنّ الرواية أصبحت، في العقد الأخير من القرن العشرين، ديوان العرب، بل إن النقاد العرب الكبار، يقولون هذا القول، وفي مقدمتهم الناقد العربي الكبير جابر عصفور.

الأمر، إلى هذا الحد، واضح ومفهوم، إلا أن بعض الراغبين في تعكير ماء الحقيقة، يقومون، من حين لآخر، بهجوم معاكس، متسائلين، بغير عفوية، هل انتهى عصر الرواية؟ وهل بدأ من جديد عصر الشعر؟ وفي الجواب أقول عصر الشعر لم ينته حتى يبدأ من جديد، ففي هذا السؤال الملغوم افتئات على الواقع، لأن الشعر باق ما بقيت الحياة، هذه التي عرفت، أولَّ ما عرفت، الشعر، في الأناشيد الابتهالية لنمو الزرع، إلا أن بقاء الشعر، لا يعني، بالضرورة، انتهاء عصر الرواية!

ففي ندوة حول الرواية عقدت منذ قريب في دمشق، طرح علي سؤال عريض، استفزازي، حاولت جهدي الإعراض عنه فما استطعت.. هذا السؤال العريض هو: هل انتهى عصر الرواية؟ فكان جوابي أنه سؤال عريض فعلاً، لكنه، من الداخل، يبدو ملفوفاً جداً، بما افترض من انتهاء عصر الرواية، وكأنه يجيب على نفسه بنفسه قائلاً: نعم! انتهى عصر الرواية! فلماذا وضع الأمر على مشرحة، وليس ثمة مستشفى أو جراح؟ وهل السؤال الاستفزازي يأتي، دائماً، بجواب استفزازي كما أن السؤال الجيد يأتي بجواب جيد؟ بالنسبة لي، كما يعرف الذين يقرؤونني، أبدو عصياً إلى حد ما، على الاستفزاز، فكيف الأمر وهذا السؤال حول انتهاء عصر الرواية ليس بالجديد!؟

وإذا كان القراء يذكرون أنني أول من أطلق مقولة «الرواية ديوان العرب» في القرن المقبل، في العام ١٩٨٢، حسبما يقول الناقد اللبناني محمد دكروب، وبعد ذلك أخذ الآخرون هذه المقولة عني، وتبنوها، ونشروها مشكورين، فإن من البدهي، أن يكون السؤال الموجه إلي: «هل انتهى موقفك، أم إنك لا تزال مصراً على أن الرواية العربية ستكون ديوان العرب؟» وفي هذه الحال أجيب: إن الأيام أثبتت صحة المقولة ليس في الوطن العربي وحده، وإنّما في العالم كله، وفي حدود رأيي، المبني على الواقع والمعطيات، أن الرواية هي، منذ العقد الأخير من القرن العشرين «ديوان العرب» فعلاً، ومع كل تقديري للشعر، وشغفي به فإنّ الموضوعية تفرض نفسها، ولا تتعامل مع الأماني الخلبية، وهذه الموضوعية تثبت أنّ الرواية تسيدت في الوقت الحاضر، عندنا وعند غيرنا، وأنّ الشعر تراجع، عندنا وعند غيرنا، ومعه القصة القصيرة وكل الأجناس الأدبية الأخرى، باستثناء البحث الفكري، النظري، الذي له مقام الرواية نفسه.

من الطريف، في هذا السياق، أن أحد الكتاب وجه إلي اللوم، في مجلة مصرية أظنها «المصور» بسبب من أن أغلب الكتاب تحولوا إلى كتابة الرواية، وحتى بعض الشعراء الكبار، وأن المسؤول عن ذلك هو أنا، لذلك أستحق العقاب،

وكان جوابي، مع الابتسام، هو التالي: «درب الرواية يتسع لكل الروائيين، وهذا الكم الكبير الآن، سيكون منه النوع الحسن مستقبلاً، وهذا، في ذاته، جيد جداً!».

لماذا يريد بعضهم أن يضيق الدروب أمام الأجناس الأدبية والفنية؟ اليابسة تتسع، والماء يتسع، ومن يرغب في تعلم السباحة فأهلاً ومرحباً به، مع ملاحظة مهمة، ضرورية، هي أن الشعر، لكونه ديوان العرب حقيقة، فإن الرواية، توضيحاً، هي «ديوان العرب» مجازاً، وهذا المجاز اقتضاه التشبيه، بسبب سعة الانتشار، لا أكثر ولا أقل.

لكن صاحب السؤال، إياه التف علي من ناحية أخرى، بقصد إحراجي، فقال: «وما تفسيرك لتراجع الإقبال على مبيعات الرواية إذاً!؟ واضعاً إياي، برغمي، في موقف المساءلة عن كل شؤون الرواية: كتابة وطباعة ونشراً ومبيعاً، وأشهد أن هذا الموقف أصبح يضيرني جداً، فشأني، كما أرغب في تحديده، أن أكتب الرواية، بعد أن كرست حياتي لكتابتها، أما التنظير لها، نقداً، أو شرحاً، أو دفاعاً، أو إغضاءً، فإنه ليس من اختصاصي، وإذا كان السائل الكريم، يريد بسؤاله الثاني، أن يؤكد صحة سؤاله الأول، فإنني أجيبه، وللمرة الأخيرة: ليس السبب، في تراجع الإقبال على شراء الرواية المفترض، كثرة الروائيين طبعاً، فالرواية الجيدة، كما الشعر الجيد، و(المرحوم نزار قباني نموذج) يؤكد حضوره، كما تؤكد الرواية حضورها، ولا تزال الروايات الجيدة، برغم كل ما قيل حولها من حسن وسيئ، تلقى إقبالاً جيداً والشاهد على ذلك روايات عربية وغير عربية، لاقت، في العامين الأخيرين، إقبالاً جماهيرياً واسعاً، أما بالنسبة للروائيين المكرسين، حسب تعبير دور النشر، فإن رواياتهم تلقى حفاوة واهتماماً لائقين، ولا موجب لذكر الأسماء.

لماذا أقول هذا؟ وما أهميته في الجواب على السؤال، حول تراجع مبيعات الرواية وهل حققت بصفتي روائياً، وبعد ثلاثين رواية لي نشرتها «دار الآداب» اللبنانية، ما يفي بالحاجة إلى عيش الكفاف، في الجواب أقول: تقريباً! ولا أزيد، ولا أقارن أي أديب، أو أي فنان، في البلاد العربية كلها، بأي أديب أو فنان في

الغرب، فهناك لو نجح كتاب لكاتب، لباع ملايين النسخ، وكان العائد كافياً ليعيش هذا الكاتب الغربي عيش الترف!

ديوان الشعر الجيد يتقدم، ولأنه يبيع، لا لشيء آخر، يتقدم، وهذا شأن الرواية أيضاً، إلا أن الرواج الكبير، في الحالين، نسبياً يظل، ذلك أن هناك قيوداً سياسية مفروضة على الإبداع العربي، وفوقها قيود تسويق، من جمركية ونقدية، وقيود نقل، ما بين مغرب ومشرق عربيين، وكل هذا لا بد من أخذه في الحسبان.

أحسب، بعد هذا كله، أن الأشياء صارت في الضوء، ويكفي كلاماً حول الأجناس الأدبية أو الفنية، فالمهم ليس الكلام عليها، بل إنتاجها، وبشكل رائع، ذي سوية فنية عالية، وحين يكون لنا مثل هذا الإبداع، يكون لنا حضور ثقافي في العالم، كما للعالم حضور ثقافي عندنا وعند غيرنا.



تحية إلى روح مؤنس الرزاز

من دمشق، مدينة الطريق المستقيم، آتيكم، من دمشق، المدينة الضاربة جذورها في اللامدى، لأنها، هي، المدى الأكبر، وبغير قياس، آتيكم!.

من دمشق، المدينة ذات الجناحين، قاسيون والغوطة، آتيكم!.. من دمشق التي يتكدس الليل في دروبها آتيكم!.. من دمشق، التي تمنيت أن تنتقل إلى البحر، أو ينتقل البحر إليها، فخانت الأمنية، آتيكم!.. من دمشق، مع باقة نضرة، منضرة، من ياسمينها، آتيكم، حاملاً تحية السيد الرئيس بشار الأسد، إلى جلالة الملك عبد الله آتيكم!. على طائر الشوق، الذي يغني توقي إليكم، وموداتي لكم، وتحيات بردى إلى الأردن، آتيكم!.. فلا تسألوني ما اسمه حبيبي، فالحب يعاش ولا يحكي، «بتسأليني بحبك ليه، سؤال غريب ما جاوبش عليه!

آتيكم حاملاً بريد الهوى، إلى أهل الهوى، مع أنني لم أكن يوماً، ناقل بريد بابلو نيرودا، هذا الذي في الشعر، كان هو الشعر، كما كان نزار قباني، في طفولة نهد، هو الشعر الذي قال للمرأة (فاستمتعي بالحضارات التي بقيت على شفاهي، فإنِّي آخر الحضر!) لكنه في التصعيد صبوة خلبية، فصّل من جلد النساء عباءة، وصنع بيدراً من الحلمات وديك الجن في حمص أكل حبيبته واستراح، وكذلك تكون الراحة في الحب، ناراً شبوباً، تحرق وتحترق، فيا عشاق العالم، صلّوا لأجل راحة نفس ديك الجن ونزار قباني، الذي وحده صنع للمرأة هيكلاً مثل هيكل سليمان!

وصلّوا كذلك لأجل الذي قال: (يا شعبُ، يا شعبي، وبعض القول لايحكى فيضمر). وكان هذا وصفي قرنفلي، الذي عن ضرام الحب كان

بعيداً، وعن نصرة الشعب كان قريباً، ومن أجله بكى واستبكى، ومات شهيداً دون أن يشكو ما به، أنفاً وكبرياء.

أما سعيد حورانية، الذي لم يقل آه، والسرطان يأكل لحمه نيئاً، فقد كان سيد من كتب القصة القصيرة وعندما كان في لبنان، أيام المشير عامر في الأقليم الشمالي، وانتقل من سجن إلى سجن إلى سجن، ضحية وشاية كاذبة، وصاح وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: من أجل شعبي أموت مرتاحاً!

أما أنا، ففي وصيتي، وقبلها، وبعدها، كنت، ولاأزال، مع المغامرة على موعد، ومن أجل نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، حملت صليبي الذي لم أجد، حتى الآن، من يصلبني عليه، وأخشى ما أخشاه أن أظل حياً إلى أن أبلغ من العمر عتياً، مردداً كل يوم، وأنا على أسرّة المشافي، يا دنيا، يا دنياي، أنت «قحبة!»

إن هذه الكلمات غير الجميلة، وغير المضيئة، كتبت كي تلقى في عمان، في حلقة عن الفقيد العزيز الراحل مؤنس الرزاز، لكنهم وجدوا أن الداعي غير مهذب كما ينبغي، ووجدهم الداعي غير مؤهلين لسماع كلماته التي هي مع المغامرة على موعد، فلم يكن وفاق من الطرفين، فعاد إلى دمشق التي يحب، بعد ساعة من وصوله إلى عمان، لا حرداً، ولا تقصيراً من أحد، إنما وجد أن تكريم المرحوم مؤنس الرزاز كان في غير ما يأمل، وغير ما يجب، فاكتفى من الغنيمة بالإياب.. تحية لروح العزيز.

مؤنس الرزاز من كاتب البحر، إلى كاتب رحل بعيداً جداً مع البحر، ولم يعد وا أسفاه!

من البحر.. إلى الجبل!

من البحر جئتكم، من لجته الزرقاء سافرت إليكم، من لوحة الزبد تخاريم ولا أبهى طرت إليكم، من الشاطئ المغمور والمهجور أبحرت نحوكم، حاملاً تحية الساحل إلى الجبل الذي في بطولاته ملاحم للمفاداة لم يعرفها وادي عبقر، يوم هو الملهِم والملهَم للشعراء، ومنهم الذي قال:

اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب

واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب

ولقد طوفت العالم في جهاته الأربع واسترحت على النفائس من شراشفه لكنني أبداً لم أنم على شرشف من قصب، مثلما في سهلكم الرحيب، وجبلكم الشامخ، وناسه النشامى في قراع كل مستعمر، وكل عدو للعرب، وكل من في نفسه دخلة من سوء.

إن الله جميل يحب الجمال، ومنه تعالى قبسنا جمرة الشهداء على اسم الحق كوكبة حمراء عند المغيب، وشمس ضاحكة كما في يوم صيف، عند الشروق.

لقد فتنت إلى حد الإدهاش من عبارة شرشف قصب ومطرز بنيسان وسعيت لمعرفة الشاعر الرقيق، العذب، حلو الشمائل الذي قالها فإذا هو الصديق الصدوق الذائب كسكرة، الندي الكف كحاتم الطائي، الحافظ للمودات كحبة القمح التي منها، وفيها يضرب المثل وتتجلى حكمة العطاء السرمدي، عنيت به الأستاذ والأخ ورفيق الدرب الطويل بغير قياس سعدو الديب، أو أبو حاتم كما اعتدنا أن نناديه تحبباً.

عالبال بعدك يا سهل حوران، عالبال بعدك يا جبل حوران (شرشف قصب ومطرز بنيسان) وأن يكون هناك شرشف قصب فهذا من خيال وتخييل عجيبين في دنيانا، وفوق هذا أن يكون هذا الشرشف القصبي المطرز بنيسان موجود في حياة أمة إلى العروبة منتماها ومفداها فإن ذلك من الابتكارات النادرة في حياتنا كبشر.

بورك الشعر والشاعر، وبورك الصديق الوفي أبو حاتم، وبوركتم جميعاً والسلام عليكم.



الحريـة تحتـاج إلى وسائل ممارستها!

وهذا أديـــب يأكــل الـــذل نفـــسه	وذا أدب رخو المفاصـــل مـــصقع
وهذا حكيم يزهـــق الـــروح ظلـــه	وذي حكمة تعوي وتلـــك تجعجـــع
وهذا، رعاك الله، في الناس شاعر	أيملك في دنيـــا الكنـــاري ضـــفدع
إذا سئل التاريخ مـــن مـــدَّ نارهـــا	أينطقـــــه إلا الأديـــــب المـــضيّع

يحاول الكتّاب العرب الشرفاء، الذين هم ضمائر شعوبهم حقاً وصدقاً، المروق من بين الدوائر الحمر، لقول ما يريدون، حتى ولو كان هذا القول يرتكز على التعميم، لا الفني وهو المطلوب، بل السياسي أيضاً وخصوصاً، حيث يقرؤهم القارئ، وهو لا يدري أي بلد هو المقصود، وبذلك تضيع الطاسة كما يقول المثل، فلا ينزعج أحد من الحكام العرب، لأن كلاًّ منهم يهز كتفيه مسراً في نفسه: «هذا الكلام لا يعنيني!» وفعلاً لا يعنيه، ما دام لا يقصده بالاسم والصفة، وما دام النقد ولو كان بناءً يذهب مع الريح في هذه الحال!

أشهد أنني، في الأدب والسياسة، لا أمارس هذا الاثم في وطني سورية، وأشهد أن ما أكتبه في جريدة «تشرين» ينشر كما هو، وفي التلفزيون يبث كما هو، فإذا كان هناك استثناء يثبت القاعدة، أستشار قبل حذف هذه الكلمة أو هذه العبارة، دون إخلال بالموضوع، وبلطف يحترم القلم الذي تنزلت به الآية الكريمة، ودون قسر أو إلحاح ليس لأنني محصّن بالشهرة كما يرى هذا أو ذاك، وإنما لأن ثمة انفراجاً، وثمة سعة صدر، وثمة صياغة للنقد، مهما يكن قاسياً، بها جنف عن الفجاجة، وعن المدح أو القدح لغرض شخصي، ودون أن ألفت، مرة واحدة، إلى

كتابة ما يراد مني، بل ما أريده أنا، وبحرية تامة ليس معنى هذا أن الدوائر الحمر قد غابت كلياً، وفي كل الأقطار العربية على حد سواء، ففي الدوائر الحمر، الباقية ما بقي التخلف، حماية للحاكم، وكم من حاكم عربي اختزل شعبه بشخصه، وكم من حاكم عربي يخاف من شعبه على حكمه، وكم نخطئ إذا حسبنا أن زوال الكولونيالية، أي الاحتلال العسكري المباشر، بعد الحرب العالمية الثانية، قد جعلنا نفوز بالاستقلال التام والناجز، فالاستقلال، بالمعنى السابق، ليس استقلالاً ما دمنا لم نستقل اقتصادياً، وما دام الخيط الذي يرى، أو حتى لا يرى أحياناً كثيرة، يشدنا إلى المركز الرأسمالي العالمي!.

قال أبو نواس، عندما منعه الخليفة المأمون من شرب الخمرة:

إنَّ حظــــيّ منهـــا إذا هـــي دارت أن أراهـــا وأن أشـــم النـــسيم

فكـــأنّي ومـــا أزيّـــنُ منهـــا قَعَـــديٌّ يـــزيّنُ التحكيمـــا

والكتاب العرب ليسوا في القعدة، وليسوا في الذين، جبناً، يحسّنون ما لا يحسّن، لكنهم ليسوا في الطلقاء، وأقلامهم غير طليقة، وهم بشجاعة، يمرقون من بين الدوائر الحمراء، غير مبالين بالسجن أو قطع الرزق، وهم إلا النادر النادر منهم، لم يبلغوا قامة الكاتب الفرنسي جان بول سارتر، الذي أطلق صيحته المعروفة «عارنا في الجزائر!» والحرب الفرنسية القذرة تتضرى فيها، فجاء كبار الجنرالات الفرنسيين الشرسين، طالبين من الجنرال ديغول، رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك، وبغضب موار، اعتقال جان بول سارتر، فابتسم مشفقاً وأجابهم:» وهل اعتقل فرنسا كلها!؟».

طبعاً ليس في الأقطار العربية سجناء من كبار الكتاب، في ضوء ما أعرف، غير أن «حراس الطهارة»، في مصر الشقيقة، يدسون أنوفهم، من حين لحين، في المسائل الأدبية والفنية، مطالبين بمصادرة هذا الكتاب أو ذاك، أو منع إصدار هذه المخطوطة أو تلك، ومن المؤسف أن طلبهم يستجاب في بعض الأحيان، وهذا ما يشجعهم على التمادي، حتى أصبح من المألوف أن

نقرأ في الصحف المصرية والعربية، أن الكتاب الفلاني قد صودر، أو منع تداوله، أو أوقف مؤلفه وناشره، بخلاف ما هو جار في سورية التي يؤكد أصحاب دور النشر فيها وكذلك في لبنان، أن كتاباً واحداً لم يمنع من الدخول، أو التداول، عملاً بشعار الرئيس المرحوم حافظ الأسد «لا رقابة على الفكر سوى رقابة الضمير» وإذا وقع غير ذلك، ففي حالات قليلة جداً جداً وبتصرف شخصي، من رقيب حاقد أو موتور!

إنّ التعارض بين السلطة الحاكمة، وسلطة الكتابة الصادقة، كانت وستبقى غالباً، بسبب من أن الكتابة استئناف دائم، بين ما هو كائن، وبين ما ينبغي أن يكون، وبتعبير علمي، هناك دائماً تناقض في قلب الوحدة، وهذا التناقض هو الذي يدفع الأمور إلى أمام، وقد تحدثت، بشيء من الإفاضة عن الإيجابيات في موقف السلطة في سورية من التعبيرات الأدبية والفنية، وفي عهد الرئيس بشار الأسد بشكل خاص، لأن مبادرته في منح الأوسمة من الدرجة الممتازة، لجيل بعد جيل من الأدباء والفنانين، سابقة جديرة بالشكر والتقدير، إلا أن الاشادة بما هو إيجابي، دون نقد ما هو سلبي، فيها غياب، أو تغييب، لجدلية الأشياء التي هي قانون علمي لا يدحض، ومن هذا السلب ما هو عام، يشمل جميع المبدعين السوريين، وما هو خاص، يتعلق بي شخصياً أتخذه مثلاً قائماً لا يزال، ففي الشقيقة تونس، تدرس روايتي «الياطر» في جميع الثانويات التونسية، وفي المغرب الشقيق، تدرس روايتي «الثلج يأتي من النافذة» في كل الثانويات المغربية بينما قام أحد أعضاء لجنة إعداد كتاب البكالوريا، الذي يدرس الآن في الثانويات السورية، بحذف قصتي القصيرة «الرجل الذي أبطل مفعول القنبلة» عن حرب تشرين المجيدة، متذرعاً دون حياء بأن هذا هو أمر وزير التربية، فلما قال له الموجه الكبير والمحترم، المرحوم صيّاح الجهيم «إننا هنا لإرضاء ضمائرنا لا لإرضاء الوزير» بدل فريته، في اليوم التالي زاعماً أن هذا هو أمر القيادة القطرية والقيادة القطرية بريئة من «دم هذا الصدّيق» كما أرجح، لأنه أمر غير منطقي وغير مقبول، ومع ذلك وعلى كثرة ما في سورية من روائيين وقاصين، فإن أية رواية، مهما تكن سويتها

الفنية رفيعة، لا تدرس في ثانوياتنا، أو جامعاتنا، لأننا ما برحنا عند تاجر البندقية أو ما يماثلها وكأنما الزمن لم يتغير أو أنَّ تغيره غير مأخوذ في الحسبان، وما يسري على الرواية يسري على القصة القصيرة في تجلي إبداعها، إلا إذا كان هناك استثناء مجلبب بالحياء، يلحظ ولا يلحظ!

وقد كان عندنا، قبل عشرين عاماً تقريباً، وزير تربية متزمت يدعى غسان الحلبي، أمر برفع رواية الثلج يأتي من النافذة من مكتبات الإعداديات والثانويات، لأنها تبث دعاية شيوعية، والأحزاب الشيوعية أعضاء في الجبهة الوطنية التقدمية، ولها مكاتب وصحف، كما أمر برفع رواية الياطر لأنها إباحية، فكتبت مقالة أفند فيها مزاعمه، وتهافته، بالاسم والصفة الصريحين، نشرتها مجلة تشرين الاسبوعية فكانت فضيحة ذات جلاجل وأجراس، إلا أنه بقي وزيراً للتربية، بكل تزمته وتهافته، دون أن تحرك السلطة الموقرة ساكناً، وكأنَّ شيئاً لم يكن!.

هكذا ترون، كما قال ناظم حكمت: «المهزلة ونذالة تلك الأيام» في وصفه لمناضل يوناني، أنزل العلم النازي عن الاكروبول في أثينا، فقدم بعد إخفاق الثورة اليونانية، عقب الحرب العالمية الثانية، إلى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى!

إنني إذاً غير محصّن بشهرتي كما قيل، رغم أن رواياتي ترجمت إلى سبع عشرة لغة حية، وليس من كاتب محصّن بشهرته، رغم أن رواياته، في الوطن العربي الكبير، ترجمت أيضاً، إلى عدة لغات عالمية، وكل رواية مترجمة هي سفارة لنا عند غيرنا، وذات تأثير، في الرأي العام العالمي، أكبر وحتى أعظم من كلِّ سفارة لكن هذا لم يمنع دق بابي، ذات يوم، من قبل عنصرين من المباحث، طلبا مني معلومات عن كاتب ومفكر ضليع، في كتابته وفكره، آن كان الكلام يدور، حول المجتمع المدني، فقلت لهذين العنصرين: «تريدانني أن أكون مخبراً لديكما، أو لدى من بعث بكما إلي؟ هيا خذوني موجوداً، فأنا لا أخاف السجن، ولا المنفى لكثرة ما عرفت السجون والمنافي، قبل الاستقلال وبعده وبوحي من هذه الواقعة، كتبت مقالاً في جريدة تشرين مؤخراً، عنوانها: «خذوني إلى السجن.. أرجوكم!» وما برحت انتظر أن يتحقق رجائي، كي أنعم بالراحة، في السجن

الصغير، داخل بلدي، أفضل من دخول السجن في الوطن العربي الكبير، الذي أصبح سجناً كبيراً مع الأسف!

لقد كتبت، حتى الآن، ما يقارب الأربعين رواية، ولو كنت في أي بلد أوروبي، ونجحت رواية أو اثنتان من رواياتي، لكنت الآن صاحب مكتب فخم، ولدي سكرتيرات، وحجّاب، ومواعيد محددة من قبل الذين يرغبون بزيارتي، للتعارف أو لعرض بعض القضايا وهذا ما يحدث مع ماركيز لأن روايات أميركا اللاتينية لا تضار منها إسرائيل، وهذا هو سبب انتشارها الواسع، بينما الرواية العربية تفضح أميركا وإسرائيل، وتظهر عدوانيتهما وجرائمهما، ضد الأخوة الفلسطينيين المفادين، وتالياً ضد الأخوة العراقيين، الذين يقاومون، بصلابة مدهشة، الغزو الأميركي الذي جرى متذرعاً بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل، فلمّا انفضحت ذريعته ألقى بالمسوؤلية على أجهزة مخابراته التي ضللته، وبدّل قناع البحث عن أسلحة الدمار الشامل بقناع محاربة الارهاب، بينما المرتزقة الذين جاء بهم معه، وعملاء الموساد الذين دخلوا في ركابه وانتشروا كالوباء، هم الذين يمارسون الارهاب، ويقتلون الأبرياء، ويعذبون بوحشية السجناء العراقيين الأبرياء كما حدث في سجن «أبو غريب» وما انكشف من ممارسات تقشعر لها الأبدان، في هذا السجن الرهيب، الذي نجا المجرمون الحقيقيون، من العقاب عن ممارساتهم فيه وفي غيره!.

المغامرة أساس الكتابة!

ينتشر الأدب العربي، عالمياً على استحياء، فكأنه طفل يحبو متخطياً عتبة البيت، ليرى في دهشة الطفولة، ما وراء هذه العتبة من كائنات بشرية وطبيعية، وفي هذا التخطي اكتشاف وحضور:

اكتشاف للإبداع العربي عالمياً، وحضور هذا الإبداع في العالم، كما للعالم حضور لدينا، وبذلك وحده نجبه التحديات الثقافية، لا بالمنع، أو التحصن، أو الوعظ والإرشاد، ففي زمن الكمبيوتر والانترنت، والثورة المعلوماتية، لم تعد ثمة تخوم نتحصن وراءها، ونحمي أنفسنا مما يسمونه الغزو الثقافي للوطن العربي.

هذا في رأيي، يختصر الكثير الكثير من الكلام، والكثير الكثير من تحبير الصفحات، في البحث عن الطريقة المثلى لجبه التحديات الثقافية، في (القرية الكونية) التي نعيش فيها بحكم الواقع لا الرغبة، وكي يكون لنا، ثقافياً، مكان في هذه القرية، ينبغي أن نسلك إليه الطريق الصحيح: طريق حضورنا الإبداعي، في قلب هذا الكون من حولنا، بعد أن استطعنا، قبل جائزة نوبل لنجيب محفوظ، وبعدها خصوصاً، أن نخترق بأدبنا وفننا، الحصار الذي كان مضروباً حولهما، من قبل الصهيونية أولاً، وأجهزة الإعلام الأميركية والغربية ثانياً، وهذا، في ذاته، انتصار ثقافي، سيتطور مع الأيام، بفعل المزيد من الإبداع العربي، ذي المستوى الفني الرفيع، وهذه لن تدرك دون التغامر شبه المفقود في تجاربنا ومعاناتنا، لأن الكتّاب والفنانين العرب يخافون المغامرة، أو لا يقدمون عليها، بسبب من الاسترخاء على المقاعد الفاخرة، أو الاستلقاء على الأسرّة الوثيرة، ووضع الاصبع على الصدغ، متسائلين: ماذا نكتب!؟.

هنا نقطة مهمة، تشكل نقصاً فاضحاً في ممارساتنا الابداعية، وهذه النقطة هي المغامرة، التي سيكون لها بحث آخر مستقل، كي يستيقظ الذين ينامون على أمل اصطياد أيما سحابة بيضاء في الحلم لا في اليقظة، ليدونوا عليها خواطرهم الباعثة على الملل، لكثرة ما صارت مجترة في الكتب والأفلام والمسلسلات العربية التي تتسج في الغرف المغلقة، لا الفضاءات الرحيبة، أي دنيا الناس، وما فيها من مناطق مجهولة علينا أن نغامر كي نكتشفها.

لقد قلت، وأكرر، إنني كاتب هذه المناطق المجهولة، وستصدر لي، قبل نهاية هذا العام رواية عنوانها (الفم الكرزي) تدور أحداثها في منطقة بعيدة، عسيرة، هي منطقة كسب في سورية، الواقعة بين الجبال والغابات، ويقطنها مواطنونا الأرمن، هؤلاء الذين كانوا، في الكفاح الوطني، جنباً إلى جنب معنا، وهم يناضلون، لأجل التقدم الاجتماعي، جنباً إلى جنب معنا أيضاً.. ورداً على السؤال المفترض، حول الغاية من كتابة رواية عن منطقة كسب الأرمنية، في وقتنا الراهن، أجيب بأنه الاكتشاف عبر المغامرة، فقد غامرت عمري كله، واكتشفت، من خلال مغامراتي، عوالم مجهولة دائماً، وهذا هو الدافع لكتابة رواية (الفم الكرزي).

يبقى الكلام عن فحوى هذا الاكتشاف، الذي أعطاني المادة المطاوعة لرواية غريبة، في موضوع غريب، وهذا ما يحتاج إلى إيضاح، في بعض جوانبه على الأقل، فالرواية تتناول مرحلة خاصة، في منطقة خاصة، هي منطقة كسب، المصيف السوري الشهير، وقد عشت، مدفوعاً بحب المغامرة، فترات من حياتي في هذه المنطقة التي تتدرج على سفح جبل، مرتفعة عن سطح البحر ارتفاعاً شاهقاً، يجعلها أشبه بمجرة معلقة في فضاء قبة من الصخور والخضرة، يحنو عليها الجبل الأقرع، الشبيه بوجه أمرد في ملاسته الحجرية، وفي حنوه يصد عنها الرياح والغارات، وهذه المنطقة مسورة بالغابات الكثيفة البكر، التي تزأر الأسود، ويتردد صدى العواء الوحشي، في جنباتها.

أما الفترة التي عشت فيها، وغامرت من خلالها في منطقة كسب، فإنها تمتد بين بداية الحرب العالمية الثانية، وجلاء الاحتلال الفرنسي عن سورية، هذا الجلاء الذي تحقق بعد نضال عنيد، وثورات متتابعة، توجتها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، الثورة التي اشترك فيها وطنيون مجاهدون من كل أنحاء سورية، ومن كل الأحزاب الوطنية، على اختلاف عقائدها وايديولوجياتها، إلى أن كانت انتفاضة عام ١٩٤٥، وقصف دمشق، ومعركة البرلمان، التي أدت إلى خروج القوات الفرنسية والانكليزية من سورية ثم من لبنان.

وإذا كانت هذه الرواية تتناول نضال الأرمن، رجالاً ونساء، في منطقة محددة، فإن هذا النضال كان جزءاً من كل، هو حزب الشعب الديمقراطي العربي، وقيادته في دمشق وبيروت، وكان المناضلون الأرمن في منطقة كسب يربطون ربطاً وثيقاً، بين كفاحهم من أجل إخراج الاحتلال الفرنسي من سورية ولبنان، وكفاحهم من أجل أرمينيا دولة مستقلة (وهو ما تحقق الآن) إضافة إلى أن المناضلين الأرمن في كسب كانوا يتلقون توجيهات وتعليمات من قيادة حزبهم في كل من سورية ولبنان، وينفذونها بدقة وأمانة وسرية ومرونة وتنظيم رفيع المستوى، اشتهر به الأخوة الأرمن بشكل خاص ومميز دائماً.

ومن المعروف أن المناضلين الأرمن في منطقة كسب كانوا يقدمون العون والمساعدة إلى من يلجأ إلى هذه المنطقة من المناضلين السوريين، ومن قادة الثورات السورية المتتابعة، ويخفونهم في بيوتهم، أو في الغابات الكثيفة في الجبال المحيطة بمنطقتهم، هكذا دخل المقاومون الأرمن في النسيج النضالي العربي ضد الاحتلال الفرنسي: فالمناضل هايكاز هايكازيان كان أحد قادة الإضراب الخمسيني ضد فرنسا في العاصمة دمشق، والمناضل المحامي بيير شدرافيان (الذي استشهد فيما بعد) كان يدافع عن الوطنيين السوريين أمام المحاكم الفرنسية المختلطة في حلب والمدن السورية الأخرى، والقائد أرتين مادونيان كان أحد الذين ناضلوا بأجسادهم وأقلامهم في سبيل (وطن حر وشعب سعيد) وقد اعتقل وسجن من قبل السلطات الفرنسية وإليه يعود الفضل على مدى نصف قرن ونيف، في إشراك

الجماهير الأرمنية، في لبنان وسورية، في النضال العام ضد فرنسا، ومن أجل تحرير فلسطين، وصياغة شعار (التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي) الذي غدا شعار كل التقدميين في الوطن العربي.

وكان جواد، بطل هذه الرواية، منتدباً من منظمة الحزب في اللاذقية، للعمل في منظمة كسب ومنطقيتها، وقد قاد نضال هذه المنظمة في ظروف صعبة جداً، وفي ظرف حكم الجنرال (دانتز) لسورية، بعد احتلال ألمانيا لفرنسا، وإقامة (حكومة فيشي) صنيعة النازية، ورغم تعدد الأسماء الحركية لجواد، فإنه كان عربياً من اللاذقية، وبعد تحقيق جلاء فرنسا عن سورية، والاحتفال الكبير به في كسب، يعلن - في ختام الرواية - قراره بالعودة إلى اللاذقية، لأن حبيبته بيرانيك، بطلة الرواية آثرت السفر إلى أرمينيا على حبها له.

إنّ هذا الإيضاح قد يكون نافلاً، لولا مساءلة مفترضة عن سبب قيام روائي عربي سوري بكتابة رواية مهادها منطقة (كسب) وأبطالها أرمن كانوا جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية العربية التحررية ولا يزالون. وفي هذه اللحمة بين العرب والأرمن في سورية ولبنان، ولحمة المواطنة بين مسلمي وأقباط مصر، رد بليغ بالوقائع الموثقة (روائياً) على أعداء العرب، وفي المقدمة أميركا وإسرائيل، اللتان تحاولان – من خلال الأضاليل والافتراءات- إثارة موضوع الأقليات في الوطن العربي، فتأتي الحقائق التاريخية لتفضح أضاليلها، وتذروها الرياح الأربع.

نعم! هذه رواية عن كفاح الأرمن، ولكنها، في المحتوى والهدف، رواية عن كفاح العرب ضد أعدائهم، على امتداد الوطن العربي الكبير كله، ولولا المغامرة ما كان اكتشاف مصيف كسب، ولا كانت هذه الرواية عن هذا المصيف وسكانه في أصعب الظروف!.

الشحم والورم.. وصبر سيف الدولة!

أعيــــذها نظـــرات منـــــك صــــادقة   أن تحسب الشحم فيمن شـــحمه ورمُ

الشاعر هو المتنبي العظيم، وخصمه النحوي ابن خالويه، والبلاط هو مجلس سيف الدولة الحمداني في حلب وقد أحب المتنبي سيف الدولة، وأخلص في مودته له، إخلاصاً غير معهود، وعندما وقف ليلقي قصيدته الميمية، كان الخصام بينه وبين ابن خالويه، قد بلغ حداً غير مسبوق، إلاّ أن سيف الدولة لم يردع، في الوقت المناسب، ابن خالويه، كأنما فعل ذلك ليشحذ قريحة الشاعر، أو يرى من المنتصر في النهاية، بين هذين الخصمين اللدودين، فأدرك المتنبي ذلك، ورغب أن يفقأ الدمّلة، مرّة واحدة وإلى الأبد، لذلك قال، وهو يشير إلى ابن خالويه بإصبعه، ودون مواربة، إن شحمه ورم، وعندئذ أمسك هذا الأخير بمحبرة النحاس، وقذف بها وجه الشاعر فأدماه، ولم يكن أمام المتنبي إلاّ أن يثأر لكرامته، فارتجل هذين البيتين:

يا مَن يعــزُّ علينـــا أن نفـــارقهم   وجدانَنَا كل شـــيء بعـــدكم عـــدمُ

إن كان سركم مـــا قـــال حاســـدنا   فمـــا لجـــرح إذا أرضـــاكمُ ألـــمُ

إن كلمة وجدانَنَا، فيها تلاعب نحوي، لأنها اسم فعل، مشتق على النصب، وهذا برهان على ضلاعة الشاعر، في اللغة العربية، التي تعطي لشاعريته فرادة وتميزاً، وتقدم الدليل على أن المفردة الواحدة، التي تتطابق مع المعنى المراد، علينا أن نبحث عنها حتى نجدها، لأن للمعنى الواحد، لفظةً واحدة، إذا لم نجدها، أضعنا معلمية الشعر والنثر، ورف هذه المعلمية، لا يحلق الشاعر أو الناثر، ويبقى كل

منهما يرفرف بجناحيه، على وجه الماء، أو سطح المستنقع، ولهذا علينا أن نبحث ونبحث، ويكون شأننا في هذا البحث المضني، كشأن الصياد والثقْبِ في الجليد، بحثاً عن السمكة المرجوّة، حتى إذا لم يكن الجنى في أي من هذه الصبوات، فإنه في مجالس عمر أبو ريشة، حيث حلب الشهباء قصدُنا، والسبيل إليها سبيلنا، وتبقى، في المودات، حلب التاريخ شامخة على التاريخ، لأنها لألاء سيف، وسطوع يراعة، وبهاء بلاط، ودوحة عطاء، نثراً وشعراً، أفاءت على الدنيا وزادت، ومنها، ولأجلها، قال المتنبي مهدّداً: (إذا جعلنا ضميراً عن ميامننا / ليحدثنّ لمن فارقتهم ندمُ!).

ويسألونني عن تجربتي الروائية فأجيبهم: عند أساتذتي من النقاد، الدارسين الرائزين، بميزان النصفة، الكَلِمَ وما فيه من أصالة أو غيرها، الجواب العدلُ. أما أنا، فحسبي أن أقول هاتين العبارتين: القلق هو المحرض على الحب والإبداع، والطمأنينة قاتلة الحب والإبداع، فكونوا، يا زملائي الأعزاء، في القلقين، في المستأنفين ضد ما هو كائن، في سبيل، ما سوف يكون في الطارحين القضايا طرحاً صحيحاً، في المتمردين على المألوف، وعلى المتعارف عليه أباً عن جَدّ، وعلى المسكوت عنه، رهبةً أو رجوةً، وعلى الثابت في الأشياء وفي النفوس، فقد قال الخليفة علي بن أبي طالب، قبل ألف وأربعمئة ونيف من الأعوام: (لا تقسروا أولادكم على عاداتكم، فقد خلقوا لزمان غير زمانكم) وجاء في محكم التنزيل: (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، فنجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين).

ومن أجل هؤلاء المستضعفين في الأرض، المعذبين في الناس، كانت الكلمة شريفة بدءاً، وستبقى كذلك في اللامنتهى، والمفاداة، لأجل الوطن والشعب، هل هي إلاّ بطولة حارت الدنيا بروعتها، حتى لا ندري (أسكرة هي في النيران أم شبق؟) والضمائر، في الحكّام، هاجعة كانت أم يقظة، تبقى صارماً في كف منهزم، لذلك ننام على هزيمة، ونصبح على هزيمة، حتى صارت الهزائم خبزنا اليومي، ولا رجاء، في المدى المنظور، أن تتبدل الحال، إلاّ إذا رُدعت المنكرة، في تطاول العقود المقبلة، باليراعة الحرة، الأبية، النضرة، المنضرة، الصارخة، في وجوه

هؤلاء الحكام: (كفى!) فقد قال أحد الملوك (عندي سيفٌ) فأجابه فولتير: (وعندي قلم)، وانتصر القلم على السيف، كما تعلمون ونعلم!

الذي يقطع السرد الروائي بفجاجة، ليستُلهم الاتحاد السوفياتي سابقاً، وستالين معه، فلا يعترض أحد من النقاد الكرام، على هذه المهزلة، وعلى نذالة هذه الأيام، أما إذا جاءت الإيديولوجيا، في سياق نمو الحدث وشخصياته، عند غير كونديرا وأمثاله، صاح هؤلاء النقاد: (ويلاه! اضبطوا الفعلة النكراء، هناك، في هذه الرواية أو تلك أيديولوجيا!) وهم يعلمون، أو يجب أن يعلموا، أن الايديولوجيا أنساق فكرية لدى كل إنسان، وتالياً لدى كل شخصية روائية أو قصصية، وإنه ليس من إيديولوجيا صافية صفاءً تاماً، ففيها، دائماً، ترسبات من القديم وملامح من الجديد، إلى أن يصبح هذا الجديد قديماً، فيحل محله جديد آخر، وهذا قانون نفي النفي، ومثال ذلك أن الحياة تنفي الموت، فيأتي الموت وينفي الحياة، وتعود الحياة لتنفي الموت، لأنها إلى بقاء، بينما الموت إلى زوال، وهذه مسيرة البشرية، منذ هبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض، حيث الكفاح، وتتابع الذراري، أزلاً أبداً!.

إنّ الأدب لا يمكن أن يكون إلاّ تقدمياً في المآل، ويبقى المستوى الفني في هذا العمل الإبداعي أو ذاك، هو المعيار، والأدب المؤدب لا أدب، الأدب لم يكن مؤدباً عند أسلافنا، من الجاحظ إلى الأصفهاني، إلى هذا الرائع في سرده النبيل، أبي حيان التوحيدي، ولم يكن مؤدباً عند غيرنا، من أوسكار وايلد إلى جان جينيه ومن قبلهما جورج صاند، ولكن بين أن يكون الأدب غير مؤدب، وبين الإباحية فيه، ثمة فارق، فقد تجرأت على الجنس، بشهادة جورج طرابيشي، جرأة فيها غواية، وفيها من الشهوة الشهاء كفاية، لكنني في كل رواياتي لم أذكر عند الرجل ولا عند المرأة الأعضاء التناسلية بأسمائها، كما فعلت ليلى البعلبكي، أو يفعل بعض الروائيات في هذه الأيام، اللواتي هن في أول الطريق بعد، وقد حسبن أن الفحش في الجنس، هو الطريق الأقصر إلى الشهرة.

أخيراً: (يا من سقانا كؤوس الهجر مترعة/ بكى بساط الهوى لما طويناه) حنا مينه طوى بساط الهوى، وهو يرى أن الروح لا تشيخ، تنزل مع صاحبها إلى القبر، وإن الذي يخون، هو الجسد وحده.

نجيب محفوظ أستاذي..
وزميلي في البناء الروائي

في اليوم التالي لوفاة الأستاذ نجيب محفوظ، كتبت جريدة «الحياة» قائلة: ابن الثانية والثمانين يبكي أستاذه، وكنت المقصود بهذا القول، وبه أفتخر، فالبكاء قد يكون دمعة تتحير في العين، أو ذوبَ قلب ينسالُ في الشَّغاف منه، ثم إن أسلافنا بكوا واستبكوا، وظلوا في الرجولة، على كبرياء، وفي الشجاعة والإقدام على موعد مع مستنقع الموت «وقال لها من تحت أخمصك الحشر» كما قال شاعرنا العظيم أبو تمام، ودون حرج أو تحرّج، أنكّر بما هو معروف منكم ولديكم، فقد سئل صاحب جائزة نوبل للآداب عمن يرشح بعده من الروائيين العرب لنيل هذه الجائزة، فقال دون تردد : «حنا مينه» وسئل، بعد عشر سنوات من نيله هذه الجائزة العالمية، في مجلسه المعتاد في مقهى ريش في القاهرة :«أما زلت على رأيك في ترشيح حنا مينه؟» فأجاب: «نعم»! وعلّق المفكر والكاتب المعروف عطية مسّوح في جريدة «النور» على هذا التأكيد قائلاً :«الكبير يعرف الكبير» وكان هذا القول، في كلماته الثلاث، أفضل تعليق، وأبلغه في الإيجاز، على ما أعرف من أقوال النقاد والمعلقين حتى اليوم، في موضوع الجائزة والترشيح.

لقد قلت، وبي جنف عن التكرار، في كل المقابلات الصحفية التي تلت ذلك، إنني ونجيب محفوظ، الروائيان العربيان الوحيدان اللذان يملكان عالماً روائياً متكاملاً فيما أعلم، ولم يعترض أحدٌ من النقاد، أو زميل من الروائيين على هذا القول، لأنه حقٌ من الحق، والحق نسبي دائماً وقابل للنقاش، والدحض أيضاً، ما دام الزمن قد ذرا قشور الحقيقة المطلقة، ورسّخ في قناعاتنا، شيئاً فشيئاً، أن

الأصح هو الرأي والرأي الآخر، وثبت في وجداناتنا احترام حق الاختلاف في الرأي، وأن هذا الاختلاف لا يفسد للود قضية كما يقول المتفقهون في القانون، وأن علم المنطق كله يمكن تلخيصه في عبارة «دحض الحجّة بالحجة» وقد دحض أستاذنا نجيب محفوظ الحجة بدمه، بعد طعنه بسكين غادرةٍ في عنقه، ومن العسير أن تدحض أي عبارة أو حجة للأستاذ نجيب محفوظ، بعد أن مُهرت حجته بدمه، والدم أقوى، وأنبل، وأشجع حجة على مدى التاريخ، ومن هنا فإن الارجواني الذي سال من دم هذا الراحل الكريم، هو الحجة بذاتها، وهو التاريخ بذاته، وفي النقع الذي قال عنه أبو تمام العظيم « وقال لها من تحت أخمصك الحشر» هو كتابه حين يتفيأ سدرة المنتهى.!

إن شهادة روائي بروائي آخر، تبقى مجروحة، لكنني أياسر إلى الصدق ما استطعت، والى النزاهة المرجوة في مثل هذا الموقف، في ندوة مخصصة للكلام عن العربي الوحيد، الذي فاز بجائزة نوبل عن جدارة، وبصرف النظر عن ترشيحه إياي لنيل هذه الجائزة بعده، فإن الروائي نجيب محفوظ، أعطى عطاءً ثراً للرواية العربية في موضوعات متعددة، متنوعة، مكانها القاهرة والإسكندرية، ففي القاهرة بيته الذي لم نعرفه، على ما أعلم، إلا مع تظاهرة الجائزة، واندفاع كل أجهزة الإعلام من مرئية ومسموعة ومقروءة إلى هذا البيت، لتحية إنسان نبيل، متواضع، رافض للسفر إلى خارج مصر، إلا في مرتين استثنائيتين، الأولى إلى بلغراد عاصمة يوغسلافيا، والثانية إلى اليمن بطلبٍ من الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله، وقد سبق لي أن قلت، في مقابلات صحفية عديدة، إن نجيب محفوظ أعطى كل هذا العطاء، دون أن يسافر، دون أن يغامر، فكيف لو سافر وغامر!؟.

في حدود رأيي كمتذوق لا ناقد، أن هذا الفائز بجائزة نوبل، قد استفاد من دراسته الفلسفة في إحدى الجامعات المصرية إذا لم تخن الذاكرة، واستفاد من معرفته الكاملة، الدقيقة، لبيئة القاهرة، في كل مجالاتها، وفي أحيائها الفقيرة، وشوارعها الخلفية، واختلاطه بكل فئات المجتمع القاهري، وناسه، من كل الطبقات، وكل الديانات السماوية، بغير استثناء، وهذا ما يتجلى في ثلاثيته الشهيرة،

«قصر الشوق» و«بين القصرين» و«السكرية» واختلاطه بالناس في القاهرة والإسكندرية، كان شعبياً، إذا صحت التسمية، فهو، كما يعلمُ قرّاؤه، كان يركب الباصات كسائر عباد الله، جلّ وعلا، أو يمشي على رجليه، متجولاً في كل المناحي، الأثرية وغيرها، ويجتنبه خان الحريري وباب زويلا وميدان التحرير، وسط العاصمة، ويعود منها إلى غيرها، ومن غيرها إليها، على الدوام، ويعرفُ في الاسكندرية لا البحر وحده، بل الاوتيلات والموتيلات، أي الفنادق والبانسيونات، ويصغي جيداً لما يقال، ويتقرى ما أمكن، نزلاء هذه المواضع، في كل شأن من شؤونهم، ويتعرف، بغير حياء إلى النساء المحصنات والعاهرات، كما في روايته ميرامار وغيرها.!

انه بارع في اختيار موضوعات رواياته، وقد قال صراحة: «إنّني من الموظفين المنسيين» وهذا الكلام، كما أرجح، كان قبل تخرجه في الجامعة، أما بعد ذلك، فقد بدأ مشواره الأدبي، فكتب القصة القصيرة، وله مجموعات فيها، وكان يسخر في بعض هذه القصص سخرية مُرة، سوداء أو رمادية، وانتقم من أحد المديرين الذي كان الموظفون، خلال عمله كمدير، لا يرفضون له دعوة، ولا يخالفون له أمراً، وظن، هذا المدير الأبله، أن الموظفين في مديريته يحبون شخصه غير الكريم، لا مديريته، فلما تقاعد من الوظيفة، دعا هؤلاء الموظفين إلى حفلة صغيرة في بيته، وأعد كل ما يلزم من طعام وشراب، وراح ينتظر، غير أن أحداً من هؤلاء الموظفين لم يأت، لأنهم كانوا، في مكان آخر، يضحكون من هيبته، من غطرسته، من غفلته، وجاء أخيراً دورهم للانتقام منه، فانتقموا على نحو لائق بكل مدير من أمثاله.

نجيب محفوظ، في حدود رأيي، كان يجيد كتابة القصة والرواية، يرتفع في سياق الرواية إلى أعلى، ثم يمضي في خط مستقيم حتى النهاية، أي إنّه لا يمارس جنون غيره من أمثالي، في الارتفاع والانخفاض، وإن كان يجيد التخفي، فلا يطل، في كل ما كتب من روايات، برأسه من بين السطور، ولا يكشف لعبته الذكية في أخذ القارئ على مدى الرواية، إلى خاتمتها غير المتوقعة، حيث المفاجأة التي هي

الثقافةُ بارعة، تُدهش هذا القارئ، وتجعله يفهم ما تريد أن تقوله هذه الرواية، بدلالة الحدث، وليس بالمباشرة، أو التسطح في واقعيته، أو الاعتساف في مقولته، أو اكتشاف الحدث من البداية، قبل بلوغ النهاية، كما هي الحال في الأفلام المصرية أو غير المصرية، وكما يقع في بعض الروايات، وما أكثر الروائيين والروائيات، بعد أن أخطأتُ وأعلنتُ، في العام ١٩٨٢، أن الرواية ستكون ديوان العرب في القرن الحادي والعشرين، فصارت ديوان العرب، والعالم أيضاً، في القرن العشرين نفسه، وتحملت من الشعراء وغير الشعراء الكثير من اللوم والكثير من التجني وحتى القدح والذم، دفاعاً عن الشعر، الذي أُحبه، وأُجله، وأحفظ منه ما لا يحفظه حتى الشعراء الذين هاجوا وماجوا، ضد مقولتي حول الرواية، حتى صارت هذه المقولة متداولة، وكلٌ يدعي أنه لها، وأنه صاحبها، وخرج عليّ، مؤخراً، أحد المولعين بعلم التاريخ قائلاً: «إن فلاناً، في القرن التاسع عشر، قال: إن الرواية ديوان العرب، وأخذتها أنا عنه، وادّعيتها لنفسي» فابتسمت مشفقاً، حدباً، لأن هذه المقولة حول الرواية، لم تكن حدثاً جللاً، كما كان اكتشاف الأرض التي تدور، فسيق غاليلي لأجل هذه المقولة، من قبل محاكم التفتيش في القرون الوسطى، إلى منصّة الإعدام، وصاح قبل إعدامه كما هو معروف: «ومع ذلك فإنها تدور» ساخراً من جلاديه الذين طوى الزمن، في سيرورته إلى أمام، ذكرهم، إلا أنه أثبت جرائمهم، بحق غاليلي وسواه من المكتشفين العلماء الأوائل، وكذلك المبدعون المجدون الأوائل، الذين أدان التاريخ، وديمومته عادلة، كل جرائمهم، وكل جرائم محاكم التفتيش في القرون الوسطى، وفي أوروبا نفسها..

معلمي، أستاذي في الرواية، صاحب جائزة نوبل التي اختص هو بها من دون الأدباء الكبار، في مصر وخارجها، والذين هم أفضل، وأكبر في الإبداع ممن يفوزون بجائزة نوبل التي غدت مسيّسة ومكشوفة في تسييسها، وفي ميلها إلى الصهاينة، أو مَن يرضى عنه هؤلاء الصهاينة، من جنسيات مختلفة، تحابي إسرائيل العدوانية العنصرية في السرِّ والعلن، إن هؤلاء، جميعاً قد أزروا بهذه الجائزة، أو سعوا إلى ذلك، إلا أن جائزة نوبل، المخصصة للإبداع الأدبي، لا

يزال لها رمق من شرف، وبلغة من كرامة، بخلاف ما هي، الجائزة، المخصصة لمن يدّعون أنهم من صنُاّع السلام، في هذه الدنيا التي يعرف الضالعون في كشف المستور، والمسكوت عنه، حقيقة دعاوى سلامهم المزيف.

إننا، أنتم وأنا، بغنى عن تعداد أسماء هؤلاء الذين فازوا بجائزة نوبل، وهم غير جديرين بها، بسبب ماذكرت من تسييس هذه الجائزة العالمية، وميلها الصريح إلى جانب من هم ضد المبدعين العرب، في كل المجالات، وشكراً لأستاذي الذي رشحني من بعده لهذه الجائزة، فالمبدعون العرب، وهم من الكثرة في تعدادهم، على يقين من أن هذه الجائزة، بعد محفوظ، لن تمنح لهم، وإن كان بعضهم، الجديرون بها، ينتظرون الفوز بها، عاماً بعد عام، ونأمل من القلب، ألاّ يخيب انتظارهم، بسبب من جدارتهم المفروغ منها، والمسلّم بها أيضاً.

أستاذي نجيب محفوظ، لم تكن له مغامراتٌ كثيرة، وتالياً تجارب كثيرة، حتى أقول إنه نجا من الفخ الذي وقع فيه غيره، فوضع في رواية واحدة أكثر من تجربة واحدة، وقد تناول، في كل رواياته، بعض الأحداث التاريخية، وبعض ما يعرف، عن القاهرة والاسكندرية، لذلك فإن شخصيات رواياته محدودة بمكانها وزمانها، أي إنها محلية كما أرادها، وأبدع فيها، ومن حقه عليّ، وحق نفسي وقرائي عليّ، أن أكون صريحاً، واضحاً فيما أبتغيه من إنصافٍ له، وإنصاف لي، فكي ننصف أنفسنا، علينا، قبلاً، أن ننصف غيرنا، وهذا ما أرغب فيه، مع احتمال الخطأ والصواب، فقد برع الأستاذ في تناول الموضوعات المحلية، بغير افتئات أو قسر، وجاءت شخصياته الروائية، محلية، لا عالمية لها، وهذا الفارق البسيط والمركب بيننا، فقد أبدع في تناول ما هو قاهري، أو اسكندري، وهذا جيد جداً، فإنه مؤات بالنسبة له، وغير مؤات بالنسبة لي، لأنني، كما أزعم، كاتب المناطق المجهولة، من البحر إلى الغابة، إلى الجبل، إلى الثلج إلى العيش على حافة الخطر، إلى المغامرة التي أنا على موعد معها دائماً، وهذا ما أعطى لشخصيات رواياتي أن يكون لها امتداد عالمي، وأعطى لأستاذي أن يكون لشخصيات رواياته البعد المحلي فقط، وهذا القول فيه زعمٌ، وفيه ما هو قابل للنقاش، وقد جئنا، جميعاً،

لمناقشة كل هذه الأمور، ولكل منّا حق الاختلاف، وحق احترام الرأي والرأي الآخر، دون محاباة، وهذه من تحصيل ما هو حاصل، كما كان يقول المتفقهون في علم الكلام، من أسلافنا الكرام.

قرأت، منذ وقت قريب، ثناءً جميلاً على مخيّلتي غير الجميلة، فقد لاحظ أحد النقاد أن لي مخيلة بارعة، فقد كتبت عن البحر وأنا أغسل قدمي بماء الشاطئ فقط، وهذا اجتهاد لا غبن لصاحبه فيه، لأنه لا يعرف جيداً مغامراتي مع العواصف، وما أضمرته سريرتي، وأنا على شاطئ المحيط الهادي، أو الباسيفيكي، من مغامرة أقدمت عليها، في مصيف بيتاخو في الصين الشعبية، متحدياً كل الآخرين، من كل الجنسيات ما عدا إسرائيل غير المقبولة آنذاك في الصين راغباً في مجازفتي بالنزول إلى البحر، رغم المنع والتشدد في المنع، أن أنتحر، خلاصاً من الغربة وما فيها من أذى وألم شديدين.!

إنني على ضلاعة بعلم النفس، ولولا ذلك لباخت رواياتي، وتجردت شخصياتها من اللحم والدم، وما فعلته، في مغامرتي مع العاصفة العاتية، غير المسبوقة إلاّ قليلاً، كان فيه إضمارٌ له نسبٌ بخبث اللاشعور، وقد نجوت بأعجوبة، وها أنا لا أزال حياً، ها أنا عجوزٌ عاجزٌ، أنتظر الأجل الذي له كتابٌ آملاً ألاّ يتأخر كثيراً أو طويلاً!

ملاحظات بسيطة.. ونافلة

وضعت إحدى المجلات السورية الخاصة، عدداً من القصص القصيرة التي تزمع أن تنشرها في ملحقها الثقافي، طالبةً مني أن أكتب مقدمة لهذه القصص أو أبدي رأياً في القصة القصيرة في سورية، ومدى تطورها، على أيدي الشباب من القصاصين السوريين، الذين يطمحون إلى الارتقاء بهذا الفن الجميل والصعب، بعد أن وضعت كتاباً حول القصة ودلالتها الفكرية كان موضع حفاوة وتقدير.

وقد آثرت بهذه المناسبة أن أقدم رأياً عاماً يتعلق بهذه المجموعة من القصص ويتعداها إلى القصة بشكل عام، مبدياً ملاحظات بسيطة هي في المحصلة اضاءة على نحو ما، على مفهوم القص قد تضيف جديداً، وتشكل مدخلاً للقارئ إلى هذا العالم القصصي الذي يبتغى منه التعريف والتشجيع في آن.. وبعد الاطلاع على هذه الباقة من القصص، وجدت أنها نتاجات مختلفة متنوعة فيها تطلعات مشروعة إلى امتلاك ناصية كتابة القصة، إذا ما أقبل كتابها الشباب على التهام كل ما يقع بين أيديهم من قصص عربية وعالمية، وإلى التمرس بكتابتها، بعد دراسة دقيقة عميقة، متأنية لكل المفاهيم والنظريات التي صارت متوفرة لهم سواء كانت موضوعة أو مترجمة، مادام فن القصة القصيرة، والقصيرة جداً، في أيامنا هذه فناً صعباً تتكثف فيه الرؤية، ويتوتر الخط الواحد الناظم للسياق إلى درجة تجعل القارئ يعيش اللحظة الحاسمة الحلوة أو المرة عيشا فيه مشاركة وجدانية، تبلغ أحياناً أن يغمض عينيه، ويمضي مع خياله إلى آفاق بعيدة أو يفعل ما فعله مكسيم

غوركي بعد اطلاعه على مجموعة قصص لتشيكوف حيث بكى غوركي تأثراً، وكاد كما يقول أن يطلق امرأته التي لا تشاركه الحمية نفسها والانفعال ذاته، بعد قراءة تشيكوف هذا المعلم الأعظم في فن القصة، والذي لم يبلغ أحد ما بلغه، سوى التماعات قليلة متفرقة في وسعنا أن نجد لها شبيها بما كتبه قاصنا العربي الكبير المرحوم يوسف إدريس.

لماذا أعلق هذه الأهمية على المشاركة الماتعة الوجدانية لما نقرأ من قصص ذات سوية فنية عالية.. في الجواب أقول: إن متعة المشاركة هي التي تحتفظ بحيوية الدلالات الحميمية بين المؤدي والمتلقي وبين القاص المبدع إلى درجة الاعجاز، والقارئ الذي يعيد انتاج ابداعية القص، من خلال إيماء هو جوهر القصة القصيرة، هذا الذي يقول كل شيء وكأنه لا يقول شيئاً بسبب من أنه يوحي، يستولي، يستحوذ على المشاعر ويرتهنها لمشيئة الخالق الأدبي، همه أن يجعل الإنسان يولد ميلاداً داخلياً جديداً، دون أن يتدخل هو المؤلف في أي شأن، أو يختبئ وراء أي سطر، لأنه موجود في قصته وغير موجود في وقت واحد.

إنَّ اللقطة المفردة، المأخوذة من تجربة مجبولة بالمعاناة، تشكل مادة مطاوعة للقص حين الموهبة مصقولة بالممارسة الطويلة تحدد النجاح أو الفشل كما تحدد درجة السوية الفنية وفيها سر الإبداع الذي يحس ولا يدرك.

إنّما حذار! فليس كل خاطرة، مهما اجتهدنا في المعالجة، صالحة لأن تكون حدثاً قصصياً يأخذنا إليه، يضعنا في جوه، يبهرنا بالنور الساطع المتولد من انفجار اللحظة المأزومة عماد القصة القصيرة ومحورها على السواء.

وفي حدود رأيي أنّ البيئة هي الخلية الأولى التي تمد القاص وكذلك الروائي بالحدث الملائم وبمقدار ما نتعمق البيئة التي نعيش فيها يصبح الحدث المأخوذ منها حدثاً قابلاً لأن نشتغل عليه بنجاح.

ولأن ذلك كذلك، فإنَّ علينا أن نعرف بيئتنا، بلدنا، وطننا، عصرنا، معرفة جيدة قائمة على العيش العميق الأصيل المعمد بدقة الملاحظة

وبالمعاناة الكاوية الرائعة، فالعلم المستمد من الكتب لا يغني عن العلم الذي مصدره الناس، وحين نتعلم نمتلك ذاتنا الذات الخلاقة بالموهبة، التي تختزن ثقافة شمولية، ثقافة هي إلى زيادة لا إلى نقصان، لأننا بالضرورة مطالبون بأن نكتسب مع كل يوم جديد تجربة جديدة عبر القراءة الجادة والفاعلية المجدة، وهذه التجربة هي نتاج ذهن وسلوك، ونتاج ملاحظة معمقة ومستمرة، لكن المسألة الأساس تبقى أن نمتلك أدواتنا وشجاعتنا، وأن نعيش زمننا بامتلاء، وعصرنا ببصيرة وأن نؤمن بالتلازم بين السلوك والابداع فالمسافة بين القول والفعل تظل هوة لا تردم إلا بالفعل، وفي الامتحان الصعب للتطابق بين ما نقول وما نعمل كثيراً ما يكون سقوطنا فاجعاً، ما دمنا كبشر عندما نواجه بالمصاعب يوضع تفكيرنا الرغبي على محك التجربة، هذه التي هابها ورفضها أحياناً حتى بعض الذين نذروا حياتهم للفداء، باعتباره طريقاً للخلاص، لأنهم عجزوا عن مواجهتها أو تحملها.

إنّ التجربة بهذا المعنى تغدو محك الإخلاص للأفكار التي نحملها قبلها جميعاً أبطال وبعدها قد تتغير الصورة فاجتياز المعبر البارد، الصعب، بين ما كنا نقوله وما علينا أن نفعله تطبيقاً له يقتضي منا التضحية، وهذه في شرعة الجهاد المنتهى الذي يتكرم به المبتدأ، فيكون أو لا يكون إطلاقا.

إنّما التضحية ذات قوس واسع، يبدأ بالأشياء البسيطة ويتدرج، وليست معانقة الشهادة في ختامه هي التي تحدد أقسى ما في الطريق وأشد ما نلقى على جانبيه من أذى، فالموت ذروة الألم وسبيل الخلاص منه ويظل احتمال الألم على مسافة الطريق كلها هو المعيار للثبات على القضية العادلة التي يتصدى المرء لخدمتها والدفاع عنها.

وما هو الألم الذي ينبت شوكاً على طريق الجهاد؟ إنّ الحرمان هنا هو الكلمة ذات الطاقة التعبيرية الشمولية، لا من حيث هي الكلمة، فعل تقبل للشدائد بغية الارتفاع عليها، بل من حيث تنوع مدلولها الذي هو على مداه تلخيص لحكاية كبرياء الصبر على جميع التحديات التي تعترض الانسان في مسيرته الطويلة.

لقد كُتب على الذين يكافحون بالأدب، لأجل العدالة أن يتقبلوا كأس الخل، وان يبذلوا كل قواهم لانتاج أدب عربي يضاهي الأدب العالمي كي يسفر لنا عند غيرنا كما يسفر أدب الغير له عندنا.

انني ألح على فهم روح العصر، لأنّ في فهمه وحده إنقاذا للإنسان من ضيق الأفق، الذي يبعث على الملل، وكتابة القصة أو أي جنس أدبي يتعارض والملل، ويتطلب الجهد والاجتهاد الدائمين، ومن المفروغ منه أن فهم البيئة، الطبيعة، الإنسانية، انطلاقاً من فهم الوطن هو الذي يأتي عن طريق المعرفة ولا يغتني إلا بالممارسة ويبقى العمل على أساس الرؤية الواضحة للبيئة، للوطن، للعالم، هو الذي يحدد سعينا لإنتاج إبداع لا يقل تجلياً فنياً عن الإبداعات العالمية.

تلك هي ملاحظاتي البسيطة، وأغلب الظن أنها نافلة!

أقواس وأفكار .. رسالة إلى برعم يتفتح حرفاً

على قلقٍ كأنَّ الريح تحتي
أوجهها يميناً أو شمالا

العزيزة آيا منذر حنا

أنت، على صغر سنك، تكتبين جيداً، وتحسنين اقتطاف كلمات لغيرك، جورج صاند مثلاً، ودمجها في السياق، لكن الكتابة، المراد نشرها، لا تكتب على وجه الورقة وقفاها، كما فعلتِ في رسالتك إلي!

أنصحك بالكتابة على ورق أبيض، في أي موضوع تشائين، دون أن تكون على شكل رسالة، بل على شكل مقالة، لها حدثٌ ومضمون، وزهوٌ أدبي، كي يسهل علينا نشرها في أية جريدة تصدر في دمشق.

بدء الكتابة يكون، أو من المستحسن أن يكون، عن الحياة الخاصة للكاتب، أو على جزء من هذه الحياة، وما أشك أن لك، على صغر سنّك، تجارب، أو تجربة ما، فلا تخشي، أو تتحرجي، في أي موضوع خاص، أو عاطفة خاصة، أو اشتياق، أو استلطاف، وقع لك، أو لإحدى زميلاتك، فشرط الكتابة، ألا نكتب إلا ما عشناه، أو رأيناه، أو سمعنا به، أو فكّرنا فيه، أو كان مناسباً، أو منطبقاً، على تجربتنا أو تجربة غيرنا، ممن تربطنا بهم صلات وُثقى، أو خلّة فُضلى، أو حتى غاشية من ضلال!

إن الوقائع، والأحداث، والمشكلات، كثيرة في دنيانا هذه، تناديكِ «أنا هنا!» وفي وسعك الكتابة عنها، صراحة أو تورية، دون ذكر الأسماء، ودون الإساءة إليها، وبغير ميل، في مثل عمرك، إلى الفضائح، مهما تكن مغرية، فالأملود يشي بما فيه من نسغ الربيع، والإلماح كالأفصاح، يكفي للتعبير.

أعترفُ، أخطأت، ففي العام ١٩٨٢، كما يثبت الناقد اللبناني محمد دكروب، في كتابه «أحاديث وحوارات مع حنا مينه» أنني تنبأت أن الرواية ستكون ديوان العرب، في القرن الواحد والعشرين، وصحّت النبوءة في أواخر القرن العشرين، وراح كل الزملاء الكتّاب، يعلنون أنهم سيكتبون الرواية، من أدونيس، إلى سعدي يوسف، إلى الشاعر النابه الصديق العزيز فايز خضور.

إنَّ الدعارة أقدم مهنة في التاريخ، ومع الجنس حين حواء الشجاعة أغرت آدم بأكل التفاحة الشهيرة بدأ التاريخ كلمة مدونة على ورق أو محفورة على جذع شجرة، أو منحوتة على صخر أو مضمرة في سريرة امرأة أو رجل!

غير أن الكاتبات المبتدآت اليوم يتعجلن الشهرة فيقلدن ليلى عسيران أو غادة السمان، أو ليلى العثمان، أو غيرهن من دون أن يمتلكن ثقافة مماثلة لأي ممن ذكرت، أو ممن لم أذكر، وهذا خطأ وهراء وعيب وصغار وليست المسألة هنا في إيراد الجنس، حين يكون في مجرى سياق الرواية أو القصة بل في إقحامه إقحاماً، أو إلصاقه بغير ضرورة، على هذا السياق والغاية من كل ذلك أن يشتهرن كما اشتهرت روايتي (الياطر) أو يصلن على جناح غمامة إلى ما وصلت إليه الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي في روايتها (ذاكرة الجسد) أو غيرها ممن قاربن الجسد، بغير نجاح لأنهن لم يبلغن أن يعرفن أن الجسد كالحب، مادة للكتابة، أزلاً أبداً، وتبقى مهارة القص هي التي تحدد النجاح أو الفشل!

إحدى البنات ممن فزن في مسابقة الرواية في وزارة الثقافة، أوغلت حتى البشم وحتى التقزز في ذكر عبارات مبتذلة فلما أرادت وزارة الثقافة مديرية النشر والترجمة أن تنشر هذه الرواية، اقتطعت منها الكلمات الداعرة، فراحت صاحبتها، ومعها ناقد معروف بسطحيته لا بعبقريته، بخيباته الأدبية لا نجاحاته النقدية، في الطواف على المقاهي والكافيتريات في دمشق وغيرها، وهما يتبجحان لأن مديرية النشر، وعلى رأسها مفكر كبير، وكاتب كبير أيضاً، شوهت الرواية، وخربتها تخريباً متعمداً، لأن الرواية الفلتة التي لو قيض لها أن تنشر، لتفوقت كاتبتها على سيمون دي بوفران نفسها!

إنني التمس العذر للفتاة الصغيرة عمراً، فهي ناقصة التجربة، في فن كتابة الرواية أصلاً، وهي عديمة الخبرة، في مسائل أكبر من عمرها، ومن إدراكها أن هذا يجوز أو لا يجوز في النشر، وفي أن الشهوة الحمراء، ملصقة على جسم الرواية إلصاقاً، عيب لا سبيل إلى تقبُّله، أو اندراجه في سلك الكتابة التي هي متعة وفائدة، فجاءت روايتها، قلباً وقالباً، للمتعة الخسيسة ليس إلا، غير أنني لا أرى عذراً، لإنسان تداول النقد وأسرف فيه أن يغري الفتاة البريئة، أو غير البريئة، بما قامت به من تشهير لنفسها قبل غيرها، في تطوافها على الناس، شاكية أو باكية، على مصير روايتها المخزية

أما العزيزة مايا، الكاتبة المبرعمة حرفاً، فإن عليها، في سياق النص، ألا تتردد في قتل العادية، والكلمات الجاهزة، وأن تخترق المتداول، والمألوف، والمستحاث في الأفلام والمسلسلات العربية، أو بعضها على الأقل وأن تنبذ الحكمة التي تعوي، أو تجعجع أو تقتل الروح بسماجتها، أو التكرار في اجترارها، والتلف في علكها من كثرة اللت والعجن فيها.

الأنامل ودورها في الإبداع

قلت، سابقاً، أنا لا أملك يداً سحرية تقطف النجوم، وأصابعي التي هي أغصان شجرة مرجانية، منسية في قاع البحر الأحمر، لا تورق كزهور الثلج، وأضيف، اليوم،.

إنّ حروفي منذورة لدمي الذي نزف في مواقع خطواتي على درب الشقاء الطويل! نعم! درب الشقاء الطويل، الذي أباركه لأنه صاغني، من حبة رمل على شاطئ مهجور، إلى حجر منمنم، أو إلى حصاة مدورة، لكثرة ما تأنق الموج في تقبيلها، ليجعل منها حصاة متشكلة بريشة فنان، أو مستنيرة بمفردة شاعر، أو، ربما، مصوغة بإزميل نحات ماهر.

هكذا كتب عليَّ أن أشقى، وماهمّ، الشقاء هو الذي صقل يراعتي، وماكنت، في أيّما يوم من يفاعتي، أحلم بأن تكون لي يراعة، وتالياً كلمة، مكتوبة، لأنني بالخطأ ولدت، وبالخطأ نشأت، وبالخطأ كتبت أيضاً، ومن يدري، فقد أموت بالخطأ أيضاً، وعندئذ تنغلق الدائرة السعيدة، شرط ألا يتأخر انغلاقها، فأمسي في التعساء، سأماً من حياة عشقتها ولما أزل.

لقد باركت، عمري كله، أصابع اليد، فهي الإبداع في كلِّ ألوانه، ولئن عجزت أصابعي أن تقطف النجوم، فإنها خطت الحروف، والحرف، في دلالته البهية، هو الذي أعطى النجمة بهاءها. إذا غصن المرجان أورق وأثمر، ولما لم تكن لي حبيبة أهديها نجماً، أو أقدم لها غصن مرجان عندمي الثمر، فقد أضعت عمري، واختل توازني النفسي، ولم أجد سبيلاً إلى خلاص روحي المجرحة بالألم،

إلا بخربشة الحكايات على الورق، ولعلكم، أو بعضكم على الأقل، قرأ، مشكوراً، بعض حكاياتي، أو بعض قصصي، وهذا حسبي، فأنا قاص، وروائي، إذا ما كان زعمي، وزعمكم أيضاً، صحيحاً في هذه التسمية، أما التنظير للقصة أو الرواية، فليس لي فيه شبر أو فتر، وإنما رأي يرى، وإلا لماذا أنا هنا؟ ولماذا أتكلم وقد كنت أرغب في السماع فقط؟ ولماذا اقتنص حق غيري في الحديث على «الرواية العربية وفن القص بين التراث والحداثة»!؟

رأيي، سيداتي سادتي، بسيط جداً، مختصر جداً، ففن القص هو ابن زمانه، أو ابن تاريخه الاجتماعي، والتاريخ عصور، ولكل عصر فنه في هذا المجال، وهذا هو التحديث، المستند إلى التراث، أو إلى الموروث الشعبي. لقد أخذنا الكثير من هذا التراث، وهذا الموروث، وأعطينا ما أخذنا بشكل آخر، في الرواية والقصة والمسرح والسينما والتلفزة. أخذناه خامة، أو نطفة، أو ملاحظة، أو حكاية، وسبكنا، كل ذلك، سبكاً جديداً، حديثاً، له من مرحلته التاريخية طابع الحداثة، وحسناً فعلنا، لأن غيرنا، في العالم صنع نفس صنيعنا، فكانت حداثته غير منبتة الجذور عن تراثه، موروثة، بيئته، تاريخه، لذلك اسمح لنفسي بالقول: اننا في الموقع الصح.

إنَّ كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وبخلاء الجاحظ، وغيرها وغيرها، قد آثرت إبداعنا، بما تناولناه منها، وأخرجناه مخرجاً فنياً، يلائم زمننا، وهذا، في المآل، هو التحديث والحداثة. والشأن ذاته مع الموروث الشعبي، فقد أفدت، أنا نفسي، الكثير من هذا الموروث، واتكأت عليه، سواء في قصص والدي، الذي منه تعلمت القص، أو من حكايات عمال المرفأ، حين كنت حمّالاً في المرفأ، أو حكايات البحارة حين كنت، في يفاعتي، بحاراً على المراكب الشراعية، أو من السجناء، حين كنت، زمن الانتداب الفرنسي، وبعده أيضاً، أدخل السجن لاخرج منه، ثم أعود إليه، مكافحاً في سبيل التحرر والحرية والعدالة الاجتماعية، وهذا واضح في أعمالي الأدبية كلها، أو أكثرها على الأقل.

سؤال أخير: هل قلت جديداً؟ لا! وعن قناعة تامة، فأنا لا أحب التواضع والغرور كليهما، وقد فكرت ملياً في عنوان الندوة، ورأيت فيه، بعد شيء من التفكير، هذا الذي سمعتموه، ولا زيادة لدي، فاعذروني، والعذر من بعض الشيم.

تونس الخضراء يقال. اعترف. تونسكم خضراء بكل معاني الخضرة، وبعض هذا الاخضرار في قلوبكم الكريمة، فيئاً كان، وفيئاً يبقى، ويداً للثقافة والحضارة، تبسط ولا تقبض، فالشكر لكم على هذا الفيء الثقافي الذي به نستظل، مادامت الثقافة، في هذا الزمن، هي المعوّل عليها، بعد أن فقد الخطاب السياسي صدقيته، وتقدمت الثقافة إلى مركز الصدارة.



أمي وغسيل السمك.. ودموعي!

سأخرط الكلام كما يخرطون الكوسا، بعد أن تاب الله عليّ من الأنق في الكلام، إكراماً لروح صديقي الطبيب الإنساني نبيه رشيدات، الذي استنكر إمعاني في الأناقة،.

والغرابة في قولي (إذأب كما ذئبوا) فقال: (كل الناس وكل الكتاب، يقولون: إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب) وأنت تغرّب وتشرّق، دون أن ترضي الغرب والشرق، متمسكاً بما تزعم أنه (القياس والاشتقاق) وهذا يا رفيق العمر، في السراء والضراء، شغل النحويين لا شغلك أنت، يا كاتب الحكايات!.

وجواباً على نصائح صديقي نبيه رشيدات، رحت أخبص كما يفعل غيري، إرضاءً له، وعملاً بالمثل القائل (سوق.. مع السوق)، والسوق في الزمن الرديء هذا، ينص بالرداءة، فماذا أفعل؟ عمدت على الاتكاء على كتف غيري، الرحبانيين مثلاً، وليس في هذا ضرر أو أذىً لمن قال: (جاءت معذبتي في غيهب الغسق، كأنها الكوكب الدري في الأفق، فقلت نورتني يا خير زائرة، أما خشيتِ من الحراس في الطرُقِ، فجاوبتني ودمع العين يسبقها: من يركب البحر، لا يخشى من الغرق،) وأنا ركبت البحر في كل مكان، وغامرت في مصيف بيتاخو، غير مبال بأسماك القرش، التي تسرح وتمرح في المحيط الهادي، وكانت النتيجة أن الجرَاح زيّنت صدري بالأرجواني من الدماء، وعليَّ، بناء على الأوامر، أن أدخل المستشفى، فقلت: لا! وفي الصين، في الستينيات، ينبغي أن تقول: نعم، وإلا طردوك من المعبد البوذي.

ولأنني تبت عن السياسة، أو تابت هي عليّ، أو كانت التوبة نصوحاً، كما ينبغي أن تكون، نسجاً على منوال، عميد الأدب العربي المرحوم طه حسين، فإنني أورد هذه الحادثة:

كان اسبيرو الأعور، في اسكندرونة، من البلشفيك والعياذ بالله، وكنت، ليلاً أذهب إليه وأقرأ له المنشورات الثورية، وفي يوم اشتدت فيه حملة الفرنسيين المستعمرين، ضد البلشفيك من جميع الأنواع، فقد طلب مني اسبيرو الأعور أن أخفي المنشورات عندي، لأن أحداً، من الفرنسيين أو أذنابهم، يشك في ولدٍ لا يزال في طور المراهقة، وأخذت المنشورات وأخفيتها في حرشة أمام البيت، دون أن يدري بها أحد، إلا أن المرحومة مريانا ميخائيل زكّور، وهي أم الداعي التي لم يرزقها الله ذكراً غيري، غسلت السمك وألقت ماءه الزنخ على الحرش، فتبللت المنشورات وصارت خبصة من عجين الشوفان الأسود.

أمي تأسفت على ما حدث، وبكيت أنا الخروف الضال، وكذبت فقلت: إنها أوراق فروضي المدرسية، ولأجل عيوني أنا وحيدها، أخرجت الأوراق من الحرش، وزادت فقامت بغسلها بالماء والصابون، حتى لم يبق أمل في إنقاذ هذه الخبصة، يا حسرة.

في المساء ذهبت إلى معلمي اسبيرو الأعور، وحكيت له عما جرى (لأهل الورى في المقشرة). فطيّب خاطري وقال:

ـ أحسنت أمك يا حنا!.

ـ أحسنت !؟.

ـ أي والله أحسنت! هذه الأوراق ننسخ لها بدائل كثيرة، وكنت سأحرقها فأنقذتني أمك، أنقذها الله من جهنم ونارها!.

الكتابة والحرية أيضاً!

إذا كـشف الزمـان لـك القناعـا ... ومدّ إليك صـرف الـدهر باعـا
فـلا تخـش المنيّـة والتقيهـا ... ودافع ما اسـتطعت لهـا دفاعـا

ترتبط الكتابة بالحرية ارتباطاً عضوياً، فعندما لا تكون حرية لا تكون كتابة، لكن الكتابة، في جميع العصور، وفي أشدها قمعاً.

تجد حريتها المنشودة بأشكال كثيرة غير مباشرة، وتقول قولها عن طريق الرمز، الأسطورة، الإسقاط، التورية، الإبهام، أو على لسان الحيوان كما عند عبد الله بن المقفع، في تاريخنا الأدبي العربي القديم، أو في شكل ملتبس، كما فعل الحطيئة، عندما منعه الخليفة عمر بن الخطاب عن الهجاء، فقال هذا البيت من الشعر، حسبما تسعف الذاكرة:

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا ... واقعدْ فإنك أنت الطـاعم الكاسـي

ولم يستطع بعض نقاد زمانه، أو بعض شرّاح شعره، الوصول إلى قناعة يقينية، في ما إذا كان الحطيئة يمدح أو يهجو، وهكذا وجد هذا الشاعر الهجاء، طلباً للرزق أو ردعاً للمفكرة، أن يفتح ثغرة في جدار المنع الخليفي، ويوصل قوله إلى المعنيّ به أولاً، ثم إلى الرواة والرأي العام ثانياً، دون أن يطوله العقاب، وفي وسعنا أن نجد أمثلة كثيرة مشابهة، لهذا الاختراق للمنع، في تاريخ الآداب العالمية، وفي أكثر الحقب دموية وبطشاً في هذا التاريخ العالمي، الذي شهد، في أوروبا نفسها، دموية محاكم التفتيش!

إنَّ سلطة الكتابة في تعارض دائم مع سلطة الحكم: هذه تريد إبقاء ما هو قائم، بكل ظلمه، وبشاعته، والكتابة تسعى إلى إزالة ما هو قائم، وصولاً إلى ما

يجب أن يقوم، لهذا فإن دور الكتابة هو الاستئناف دائماً، وعدم الاستكانة، عدم الرضى، عدم الخضوع، والسلطة الحاكمة تتأذى من هذا التمرد عليها، وهذا التحريك لسكونية استقرارها، فتلجأ إلى تقييد الحريات، وأولها حرية الكتابة، مصدر التحريض ضد الكائن الفاسد، نشداناً للتغيير وتسريعاً به، كي يحل ما ينبغي أن يكون محله، وهو الأفضل، الذي ثمة ما هو أفضل منه دائماً في صراع الأنظمة وتعاقبها منذ المشاعية البدائية، وبفعل التناقضات في قلب وحدة الأشياء، التي يؤدي تراكمها إلى تحول نوعي، فيكون الانفجار الثوري الذي يذهب بالقديم ويأتي بالجديد، وبعد ذلك يصبح الجديد قديماً، فيكون النضال في سبيل جديد آخر، وهكذا تصبح متوالية التجديد متواصلة، إلى أن تنتفي التناقضات التناحرية، ويتم الانتقال من نظام اجتماعي إلى آخر، انتقالاً متوافقاً والسيرورة التاريخية، حين تكون السلطة في المجتمع الاشتراكي مثلاً، على اتساق، نظري وعملي، مع هذه السيرورة، وهذا ما يجري النقاش حوله في وقتنا الحاضر، بعد أن تقوض بناء نمط واحد من الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي سابقاً، وفتح باب الحوار للتعرف إلى الأخطاء التي أدت إلى تقوضه، ومدى مطابقتها أو مفارقتها للنظرية الماركسية اللينينية، بعيداً عن غوغائية الشامتين، وتنظيرات الحاقدين، من مؤدلجي الرأسمالية، الذين يتنبؤون بانتهاء التاريخ الاشتراكي، وديمومة التاريخ الرأسمالي، كي يزرعوا، ويستنبتوا، اليأس في نفوس المناضلين من أجل العدالة الاجتماعية، حلم البشرية الأكثر ثورية، أو يتوصلوا، عن طريق المغالطات الفلسفية والعلمية، إلى إقناعنا بأبدية الرأسمالية، هذه التي تتفجر، وستتفجر أكثر، الأزمات في حضن نظامها الاقتصادي والسياسي، وهي إلى زوال، مهما تطاولت مرحلة مكر التاريخ، لأنه لو كان في وسع الرأسمالية أن تحل مشكلات العالم، لما كان الفكر الاشتراكي، ولما كانت الثورة الاشتراكية العظمى: ثورة أوكتوبر، التي تجاهلت قانون «نفي النفي» فذهبت أرياحها بدداً!

تأسيساً على هذا كله، فإن الأدب المستأنف، الواعي لدوره الاستئنافي، لابد له أن يكون على تعارض مع السلطة الحاكمة التي يستأنف ضدها، ولابد لهذه

السلطة أن تقف، بكل وسائلها القمعية، ضد هذا الأدب، وتالياً ضد هذه الكتابة، فتحجب عنها الحرية، وفي حال كهذه، وهي حال شبه مستمرة في المجتمع الطبقي، ينبغي على الكتابة أن تنتزع حريتها، وتحققها بوسائل شتى، مع ملاحظة أنَّ حالة منع الحرية، وقمع الكتابة، قد كانت موجودة في المجتمع الإشتراكي على النمط السوفييتي وقد كافح هذا الأدب ضد المنع والقمع كليهما، وبكل مظاهرهما، ووسائلهما، وكان كفاحه أحد العوامل التي أدت إلى الانهيار الكبير، وفي هذا عبرة لأيما سلطة قامعة، في أي بلد مقموع، لو أنَّ مثل هذه السلطة تفيد من العبر ودروس التاريخ، وهذا محال، غالباً، والشاهد على ذلك، ما جرى في الشقيقة مصر، من انتصار غير متوقع، لذوي العقلية السلفية، المتحجرة، وهذه العقلية موجودة، بدرجات متفاوتة، في بعض البلدان العربية، التي عليها أن تتنبه جيداً، لئلا تواجه ما واجهته مصر من امتحان عسير.

قال بدوي الجبل، في قصيدته الشماتة:

سمعت باريس تشكو زهو فاتحهـــا   هلاّ تـــذكرت يابـــاريس شـــكوانا؟

إنَّ تجارب حياتي ككاتب لا تخلو من أذى السلطة، في عهد الانتداب الفرنسي، والعهد الوطني بعد الاستقلال، وفترة الوحدة المصرية السورية أيضاً، ففي العهد الفرنسي، وبسبب مقال نشرته في «صوت الشعب» اللبنانية، ضد مظالم المنتدبين الفرنسيين، ومطاردتهم للوطنيين السوريين العرب، ضربت من قبل رقيب في الدرك الفرنسي يدعى «أبو حمدو» حتى قاربت الموت، ودخلت السجن عدة مرات، وفي العهد الوطني، أعوام ٤٧-٤٨-٤٩، لوحقت وسجنت، عقاباً على كتاباتي الصحفية ضد الإقطاع، عدة مرات أيضاً، مع التعذيب المعروف في مثل هذه الأحوال، وفي فترة الوحدة المصرية – السورية اُعتبرتْ «رابطة الكتاب العرب» التي كنت من مؤسسيها، خارجة على القانون، فسُجن أعضاؤها أو تشتتوا في المنافي، وبقيت في المنفى قرابة العشر سنوات، قضيتها مشرداً بين أوروبا والصين، والمفارقة أنني بكيت بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، وكنت في المجر، إثر سماعي خطاب عبد الناصر حول هذه الهزيمة وإعلان استقالته من السلطة،

وعدت بعد ذلك مباشرة إلى وطني سورية، ليلم بي الحزن والألم الشديدان، عند إعلان موت عبد الناصر عام ١٩٧٠، مدركاً قبل ذلك، في سنوات الغربة المريرة، أنه كان هناك خطأ في الموقف من الوحدة، وإنني وسائر الكتاب السوريين والمصريين الذين سجنوا وعذبوا وماتوا وتشردوا دفعوا ثمن هذا الخطأ، وإن لم يشاركوا كتابةً ضد هذه الوحدة، بل أخذوا بجريرة سواهم.

بعد ذلك لم ألاحق ولم أسجن، ولم يمنع أي من كتبي أو رواياتي من النشر والتداول، أو من الدخول إلى سورية حين انتقلت إلى التعاون مع «دار الآداب» اللبنانية قبل حوالي عشرين عاماً، فأعادت طبع جميع كتبي ورواياتي، القديمة والجديدة، والتي بلغ عددها حتى الآن، سبعة كتب في النقد والدراسة، و(٤٠) رواية. غير أن وزارة التربية السورية آنذاك، تكرّمت علي فسحبت اثنتين من رواياتي من مكتبات المدارس الإعدادية والثانوية، هما «الثلج يأتي من النافذة» و«الياطر» وتلطفت فحذفت مقتبساً من إحدى رواياتي «الشراع والعاصفة» وقصة قصيرة عن حرب تشرين، عنوانها «الرجل الذي أبطل مفعول القنبلة» من كتاب «الأدب العربي» للشهادة الثانوية (البكالوريا) دون إبداء الأسباب، أو لسبب مزاجي احتفالي لا اعرفه، وكل ذلك حرصاً من هذه الوزارة على ألا يطلع طلابها على كتبي، لكن النتيجة كانت عكس ما أرادت، فقد أثبت هؤلاء الطلاب أنهم في مادة المطالعة أكثر تقدماً من وزارتهم الموقرة التي لا تطالع أصلاً! كما أن الرقابة على الكتب، في هذا القطر العربي أو ذاك، تمنع –ودون أسباب دائماً! – بعض كتبي ورواياتي من الدخول والتداول في أراضيها.

الرواية والمساءلة

تحدثت، في مقال سابق، عن أداة التوصيل، بين الروائي والقارئ، وهذه الأداة مهمة أهمية استثنائية، لأن غاية الفن، والأدب فنٌّ من الفنون، أن يحمل المتعة والمعرفة إلى المتذوق، ولنلاحظ، هنا، أنّه في المتعة، وهي التي تأتي مقدماً، يكمن التواصل بين المؤدي والمتلقي، فدون هذه المتعة، تبقى الرواية جافة، أقرب إلى الدراسة المملة، وغالباً ما يتخلى المطالع عنها، أو إنّه، كيلا ينام وهو يطالع، عليه أن يستعين بدبوس، كي يخز جسمه فيستيقظ لمتابعة مجرى أحداث الرواية.

إنّ الشكوى من فقدان القارئ، تبقى صحيحة، فنسبة الأمية كبيرة في الوطن العربي، ونسبة الذين لم يتعودوا المطالعة كبيرة أيضا لأسباب كثيرة، منها الركض وراء الكسب المادي في المجتمع الاستهلاكي، ومنها عدم تربية أجيال من القراء، وانصراف الأثرياء، أو من هم في حكمهم، عن اقتناء الكتاب، كحقيقة لا تقبل الجدل، وقد تجد في بيت هذا الثري أو ذاك، من التجهيزات الكهربائية، كالثلاجة والغسالة والتلفاز الخ.. عدداً غير قليل، ولا تجد مكتبة أو كتاباً، وهذا ليس تنديداً، إنما هو واقع، يتخذ صفة المقولة الموضوعية، فمن يبقى لشراء الكتاب أو إنشاء المكتبة إذن؟ الفقراء؟ هؤلاء يؤثرون، وهم معذورون، شراء الرغيف على شراء الكتاب، والفئة التي تهتم بالمطالعة، وتسعى إلى شراء الكتاب، هي فئة طلاب الجامعات، والشباب المتنور، الذي لديه وفرٌ، وبعض العمال، وقليل جداً من الفلاحين، وهؤلاء لا يملكون ثمن الكتاب، بسبب تدني الدخول، وانخفاض القيمة الشرائية لديهم،

وهذا الواقع معروف، وفيه تفصيل أكثر، لامجال له هنا، لذلك تبقى القدرة على التوصيل، هي العامل المهم، الجاذب لفئة المطالعين القليلة، باستثناء النقاد والدارسين، الذين يقرؤون على مضض، وحتى على ملل، لأن النقد الذي يشتغلون عليه، أو الدراسة التي يتوفرون لها، يقتضيان الصبر، وإتمام قراءة العمل الأدبي قليل المتعة، أو فاقدها، وحين لا تكون ثمة متعة في القراءة، لا تكون هناك رؤية، مادام التلازم بين المتعة والرؤية، في الأدب والفن، تلازماً عضوياً، لا مندوحة عنه.

نخلص من قضية الذائقة التوصيلية، التي ينبغي الحرص عليها، إلى قضية المساءلة، فإذا راعينا الذائقة التوصيلية، وقدرنا قيمتها في تحريض ذات القارئ تحريضاً كافياً لمتابعة القراءة، يأتي دور إثارة التساؤل في نفس هذا القارئ، لذلك أسعى، في أعمالي الروائية، إلى نوع من التغريب المعروف في المسرح، والذي يضع المشاهد في دائرة المساءلة، حيث يكون للسؤال، وهو جزء مهم من وظيفة الأدب والفن، أهمية بالغة الدلالة- إن عملاً أدبيا لا يحمل على التساؤل هو عمل للتسلية فقط، وهذه التسلية متوفرة حتى في لعبة الألغاز وحلها. إنني أكرر، وأشدد على المساءلة، التي تمنح الرؤية، وتوسع أفق القارئ، وتجعل أثر القراءة باقياً في الذهن لمدة طويلة. تأسيساً على هذا، يكون للسؤال، وهو جزء مهم من وظيفة الأدب الاجتماعية، مكانه المميز في العمل الأدبي، ينطرح في مجرى الحدث، ويتطلب جوابه في نهايته المفتوحة للتأمل، ذي الامداء القصيّة.

إلا أنّ الحرفية وحدها، أو المعلمية وحدها، ولا أزعم أنني بلغتها في كل أعمالي، هي التي في وسعها أن تطرح أسئلة، وقد تكون أسئلة ملتبسة، تحمل على التفكير دون مباشرة في الطرح، كما تحمل، بدورها، الرغبة دون أن يحس المطالع بصدمة من أيّ نوع، سوى صدمة، انبعاث لماذا؟ وما المقصود؟ وكيف الحل؟ ولكن علينا أن نلاحظ أن المساءلة، هنا، تتخفى بعفوية، كما يتخفى الكاتب في نصه الروائي، أو القصصي، بعفوية أيضاً،

وإلا فسد الإبداع، وانقلب الحوار إلى استجواب والسرد إلى تحقيق، مهما يكن ذكياً، فإن المتلقي يستشعره وينفر منه.

هكذا نرى أنّ الموهبة، وهي ضرورية، تتغذى بالمعرفة، وتتصقل بالممارسة ودورها أن تتثقف، وتزداد ثقافة مع الأيام، وحتى الإلهام، الذي هو استعداد لتلقي الانعكاس في الذات المبدعة، ثم انطلاقه منها وقد غدا انعكاساً فنياً، حتى هذا، يحتاج، من خلال الثقافة، لتقبل الانطباعات، وتفحصها، وترتيبها، واستخلاص المفاهيم منها، ثم ترك تفسيرها إلى دلالة الحدث، لا أن نقوم، نحن الكتاب، بتقديم تفسيرات جاهزة، قد تكون صائبة وقد تكون مخطئة، وفي الحالين تتجانف والمساءلة، بسبب من أنها تئد السؤال منذ تشكله، وتعطل دلالته، مانعة انبعاثه في ذهن القارئ، نتيجة التفسير المنافي للغرض من جعل هذا القارئ يفسر الأشياء بذاته، بعد إعمال الفكر فيه، والتدبر الواجب في أمر فهمه.

يقول تولستوي: «في عملنا، نحن الكتاب، الكثير من الجوانب الصعبة، إنما لدينا المتعة، متعة الفكر، أن تقرأ شيئاً فتفهمه بجانب من جوانب عقلك، وتفكر فيه بجانب آخر ، ثم تتصور قصائد وروايات ونظريات فلسفية كاملة، وتتمثلها في خطوطها الكبرى، فذلك هو المطلوب، تولستوي، وهو المعلم الكبير، صاحب رواية الحرب والسلم، الشهيرة جداً، يرى متعة العمل الإبداعي، تضاهي صعوبة كتابته، وهذه المتعة هي، كما قلت سابقاً، متقدمة على الرؤية المعرفية التي يعطيها، فنحن نقرأ لنفهم بجانب من جوانب عقلنا، ولنستمتع بجانب آخر من جوانب هذا العقل، ثم نتصور كلّ ما قرأنا، ونتمثله في خطوطه الكبرى، التي تبقى، بعد القراءة، عالقة في الذهن، من خلال المعرفة، وهذا يثبت من خلال شهادة كاتب عملاق، أن المتعة تسبق المعرفة، ودون هذه المتعة، التي هي، في المآل، نتاج أداة التوصيل، لا يبقى من الأثر المقروء، إذا أنجزنا قراءته، ما يعلق في الذهن، وما نتمثله معرفة مكتسبة، ذلك أنّ الآداب، والفنون جميعاً، موضوعها الإنسان، وهي منذورة لهذا

الإنسان في غاية إبداعها، وما الإنسان، في المحصلة، إلا المجتمع، والغاية، من آدابنا وفنوننا كلها، هي الاستمتاع بقراءة، أو تذوق، ما يدور حول الإنسان والمجتمع، لنزداد بهما معرفة.

الأدب والفن هما نتاج برسم الاستهلاك، أي إننّا، وبغير استثناء، ننتج لمستهلك، لقارئ ومتذوق، فكيف السبيل إلى الوصول إليهما؟ سبيلنا إلى ذلك نتاجنا، فهو ليس وسيلة استهلاك في ذاته، بل طريقة هذا الاستهلاك، فوق ذلك، وكي يتم شراء هذا الإنتاج، وتالياً استهلاكه، يحسن أن ينطوي على إغراء، على جاذبية، على متعة، وبقدر توفر المتعة، يتوفر العنصر المعرفي في ما نستهلك من كتاب أو لوحة أو أغنية أو معزوفة موسيقية.

إن أدباً، أوفناً، لا تتوفر فيه المتعة، لا تتوفر فيه المعرفة، والمعرفة، في أقصى أهدافها، هي التي تثير الأسئلة، وتطرحها، وعلى هذا فإن هناك، في الإبداع، ثالوثا متلازماً: المتعة، المعرفة، المساءلة!

البيئية والمحلية في الرواية!

أتابع الكتابة عن التجربة الروائية، كما تابعت الكتابة، سابقاً، عن التجربة القصصية، التي وصلتني حلقاتها مجموعة بين دفتي كتاب «الرياض»،.

في إخراج أنيق آمل أن يتلاءم فيه المضمون مع الشكل، حتى يرضى القارئ العزيز عن جهدي المكرس، خالصاً مخلصاً، لإرضائه من خلال أقنومي المتعة والمعرفة.

لقد قلت، وأكرر، أنني لست بالمنظّر للرواية أو القصة، أو أي من الأجناس الأدبية الأخرى، فالتنظير كيلا يكون مطرقة على الرأس، يحتاج إلى التخصص، ولعل التجربة، في ممارسة الكتابة، توفر للكاتب ما يقوله للناشئة من الكتّاب، وأحسب أنَّ سنوات عمري الطويلة، التي تقضت في كفاح مع الحرف، لجعله مطاوعاً لإنشاء القصة أو الرواية، قد أمدتني بالتجارب غير المسموح باحتكارها، أو في التقاعس في بسطها، عبر حلقات متتابعة، تجلو إلى حدٍّ ما نوعية هذه التجارب وإمكانية إفادة الآخرين منها.

ليس معنى هذا أنني أعتزم انشاء كتاب حول تجربتي الروائية، فهذا المطمح يحتاج إلى الوقت، وكفاء الجهد، وجمع المصادر والمراجع، وهذا متعذر دون التفرغ الكامل، ولأنه حتى الآن غير متوفر فإنني أكتب إضافة إلى ما كتبت سابقاً، بعض الفصول حول تجربتي الروائية، أنشرها في هذه الصحيفة التي أعتز بالانتساب إلى تحريرها منذ سنوات غير قليلة.

ان جدلاً كثيراً، دار حول البطل الإيجابي، وورقاً غزيراً استهلك في تحديد سماته، وسفح حبر أغزر في تقويم صفاته، دون الوصول إلى نتيجة هي النقطة في

آخر السطر.. ذلك أنه ليس من بطل إيجابي، في القصة أو الرواية، خالص الإيجابية، أو بطل سلبي، خالص السلبية، أو ايديولوجية صافية تمام الصفاء، وإلا أنكرنا امتداد الماضي في الحاضر، وأنكرنا أيضاً تطاول الحاضر إلى المستقبل، وأوقفنا دورة الزمن، في محاولة عبثية، لا طائل من ورائها، ففي كلِّ كائنٍ حيٍّ، (والبطل القصصي أو الروائي يكون حياً أو لا يكون) تتوجد التناقضات وأخذ التناقض في المعيار، يفرض علينا أن نحسب حساب الإيجاب والسلب في هذا البطل، وبهذا وحده يكون بطلاً من لحم ودم، ووفق تعريف الأديب اللبناني الكبير المرحوم عمر فاخوري.

أخلص من هذا إلى أن أبطالي، في كلِّ الروايات والقصص التي نشرتها حتى الآن، ليسوا ايجابيين بالمطلق كما يزعم هذا أو ذاك من النقاد، وليسوا سلبيين بالمطلق أيضاً، كما يردد آخرون أنهم باختصار أبطال شعبيون، مهاد وجودهم هو المأثور الشعبي الذي يتجلى في أكثر ما كتبت، ومنه، من هذا المأثور الشعبي الشائع، تناولت غالباً، أحداث رواياتي بحراً وبراً ومن هذه الروايات التي تجاوزت الثلاثين عداً، استقام لي كما يعترف معظم النقاد، ما أسميه عالمي الروائي، وهذا العالم لا يستقيم إلا بالتراكم، فالرواية أو الروايتان أو الثلاث، لا تشكل عالماً روائياً قريباً من التكامل، إلا أنّ قلتها لا تنتقص من قيمة الروائي أو مكانته، فالطيب الصالح عرف بروايته «موسم الهجرة إلى الشمال» وقديماً، في القرن التاسع عشر، اشتهر فلوبير الكاتب الفرنسي الفذ، بروايته «مدام بوفاري» كما اشتهر مجايله الكاتب الفرنسي الآخر ستاندال بروايته «الأحمر والأسود» وتشتهر في أيامنا هذه الكاتبة الجزائرية المتفوقة أحلام مستغانمي بروايتها الأولى «ذاكرة الجسد» ويحدث أن يتوقف الكاتب بعد الرواية الأولى، أو الثانية، وكل منهما مستمد من الخصوصيات، أي من التجارب الشخصية الخاصة، وبعدها ينقطع هذا الكاتب عن العطاء، إما لأنه ضحل التجارب، أو لانصرافه إلى جنس أدبي أو فني آخر.

ويحدث، وهذا نادر عند كاتب نادر صاحب عبقرية، مثل أستاذنا نجيب محفوظ، أن يستطيع الروائي وبتكثيف شديد أن تحيط بعض رواياته كالثلاثية

المشهورة مثلاً- قصر الشوق، السكرية، بين القصرين- بكل ما في مجتمع ما، عبر مدينة أو قرية، على نحو ما فعل محفوظ في ثلاثيته التي تناولت مدينة القاهرة، المدينة التي استقطبت واستغرقت معظم رواياته لكنها تمحورت في الثلاثية بشكل شامل ورائع.

أما أنا فقد حرصت، في معظم رواياتي أن ألتقط أحداثها من المناطق المجهولة في أدبنا العربي، قديمه وحديثه كالبحر ، الغابة، المعركة الحربية، الانسان والموت، الجبل، الثلج، وغير ذلك.. وما التقطته كحدث كان نطفة تخصّبت ونمت وكبرت وأوفت من خلال السياق وبتعبير آخر إن هذه النطفة هي عالم فككته وأعدت تركيبه، ولم أتناول هذا العالم جاهزاً، كما لم أتناول أية شخصية جاهزة في أعمالي، ففي هذه الحال ينتفي الابتكار، الاختراع، ينتفي الخيال والتخييل، وتصبح الشخصية الروائية أو القصصية، في هذه الحال شخصية فوتوغرافية، صورة جامدة، باهتة لا خلق فيها أو حياة أو فرادة، وتظل بيئية لا تخرج عن حاضنة البيئة، لا تبلغ أن يكون لها بعد انساني خارج إطار بيئتها المحددة تحديداً قسرياً، فلا يوجد عندئذ القارئ المتفهم لها خارج هذه البيئة أو المتناغم معها أو المنجذب إليها بقوة كما هو متوقع، ونادراً ما يقول قارئ رواية كهذه: إنني أعرف هذه الشخصية، أو إنّها ليست غريبة عليّ أو عني.

المهم في موضوع البيئة ألاّ نغفلَ الفارق بين ما هو بيئي ومحلي، فالمحلي أو ما هو حدث محلي، أغنى، أندى، أرحب، مما هو بيئي، لأن البيئة تنطوي في المحلية وليس العكس، ونحن نجد في البيئة شخصية نمطية، فردية، لا تعدد لها، ولا تشكل مماثلاً لقوامها، بينما نجد في المحلية شخصية غير نمطية، غير مفردة أو إفرادية، تتعدد صفاتها، وتتقاطع شمائلها، ونستطيع بكل سهولة أن نقول إن هذه الشخصية معروفة، ولنفرض أنها شخصية حـلّاق ما، ففي البيئة تمثل شخصية الحلاق حلاقاً واحداً، وفي المحلية تمثل شخصية الحلاق أربعين أو خمسين حلاقاً، ومن هنا تعددها، قوامها الانساني العام، شموليتها في تمثيل الحلاق، كما تمثيل

البخيل في مسرحية موليير، التي تقدم نموذجاً تتطوي فيه دنيا من البخلاء أو في شخصيات البخلاء لدى الجاحظ، التي تمثل كل شخصية بخيلة عالماً من البخلاء.

أتذكر، في هذا المقام، قصص «المتشردون» لمكسيم غوركي، فشخصية تشالكاش، لص المرافئ ليست نمطية أو أحادية ويمكن بكل بساطة أن نجد هذه الشخصية في كل لصوص المرافئ، من روسيا إلى فرنسا، ومن اليابان إلى بريطانيا أي إنّها بكلمة واحدة: شخصية عالمية لها بيئتها ولكن لها محليتها أيضاً، المحلية التي جعلت منها شخصية عالمية.

وما يقال عن تشالكاش غوركي، ينطبق بصحة وصفية على أحدب نوتردام، أو جان فالجان في البؤساء لفيكتور هوغو، شاعر فرنسا الكبير، وعلى شخصيات كثيرة تزخر بها الرواية العربية والرواية العالمية، من أوروبا إلى إفريقيا، ومن آسيا إلى أميركا.



عذاب البداية.. والنهاية في الرواية

في رأي بعض الباحثين، عند الكلام على «الأدب والعلوم الإنسانية»: أنَّ الصورة الفنية متعددة الحدود، متعددة المعاني، ليس لها تحديد دقيق، واحد حاسم، يمكن قياسه بعدد، والتعبير عنه بصيغة لكن هذا لا يعني أنّ الفن هو مملكة المصادفة والذاتية.

ويقول ا.م. فوستر نقلاً عن كتاب «بناء الرواية» لأدوين موير ترجمة إبراهيم الصيرفي يقول: لا أرى داعياً لارتباط الرواية بوجهة نظر واحدة، حسب الروائي أن يثب بنا إلى الاقتناع بشخصياته، وأن يقدم لنا الحياة.. لأن الحياة تعطينا الرواية.

لكن كيف نقدم الحياة التي تعطينا الرواية؟ بالمصادفة؟ لا! بالذاتية الأدبية؟ لا! بتعدد وجهات النظر، من حيث الموضوع، في الرواية الواحدة؟ لا أيضاً! قد تكون الصورة الفنية متعددة الحدود، متعددة المعاني، هذا صحيح، إلا أنّ علينا، عند كتابة الرواية، أن نلملم هذه الحدود التي فلشناها في البداية، عندما نصل إلى النهاية وأن نعرف كيف نضم المعاني المتعددة، لا بمعنى واحد، بل بدلالة هذه المعاني كلها أي بما تريد الرواية أنْ تقوله وهذا يقتضي في حدود رأيي التخطيط المسبق للعمل، كيلا نتوه، في تطور سياق الرواية، بين المعاني المتعددة نفسها، فنهمل معنىً، في منتصف العمل ونتابع الشغل على غيره أو بتعبير آخر، أن نهمل هذه الشخصية وندعها مبتورة ونواصل رسم الشخصيات الأخرى على حسابها.

الحياة تعطي الرواية، هذا لا خلاف عليه، لكن السؤال يبقى: كيف نصنع، من هذا الذي أعطتنا إياه الحياة رواية تعود بدورها فتعطينا حياة أخرى، الفن لا يأخذ الأشياء جاهزة، وحتى العالم من حولنا لا بد من تفكيكه، هدمه، وبناء عالم آخر على أنقاضه، هو العالم الفني الذي يبدعه الفنان، وفي عملية الهدم وإعادة البناء، لا بد أن نحذر العشوائية، وأن نسير على هدى لا بمعنى اخضاع كل شيء لإرادتنا، بل بمعنى عدم خروج كل شيء عن إرادة الذات الإبداعية، التي هي في المآل إرادتنا نحن الذين نصوغ حياة من حياة، حياة فنية من الحياة الواقعية، التي تعطي الرواية، وكل الأجناس الأدبية والفنية، مقوماتها الأولية، وبدقة: خاماتها!

بالنسبة لي، وكما أوضحت في المقال السابق، أميل إلى التخطيط المسبق للرواية، إلى الوضوح غير المسطح، كيلا يكون الغموض، أو الابهام، تعمية باسم الحداثة أو غيرها، وقد قال الناقد الكبير المرحوم علي الراعي، في مقالة بعنوان «الناقد والمبدع» ما يلي: علينا أن نحذر أن يتحول الغموض الطبيعي إلى إغماض متعمد، وعلينا- بصدد هذا الغموض الطبيعي- أن نطلب إلى المبدع أن يطلق عليه بعضاً من النور، يعين على فهم هذا الغموض، فتقر أرواحنا وأفهامنا حينما نتبين أن الغموض له وظيفة محددة تخدم العمل، وليس حذلقة فكرية تزعم وجود عمق غير موجود، وتغطى على خواء لا يمكن إخفاؤه، مهما أمعن الكاتب في المحاولة».

لا وضوح مطلقاً ولا غموض مطلقاً وهذه المعادلة يمكن بلوغها إذا كنا قد درسنا جيداً طبيعة العمل، وتفهمنا قوله، وعرفنا ماهيته، وأدركنا ضرورة تصوره، في مبادئه الأولى تصوراً يعيننا على إنماء السياق في بناء النص والشخص إنماءً سليماً. إن تصور الحدث الروائي، يبدأ من اللحظة التي اخترنا فيها هذا الحدث، أو فرض نفسه علينا، بعد استيقاظه من هجوعه في بئر الذات، ويكون علينا عندئذ، أن نستعيد تجربته، ونفكر بالبيئة التي نبتت فيها هذه التجربة، والدوافع التي أدت إليها، والمساحة التي تشغلها، والأسئلة

التي تطرحها، والقول المراد من خلال كل ذلك، بدلالة الحدث، سرداً وحواراً.

شخصيات الرواية، هي أيضاً موضع اهتمامي بدءاً بأسماء هذه الشخصيات، فلكل فئة ولكل بيئة أسماء شبه مطلوبة، شبه ضرورية وانتقاء هذه الأسماء، كي تتلاءم مع أدوارها في الرواية، عملية ليست سهلة ليست اعتباطية، فللبحر أسماء، وللبر أسماء، وللحارة الشعبية أسماء، وللحي الراقي، الثري، أسماء، وما كان ملائماً في روايتي «حارة الشحادين» من أسماء هو غير أسماء الشخوص في روايتي «الولاعة»، ثم لماذا هذه الشخوص كذلك وليست غير ذلك، وكثيراً ما يستغرقني التفكير بهذه الأمور، ويشغلني عن كل ما حولي، حتى إنني أمر بالناس، أحياناً، فلا أراهم وإذا رأيتهم قد يفوتني إلقاء التحية عليهم، وهذا ما يسبب لي حرجاً غير قليل، ويسبب لي حرجاً أكبر نسيان أسماء ووجوه من ألقاهم، لضعف ذاكرتي في هذا المجال، بينما هي قوية في مجال آخر، وانتقاء الأسماء ونسيانها وعصر الدماغ لتذكرها هو العذاب الأول، يليه عذاب آخر، هو الحوار غير المكتوب، بيني وبين شخصيات الحدث، وطرحي الأسئلة عليهم، وتلقي أجوبتهم، والاقتناع الذي لا عودة عنه، أنَّ الأسئلة في موضعها، نابعة من الحدث، وأن الأجوبة في موضعها، ونابعة من الحدث كذلك، وبعد ذلك أو قبله التخطيط الذهني لمعمار الرواية، وكيف تكون البداية؟ وهل هذه البداية صالحة؟ وما مدى التشويق فيها والشأن ذاته، بل وأصعب، في الخاتمة والمدى المتخيل فيها، وهل هي مغلقة أم مفتوحة وهل السياق انسيابي، طولاني، أفقي، دائري، أم مرسل؟ وهل الزمن مستقيم أم مكسور؟ وإلى أي حد هو مكسور ولماذا؟ وكيف كان تقطيعه، بالنسبة لأزمنة الرواية؟ وما هو البعد الماضي، والحاضر، والمستقبل في المسيل الزمني؟ وهل الحوار بلسان الغائب وكيف يمكن الانتقال به من الغائب إلى المتكلم؟ وكيف تتم النقلة، بين المشاهد والفصول، دون أن يحس القارئ بأنني نقلته؟ وهل هناك ضرورة ليكون الكلام على لسان الراوي أم لساني أنا المتكلم؟

بعد هذا كله يأتي دور العمل، وأصعب ما فيه، كما أشرت سابقاً، البداية، لا من حيث الإيقاع والتشويق فحسب، وإنما من ناحية تمديد الخطوط، في كل الاتجاهات والمعرفة شبه المسبقة، بكيفية لملمتها، وصولاً إلى الحل الأنسب، أو الحل الأروع كما أفكر دون أن أدرك المبتغى في كثير من الحالات، والعديد من الروايات، وهذا ما يسبب لي قلقاً، يتصاعد حتى يمسي توتراً، وفي هذه الحال علي أن أترك الكتابة، أن أستريح، أن أفكر بهدوء، في انزياح تام عن أجواء ما كتبت، أو ما كنت أريد أن أكتب!

هذا يصيبني بالإعياء، فالعمل والتفكير فيه، ومن خلاله يؤدي إلى نقص السكر في الجسم، وأعرف ذلك من الدوخان، ومن تحبحب العرق البارد على جبيني، فانهض مسرعاً لأتناول ما يعوض النقص السكري، وأذهب فأتمدد على سريري، مستشعراً نبضات قلبي تطن في أذني.. فيا للكتابة من مهنة شاقة!.

الحدث هو الرواية!

أن نعيش الحياة لأنها حياتنا، فذلك هو قانون الوجود. هذا ينطبق على الناس، كل الناس، فهم يولدون، يكبرون، يشيخون، ثم ينتهون بالموت، وخلال هذه الحياة، قصيرة كانت أم طويلة، تتحصل للإنسان تجارب، وفق القدر الذي يجعله يعيش على هذا النحو، وليس على النحو الآخر، إنما الاستكانة للعيش الرتيب شيء، والمغامرة، التي هي بنت الجسارة، شيء آخر، فبعضهم يقنع من دنياه بأن يبقى حيث ولد، في دائرة ضيقة، وبعضهم الآخر، مدفوعين برغبة البحث والكشف، يخرجون من الدائرة الضيقة إلى دوائر أوسع فأوسع، وبذلك تتحصل لهم تجارب، ومعارف، ليست للقعدة، الذين يؤثرون الراحة.

إنّ الخروج من الدائرة الضيقة للعيش، إلى الدوائر الأوسع، قد يكون فرضاً، وهذا هو حال الذين فرضت الظروف عليهم أن يعيشوا حيوات عدة، وقد تكون قصداً، وهذا حال المغامرين، في سبيل الرزق، أو الاطلاع، أو الرافضين لقاعدة «القناعة كنز لا يفنى»، لأن ثمة كنوزاً أخرى، أكثر غنى، وأكبر متعة، تنتظر من يبحث عنها.

الروائيون، في الأغلب الأعم، يخرجون، أو يجب أن يخرجوا، من الدائرة الضيقة إلى الدوائر الواسعة، فرضاً أو قصداً، ففي هذا الخروج وحده، ومهما تكن الدوافع إليه، يواجهون الحياة بلا خوف، يجعلونها تخاف منهم، وفي مضطرب حياتهم، إلى أن تستقر على حال من الثبات، يحصلون على التجارب، على الخبرات، ويعانون فيها معاناة ما، خفيفة أو شديدة، وكلها، في

المآل، تنفعهم في عملهم الروائي، مادامت التجارب أحداثاً، ومادامت الرواية تتبني، أصلاً على الحدث، ولا خير، في رأيي، للأحداث الذهنية، وكل الخير في الأحداث الواقعية، ذات المعاناة الشديدة!

يلاحظ أدوين موير، في كتابه «بناء الرواية» «أن ما يفتننا في رواية الحدث، هو المتعة المطلقة بالأحداث الحية. ففي رواية الحدث يمكن أن يكون للحادثة الصغيرة نتائج كبيرة غير متوقعة، تتفرع عنها فروع متكاثرة، تزيد على الحصر، وتنسج نسيجاً معقداً يحل، بعد ذلك، بطريقة غاية في البراعة»

من جهة أخرى، فإن الرواية، بذاتها، استكشاف، ولندع روايات الخيال العلمي جانباً، فإن الرواية، بأي شكل كتبت، هي هدم وبناء، هدم لعالم قائم، وبناء لعالم جديد، لم يقم بعد، وهذا ما عناه ميخائيل باختين في كتاب «الملحمة والرواية» حين قال: الرواية تعبر، أكثر من غيرها، عن النزعات القائمة لبناء العالم الجديد، وقد سبقت التطور المستقبلي للأدب في مجالات كثيرة، ومازالت تسبقه حتى اليوم».

الرواية، إذاً، سبقت الأدب في اكتشافها تطلعات القراء للعالم الجديد، وهذا مطلوب منها دون سواها، لأنها، وحدها من تنشئ عالما متكاملاً، من خلال حياة كاملة تتوفر مع الحدث وتفرعاته، وفي هذا السبق، يترتب على الرواية التي تنقض عالماً قديماً، أن تبني، من خلال عمارتها، عالماً جديداً، والمهمة، في هذا التطور المستقبلي غير المسبوق، دقيقة وشاقة، دقيقة لأنها تبني، بالكلمات بدل الحجارة، العالم الجديد المنشود، وشاقة لأن البناء، في هندسيته التي تحتاج إلى معرفة، ثقافة، تجربة، حدث، لا تستقيم، دائماً، من المحاولة الأولى، ولا يمكن للروائي أن يسيطر على مدماكها إلا بصعوبة بالغة. ولنذكر، في هذا المجال، العمارات الروائية الضخمة، التي شيدها، بعبقرية نادرة، كل من تولستوي وديستويفسكي، فجاء الروائيون، من بعدهما

يجهدون، من باب التأثر، في اقتفاء أثرهما، دون أن تستطيع، إلا قلة، أن توفق في بناء عمارات روائية أقل، تختلف شكلاً ومضموناً.

لا يتوقف، طبعاً، العذاب المضني، في إيقاظ الحدث الهاجع في بئر الذاكرة، ولا في تمديد، وتطوير هذا الحدث، من خلال إنماء السياق، أو في كتابة الرواية كلها، بل في نجاح هذه الرواية المكتوبة، فكثير من المشاهد، والصور، واستطرادات السرد، وبناء الشخصيات، كثيراً ما يكون بحاجة إلى إعادة نظر، إمّا بسبب كتابته بأقل ما يجب من التأني، أو بأكثر ما يجب من التأني، فالبطء في العمل يسيء إليه، والعجلة تسيء كذلك إليه، وتأتي مشكلة الفتور المملة، ومشكلة الحماسة الملهوجة، وكلاهما من معايب القص، فالحماسة تتولد، أحياناً كثيرة، من انفعال زائد، حين يكون عليك أن تضع قدميك في ماء بارد، والفتور ينشأ من فقدان الشهية، أو الرغبة، في الكتابة، في حين يكون عليك، وفق متطلبات النص، أن تتقد حماسة، وقد عزا الجاحظ، البشرة البيضاء إلى تمام النضج في الأرحام، كما عزا البشرة الإفريقية السوداء، إلى فرط النضج في الأرحام، بسبب الحر الشديد، وهنا اختلال توازن كالذي ذكرناه بين الفتور والحماسة، خلال الخلق الروائي، ويحدث، حتى في الرواية الواحدة، أن يكون هناك إفراط في الوصف، أو إفراط في التفاصيل، وهذا يبعث على الملل، والإقلال منهما يجعل المشهد، أو المشاهد، تفتقر إلى ما أسميه «إشباع المواقف»، والأفضل أن يكون هناك توازن دقيق، وكذلك حيطة إلى درجة الحذر، من كاتب لديه تجارب كثيرة، فتغريه طرافتها، دون انتباه، أو بغير معلمية، بالاستزادة فيقحم، في رواية واحدة، أكثر من تجربة، أكثر من حدث له الأولوية بالخط الروائي الأساس، أو ترهبه مأساوية، أو لاأدبية، هذه الواقعة أو تلك، فيمتنع عن إيرادها حيث تقتضي الضرورة ذلك، فقلة التجارب مضرة مثل كثرتها، وهذا ما ينبغي أخذه في الحسبان، والاحتراس منه في كل رواية، وحتى في كل قصة.

يضاف إلى ذلك كله، موضوع النظر إلى الواقع الاجتماعي المتضمن في الرواية، وهل هو في حالة تكامل وانسجام تام، أم في حالة تناقض وصراع، أم حالة تأزم؟ وماهي جوانب ومظاهر هذا الواقع الذي نكتب عنه؟ وماهي علاقة الرواية بالمجتمع؟

جواباً على هذه الأسئلة، وفي حدود رأيي، أنَّ على الروائي، حيث يتناول المجتمع، أن ينظر إليه نظرة تحاول أن تكون واعية بالدوافع الاقتصادية- المالية، التي تشكل هذا الواقع الاجتماعي، إنما بغير ميكانيكية، فالدوافع الذاتية، المادية، الثقافية، النفسية، وخاصة الدوافع التاريخية، لها أثرها، دورها، فاعليتها في تشكل المجتمعات.

ومع أنني لست باحثاً اجتماعياً بأي معيار، فإن تطور مجتمع معين، في ظرف سياسي معين، وظرف تاريخي معين، لابد من أن يدرسه الكاتب محاولاً فهمه، انطلاقاً من أن الكاتب يستمد من المجتمع، ويصدر عنه في كل ما يكتب.

الرواية في السيادة

يقول الدكتور جمال شحيد، في مقدمة ترجمته للكتاب ميخائيل باختين «الملحمة والرواية»:

«إن باختين يرى في أعمال دستويفسكي أنها «الرواية متعددة الأصوات» أو المتعددة الآفاق، أي التي تعتمد على الحوار. فالشخوص لا يمثلون الشخص الغائب، إنما المخاطب الذي يتحاور معه الروائي، ويتحداه ويصغي إليه، وبالتالي لا تكون العلاقة بين الروائي وشخوصه علاقة خضوع ورضوخ له من قبلهم، وإنما علاقة اكتشاف متبادل بينهما. وبالطبع يكون الخطاب الروائي مفتوحاً وغير منجز، كما يكون العالم الروائي غير مكتشف تماماً، ويبقى بحاجة إلى تعمق الاكتشاف»

ويضيف: «الملحمة نشيد أحادي الصوت، بينما الرواية نص متعدد الأصوات، وتعدد الأصوات هذا، عند باختين، مرتبط بالشعب، وبكلام أدق، بالطبقات الدنيا أو بسواد الناس».

في ضوء هذا التعريف، أحسب أن روايتي «حارة الشحادين»، متعددة الأصوات والآفاق، التي تعتمد الحوار، وتتحدى الروائي، تقدم نموذجاً لذلك، بينما روايتي «الشراع والعاصفة» تدخل في باب الملحمة، لأنها نشيد أحادي الصوت، هو صوت بطلها محمد بن زهدي الطروسي، هذا البطل الذي قال عنه الناقد الكبير المرحوم غالي شكري، إنه «قدّ من أندر المعادن» لكن هذه الملحمة، كما قال عنها النقاد، وكما تناولها غالي شكري في كتابه «الرواية في رحلة العذاب» هي «ملحمة البحر» أو «قصيدة البحر» كما عرفت عند صدورها في نهاية الستينيات من هذا

القرن، أي القرن العشرين، ولم أكتبها بقصد أن تكون ملحمة، أو شبه ملحمة على الأقل، وإنما كان لها، كما يجب أن يكون لكل رواية، خط كبير، هو عمودها الفقري، وإلى جانبه خطوط ثانوية، تخدم الخط الرئيسي ولاتقوم مقامه، وإلا انفلشت الرواية، وصار تعدد الأصوات فيها، يحل محل صوت الطروسي، بطلها الرئيسي، الذي تدور الرواية كلها حول مغامرته في مطاردة العاصفة، بينما في رواية «حارة الشحادين» تتعدد الأصوات، وفيها، من الآفاق، ما هو متعدد بالمثل.

وقد تعلمت، من تجربتي في كتابة الرواية، أن اكتشف العوالم غير المكتشفة، ولا أدعي أنني بلغت كل ما أريد من هذا الاكتشاف، إلا أنني سعيت في سبيل ذلك، كما سعيت، في بقية رواياتي، أن يكون اكتشاف المناطق المجهولة، في الطبيعة والحياة، هو شغلي الشاغل دائماً، وهكذا اكتشفت البحر والغابة والجبل والثلج وقاع المدينة والإنسان والموت إلخ، واستخدمت الرمز والأسطورة والفانتازيا وغيرها، على أرضية واقعية، تمتزج، وتتماهى، بالرومانتيكية، إلا أنني، في كل هذا حرصت على أن يكون المضمون متساوقاً والشكل، مادام المضمون يتطلب شكله، إذ لا يصح أن يكون هناك مضمون متقدم في شكل متخلف، والعكس صحيح أيضاً.

وإذا كنت قد كتبت وفق هذه الرؤية، فكيف العمل للكتابة برؤية أخرى! ولئن درجت على هذا الشكل، فهل في الوسع الكتابة بشكل آخر؟ كثيراً ما يحدث، قبل بدء الكتابة، أو خلالها، أن أفكر بهذا الأمر، ثم أتخلى، خلال السياق، عن بعضه أو كله، وكثيراً ما يحدث أن ينعطف خط الحدث الرئيسي إلى خط ثانوي، خط جانبي، فيكون علي، في هذه الحال، أن أعود إلى النقطة التي حدث عندها الانعطاف، للعمل بتأن على تقويم المسار، كيلا يفلت، أو يتعرج السياق بشكل معيب، فينقسم الحدث إلى اثنين، والرواية إلى روايتين، حيث لا تكون، مثلاً، هناك حاجة، ولو استطراداً، إلى قصة في قلب القصة، أو تجربة حديثة، زائد تجربة حديثة، كما هي الحال في المسرح، وأنكر أنني كتبت رواية «نهاية رجل شجاع» كلها، فلما أعدت، بعد شهور، قراءتها وجدت أن الخط الرئيسي انساق في منعطف جانبي،

عند منتصف الرواية، فكان علي أن أتغاضى عن هذا العيب، أو أمزق مئتي صفحة، واستأنف الكتابة من جديد، أي من منتصف الرواية إلى نهايتها.

إن اتخاذ قرار، في موقف كهذا، ليس بالأمر بالسهل، ونسيان مدة زمنية طويلة، قضيتها في كتابة نصف الرواية، يجعلني مضطرباً، مقهوراً، مغلوباً على أمري، فائتلاف هذا النصف المصاب بخلل، يدعو إلى الحسرة، إلى الحيرة، إلى ما يشبه الفجيعة، وإذا جاز لنا أن نشبه العمل الأدبي بولد، وهو كذلك، فإن التخلي عن نصف عمر هذا الولد مستحيل، والابقاء عليه مشوهاً، دون عملية جراحية، غير جائز، فما كان مني إلا أن تركت اتخاذ القرار، نافضاً يدي من الكتابة، متشرداً خارج مكتبي، أدور في الشوارع وأنا أفكر: أبقي الرواية كما هي، أم ارتضي بذل جهد، يكلفني شهوراً مديدة من التعب، كي أصلح عيبها!؟

قررت، للوهلة الأولى، أن انفض يدي من الرواية كلها، وبعد زمن، تعافيت فيه من الصدمة، اشفقت على شخصيات الرواية أن يطول انتظارها، وأن تحرم من رؤية النور، بسبب خطأ وقعت فيه، فعدت إلى المكتبة، وإلى العمل، وقرأت الرواية من جديد، وكي أحزم أمري، خارجاً من دائرة التردد، لابد من اتلاف نصفها، فتناولت هذا النصف وأنا أرتجف، ولم استرح إلا بعد تمزيقه ورقة ورقة، مستشعراً عذاب الجحيم، لأنني قطعت مولودي الأدبي إلى نصفين، وعلي أن ابني النصف الذي هدمته، كي تستقيم العمارة الروائية.

لقد قلت، في العام ١٩٨٢، إن الرواية ستكون ديوان العرب في القرن الواحد والعشرين، وعني أخذ الآخرون، كل الآخرين، هذه النبوءة، دون ذكر لمصدرها، وهذا، في رأيي، طبيعي وجائز، لأن إثبات المراجع لا يكون في الرواية، ولا في النقد الذي يتناول الأعمال الروائية، أو الأدبية بشكل عام، والمدهش في الموضوع، أن الرواية صارت ديوان العرب في العقد الأخير من القرن العشرين، أي قبل الموعد الذي حددته لها.

الآن أقرأ لباختين، وهو مرجع في التنظير الروائي هذا الكلام: «الرواية كائن طبيعي، لكنه مسيطر، أي من طبيعة أخرى، يصعب عليه التعايش مع

الأنواع الأخرى، ويقاتل لفرض سيادته داخل الأدب.. وعندما تسيطر الرواية تتبنى كل الأنواع الأدبية الأخرى تقريباً».

هذا يضع الرواية، بالنسبة للأجناس الأدبية الأخرى، لا في موقع الصدارة وحده، وإنما في موقع الحضانة لهذه الأجناس أيضاً، وشأنه، هنا، كشأن السينما، فكما أن السينما أمٌّ الفنون، فإن الرواية أم الآداب والفنون على السواء، لا تتعايش، ومن الصعب عليها ذلك، إنما تقاتل لفرض سيادتها، وقد قاتلت الرواية طويلاً حتى فرضت سيادتها، هذه التي أصبحت مسلمة من قبل الجميع تقريباً، إلا الذين يكابرون في المحسوس، وهؤلاء خارج الحساب، لأنهم، بمكابرتهم، يضعون أنفسهم خارج المنطق العام!



أين دمشق في رواياتي؟

عشت ثلاثة وخمسين عاماً، حتى الآن في دمشق، ولم أكتب ثلاثة وخمسين كلمة عن دمشق، لا أدري لماذا!

يقال إنّ المجتمع الدمشقي كتيم، وأنه منغلق على نفسه، لا سبيل لمن هو غريب عنه، أن يخترق أسوار كتامته، وقد أفلحت، أنا الدخيل عليه، أن أخترق هذه الأسوار، أن أتعرف على المجتمع الدمشقي من الداخل، أن أفهم العقلية الدمشقية ظاهراً وباطناً، أن أعيش بيئته وما فيها من أسرار، أن أطوف في أحيائه القديمة، وأمشي متمهلاً، متأنياً، ملاحظاً، مراقباً ما في أزقته وزواريبه من بشر وحجر، أن أجلس في مقاهيه، وأتحدث مع من فيها من رواد، وحتى مقهى النوفرة الشهير، الواقع خلف الجامع الأموي، زرته، قضيت الساعات فيه، شربت ناركيلته كثيراً، صار لي مع أصحابه، مع جلسائه، أحاديث، ورغم ذلك لم أكتب عنه رواية، فقد استعصى عليَّ الأمر، وأدركت، بعد طول تفكير، أن معرفة المدن شيء، وكتابة رواية عن هذه المدينة أو تلك، شيء آخر.

إن بعض زملائي الروائيين، من الغرباء عن دمشق، الوافدين إليها للدراسة أو الإقامة، كتبوا روايات مقبولة من وجهة نظرهم، غير مستساغة من وجهة نظري، لأنها تتناول حيوات الطلاب الجامعيين، الذي يعيشون على هامش هذه العاصمة، دون أن تمس قاعها الاجتماعي، ودون أن نستطيع القول: إننا نعرف دمشق من خلالها، أو إنّنا نزداد معرفة بها، من خلال هذه الرواية أو تلك، لأن حياة الجامعة ليست حياة المدنية، ولن تكون، في يوم من الأيام.

هل هذا لأني بحري الهوى؟ وهل هذا لأنني عرفت البحر، ومدن البحر، أكثر مما عرفت دمشق، والمدن الداخلية في وطني سورية؟ ولماذا، ذات يوم، كانت لي، وبعمق، هذه الأمنية: أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى

دمشق؟! وكيف يطاوع قلمي وأنا في اللاذقية، ويحرن وأنا في دمشق؟ وهل لنسمة البحر، أو جرعة الرطوبة التي تنعشني جسداً وروحاً وأنا على جوار الساحل، كما يقول أصحابي، علاقة في هذا الاستعصاء الروائي الدمشقي!؟

ظني أن الأمر غير ذلك، وأنني، أنا الذي لا يحمل إلا الشهادة الابتدائية، لم أعرف الجامعة، بكلياتها المتعددة، المتنوعة، كي أكتب، كسواي، رواية عن قصص الحب التي تنشأ بين طلابها وطالباتها، وعن لقاءاتهم وسهراتهم وما يدور فيها من أحاديث ونجاوى، ومن ودٍّ وجفاء، أو زعلٍ ورضى، أو ما تنتهي إليه علاقات الحب تلك من نهايات سعيدة، بالزواج، وبوضع الرأسين على وسادة واحدة!

المسألة، فيما انتهيت إليه، أعقد من ذلك، كونها تتعلق بالمزاج، أو بشيء غيره، فالأحداث الهاجعة في قاع الذاكرة، لا يكفي أن تستيقظ حتى نكتب عنها، وإلا لكانت التجارب التي تنبت منه الأحداث، كلها صالحة لكتابة رواية ما، وهذا يجانف الأصول، فالحدث، حتى مع التجربة، يحتاج إلى تطوير، في السياق وفي نمو الشخصيات، وليس كل حدث يؤاتي بالسهولة التي نريد، مادامت ثمة خشية في الوقوع، مهما احترزنا، في مطب الافتعال، وتالياً في القسر على جعل الخط الرئيسي للرواية، وكذلك الخطوط الثانوية، التي تخدم هذا الخط، فعل إرادة الروائي، لا فعل المنطق الداخلي للرواية، وآليتها الصحيحة، المفضية إلى التكون الطبيعي لجنين الحدث، وما يتبع ذلك في استواء هذا الجنين قواماً روائياً متكاملاً، صادقاً في تكامله.

بعضهم يقول، أعطني أي مشهد، وأنا أجعل منه قصة، وقد كان تشيكوف، في معلميته القصصية البارعة، قادراً على ذلك، وكذلك كان يوسف إدريس، وكتاب القصة الشهيرون في العالم، من موباسان إلى سومرست موم، ومن عبد الله عبد إلى زكريا تامر، ويبقى هذا، في العطاء الفني، وقفاً على القصة وحدها، أما الرواية فإنها تختلف، لأن القصة بنت اللقطة المفردة، والرواية بنت التجربة العريضة، الكافية لخلق حياة متكاملة، ذات أعماق وأبعاد قادرة على أن تجعل هذه الحياة حقيقية، نعيشها بكلِّ جوارحنا، وتبقى، في كينونتها، فاعلة في نفس القارئ،

حاملة إليه، مع المتعة والفائدة، جوانب مجهولة، يكتشفها في تطور الحدث، وفي استواء شخصياته استواء نستطيع معه أن نقول: نعم أنا أعرف هذه الشخصيات، المتخطية محليتها، بيئتها، إلى إنسانيتها الشاملة.

يقول ميلان كونديرا حول البناء الروائي: «الرواية هي كتاب الحياة، وروحها هي روح الاستمرار» ويقول الناقد الروائي لايونغ تريك: «إن الرواية بحث مستمر، وميدان بحثها العالم الاجتماعي، ومادة بحثها، أو تحليلها هي عادات الناس التي تتخذ دليلاً على الاتجاه الذي تسير فيه نفس الإنسان» ويقول دانتي: «يقوم القصد الأول للفاعل، في كل فعل يمارسه، على كشف صورته الخاصة به» وكشف هذه الصورة، أمر معقد، وهو يغدو، في الرواية، أشد تعقيداً، والطابع المعقد للفعل هو، حسب كونديرا، أحد اكتشافات الرواية الكبرى، وهذه الرواية هي كتاب الحياة المفتوح، وعلى الروائي أن يجيد فن الحذف، ثم يجيد فن التكثيف، والإنسان يتميز بالفعل، ليصير فنياً، فرداً يتميز عن الأفراد الآخرين.

أن تميز هذا الفرد، عن الآخر وعن الحيوان، ليس سهلاً، لأنه يتطلب إدراكاً في الفروق، وفي كتاب «الامتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، رؤية غير مسبوقة في هذا المجال، إذ يقول: «إن أخلاق الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان، ذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان، وهكذا نرى في بعض الحيوان صفات نجدها في الإنسان، ونرى في بعض الإنسان غدر الذئب، وفي بعضهم ندامة الحمار، وفي بعضهم صبر الجمل، وفي بعضهم وداعة الحمل، وفي بعضهم حرارة الثور، وفي بعضهم استكانة الدجاجة، وفي بعضهم احتمال البغل».

إذاً على الروائي أن يعرف طبائع الإنسان، وطبائع الحيوان، وطبائع البشر، والبيئة، والمجتمع، والمدن، والأرياف، قبل أن يتصدى لكتابة الرواية التي هي معقدة، وتصور حياة أكثر تعقيداً، ولأنني لا أعرف دمشق كل هذه المعرفة، فإنني لم أكتب عنها بعد، وكل ما فعلته هو رسم أولي بالقلم، بعنوان: هل تعرف دمشق يا سيدي؟.. سأتكلم عليها لاحقاً.

ما علاقة الحب بالليلك؟

في المحاولات الأولى، ومن الممكن ملاحظة أن المواقف، في هذه القصة أو تلك، غير مشبعة على نحو كامل، وربما كان السبب عائداً إلى الغموض الذي يلف القصص، ولاسيما ما دار منها حول الحب، وفي كل الأحوال فإن التفاؤل يأتي بعداً ثالثاً لهذه القصص، في أكثرها أو بعضها المشغول بشكل جيد.

وإذا أخذنا قصة «وداعاً أيها الليلك!» التي اختارها القاص عنواناً لمجموعته، نجد أن فكرتها بسيطة، تدور حول رجل وحيد، متعب في حياته التي أصبحت آلة مبرمجة، يقتلها الروتين وتعاقب الوجوه ذاتها كل يوم، رغم ما فيها من تعدد أحياناً، ويجد هذا الرجل في حديقة منزله الصغير ملجأً لأفكاره، وملاذاً لراحته، فيعشق أزهار الليلك المنضرة في هذه الحديقة، خصوصاً بعد أن أقنعته حبيبته بضرورة غرسها في حديقته لتكون أزهارها أبهى وأحلى.

كان الرجل الذي يقص بضمير المتكلم، يدهش لتماوج ألوان أزهاره، وتحولها تدريجياً مع انكسارات الضوء المتساقط عليها، لذلك لا تستقر على لون واحد، لكنه كان يحبها كما يحب «سهام» التي أولع بها، إلا أن هذه الحبيبة كانت كأزهار الليلك، متقلبة المشاعر، متصلبة العواطف، لا يمكن أن تستقرَّ على حال، ففي تصرفاتها تناقض، وفي أقوالها تباين، وهي صريحة في كلامها، إلا أنها غامضة في مشاعرها نحو كل شيء من حولها، وحتى نحوه بالذات، وفي آخر مرة التقيا، أو تحادثا هاتفياً، أخبرته أنها تريد الهروب منه ومن حبه، فلا يأبه لذلك كثيراً، لأنه اعتاد منها هذه اللفتات المباغتة، معتقداً بأنها ستعود للاتصال به، وترجع المياه إلى سواقيها كما هي العادة، إلا أن مياه غدران

الحب تفيض هذه المرة، ولا يقع لها على أثر، فيروح يسأل ويسأل من دون أن يجد لأسئلته أجوبة شافية.

ومنذ أن انقطعت أخبار «سهام» بدأت أزهار حديقته تذبل، فقرر اقتلاعها كما قرر اقتلاع «سهام» وحبها من قلبه، ومن فكره على السواء، لذلك استبدل زهر الليلك بورود جورية، وخلال اقتلاع زهر الليلك كان يردد في ذاته: «وداعاً أيها الليلك!» ومن عجب أنه وجد بعد شهور أن الورود التي غرسها لم تتبت، لم تنمُ، وبدلاً منها نبتت أزهار الليلك مرة أخرى، بلونها الزاهي الجميل.

إن الرمز في هذه القصة ذو دلالة واضحة، فالقاص، من خلال الحدث، يرغب في التأكيد على أن الحب، حين ينغرس في القلب، لا يقتلع بسهولة، وإذا خادع المرء نفسه في أمره، فإنه لا يتعدى التوهم بأنه أفلح فيما يريد، بينما الحب باقٍ في سويداء قلبه، كما كان في البدء، وقد ضرب مثلاً على ذلك بمعاودة نمو زهر الليلك في حديقته، وهو، في هذا المثل، شبيه بحبه الذي كلما حاول التخلص منه، وجد نفسه أشد تعلقاً به.

هذه، في رأيي، مجموعة قصصية صالحة، بل جيدة إذا أردنا الدقة، في المحاولة الأولى التي أقدم عليها المؤلف بجرأة وتصميم، سيؤذيان به، إذا ما واصل العمل، إلى النجاح المأمول.

تحية للحب، هذه العاطفة الإنسانية الماجدة، وتحية للّيلك، وأصدق التمنيات للكاتب على جهده في صياغة حبه الليلكي الذي باح به، فتكدست منه أغمار على الدروب، كما في أغنية فيروز لنزار قباني التي يقول فيها «لا تسألوني ما اسمه حبيبي/ أخشى عليكم ضوعة الطيوب/ والله لو بحت بأي حرف/ تكدس الليلك في الدروب».

ما أجمل الليلك، وما أروع الحب، هذا المرض اللذيذ اللذيذ الذي يعد شقياً من ابتلي به، وشقياً أكثر من شفي منه بسرعة.

حنا مينة ومياه الولادة الدائمة

بقلم الدكتور يوسف الحمادة

يتمتع العنصر المائي في أدب الكاتب السوري حنا مينة بطاقة خلاقة تمنحه القدرة على إعادة إحياء الكون والإنسان بشكل دوري. ولنا أن نتساءل من أين للماء بهذه القدرة وكيف يوظفها كاتبنا كي ينعم عالمه الروائي وشخوصه بهذا التجدد الدائم. في البداية، سنحاول أن نبيّن أن للماء عند مينة وجهين، وجه مميت وآخر محيي، وأن هذا التصور لا يبتعد عما تقوله نصوص عديدة، خاصة نصوص أسطورية، ساهمت في تكوين ثقافتنا، في هذه المنطقة من العالم. ازدواجية العنصر المائي هذه تجعل منه خازناً لكل بذور وإمكانات الحياة القادمة، وبالتالي تعطيه إمكانية الإضطلاع بعملية الخلق، هذه العملية التي تحقق أهم تجلياتها في العاصفة والطوفان، في صور الربيع والشباب الدائم، وكذلك في الحب الذي يلفّ العالم.

ليس من العسير على قارئ أدب حنا مينة ملاحظة أن العنصر المائي يتمتع بازدواجية يتجاور فيها وجها الموت والحياة، الوجه المشرق والوجه الأسود، دون أن يستطيع أحدهما كسف الآخر. فالبحر[١] يبدو في الآن ذاته «طاهراً ونجساً»، «شفافاً

---

(١) نود أن نشير هنا إلى ملاحظة هامة: رغم أن البحر هو الشكل الأساسي لحضور الماء في عالم حنا مينة الروائي إلا أننا سنستعين أحياناً، خلال هذه الدراسة، بصور يأخذ العنصر المائي فيها شكل نهر أو مستنقع أو ماء مطر.. نبرر ذلك باستنادنا إلى أبحاث المفكر الفرنسي غاستون باشلار في هذا الخصوص والتي يؤكد فيها أن «كل سائل ماء» بالنسبة لمخيلة الإنسان، وأن «كل مايجري هو ماء، ويشكل جزءاً من طبيعة الماء (..) «البحر والنهر والبحيرة والمطر، بل و«سوائل» أخرى كالخمر والعسل والحليب.. هي أشكال مختلفة لجوهر واحد. انظر كتابه:

Gaston Bachelard, L 'Eau et les rêves. Essai sur l'imagination de la matière, Paris, José Corti, 1942, P. 134, 109-110.

وعكراً»[١]، وهو بالنسبة للبحار «صديق» يحميه ويغذيه، لكنه يمكن أن يتحول إلى «عدو» قادر على معاقبته في كل لحظة[٢]. حركته الدائمة تمثل الخلود بينما، على غرار هيراقليطس، يرى بعض الشخوص في الأمواج التي تتابع دون أن تتشابه صورة الزمن الذي يمر وبالتالي صورة الموت. والبحر الذي يجعل حب بطل الشمس في يوم غائم لمدينته يشرق في قلبه، والذي يدعوه إلى مساندتها في نضالها ضد المستعمر وضد ظلم الطبقة السائدة، هو نفس البحر الذي يحمل الفرقاطات الحامية لهذه الطبقة ولممثلي البلد المستعمر[٣].

وتمتد ازدواجية العنصر المائي هذه لتشمل كل ماله علاقة به. فبعض المخلوقات المائية، كعرائس الماء أو ككاترين الحلوة، تحمل الموت والخلاص بنفس الوقت، أما القارب فهو يمثل في نظر البحارة «المهد والمزود والتابوت»[٤] أي إنّه يسود حياتهم من الولادة وحتى الموت. من جهته يمنح رمل الشاطئ لذة كبيرة بفضل جانبه اللهوي الذي يسمح للأطفال باللعب بتلك العجينة التي يشكلها عندما يمتص الماء، لكن هذا الرمل ذاته، بانفلاته من بين الأصابع، يمثل الشيء الذي لايمكن الإمساك به، الهارب، وعندما تغطيه المياه فإنه يخبئ أخطاراً عديدة؛ فهو كالرمال المتحركة قادر على ابتلاع الغرّ الذي يخاطر بنفسه ويدخل فيه. ويعكس الشاطئ أيضاً نفس الصورة الثنائية الوجه. فصخوره وكهوفه ومرافئه ومدنه... تشكل مدخلاً للبحر بأهواله ومعبراً إلى الأماكن التي تحاك فيها المؤامرات وتنتشر فيها كل أنواع الموبقات من تهريب ومخدرات ودعارة... لكنها من جهة أخرى أماكن تتفتح فيها صفات الرجولة المشرّفة من تضامن وشجاعة وكرم وإنكار للذات.

---

(١) حكاية بحار، بيروت، دار الآداب، الطبعة الرابعة، ص. ٣٨. (الطبعة الأولى ١٩٨١)

(٢) الياطر، بيروت، دار الآداب، الطبعة الثالثة، ص. ٢٨٩. (الطبعة الأولى ١٩٧٣).

(٣) الشمس في يوم غائم، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٣، الطبعة الثالثة، ص. ٢٤٤. (الطبعة الأولى ١٩٧٣).

(٤) المرفأ البعيد، بيروت، دار الآداب، ١٩٩١، الطبعة الثالثة، ص. ٤٠٣. (الطبعة الأولى ١٩٨٣) وهي الجزء الثالث من حكاية بحار.

هذا الغموض الذي يلف العنصر المائي كما تظهر ذلك مؤلفات كاتبنا، ليس بالأمر الجديد. فقد أشارت نصوص أساسية في تراثنا الثقافي إلى هذا الأمر، سنكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها. إن كانت تعامة السومرية – البابلية صورة للغمر الأول الذي خرجت منه الحياة، يجب ألا ننسى أن لها وجهاً مخيفاً يظهر خلال حربها ضد مردوخ وهي على رأس مجموعة كبيرة من الوحوش المخيفة. أما إنكي إله المياه العذبة والذي لولاه لما صار زرع ولما صارت جنة دلمون، فهو المسبب لحروب كثيرة وهو وراء اختفاء اللغة الوحيدة التي كانت سائدة في بابل، أي هو سبب التفرقة بين البشر. وليس بوزيدون إله البحر عند اليونان بأحسن حال. فكما أنه يسمى «حامل الأرض» فهو يوصف بنفس الوقت بـــ «مزعزع الأرض» ويترأس زمرة من المخلوقات والوحوش المرعبة[١]. هذه ليست إلا أمثلة قليلة من بين أمثلة عديدة جداً[٢] يظهر فيها الماء كعنصر ذي وجهين وصعب على الفهم.

والبحر، بصفته صورة للقوى البدئية، للعلماء الأول، يملك هنا دوراً متميزاً ويعزز الازدواجية المشار إليها. فهو يلعب تارة دور الأب الرحيم وتارة دور الأب الشرير، تارة يبدو أمّاً مغذية وتارة أمّاً عقيمة. وكما يشكل فضاء خطراً يفصل بين البشر فهو جسر يقرب الناس ويشجع تواصلهم. وبالرغم من أنه يوقظ مشاعر الخوف عندما يغضب ويعصف بعنف، فهو يغذي الإعجاب بهذه القوة الطبيعية الهائلة، محولاً، بهذه الطريقة، الاشمئزاز إلى انجذاب.

لاشك بأن لهذه الازدواجية علاقة أكيدة بسيولة هذا العنصر وبالتالي بصعوبة القبض عليه. لكن هناك أيضاً سبباً أكثر عمقاً وهو أن الحياة مرتبطة بالموت ارتباطاً وثيقاً، أو كما يقول نبي جبران خليل جبران، هما شيء

---

(١) أنظر بهذا الخصوص: فراس السواح: الأسطورة والمعنى، ص. ٤٠، ٩٣. وكذلك كتابي:

Samuel Noah Kramer, L'Histoire commence à Sumer, Champs/Flammarion, Paris, 1994, traduit par Josette Hesse, Marcel Moussy, Paul Stephano et Nicole Tisserand, P.152-153.

Hésiode, Théogonie. La naissance des dieux, Editions Rivages, Paris, 1993, Traduit du grec par Annie Bonnafé, precede d'un essai de jean Pierre Vernant, p.53.

(٢) يجد القارئ في كتب الأديان السماوية الثلاثة أمثلة عديدة عن الازدواجية المشار إليها.

واحد[١]. أما عالم النفس صندور فيرنتزي فبعد إعطاء عدة أمثلة تشير إلى أن الموت المطلق والحياة المطلقة لا وجود لهما، فإنه يخلص إلى النتيجة التي تقول بغياب «الفصل الكامل بين غريزة الموت وغريزة الحياة» قبل أن يضيف: «علينا إذاً أن نتخلى نهائياً عن مسألة بداية الحياة أو نهايتها وأن نتخيل العالم العضوي واللاعضوي كتأرجح دائم بين غريزة الحياة وغريزة الموت حيث لا الحياة بقادرة على فرض نفسها على الموت ولا الموت بقادر على السيطرة على الحياة»[٢]. لهذا السبب فإنه في عالم الأسطورة تلعب نفس الآلهة دور آلهة الموت وآلهة الحياة بنفس الوقت. فبرسفون، سيدة الجحيم، هي في الآن ذاته، آلهة الخصب. وهي تقيم فصلاً تحت الأرض، شتاء، وثلاثة فصول فوق الأرض، وفي إقامتها الشتوية، أي تحت الأرضية، تأخذ معها أدونيس. وتلعب ليبيتينا، الآلهة التي تشخص أفروديت، نفس دور برسفون، حسب بلوتارك الذي يعزو ذلك إلى «نوع من الحكمة» تجعل من الموت جزءاً من الحياة[٣]. ولهذا السبب أيضاً فإنه في نظر هيراقيطس، يتوحد هادس، رب العالم السفلي، مع ديونيزوس (باخوس) الذي يجسد سكرة الحياة. وهكذا فالطريق نفسه يقود من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت، ويْجتاز

---

(١) يوصي نبي جبران من يريد اكتشاف سر الموت أن يبحث عنه في قلب الحياة: «لأن الحياة والموت واحد، كما أن النهر والبحر واحد». جبران خليل جبران، النبي، ترجمة ميخائيل نعيمة، تسبقه دراسة بقلم نازك سابا يارد، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٣، ص. ١٤١. لنلاحظ أنه ما إن تذكر ثنائية الموت والحياة حتى يفرض العنصر المائي نفسه بكل الازدواجية التي يحملها في طياته.

(٢) Sandor Ferenczi: «Thalassa essai sur la theorie de la génitalite». P. 250- 323, dans: Sandor Ferenczi, Psychanalyse III, Œuvres Complètes, t.III: 1919- 1926, traduction de J. Dupontet M. Viliker, Paris, Payot, 1974 pour l'édition française, p. 322.

(٣) Plutarque «Question romainen° 23», in Plutarque, Grecs et Romains en Parallèle, Liver de Poche, Paris, 1999, p. 100-101 (Coll. Bibliothèque Classique), traduit par Michèle Nouilhan, Jean- Marie Pailler, Pascal Payen, Cf. également l'article «Perséphone» dans: Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, *Dictionnaire des symbols*, Paris, Robert Lffont/ Jupiter, edition revue et corrigée,, 1982, 1052 p.

العالم والكائنات بشكل دوري. ومن المحتمل جداً أن يخضع إيقاع هذه الحركة الزمني للقمر الذي يتحكم، بفضل ولادته (القمر الجديد) ثم نموّه (القمر المكتمل) وتصاغره المتبوع بموته (الليالي الثلاث التي يختفي فيها) بأدق الحركات الدورية. يكتب مرسيا إلياد بهذا الخصوص: «صورة ولادة القمر وموته الدائمين هي التي ساعدت على بلورة حدس البشر الأوائل فيما يخص دورة الحياة والموت مما ساهم فيما بعد في ظهور أسطورة خلق العالم وهدمه دورياً. فأقدم الأساطير عن الطوفان لها بنية وأصل قمري (...) وبالنتيجة فإن الزمن، في نظر الإنسان «البدائي»، دائري، والعالم يولد ويموت دورياً، والرموز القمرية من «ولادة فموت فولادة جديدة» تظهر في عدد كبير من الأساطير والطقوس»[١].

بالاستناد إلى ديالكتيك الموت والحياة هذا يمكننا القول بأن كل نزول في الماء أو حتى كل تماس مع الماء هو على المستوى الرمزي موت للإنسان (أو للعالم) ينتهي بولادة إنسان جديد وعالم جديد[٢]. من هنا فإن كل رغبة بالعودة إلى الماء، كما يلاحظها القارئ عند بحارة حنا مينة، لاتشكل غاية بذاتها. فهي ناتجة، على العكس، من قناعتهم المتأصلة بأن البحر هو أصل الحياة. والعودة إليه ليست إلا رغبة بالولادة من جديد. صحيح أن بعض أبطال مينة يبحثون من خلال «الانحلال» في الماء عن الموت تحت تأثير ما يسمى بغريزة الموت، لكن رغبتهم هذه لاتفصح عن نفسها إلا في الظروف الصعبة: مثل زكريا المرسنلي في الياطر، وسعيد حزوم في ثلاثية البحر، والقبطان اسطفانو في الرجل الذي يكره نفسه.. أمنيتهم جميعاً تشبه ما نجد في الأسطورة عندما يحاول الإنسان المصاب بمرض

---

(١) Mircea Eliade, Images et symbols. Essais sur le symbolisme magico- religieux, Paris, Gallimard, 1952 (Les Essais, LX) P. 93-94.

يمكننا الإضافة بأنه قد تكون هناك حركة دائرية أخرى أثّرت هي أيضاً، اضافة إلى حركة القمر، في خيال البشر. نقصد بذلك دراما تعاقب الليل والنهار. إذ إن تناوب الضوء والعتمة (ولادة الشمس وموتها اليوميان) يتم بشكل دائري بحيث أنه من المستحيل تصور حدٍّ فاصل بين هاتين الظاهرتين اللتين تتداخلان وتتوالدان بشكل غير محسوس.

(٢) نحن هنا في قلب الرمز الذي تحمله المعمودية في الدين المسيحي.

ما العودة إلى المياه الأولى كي يستعيد صحته، أي كي يولد من جديد. فبالنسبة للفكر الأسطوري، كل خلل يصيب العالم يجد حلاً له بالعودة إلى أزمنة البدء، هذا العود الذي نجده رمزياً في أعياد رأس السنة، أو على المستوى الحقيقي في الطوفان. حالة زكريا المرسنلي بطل الياطر هنا جديرة بأن نتوقف عندها. برغم حاجته الماسة إلى الولادة من جديد فإن زكريا يحقق هذا الطقس في الغابة وليس في البحر. والسؤال هنا لماذا لم يخضع زكريا لهذا التحول في قلب الماء، هذه القوى الولودة، أو في قلب الحوت، هذا الحيوان المائي، كما تمنى؟

في الحقيقة، زكريا رجل بحر قبل أي شيء أي إنّه يعرف جيداً هذا العالم المائي، وهو رجل يشبه ببساطته الامتداد المائي الذي لايحجز الرؤية. من هنا فالولادة في قلب الماء، العودة طفلاً، ما كانت لتخدم بطلنا في شيء. لأن مأساة زكريا تكمن في أن قلبه «الخام»طبيعته القاسية و«المتوحشة» والتي يمازجها نوع من الطيبة، لاتسمح له بفهم تعقد العلاقات في المدينة، وبعكس البحر، فإن الغابة، بظلالها بتداخل أشجارها وأغصانها، تذكّر بعالم المدينة وتعقده. إنها من هذه الزاوية، أكثر تأهيلاً من البحر في حالة زكريا بالتحديد للقيام بطقس «دخول»[(١)] يتبعه ولادة زكريا جديد، ليس كطفل بريء بل ككائن جديد قادر على فهم عالم المدينة المعقد وبالتالي قادر على مواجهته.

---

(١) طقس الدخول هو طقس يتم فيه قبول شخص ما في دين جديد أو مذهب جديد غالباً ما يحمل طابعاً سرياً. ربما كان الفيثاغوريون (نسبة إلى الفيلسوف والرياضي فيثاغورث) هم أقدم من قام بذلك. والفيثاغورويون كانوا يشكلون جماعة مغلقة لاتسمح للآخرين بكشف أسرارها. كان فيثاغورث وأتباعه يقسمون المتقدمين لمعرفة علومهم إلى قسمين «العارفين» و«غير العارفين». وكانوا يكشفون لغير العارفين عن حلول المسائل دون الكشف عن طرق التوصل إلى هذه الحلول، بينما كانوا يسمحون للعارفين بمعرفة الحلول مع طرق الوصول إليها، أي كانوا يكشفون لهم عن أسرار علمهم. وكانوا يدخلونهم ليعرضوا عليهم ذلك إلى مكان محجوب بستار، من هنا جاءت كلمة «الداخل» (وراء الستار) والطقس هو طقس «دخول» ويصبح معناه الطقس الذي يكشف للمتقدم عن أسرار العلم، مما يجعل منه إنساناً عارفاً، أي إنساناً جديداً. لهذا يعتبر كل طقس دخول ولادة جديدة. وهو منتشر في الديانات الشامانية في سهوب آسيا.

سعيد حزوم، في محاولته الدخول في عالم الرجال والحصول على اعترافهم، بحاجة أيضاً إلى ولادة جديدة. وكما في كل طقس دخول، على البطل أن يضطلع بمهام صعبة، أن ينتصر على تحديات ويجتاز عقبات تواجهه[١]، حتى يعترف به «الكبار» وهم هنا البحارة القدماء، أصدقاء أبيه الغائب الذي يحلون محل هذا الأب، ومعروف أن دور الأب ضروري في كل طقس دخول. الغطس طوال يوم كامل في قلب الباخرة الجانحة يشكل الامتحان الرئيسي بالنسبة لسعيد. ويبيّن الدخول إلى قلب هذه السفينة (التي تشبه بشكلها عضو الأنثى الجنسي)، بينما السفينة نفسها مغمورة بمياه البحر المؤنثة بدورها، يبين ذلك تأكيد الكاتب على هذا «الغلاف» الأنثوي مرتين، وبالتالي على رغبة سعيد الجامحة في النجاح في مهمته التي ستمنحه حياة جديدة، وستجعل منه شخصاً جديداً، أي رجلاً. وبسبب من هذه الرغبة التي لاتقاوم بل بسبب من هذه الحاجة، سيذهب سعيد بعيداً في إتمام مهمته، حتى في نظر القدماء، عندما سيخاطر بحياته في قلب الباخرة.

العاصفة والطوفان

تشكل العاصفة البحرية برأينا قمة هذا الفعل الخلاق الذي يعيد صنع الكون. فالمياه السفلية في فورتها تختلط بالمياه النازلة من السماء وتغمر العالم لتعود به إلى أزمنة الأصول لإعادة خلقه من جديد. هذا الحدث يتم ضمن هالة من القدسية حيث «فرحة تغمر الكون، وألق قدسي ساحر ينوِّر الدنيا»[٢]. العاصفة التي نقرأ وصفها في الشراع والعاصفة تتفجر بعد زفاف ملكة المياه على ملك البحر كما يقول الراوي. أي بعد تزاوج العناصر، بعد تزاوج القوى المذكرة والمؤنثة للماء والتي بدونها لا ولادة جديدة. لنستمع إلى راوي الدقل يصف لنا الهدوء الذي يتبع هذه الحالة:

---

(١) السفر المليء بالأخطار والعقبات الذي قام به جلجامش كي يحصل على نبتة الحياة أو الخلود، يخضع للمنطق نفسه. كذلك في الحكايات الشعبية على البطل، كي يحقق هدفه ويُعترف به، أن يخضع لامتحانات صعبة أو أن يحل ألغازاً.. الخ.

(٢) الشراع والعاصفة، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٤، الطبعة السابعة، ص. ٨٢ (الطبعة الأولى ١٩٦٦).

«وشيئاً فشيئاً تهدأ العاصفة. ينقشع الغيم. تظهر السماء الزرقاء. تختبئ الريح في مكان ما. يتوقف المطر. يتجرجر الموج تعباً على وجه اللجة، يتراخى، يهمد، ومكان البروق المرعبة تبزغ نجوم مزهرة في السماء الصافية، وعوضاً عن الرعود تنتشر موسيقا هادئة، تتصاعد من القاعات السحيقة، وتتداح في الجو، تاركة صدى رخيماً.. وما تلبث الأنوار المشعة في السفن أن تتطفئ وتشتعل في لحظة واحدة، وتدوي الصافرات معلنة ميلاد سنة جديدة، على عادتها في المدن الساحلية كلَّما تصرم عام وولد عام»[١].

الإشارة هنا إلى العام الجديد ذات دلالة هامة، فهي تشير إلى بداية حياة جديدة لكون جديد. كل شيء يبدأ مرة أخرى، كما هي الحال بعد احتفالات رأس السنة في الشرق القديم. هذه الاحتفالات التي كان يتم فيها تمثيل خلق العالم مسرحياً كما تصفه لنا الإينوما إيليش ملحمة الخلق البابلية. الهدف من هذه الاحتفالات هي، كما أشرنا، العودة بالعالم إلى شبابه السابق حيث لم يكن هناك شيخوخة ولا مرض. وما الانسجام والهدوء اللذان يشيعان في هذا المقطع سوى انعكاس لحالة الاسترخاء العذب التي تتبع آلام الولادة التي تمخضت عن كون جديد. فهدأة العاصفة وانقشاع الغيم واختباء الريح وتوقف المطر، كلها تعابير تؤكد الانتقال من حال إلى حال، من توتر شديد معذّب إلى استرخاء عذب سعيد، احتفالاً بالمولود الجديد. فالسماء الصافية حلت محل الغيوم المتلبدة، والموسيقا الهادئة أخذت مكان الرعد المخيف، والتعب، بعد طول عناء، تلاشى تدريجياً: «يتجرجر الموج تعباً (...) يتراخى، يهمد»، فتنفرج أسارير الكون وتعلن سعادته عن نفسها من خلال «النجوم المزهرة» كابتسامات تملأ وجه السماء، تحاكيها «الأنوار المشعة في السفن»، ومن خلال الموسيقا العذبة التي تتداح «بصدى رخيم» كغناء فرح يتردد كتردد صافرات السفن الاحتفالية. وهكذا يشارك الإنسان (أنوار السفن والصافرات) الكون بفرحه (النجوم المزهرة والموسيقا) في جو من البهجة الرائعة فالولادة

---

(١) الدقل، بيروت، دار الآداب، ١٩٩١، الطبعة الثالثة، ص.٣٧-٣٨ (الطبعة الأولى ١٩٨٢) وهي الجزء الثاني من حكاية بحار.

الجديدة تخصهما معاً[1]. ويتبع الطوفان عبر التطهير والحياة الجديدة التي تليه، المنطق نفسه[2]. اللحظات التي تتبع إعصار المرفأ البعيد تعكس حالة مماثلة:

«ويرجع (البحار) ليستسلم إلى البحر، إلى الماء، والمطر، والريح، والزبد الأخضر الذي تصبه السماء من الأعالي، ورماح البروق التي في رؤوسها زهرات من ذهب، وفي الأصباح، حين تمر العاصفة، مخلفة وراءها رعد الفجر المتقطع، يأخذه وجدٌ إلى الصلاة في قلب صمت البحر والضياء الآتي من الجهات الأربع»[3].

كلمات مثل «الصباح» و«الفجر» و«الضياء» تشكل علامات نهاية الظلام والانتصار على الليل وبالتالي على الموت. إنها رموز الاستيقاظ والحياة الجديدة التي تبدأ ومعها الأمل بعالم نقي، طاهر، لا إثم فيه، بعالم بريء. فيما تعطي عبارة

---

(١) لنلاحظ كيف أن ايقاع الجملة يعكس التحول الذي نم. فمن جمل قصيرة ما زالت تحمل آثار العاصفة التي انتهت لتوها («شيئاً فشيئاً تهدأ العاصفة ينقشع الغيوم. تظهر السماء الزرقاء..») وهي كلها جمل من مفردتين أو أربع على الأكثر، ينقلنا الراوي إلى جمل أكثر طولاً، وكأن تقطع الرعود والبروق (تعكسها الجمل القصيرة) قد استبدل بالموسيقا الهادئة المتصاعدة والتي تنساب بشكل متواصل (لاحظ الأفعال: تتصاعد، تنداح).

(٢) الطوفان الذي يخيف بصورته الفظيعة أطفال العائلة في بقايا صور، برغم أنه يوحي بموت رهيب يعطي للحياة فرصة لأن تولد من جديد بإحيائه الأمل بولادة عالم أفضل وأنقى، عالم خال من الإثم. من الممكن أيضاً أن تكون رواية قصة هذه الكارثة (الطوفان) على لسان الأم ورغم الخوف الذي توقظه فيها، ربما تكون تعبيراً عن رغبة لاوعية عندها بحدوث تغيير جذري في حياتها، بقيام حدث خارق قادر على قلب العالم البائس الذي تعيش فيه والذي يعذبها بشدة. في ضوء هذا الكلام، ليست ثورة الفلاحين التي تقع فيما بعد بقيادة زنوبا (إحدى الشخصيات النسائية في بقايا صور) هذه المرأة المقهورة كقهر الأم، إلا تحقيقاً لهذه الرغبة الدفينة. بهذا الشكل تصبح ثورة الفلاحين هذه كالشرارة، كالبرق الذي يعلن الطوفان القادم، ويصبح الماء رمزاً للثورة الكامنة الواعدة بحياة أفضل. هكذا يختلط القلق الذي يغذيه الطوفان بنوع من النشوة الفرحة. وفي قصة «الأبنوسة البيضاء» للطوفان الذي يحلم به الرسام بطل القصة قيمة مماثلة.

(٣) المرفأ البعيد، ص ٢٤٤.

«رعد الفجر المتقطع» للنص معنىً جنسياً: إنه دفق الحياة والصرخات الأخيرة التي ترافق المولود الجديد.

وتزداد أهمية ولادة العالم بعد العاصفة عندما تتم في البحر حيث أنها تسمح للبحار بالمشاركة فيها. فصراع هذا الأخير مع اللجة لايهدف فقط إلى انتزاع لقمة عيشه منها. إضافة إلى الحب الكبير الذي يشعر به البحار تجاه البحر مما يدعونا إلى الظن بأن هناك سبباً آخر لهذا الصراع. فالإعجاب الذي يشعر به رجل البحر أمام العنصر المائي يدفعه إلى محاولة انتزاع سره الكامن فيه وهو حياته المتجددة دوماً. البحار يعرف عن يقين بأن الطريق الذي يسير عليه سينتهي ذات يوم لأنّه محددٌ بنقطتين لا محاد عنهما وهما لحظة الولادة ولحظة الموت. لذلك فهو يلجأ إلى الحل التالي: قطع المسافة التي تفصل بين هاتين النقطتين بأكبر عدد ممكن من المرات. وهنا يقدّم له البحر فرصة نادرة، فبين جباله ووديانه التي تشكلها الأمواج في اليوم العاصف ينشر الموت شبكته محاولاً اصطياد الإنسان الشجاع، المتعطش إلى الخلود. أن ينطلق المرء بذاته إلى ملاقاة الموت يعني أنه يحاول ملامسة نهاية طريق الحياة المنكور. بالمقابل فإن النضال ضد هذا الموت وبدون هوادة، هو محاولة للعودة إلى نقطة البداية، إلى نقطة الولادة، واكتساب حياة جديدة. هكذا وبسبب من استحالة الحصول على حياة أبدية، يحاول البحار أن يضاعف قدر المستطاع حيواته. بمعنى آخر، إنه يبحث عن الخلود عن طريق تعدد التجارب. وهكذا فهو «يطأ الموت من جديد» في كل سفر عاصف[١]. ولكي يحقق هذه الرغبة فهو لايتردد أحياناً في استثارة غضب البحر وإيقاظ عواصفه النائمة كي يواجه الموت في عقر داره. واللذة التي يشعر بها آنذاك تشبه كثيراً لذة اللقاء الجسدي مع امرأة. فمياه البحر تتحول عندها إلى شريكة حبّ تشدّ البحار دوماً إليها. والموت الذي تتبعه الولادة الجديدة في قلب المحيط يمكن مقارنته آنذاك بـــ «الموت الصغير» الذي يقاربه المرء عند عناق الحبيب[٢].

---

(١) حكاية بحار، ص ٨٥.

(٢) نحن هنا في قلب نظرية عالم النفس صندور فيرينتزي بهذا الخصوص كما وردت في مقالته:

Sandor Ferenczi: «Thalassa, essai sur la théorie de la génitalité», op.cit. 250-323.

الربيع والتجدد الدائم

بفضل خواصه المطهرة، وبفضل قدرته على منح الحياة للأشياء وللكائنات، يرتبط العنصر المائي بعمق بتجدد الطبيعة: إنه حليف الربيع. يكتب المفكر الفرنسي غاستون باشلار بحق أنه «ليس هناك من اسم يمكن أن ترتبط به صفة ربيعي بعمق كما ترتبط باسم الماء»[١]. وتتم ولادة العالم الجديدة التي يعلنها بدء فصل الربيع في جوّ يسوده الصفاء بفضل مياه الأمطار المطهرة. هذا الجو الذي يسحر سعيد حزوم ويحثه على وصف فرحَة الطبيعة بهذه الكلمات:

«لقد أدهشني البهاء البحري في ذلك اليوم النيساني المشرق، فالمرء لا يكاد يصدق أن هذا الشاطئ المقفر، المرعب في أيام الشتاء، الذي يصدر دوياً هديرياً مخيفاً في الظلمة والريح والمطر، يمكن أن يكون على كل ذلك الأنس والوداعة والبهجة في الربيع، وفي يوم منوّر كهذا، تضحك فيه الطبيعة النظيفة الجديدة، الخارجة مغسولة من فصل الأمطار»[٢].

وتتجلى هذه القدرة المتميزة التي تتمتع بها المياه على الصعيد الإنساني أيضاً عندما تسمح للبشر باستعادة شبابهم. فأمام البحر «يرجعون (أي الناس) أطفالاً، يدعونه يغسلهم، يتعمدون كما في الأردن..» [٣]. صحيح أنّ عبارة كهذه تعكس أول ما تعكس الفرح الطفولي الذي يجتاح المرء أمام الأزرق الكبير، لكن ذكر المعمودية ونهر الأردن يمنح لهذا المقطع معنى أكثر عمقاً. فكل غوص في العنصر المائي يشكل «قطيعة» مع الحياة اليومية، وتغييراً «جذرياً»، على غرار المعمودية بشقيها، النزول في الماء والخروج منه.

---

(١)(١)(١)Gaston Bachelard, L'Eau et les rêves. Essai sur l'imahination de la matière, op. cit. p. 42-43.

(٢) الدقل، ص ١٣٢.

(٣) «الأبنوسة البيضاء» من ديوان القصص القصيرة الأبنوسة البيضاء، بيروت، دار الآداب، ١٩٨١، الطبعة الثالثة، ص ٢٣ (الطبعة الأولى ١٩٧٦).

بفضل الغوص في ماء العماد «يموت الإنسان العجوز» و«يمنح الحياة لكائن جديد، لمولود جديد»[١]. هذه «القيامة» تظهر أيضاً في موضوع الشباب الذي يمنحه «ماء الحياة» و«ينابيع الشباب». مع ذلك فإن البحر يتفوق هنا على أشكال العنصر المائي الأخرى، وذلك بفضل حركة الأمواج الأبدية التي تمنحه شباباً دائماً. فإذا كان كل ما حوله محكوماً عليه بالشيخوخة والعجز، فإنَّ البحر يبقى شاباً ومشرقاً. أليس هو من يمثل «الأزل والأبد»[٢].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو في معرفة إن كان بحر حنا مينه بقادر فعلاً على تجديد حياة بحارته وعلى منحهم الخلود الذي يحلمون به. في الواقع يعيش هؤلاء البحارة مأساة حقيقة بسبب من شعورهم بالشيخوخة. وهم يرفضون هذا المآل ويحاولون التغلب عليه بكل الوسائل. لقد رأينا أعلاه كيف أنهم، وبهدف الحصول على حياة جديدة عبر مواجهة دائمة مع الموت، لا يترددون في التحرش بالمحيط واستثارة غضبه. مع ذلك فنحن نعرف عن يقين بأن الشباب المستعاد هنا يبقى على المستوى الرمزي، الخيالي. بإثباتهم لقوتهم ولقدرتهم على الانتصار على العنصر الطبيعي، يؤكد بحارتنا بأنهم ما يزالون سادة اللجة، وبأنهم ما يزالون يحتفظون بعزم الشباب. لكن على المستوى الفعلي، على مستوى حقيقة الواقع القاسية التي لا يمكنهم الإفلات منها، فإنهم واعون لشيخوختهم. وقد يأخذ هذا الوعي أحياناً شكل صدمة أليمة كما حدث لسعيد حزوم بعد سباقه مع البحار الشاب. هنا تبدأ مأساتهم. يمكننا القول بأن أحد أسباب الأزمة النفسية التي عاشها سعيد، وكذلك السبب الرئيسي لانتحار القبطان اسطفانو، والمرارة التي تنغص على اللجاوي عيشه، كلها تكمن في هذا الاكتشاف الأليم. وإن كان صالح حزوم قد احتفظ في أذهاننا، نحن القراء، بشبابه، فمرد ذلك إلى كونه اختفى دون أن يترك أثراً، مشيعاً بذلك الأمل بعودة محتملة كما لو أن حياته توقفت لفترة ما نجهل طولها وأنها ستنطلق من جديد ذات يوم. وحده الطروسي، رغم سنه!، يحتفظ

---

(1) Mircea Eliade, Traité d'histoire des religions, Paris, Payot, 1949, p. 171-172.

يتطابق هذا التحول في الدين المسيحي مع موت المسيح وقيامه من جديد.

(٢) الدقل، ص ٩٩.

بشباب لا يتغير، كما لو أنّ السنوات لم تؤثر فيه، مما يسمح لراوي الشراع والعاصفة بالقول عنه: «هو من أولئك الذين يطغى استواء رجولتهم على كهولتهم، فلا تبدو الكهولة عليهم، ويستمرون شباباً حتى الشيخوخة»[١]. مع ذلك فإن الراوي يذكّرنا بأن مثل الطروسي كمثل «إنسان اضطر إلى التوقف بين مرحلتين من سفرة واحدة»[٢]. هنا أيضاً يبدو أن الزمن (الروائي، التخيلي) قد توقف كي يسمح للبطل بالحفاظ على شبابه.

ومما يزيد من حدة الشعور بهذه المأساة هو أنَّ فقدان الشباب يترافق بفقدان الحوريات، «عرائس البحر» هذه التي لا تظهر إلا للبحارة الشبان. بعد سباقه مع البحار الشاب، يستلقي سعيد حزوم، منهكاً، على رمل الشاطئ «مدركاً لأول مرة، أنه انتهى كبحار، وانه لن يسابق بعد اليوم، ولن تظهر له عروس البحر أبداً»[٣]. وها هي كاترين الحلوة، سيدة الأمواج هذه التي طالما عشقها سعيد، ها هي تهمس له: «وداعاً وإلى الأبد»، قبل أن تلج الماء وتتلاشى فيه إلى غير رجعة. وقد حاول سعيد السباحة طوال الليل في محاولة يائسة أخيرة للإمساك بها، لكن محاولته ذهبت عبثاً، ولم يحصد سوى الزبد المنسرب من بين أصابعه. إذ إنه من المستحيل استعادة الشباب الضائع. يبدو أن رجل البحر، عندما يشيخ، يصبح غير أهل لعشق هذه المخلوقة الرائعة التي هي صورة البحر ذاته. يجد البحار هكذا نفسه محروماً من الفعل الجنسي الذي يعيد، على طريقته الخاصة، الحركة الدائرية التي تربط الحياة بالموت.

برغم ما رأينا، فرجال البحر العظام، في أدب كاتبنا، يجدون حلاً وتعزية لهم في البحارة الشباب الذين يحلون محلهم وهم غالباً ما يكونون قد تدربوا على أيديهم. فسعيد حزوم يأخذ مكان أبيه صالح، واللجاوي يترك البحر مخلفاً ابنه فيه، والطروسي يغري أحمد الشاب ليشاركه في كتابة حكاية البحر المشرّقة.

---

(١) الشراع والعاصفة، ص ٣٤٠.

(٢) الشراع والعاصفة، ص ١٧.

(٣) المرفأ البعيد، ص ٤٠٠، كذلك حكاية بحار، ص ٣٦-٣٧.

أما الرغبة التي يعلنون عنها جميعاً بالعودة، بعد موتهم، إلى البحر الذي خرجوا منه[١]، فهي تعبير عن تمني هؤلاء الرجال للانحلال في العنصر المائي الخالد، ليصبحوا خالدين بدورهم، بفضل الالتحاق بدورته؟ نحن هنا في قلب الفكرة التي تقول بأن حياة الفرد، كفرد، هي في انفصاله عن الكائن الكلي أو الواحد الكلي كما يسميه الفلاسفة القبل سقراطيين (السابقين لسقراط) وعودته إلى هذا الكائن الكلي هي ذوبان فيه واتحاد معه. حياة الفرد بهذا المعنى تعني أنه زائل بالتأكيد، بينما العودة إلى المنبع الذي أعطاه الحياة تعني خلوده. في الحقيقة يبدو أبطال مينة البحارة وكأنهم منذورون لقدر مائي، وكأنه محكوم عليهم بموت سائل. لكن هذا الموت لا يأخذ كامل معناه إلا في الدورة الأبدية التي تربط الموت بالحياة. ويعكس أدب حنا مينة من هذا المنظور رؤية مادية للعالم. فالعدم الذي يحلم به أبطال مينة ليس فراغاً مطلقاً، ولا غياباً مطلقاً، كما يمكن أن توحي به هذه الكلمة، بل هو عدمٌ مائي إن صح التعبير، إنه بلا شك نقطة انطلاق لحيوات أخرى وبأشكال أخرى[٢].

مهما يكن الأمر، فالعزاء الذي يقدمه الأزرق الواسع لبحارتنا باحتضانه لورثتهم يبقى غير كاف. إنهم يتركون على مضض فضاءهم المحيي، فضاءهم الذي طالما عشقوه وقدسوه والذي احترموا واتبعوا قدر المستطاع قوانينه الأزلية. وبدوره يبدو البحر وكأنه يحب ملاحيه كما يحب الأب أولاده. فهو معجب بشجاعتهم وتصميمهم على محاربة غضبه. لهذا يبدو متأثرا بالمصير الذي ينتظرهم وهو الشيخوخة، فيعزيهم قدر المستطاع: «لا تزعل يا لجّاوي، هذا هو نظام الكون[٣].

---

(١) يقول صالح حزوم لابنه سعيد: «البحر صاحب الدنيا ووالد الأرض. منه، من مائه، انفصلت اليابسة وجفت. هكذا سمعت. وقد صدقت ما سمعت. البحر الوجود. فخذه على أنه كذلك». حكاية بحار، ص ٢٧٤.

(٢) «لا شيء يولد من العدم، ولا شيء يعود إلى العدم، بعد موته» كما يقول هيراقليطس.

(٣) الرحيل عند الغروب، ص ٢٩٦.

يحق لنا التساؤل هنا لمعرفة إن كان هناك تشابه بين ما يعيشه هؤلاء البحارة وحال الكاتب حنا مينة. أليست عروس البحر، كاترين الحلوة، التي تفلت من يد سعيد وتختفي أمام ناظريه في البحر بعد أن أمضى عمره في البحث عنها، أليست تجسيداً لحلم حنا مينة الذي يفلت منه؟ إذ إنّ تصريحات كاتبنا العديدة تنص على أنه رغم كل ما كتب عن البحر وعالمه الواسع فهو ما يزال في المقدمة. هذا الكلام ينم في نظرنا عن بعض شعور بالحرمان سببه استحالة الإحاطة بعالم بهذا العمق والاتساع والتنوع. كما لو كان جوهر البحر، ماهيته، على صورة مائه، يهرب وينسال من بين أصابع الكاتب. وبهذا تشبه تجربة حنا مينة الروائية تجربة سعيد مع كاترين، وربما كان هذا ما يفسر حزن الراوي وتعاطفه الظاهر مع سعيد الذي نلمحه في الكلمات والنداءات الأبوية والمؤثرة جداً التي يتوجه بها إليه.

المياه العاشقة:

علاقة العنصر المائي الوطيدة بالموت والحياة وارتباطه الشديد بكل ولادة جديدة يجعل منه حليفاً لكل علاقة عشق، لكل تواصل جسدي. إذ إنه من المستحيل فصل الحب والجنس عن الخصب وعن كل ولادة. سنرى فيما يلي كيف تتجلى هذه الفكرة في أدب حنا مينة.

يتغنى حنا مينة، بداية، بزواج العناصر بمعزل عن الإنسان، ويحتل البحر في هذا الزواج مكان الصدارة، إذ إن الحب جوهره. وقارئ حنا مينة يسمع البحر يتوجه بأناشيده الفرحة للكون بأكمله، «لليل، للقمر، للنجوم، للسحب وصخور الشاطئ»[(١)]. يبدو البحر عاشقاً للأرض، قبل كل شيء. فمنذ

---

(١) الشراع والعاصفة، ص ١١٢. هل قرأ حنا مينة الكاتب والمؤرخ الفرنسي جول ميشلي عندما يبدي في كتابه البحر إعجابه بالمحيط الذي «يحاور النجوم البعيدة، ويجيب على حركتها بلغته الجدّية والمفخمة، والذي يخاطب الأرض والشاطئ بنبرة مؤثرة، ويحاور أصداءها. والذي يرعد تارة بنبرة مهدّدة أو يتنهد تارة أخرى بصوت شاكٍ؟ راجع كتابه:

Jules Michelet, La Mer, Calmann-Lévy editeur, Paris, 1900, P, 400

الأزل تتغزل بينهما قصيدة حب تلفع العالم بأكمله، في جو من الحنان والعذوبة. إنها صورة للعشق الكوني في أسمى آياته، هذا العشق الذي يغمر كل شيء وهو سابق على كل وجود:

«الليل عذب. ليل الصيف عذب. غبش على البحر. الماء رصاصي، يمتد بعيداً، ومن بعيد، يأتي الموج متدافعاً، وعلى الشاطئ، تخاريم زبد، يترك وراءه، وهو يتراجع. لقد أدى المهمة. قبل اليابسة. من الأعماق، في اندفاعةٍ متواصلة، متوالدة، يأتي الموج: ماذا تريد أيها الموج؟ لا يقول، ثم لماذا؟ لمن يؤدي حساباً؟ أن يعشق فتلك سيرته. هو نفسه عشق (...). جفن الأرض، علّم البحر، أن يتغزل، ومنذ الأزل، بيتاً وراء بيت، ينشد الماء قصيدته لليابسة، وحين يهيجه الشوق، يبعث شفتيه، على ذرى الأمواج، فتأتي وتهمس في أذن الشاطئ، كلمة حب ولا أحلى، وإذ ذاك تتصاعد موسيقى هادئة، مهموسة، تنداح وتتفرق في الهواء»[1].

هناك انسجام تام يسود هذا المقطع ويتعزز بفضل منظومة غنية من العلاقات الداخلية. فالليل الذي تتكرر لفظته هنا مرتين مما يسمح للأشياء بالتواري قليلاً ويخفف حدة الزوايا، هذا الليل يصبح أكثر حضوراً بفض «الغبش» الذي يلفّ البحر بلونه «الرصاصي» وهو لون غامض قليلاً وغير محدد. نحن أمام منظر تتلاشى فيه الحدود بين الأشياء وتختفي معها بالتالي كل عدوانية ممكنة، من هنا هذه «العذوبة» السائدة والتي يؤكد عليها الراوي بتكرارها مرتين: «الليل عذب. ليل الصيف عذب». كل شيء جاهز حتى يُسمع الهمس وحتى «تتصاعد موسيقى هادئة، مهموسة، تنداح وتتفرق في الهواء». انديا ح هذا الغناء الجميل وتبعثره في الفضاء يَسهُل بفضل حركتين مائيتين سائلتين واحدة أفقية، وهي حركة الماء الذي «يمتد بعيداً، ومن بعيد يأتي (...) متدافعاً»؛ والأخرى عمودية على شكل «اندفاعه متواصلة صاعدة من الأعماق». هاتان الحركتان المستمرتان، المتوالدتان، تمنحان للموسيقا التي نتحدث عنها وللقبل التي ترافقها حضوراً أبديا. فـــ «منذ الأزل ينشد

---

(١) حكاية بحار، ص. ٢٢٠-٢٢١.

الماء قصيدته لليابسة» ومنذ الأزل ينشر هذا الحب جواً من السلام والانسجام على الكون. هذا الوئام وهذا التكامل بين الأرض والماء هما أساس الخصب في العالم وسبب فرح الإنسان الذي يوجه دعاءه لهاتين القوتين الطبيعيتين كي توحدا قواهما من أجل خيره[١]. هكذا يبدو وكأن خلاص الإنسان خاضع لوفاق كوني ولجوّ من السلام والسعادة الكونيين حيث البحر والأرض في عناق أبدي. ولا يلبث الإنسان أن يشارك في هذه الوحدة متحولاً من مجرد مراقب إلى عنصر فعال وأساسي. ويتم العبور بشكل غير محسوس تقريباً من الحب بين العناصر إلى الحب الإنساني. ويتم هذا الانتقال بشكل تدريجي كما سنحاول أن نبيّن فيما يلي.

في البداية لا يُذكر العنصر المائي إلا على سبيل المقارنة. فالسيولة والصور التي تولدها تبدو أحياناً وكأنها تفرض نفسها ما إن تظهر علاقة العشق. فمثلاً يرى راوي الفم الكرزي الحب الذي يربط بيرانيك بجوّاد على أنه شيء خارق يشبه «سفراً في بحر الليل، على مركب من الوهم، ممزق الأشرعة، مقطع الحبال، ضائع في متاهة اللجة (...)[٢]. أما أول شعور حب يتملك نفس المراهق في القطاف، فهو «كالموجة الزرقاء الأولى على الشاطئ المحصب (...)[٣]. وفي الشمس في يوم غائم، الفتى، بطل الرواية، وامرأة القبو يرغبان كل منهما بالآخر، لكن أحداً منهما لا يفصح عما في نفسه بشكل صريح بسبب الجو الكهربائي الناتج عن الصراع الاجتماعي القائم بين طبقتيهما. بدلاً من أن تقربهما الواحد من الآخر، فإن الرغبة الجنسية تأخذ شكل صدام وتوتر دائمين تحت قناع من الكراهية الكاذبة. وذات يوم يبلغ الغيظ أوجه، وينقل لنا الفتى المشهد بهذه الكلمات:

---

(١) انظر: ابتهال سعيد حزوم الذي يطلب فيه من البحر أن يمنح الإنسان سمكة ليضيفه إلى قمح الأرض وبهذا تجتمع «أعطيات الماء واليابسة». حكاية بحار، ص ١٠٣.

(٢) الفم الكرزي.. بيروت، دار الآداب، ١٩٩٩، ص ١٨ – ١٩.

(٣) القطاف، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٦، ص. ٢٦٣. وهي الجزء الثالث من بقايا صور والمستنقع.

«اقتربت منها. كنت أفهم ما تريد. لقد فرضت عليّ أن أصرخ في وجهها. كانت تبحث عمن يصرخ في وجهها، لا لتسكت، بل لتصرخ بصوت أعلى. الموجة الغضوب، في اندفاعها المزبد على الشاطئ تتشهى صخراً، عليه تتفتت وتتناثر، ثم تسقط في اليم رذاذاً أزرق ورغاء أبيض. الموجة تفتت الصخرة والصخرة تفتتها. تنتشي عروق الموجة، عروق الأنثى، ويأتي الهدوء، بعد ذلك، كالنوم، بعد شبق مسعور حقق ذاته»[١].

في مرحلة ثانية، يتحول الماء نفسه من مجرد عنصر يُذكر عندما يخص الحديث الحب، إلى حامل لهذا الحب دون أن يتدخل مباشرة في العلاقات التي تقوم في حضوره، أو لنقل بالأحرى، التي تتم تحت إشرافه. فالعلاقة اللطيفة الوليدة بين ديمتريو وراجعة «انبجست، كينبوع، من أشواق كليهما»، ثم «سالت جدولاً متحداً»[٢]. وأحياناً يتحول الشخص الواقع تحت تأثير إله الحب إيروس، أو يحلم بالتحول، إلى غيمة لا تلبث عن أن تصبح مطراً يسقط قطرة قطرة على الدانوب[٣].

في مرحلة أخرى يبدو الماء وكأنه ينطوي على شحنة جنسية حقيقية وهي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر، في كل من يتواصل مع هذا السائل. عملية «التجنيس» التي يخضع لها هذا الأخير تتجاوز في الواقع فضاءه وتؤثر على كل ما حيط به. فالرائحة التي تصدر عن البحر «تهيج الرجولة» في البحار «وتشعل فتيل الشهوة (فيه)»[٤]. وهذا هو السبب في أن رجال البحر يبدون غير أوفياء لنسائهم، باحثين دوماً عن علاقات ومغامرات جديدة. ومما يزيد من ذلك أن لهذه الرائحة سطوة تبدو وكأنه من غير الممكن مقاومتها. لدرجة أن بعض الرجال،

---

(١) الشمس ففي يوم غائم، ص. ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) مأساة ديمتريو.. بيروت، دار الآداب، ١٩٨٩، الطبعة الثانية، ص. ١٨٦ (الطبعة الأولى ١٩٨٥).

(٣) هذا ما يحصل في الربيع والخريف، بيروت، دار الآداب، ١٩٩١، الطبعة الثالثة، ص. ١٩٢-١٩٣ (الطبعة الأولى ١٩٨٤).

(٤) الشراع والعاصفة، ص ٣١٧، ٤٨-٤٩.

الذين يقعون تحت سيطرتها، ينتهي بهم الأمر إلى فقدان ملكة العقل وفقدان كل قدرة على التحكم بأنفسهم. ودليلنا على ذلك ما حصل لسعيد حزوم الذي، بسبب من تأثير رياح البحر المفعمة برائحة الجنس، كما يخبرنا الراوي، رفض الإصغاء إلى نصائح زميله، البحار العجوز المجرب، الذي كان قد حذّره من مغبة التبجح بقوته الجنسية ومن نساء المرافئ القادرة على امتصاص قوة وصحة أعتى الرجال. لكن بطلنا كان واقعاً تحت تأثير طاقة كبيرة «وفحولة تستثيرها يودية المياه المالحة» وهذا ما منعه من تقبل الكلام الحكيم لزميله[1]. وقد فشل فيما بعد في «قهر» عزيزة، حبيبته، في السرير، عزيزة هذه المرأة التي يصفها لنا بأنها نحيفة وهشة للغاية! وكانت تلك أول صدمة حقيقة يتعرض لها. أما جيفرسون، إحدى شخصيات ثلاثية الصين، فإن نوعاً من الجنون قد تملكه بسبب من شبقه ورغبته المرَضيّة بامتلاك جسد ماريلين[2]. يقول لنا الراوي الذي فكر على ما يبدو كثيراً في السلوك الغريب لجيفرسون في محاولة لفهمه: «(...) من المرجّح أن «يود» البحر، المشبع به الأثير، قد أهاج غلمته»[3].

بدءاً من هذه النقطة، يبدو البحر «نداء جسد» في نظر بحارته[4]. ويزيد الكاتب السوري على ذلك فيعلن بأن الجنس لا يمكن فصله عن البحر، كمائه وزبده[5]. وهكذا ينطلق هؤلاء الرجال في البحث عن «مائهم» ما إن يتغلغل

---

(١) الدقل، ص. ١٨٧. انظر كذلك ص ١٨٢ حيث يقول الراوي: «كان البحر، أشد الأشياء إهاجة للرجل، قد بث فيه (في سعيد) من حميّا الفحولة ما جعله يرفض منطلق البحر العجوز».

تتألف هذه الثلاثية من: حدث في بيتاخو، عروس الموجة السوداء، المغامرة الأخيرة. وأحداث هذه الروايات تجري في الصين.

(٢) فتاة إنكليزية نلتقيها في ثلاثية الصين.

(٣) حدث في بيتاخو، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٥، ص.٢٤٣.

(٤) حكاية بحار، ص. ٣٨.

(٥) حوارات وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية، بيروت، دار الفكر الجديد، ١٩٩٢، ص. ٢٠٧ (مجموعة الكتاب الجديد).

إيروس في أجسادهم. بل يكفي أن يكون الماء، نبع المتعة هذا، حاضراً حتى يصبح لقاء الأحبة أعذب، وعناقهم أحر. فأكثر قبل بطلي الفم الكرزي حناناً وأكثر عناقاتهم جمالاً هي التي نشهدها خلال لقاء يجري قرب نبع ماء في عمق الغابة. ويشكل هذا اللقاء إحدى اللحظات الهامة في علاقتهما وغالباً ما يتذكرانه[١].

شخوص آخرون، كمفيد الوحش في نهاية رجل شجاع، يجدون في التماس المباشر مع الماء ونعومته المخملية وانزلاقه إحساساً حقيقياً بالانبساط له علاقة بالشبق. ولا يسع البحر الهائج والمضطرب إلا أن يزيد من قوة الاحتكاك مضاعفاً بالتالي شدة المتعة التي تتولد عن ذلك. هذا هو مفيد يحدثنا عن هذا الشعور بكلمات تذكرنا بما كتبه ميشلي وبشلار بخصوص الإثارة الحسية التي تولدها السباحة وحال السباح التي تتحول من سادية إلى مازوخية:

«البحر جميل، السباحة فرحة، وحين يكون البحر مائجاً تصبح لذّتي مضاعفة. الموج الهادر، الصاخب، يتحدّاك، يصارعك، وفي مثل هذا الجو أجنّ، يجتذبني العراك والتحدّي والهدير، كما يجتذب الإبرة حديد المغناطيس. أرى الأشياء جميلة، مخيفة، جديرة بالمنازلة، فأهجم كأنني ذاهب إلى حفلة رقص، وأمضي سابحاً بعنف، في حركة من الصخب الشديد، حيث أجد نفسي على انسجام تامّ، وفي المكان الذي ينبغي أن أكون فيه، حتى تتروّض قوتي الوحشية، وتصير مطواعة، هادئة، ناعمة مع لذّة من ذلك النوع الذي نحسّه ونحن نمارس عملية جنسية نجريها بأنفسنا على أنفسنا»[٢].

هكذا يبدو البحر بشكل خاص والماء بشكل عام وكأنهما مرتبطان جوهرياً بكل علاقة عشقيه. من الآن فصاعداً يمكن لــ «قارب الحب» أن يتخذ شكل الأمواج، ويصبح في وسع العاشقين بسهولة ضرب المواعيد على «ذرى الأمواج»[٣].

---

(١) الفم الكرزي، ص. ٢٨٥، ٥٤-٥٥، ٧٩.

(٢) نهاية رجل شجاع، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٢، الطبعة الثانية، ص. ٥٦ (الطبعة الأولى ١٩٨٩).

(٣) عروس الموجة السوداء، ص. ١٨٢، ٢٠٥-٢٠٦.

بالرغم من ذلك لا يكتفي الحب الإنساني بالخضوع لتأثيرات الحب الكوني. إذ إنه عندما يتميز بعنفه وحرارته يتمكن، في حركة معاكسة، من تجاوز الإطار الإنساني وعمر العالم الطبيعي والتأثير فيه بدوره. يكفي أن يقوم المراهق في رواية القطاف بضم حبيبته رئيفة لأول مرة، في جو من فرح الشباب وحمياه، كي يستثير المنظر المحيط بهما بأكمله:

«تدفقت الموجة البكر وأفنت نفسها على الصخر. ارتطمت، على الرذاذ الأزرق، هسهست حصى، أطارت الريح الرمل، جُنّ الشاطئ، السماء شقت، ظهرت رؤى، حدثت معجزة، صار كلّ شيء واضحاً، ودونما تجربة، كنت قادراً، وراغباً، أن أقبّلها حتى الارتواء»[1].

وفي حالة العاشقين في المصابيح الزرق، فارس ورندة، كذلك في حالة زكريا المرسنلي بطل الياطر، يسمح لهم حبهم والرغبة الجسدية التي يحسون بها بتعرية الشمس التي تأخذ هنا شكل سيدة جميلة، قبل أن يجعلوها تغوص، ببطء في المنبسط المائي، في ماء الرغبة، الذي سيُخمد حرارتها. بالنسبة لفارس ورندة يجري هذا المشهد في اللحظة عينها التي يصف الراوي لنا فيها الرغبة التي تشد كلاًّ منهما إلى الآخر وحيث كلٌّ منهما يتخيل الآخر عارياً في الوقت الذي تتملكه أفكار ورؤى شبقية. عينا فارس في تلك اللحظة كانتا «(مشدودتين) إلى قرص الشمس الذي تعرى وغاص في الماء حتى منتصفه، بينما رندة متعطشة إلى سماع كلمة ما عن هذا الذي يحسه(...)»[2]. تحتاج نيران الشوق إذاً إلى العنصر المضاد القادر وحده على تخفيف وهجها، وهذا ما تشير إليه وبقوة صفة «متعطشة» التي ينعت الراوي بها رندة. لم يعد ثمة سوى الخاتمة، أي أن يغطس قرص الشمس بأكمله في الماء، حتى تهدأ مخيلتنا البطلين العاشقين، ويهدأ جسداهما المحمومان.

---

(١) القطاف، ص. ٢٩٠.

(٢) المصابيح الزرق، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٦، الطبعة الخامسة، ص. ٢٦٦ (الطبعة الأولى ١٩٥٤).

الكون السابح في هالة من العذوبة الناجمة عن زواج العناصر يشكل مصدر إلهام للحب الإنساني. وبالعكس، عندما يتواجد الحب الإنساني فإن الحب الكوني ينفتح ويزهر. الإنسان يعشق لأن الكون عشق، والكون يهوى لأن الإنسان هوى. هذه الحركة الدائمة في الاتجاهين، بين الإنسان والعالم، تسهّل بفضل فعل العنصر المائي الذي يسمح، كونه يحمل شحنة جنسية كبيرة وكونه مكاناً تسهل فيه كل التحولات، يسمح لأبطال حنا مينة بالتنقل بين هذين المستويين، بين الفردي والجماعي، بين الإنساني والكوني. هناك اذاً نوع من «النفوذية» بين الإنسان والعالم، أو كما يقول جان ليبيس، هناك «تداخل بين الكون الصغير (يقصد الإنسان) والكون الكبير بفضل وساطة العنصر المائي وهذا الانسجام يولد سعادة خاصة»(١).

قدرة الماء على الخلق والتجديد تكمن اذاً في غموض هذا العنصر، في ازدواجيته التي أشرنا إليها، في قدرته على ابتلاع كل شيء لكن دون أن يفنيه نهائياً، بحيث تبقى بذور الحياة القادمة كامنة فيه حتى تحين اللحظة المناسبة. واللحظة المناسبة قد تكون ساعة مخاض مخيفة كما في العاصفة والطوفان، وقد تكون هادئة، تتم في جو من الدعة والسلام. وفي كل الأحوال يكون حنا مينة قد نجح في إظهار أن عواصفه المرعبة وربيعه المزهر والحب الذي يشيع في عالمه وشخوصه ترتبط كلها معاً برباط وثيق، أو لنقل بالأحرى، أن لها جميعها جوهر واحد هو الماء، ماء الحياة.

---

(١) Jean Libis, L'eau et la mort, Editions Universitaires de Dijon, 1993, (Figures Libers), p.55.

الفهرس

الصفحة

القسم الأول

في السياسة وأشياء أخرى

القسم الثاني

مرافئ السيرة وأشياء أخرى

الصفحة

القسم الثالث

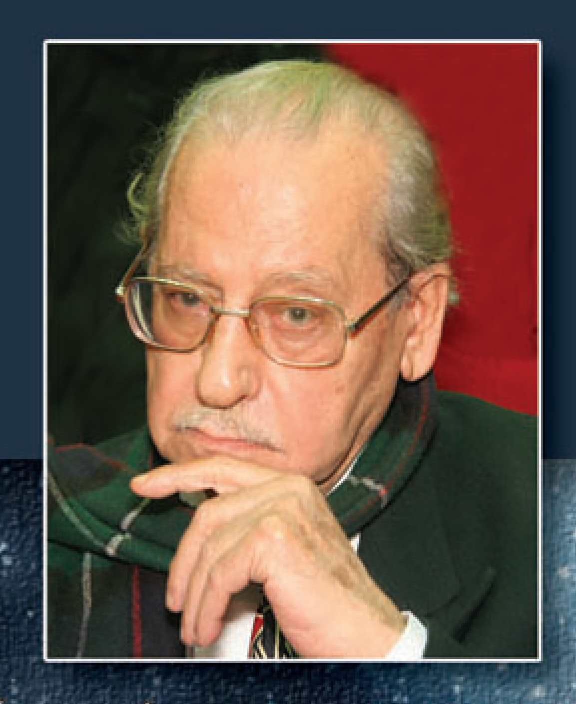
في الكتابة الأدبية والروائية

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



حين كنت في العشرين من عمرك، كنت حلاقاً غير ملتزم، في دكان على باب ثكنة في مدينة اللاذقية، بابها من أخشاب عتيقة، لا تمنع ريحاً ولا تحجب ضوءاً. نعم! هذا ما كنته يا فصيح، يوم كانت الحرب العالمية الثانية تتضرى، وكنت تتساءل، كما غوركي، يا نفس ماذا ستكونين، وماذا يخبئ لك الغد!؟

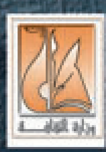
لم يكن لديك سوى الشهادة الابتدائية، المنسية الآن في قاع البحر الأحمر، وقد حصلت عليها من المدرسة «الرشدية» في مدينة إسكندرونة، قبل الهجرة من اللواء السليب، وقد أضعت طفولتك في الشقاء، وشبابك في السياسة، سعياً وراء العدالة الاجتماعية، هذه التي تتحسر الآن عليها، لأنها لم تتحقق، لكنك غير يائس من تحقيقها، لأنها حلم البشرية أزلاً أبداً.

كنت، أيها المأفون، ترغب في تغيير العالم، ودون أن تعرف ما هي الكتابة، كتبت خربشات أسميتها مسرحية، أنت بطلها، وفيها تغير العالم في ستة أيام، وفي اليوم السابع تستريح، وقد ضاعت هذه المسرحية، وأنت غير آسف عليها، لأنك لا تأسف على ما فات، وتتطلع أبداً إلى ما هو آت!

الفقر نوعان: أبيض الذي تعيشه الآن، وأسود الذي عشته منذ وعيت الوجود، حين كنت عرياناً إلاّ من خروق تستر لحمك، وكنت حافياً، جائعاً، تبحث عن اللقمة، وفي سبيلها عملت أجيراً عند مؤجر دراجات، وأجيراً في صيدلية، وأجيراً مربياً للأطفال، وأجيراً عند حلاق، تعلمت لديه مبادئ المهنة، وحمالاً في المرفأ، وبحاراً، أو أجير بحار، على مركب شراعي، لمدة قصيرة، رأيت فيها الموت يحدق فيك، بعيون باردة، خلال العواصف، وما أشدها في الشتاء!

حنا مينة





www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٣٢٠ ل.س أو ما يعادلها